

محمود الخفيف

تولستوي

فترمة القلم الشوانخ في أرب لغة الدنيا قربة و حديثه

obeykandl.com

مقدمة

قمة من القمم الشوامخ في أدب هذه الدنيا قديمه وحديثه ؛ ذلك أصدق ما يوصف به تولستوى في جملة ؛ قرأت أول ما قرأت لهذا المارد الجبار قصته الكبرى « الحرب والسلام » ثم قرأت بعدها قصته « أنا كارينا » ، فإذا بي منهما حيال حياة بكل ما في الحياة من حركة ومعنى لا حيال سطور على ورق ... وأحسست لأول وهلة سر العبقريّة يستعلن في كل صفحة ، وذلك في صورة من التعبير تقرأ ولا توصف ، فهي تدق عن كل وصف ، وتتسع عن كل تحديد ، وتسمو عن أن تسمى بالفن فحسب ، ولا عجب أن سلم أكثر النقدة أنهما أعظم قصتين في القرن التاسع عشر ، بل لقد ذهب بعضهم إلى أن أولاهما أعظم قصة في أدب الدنيا كله ، ولقد جمع تولستوى فيهما بين الحياة الإنسانية بوجه عام وبين الحياة الروسية بوجه خاص ، وذلك في صورة لا تتيسر إلا لمن كان له مثل عبقريته وأصالته . وحلني إعجابي بالقصتين على قراءة آثاره جميعاً ، ثم دفعني هيامي بتلك الآثار إلى مصاحبة هذا الساحر العظيم ، فقرأت حياته في أكثر من كتاب مفصل ، فإذا هي كقصصه حياة متشعبة الجوانب بالغة الروعة ، فهذا الرجل الذي يحمل لقب « الكونت » يتخذ مثله العليا من حياة الجماهير ؛ ثم إن هذا الأبيقوري الشاب ينتقل إلى زاهد مصلح فيصل إلى مرتبة تجعله أسمى من أن يكون مصلحاً وأدنى من أن يكون نبياً ؛ ثم إنك ترى فيه المفكر الفيلسوف ، والشاعر التخيل ، والمؤمن المبشر ، والمتشكك المنكر ، والأرستوقراطي المتعالي ، والفلاح المسكين ؛ وإنك لترى آخر الأمر هذا الكونت العظيم الثراء وقد بلغ في قومه مكانة لم يتعلق بها وهم أديب قبله ، وبلغ في العالم منزلة لم يتبوأ مثلها إلا الأفذاذ القلائل ، يهرب من بيته في الثانية والثمانين من عمره رغبة منه في أن يقضى أيامه الأخيرة في عزلة وفي فاقة .

ولم يكن تولستوى رجل فن وداعية إصلاح اجتماعى فحسب ، بل كان كذلك مصلحاً دينياً ، فقد انقطع للتفكير فى الدين وما يتصل به ما يقرب من عشر سنوات منذ أن فرغ من كتابة قصته أنا كارنينا ، وكان إذ ذاك فى أواخر العقد الخامس من عمره ، ولقد نفّض يده من الأدب ليتفرغ لما كان يشغل باله ، بل لقد صرفه شكه وحيرته عن كل شيء ، الأمر الذى أزعج ترجميف وأحزنه ، فقد مضى على صاحبه نحو خمس سنوات منذ أن هجر الأدب ، فكتب إليه ترجميف وقد أحس فى نفسه أنه يدنو من الموت يخاطبه بقوله « يا شاعرنا العظيم ، يا لسان هذه الأرض ، أرضنا الروسية ، عد إلى الأدب فهو موهبتك الحقيقية ؛ اسمع توسل رجل يموت » .

ولم يعد تولستوى إلى الأدب إلا بعد أن خلس من شكه وعاد إلى إيمانه ، فأضاف إلى شخصيته جانباً عظيماً ، جعل له مثل مكانة الأنبياء وإن لم يك نبياً . وتأثر عصره أكبر التأثير بفنه ، وبارائه فى الاجتماع ، وبتعاليمه فى الدين ، وامتد به العمر فزاد ذلك فى مكانته حتى صار مقخرة روسيا الكبرى ، وحتى سلكه النقاد فى القلة الأفاضل من قادة البشرية

رجل هذه مكانته ، يهون كل جهد فى سبيل درسه وتقديمه لأبناء هذا الشرق بلسان عربى ، وما أحسب ما كتب عنه فى العربية حتى اليوم إلا دراسات قصيرة لا تحيط بجوانب حياته ؛ والذين يقرأون غير العربية قد يصعب عليهم أن يجدوا بفتيمهم فى كتاب واحد ، ولعل بهذا الكتاب ، قد يسرت لهؤلاء وهؤلاء سبيل معرفتهم بتولستوى ، ولعل فى شبابنا النواهض من يشمر لأتمام ما عسى أن يكون فى هذا الكتاب من نقص ، ثم لعل فى أدبائنا من يجب تولستوى إذا درس حياته حياً يجعله ينقل إلى العربية أهم آثاره ، فما يجدر أن تبقى لغتنا خالية منها حتى اليوم ... يومئذ أجدنى بلغت بكتابى هذا ما أردت ويومئذ أجد العوض خير العوض عما عانيت من جهد وعما بذلت من وقت .



تولستوى في أوائل العقد السادس من عمره

obeykandl.com

طفولة ونسب

أطل من نافذة قصر أنيق علي مرتفع في ضيعة ياسنايا بوليانا الجميلة ، طفل في الخامسة من عمره ، وقد أعجبه ذلك المنظر البهيج من حوله ، ذلك المنظر الذي ألفتة نفسه ، وباتت تأنس به روحه ، ويتعلق بجباله حسه .

كان الطفل يمد عينيه الصغيرتين الحالمتين إلى كل ما يحيط به ؛ إلى الغابات التي تتناثر هنا وهناك ، وإلى النهر الذي تتثنى صفحاته بين هاتيك الغابات فيظهر لعينيه جزء منه وتتوارى خلف الشجر أجزاء ، ثم إلى القرية الهادئة التي تتراءى لعينيه من بين الخائل ، تحيط بها على مقربة من النهر برك صغيرة وأخرى كبيرة ، وتبدو كنيستها المتواضعة بجانب الأكواخ والعشش الصغيرة المبنية من الطين وجذوع الشجر ، والتي يفصل بينها طريق عمريض هو طريق القرية الرئيسي ؛ ثم يمد الطفل عينيه إلى ذلك الطريق البعيد الذي سمع عنه فيما سمع أنه ينتهي عند مدينة تولا على مسافة عشرة أميال إلى الشمال ، وهي مسافة يصورها له خياله طويلة بعيدة ؛ ولم يتمنى أن يرى مدينة تولا هذه التي يسمع عنها وعن حياتها الشيء الكثير . وثمة طريق آخر يمتد إليه بصره هو الطريق المؤدى إلى كيف ، تلك المدينة التي يذكر اسمها الناس في احترام وتقديس ، والتي يتقاطر إليها الحجيج مارين بضيعة أبيه في هذا الطريق القديم ...

وإذا رد الطفل بصره وقع على الطريق المنحدر من القصر ، تحيط به أشجار الليمون ويقوم على جانبي مدخله برجان أبيضان جميلان . ولم يكذب تحول الطفل ببصره عما يرى حتى مشى في صفحة وجهه سحابة خفيفة من الهب ، فقد تذكر أن عهده باللعب قد انتهى كما أخبرته العمه تاتيانا ، وأنه من غده سيدخل حجرة الدراسة كل يوم في ساعة معينة من النهار فلا يبرحها إلا متى شاء معلمه أن يطلقه ... وهو منذ تلك السن يكره القيود كرهاً شديداً ، فكيف يطيق حجرة

الدراسة ويطيق أن يأتمر بما يقضي به المعلم؟ ذلك ما كان يكرب نفسه الصغيرة، بعد أن أخذ ذلك المنظر بتجامع عينيه، فهو يطل على مسارح لعبه ومجال حرите تحت هاتيك الخائل، وفي فناء ذلك القصر .

ولكن الصبي يعود فيذكر أن لا بأس من حجرة الدراسة وما فيها؛ أو ليس معنى غدوه إليها أنه يغدو كبيراً فقرأ ويكتب كما يقرأ إخوته ويكتبون؟ فلا يدل عليه أحدهم بشيء ينقصه ولا حيلة له في هذا النقص، ولا يفاخره منهم أحد بكتبه ودفاتره، فسوف تكون له كتب ودفاتر؛ وتطيب نفس الصبي بهذه الأفكار فهو يكره أشد الكره أن يتفاخر عليه أحد، أو أن يشعر أنه دون من يحيطون به . وكثيراً ما دمعت عيناه غيضاً إذ يرى لغيره من دواعي الفخر ما ليس له . وهو سريع البكاء إذا غيظ لأنه لا يحب أن يغيظ أحداً . فليقبل إذاً على حجرة الدراسة في غير نكد، بل ليقبل عليها في ارتياح . هكذا توحى إليه كبرياء روحه الصغيرة، وإنه منذ صغره لذو كبرياء، وإن كان إذا غضب سريع البكاء وكان للطفل واسمه ليو، ثلاثة إخوة أكبر منه، وأخت هو أكبر منها . أما إخوته فهم : نيقولا وكان يكبره بخمسة أعوام، وسيرجي وكان يكبره بعامين ونصف عام، وديمترى وكان يكبره بعام وأربعة أشهر، وأما أخته فهي ماريا، وكانت دونه بسنة ونصف سنة .

وكانت تعيش مع صغار الأسرة بنت ليست منها، وهي بنت سفيحة لأحد الأصدقاء المقربين من عميدها، وكان أبناء الأسرة يحسنون معاملتها كما لو كانت أختاً لهم، وماذا تصنع غير ذلك نفوس بريئة كهاتيك النفوس التي لم تدر بعد لئوم الحياة؟ . . .

هؤلاء هم أفراد الأسرة الصغار؛ فأما الكبار ففي مقدمتهم أبوه، ثم تأتي بعد أبيه العمة تاتيانا، ولم يعرف الصبي منذ بدأ إدراكه أماله غيرها، فقد مايت أمه كما يذكر أحياناً أخوه نيقولا في همس وحزن، عقب مولد أخته الصغيرة بأيام .

وهناك جدته لأبيه وهي تعيش في هذا القصر منذ مات زوجها ، ثم عمته ألين التي جاءت لتعيش في حماية أخيها بعد أن أصيب زوجها بالجنون ، فقد بلغ به الجنون أن أطلق الرصاص ذات يوم على صدرها . وكانت ألين هذه عمته حقاً ، أما تاتيانا فكان يناديها بالعمة كما يفعل إخوته ؛ ولكن نيقولا يفهمه ذات مرة أنها ليست عمتهما فهي ليست أختاً لأبيهما ، فيعجب ليو لماذا إذاً يدعوها الجميع عمتهم ؛ ولا يدرك مكانها من أبيه ولا موضعها من الأسرة ، ولعل نيقولا كذلك لم يكن أقل منه جهلاً بهذا الأمر . وكيف يتسنى له أن يعرف أن أباه أحبها في صدر شبابه وأنها أحبته ولكنها أفسحت له الطريق ليتزوج بسيدة غنية يصلح بثروتها حال معيشته ، إذ رأت منه هذا الميل على الرغم من حبه إياها حباً وثقت منه ؛ وكانت تلك السيدة الغنية هي أمه ، فلما ماتت أمه عاد أبوه يطلب يدها فرفضت أن تتزوجه ولكنها وعدت أن تكون أمّاً أخرى لابنيه ، وها هي ذى تبر بو عدها فتكون لهم أمّاً في مكان أمهم .

لم يكن يعرف ذلك نيقولا مفصلاً هذا التفصيل فما يجدر أن يتحدث إلى الأطفال بمثل هذه الأمور ، وحسب أولئك الأطفال أنها تحبهم وأنهم يحبونها حباً شديداً ، وعلى الأخص ليو ، فقد كان شديد الحب لها قوى التودد إليها .

على أن عطف العمة تاتيانا عليه لم يشغله منذ هذه السن الباكرة عن التفكير في أنها ليست أمه ، وإن كان يرى منها مثلما يرى الأطفال من أمهاتهم ؛ وإنه ليسأل نفسه أين أمه ؟ لقد ذكر له نيقولا مرات أنها ماتت ؛ وإنه ليرى على وجهه نيقولا أمارات الغم كلما أشار إلى ذلك ، ويرى كذلك دلائل الرهبة والأم . فما هذا الموت الذي حرمه من أمه ؟ إن خياله يصوره له شيئاً كريهاً مخيفاً وإنه ليخاف من اسمه وينفر ، ولكنه لا يدري ما هو .

وإن الطفل ليرهف أذنيه كلما تحدثت متحدث عن أمه ، ولئن كان يحزنه أنه لم يرها فإنه يطيب نفساً بما يسمع من صفاتها والثناء عليها ، وإنه ليجد من عطف عمته تاتيانا ما يخفف حزنه ؛ ثم إنه ليزداد حباً لهذه العمة كلما سمعها تذكر

بالخير أمه ، وتظهر الأسف على فقدها بكلماتها أو بما يبدو من صور الهم على ملامح وجهها ...

وتقع عينا الطفل في القصر على عدد من المربين والمربيات ، ومن الخدم على اختلاف مراتبهم وتنوع أعمالهم ؛ ويجد لأبيه السيطرة على هؤلاء جميعاً ، فما يلقاه أحد منهم إلا بعبارات التجارة وتحيات الاحترام ، فيداخل نفس الطفل شعور الفخر بجاه أبيه وعظمته ؛ ثم إنه إذا مثل بعض هؤلاء الفلاحين الذين يسكنون القرية القريبة بين يدي أبيه ، رآهم يحنون رؤوسهم خاشعين ، ويخاطبونه بألقاب السيادة والعظمة ، والسعيد منهم من ظفر بلثم يده إذا شاء أن يمدها إليه ، ويعجب إذ يرى أباه يخاطبهم أحياناً في ازدراء ويعنف عليهم في لهجة الأمر والنهي ؛ ويتساءل الصبي بينه وبين نفسه لم يترفع عليهم أبوه هذا الترفع ، ولم لا يعاملهم كما يعاملونه ؟ ولكن نيقولا يخبره إذا سأله أن الفلاحين في الضيعة كلها ملك أبيه وملك أجداده كما حدثته بذلك العمة تاتيانا .

على أنه يعلم فيما يعلم أن القصر والضيعة كانا من أملاك أمه ورثتهما عن أسرة فولكنسكي ، ولكن رأسه الصغير لا يتسع لما يقال عن نسب أمه ونسب أبيه ، وإن أخاه نيقولا نفسه الذي كثيراً ما علمه ما لم يكن يعلم ، يبدو منه العجز والتناقض إذا تحدث عن هذا النسب ، ولا تحدثه العمة تاتيانا عنه إلا بقدر ما تعتقد أنه يفهم .

لم يكن يستطيع الطفل في تلك السن أن يدرك حديث نسب أبيه ونسب أمه ، فإنه حديث طويل وتاريخ قديم ..

كان بطرس أندروفتش تولستوى أول فرع سامق من فروع أسرة تولستوى التي نبت أصلها في ألمانيا من زمن بعيد ؛ وقد بدأ سموق هذا الفرع في عهد العاهل العظيم بطرس الأكبر الذي ولى أمر روسيا في أواخر القرن السابع عشر .

حارب بطرس أندروفتش تولستوى في معركة أزوف عام ١٦٩٦ ؛ وأرسله القيصر بعد ذلك إلى أوروبا ليتعلم بناء السفن ؛ وفي مستهل القرن الثامن عشر

عينه سفيرا لروسيا لدى الباب العالي ، ولما اشتبكت الدولتان في حرب عام ١٧١٠ أُلقي به في سجن الأبراج السبعة ، وكان يلتقي فيه السلطان بالسفراء الذين يكون بينه وبين دولهم حرب ، ولما عاد بطرس إلى بلاده عام ١٧١٤ وصل إلى منصب الوزارة ...

ولم ينس العاهل الجبار بطرس الأكبر صنيع وزيره هذا حين أرسله إلى إيطاليا ليعود بابنه أليكسي ، وكان قد هرب من بلاده خوفاً من غضب أبيه عليه لما كان من معارضته إياه في إصلاحاته ، ولم يزل به ذلك الوزير الماكر يغريه ويمنيه ، ويستعين عليه سراً بخليلته حتى عاد به إلى روسيا حيث أسلمه إلى الموت نكال أبيه ، وجزى بطرس رسوله بالمال والضياع المترامية . ومما يروى عن القيصر العظيم أنه في أواخر أيامه كان يمس بكفه رأس وزيره قائلاً : « أيها الرأس ! أيها الرأس ، لولا ما أنت عليه من مهارة لمضي اليوم زمن طويل على الإطاحة بك من فوق كتفيك » .

ويأتي دوران الفلك إلى عرش روسيا بنجل أليكسي ، فيكون أول ما يعنى به القيصر الجديد أن يقتص من ذلك الذي خدع أباه حتى جره إلى مواطن الختف ، ولئن سقاه أمس جده الكأس عسلاً فإنه هو اليوم يجرعه إياها علقماً ، فقد جرده من ألقاب شرفه ونفاه إلى أركينجل نفيًا لم تكن منه عودة ...

على أن ذلك الفلك الدوار يضع على العرش عام ١٧٤١ القيصرة إليزابث إبنة بطرس الأكبر فتد إلى أسرة تولستوى شرفها وضياعها في شخص أندرو إيثانوفتش تولستوى ، حفيد ذلك الذي قضي نحبه في أركينجل .

وينمو من هذا الفرع الجديد السامق فرع هزيل رخو، هو ابنه إنيا تولستوى، فلقد كان ماجناً مستهتراً ضيق العقل ، بسط يده كل البسط في ثروته العظيمة فبددها ، ثم بدد بعدها ثروة زوجته الغنية ، ولولا أن تداركه بعض ذوى النفوذ والثراء من أقربائه لحاق به سوء ما فعل ، فبفضل هؤلاء عين إليها تولستوى حاكماً لقازان واستطاع أن يسترد بعض ما فقد ...

ورزق حاكم قازان بسلام سماه نيقولا ، وترك له بعد موته ما بقي من أملاك الأسرة ، وفي عهد نيقولا هذا وهنت ثروة الأسرة وهنا شديداً ، ولكن لم تكن له يد في ذلك وإنما حدث هذا بسبب غيابه إذ أسره الفرنسيون ؛ وكان لم يتجاوز الثامنة عشرة أثناء حملة نابليون على روسيا ، وظل سجيناً بفرنسا حتى غلب نابليون على أمره فأطلقت سراحه جيوش الحلفاء الظافرة بعد دخولها باريس ... ولم يجد نيقولا ما يرأب به ما تصدع ويصلح ما فسد خيراً من زواجه بذات ثراء ، وتم له ذلك بزواجه من ماري فولكنسكي العظيمة الثراء الكريمة المحتد .

وكان لأسرة فولكنسكي إلى الثروة وعراقة الأصل ، الشمم والبطولة وقوة الروح ، واستقلال الرأي ، وصرامة العزم ، فتلك خلال ظهرت فيها كلها أو بعضها ، ومن هؤلاء تائر اشترك في ثورة الديسمبريين وعوقب بالنفي ثلاثين عاماً في سيبيريا حيث صحبته زوجته عن طوع ، ومنهم ابن عم له خاض المعارك ضد نابليون في حماسة وبسالة أعجب بهما نابليون إعجاباً حمله على أن يرسل في طلبه وهو جريح أسير وعرض عليه أن يرد إليه حرّيته ، إذا قطع على نفسه عهداً ألا يحاربه مدة عامين ؛ ولكنه رفض هذا العرض في شمم وكبرياء ...

وعرفت كذلك أسرة فولكنسكي بصلة النسب بين كثير من أفرادها وبعض ذوى المقدرة الفنية من المؤرخين والأدباء والنقاد والشعراء ، وكانت تربط ماري فولكنسكي وشأخ الرحم من مُبعد بشاعر روسيا الأكبر بوشكين .

وكانت ضيعة ياسنايا بوليانا من نصيب ماري فولكنسكي عند زفافها إلى نيقولا تولستوى ، نالها من أبيها كما نالت ذلك القصر الأنيق الذي استقرت فيه وزوجها عقب زواجهما ، وكان ذلك القصر الأنيق الذي تستوقف الأعين أخشابه الزاهية اللون في وسطه ويمتد جناحاه الحجريان العظيمان يمنة ويسرة إلى مسافة بعيدة ، يقع فوق مرتفع على مقربة من الضيعة . وفي اليوم الثامن والعشرين من شهر أغسطس سنة ١٨٢٨ ولد فيه ذلك الغلام الذي يقف الآن وهو في الخامسة من عمره ، يطل من شرفته على الضيعة والنهر والغابات والقرية القريبة ، ويذكر

ما أخبرته به العمّة تاتيانا في رفق وهو أنه لم يعد بعد صغيراً وأنه سيدخل حجرة الدراسة من غده فلا يبرحها إلا متى شاء معلمه أن يطلقه .

دخل ليو حجرة الدراسة وأسلم إلى مرب يعلمه ويقوم على تنشئته ، وكان هذا المربي ألماني الجنس وهو تيودور رويسل ، وكان من عادة سراة الروس أن يختاروا لأبنائهم مربين من الأجانب ليعلموا هؤلاء الأبناء اللغة الأجنبية التي تراد لهم ، وهم صغار ، وذلك بالحوار والمرانة لا بالقراءة في الكتب فحسب ، ولقد كان تيودور رويسل هذا من الشخصيات التي تأثر بها الصبي تأثراً شديداً منذ دخل حجرة الدراسة ، والتي ظل أثرها عالماً بنفسه مدى حياته الطويلة ؛ إذ كان المربي مستقيم الخلق كريم الطبع عطوفاً على تلميذه في غير ضعف ، شديداً عليه في غير عنف ، مخلصاً في عمله إذا هم بأداء واجب ، لا يبخل بمجهد يرى فيه صلاح تلميذه مهما أرقه هذا الجهد ؛ وبهذه الصفات الطيبة أو بهذه القدوة الحسنة أثر المعلم في تلميذه . وهيا الجو الصالح لنمو الصفات الطيبة في نفس ذلك الصبي .

فإذا انطلق الطفل من حجرة الدراسة كانت العمّة تاتيانا أول من يلقي ، فما يطيق البعد عنها ، وإن حبه إياها ليصغر دونه كل حب ، وإن أثرها في نفسه ليقل عنده كل أثر ، وسيكبر الصبي ويخرج من نطاق البيت إلى مضطرب الحياة ويظل أثر العمّة تاتيانا قوياً في نفسه ، ويظل شخصها حياً في حسه ، وتظل صورتها ماثلة في خاطره . وسيعبر عن هذا كله فيما يتناوله قلمه من ذكريات الحياة ومشاهدها . تجد مثلاً لذلك في قوله : « إنى لأتذكر ذات يوم وأنا ابن خمس كيف اندست خلف أريكة كانت تجلس عليها في الثوى ، وكيف مدت إلى يدها ومست جسدي في حنو ورفق ، وكيف أمسكت بيدي تلك اليد وقبلتها ودموع الحب في عيني ... لقد كان للعمّة تاتيانا أعظم الأثر في حياتي ، فنذ الطفولة الباكرة علمتني كيف تكون بهجة النفس في روحانية الحب ، واقد علمتني هذه الفرحة لا بكلامها فحسب بل إنها ملأتني حباً بكيانها كله . لقد رأيت ولقد

أحسست كيف كانت تمتع نفسها بنعمة الحب ، ومن ذلك فهمت بهجة الحب ، وهذا أول ما علمتنيه . ثم إنها بعد ذلك علمتني نعيم الحياة المطمئنة الهادئة .

وحق له أن يحب هذه السيدة التي يدعوها عمته كما يفعل إخوته ، والتي تقوم منهم جميعاً مقام الأم وقد حرموا من أهم . وكان ليوم منذ صغره مرهف الحس متقد العاطفة تأسره الكلمة الطيبة ، وتثيره الكلمة القاسية فما يملك أن يجبس دمه ؛ وعرفت عمته تاتيانا كيف توحى إليه ما تحب من المعاني العاطفية ...

وليس يذكروا ليوأمه فقد ماتت وهو دون الثانية بقليل ، وكانت سيدة كرمة المحتد نبيلة الخلق عالية الثقافة ، تقية رحيمة القلب ، مرهفة الحس ، مهذبة الذوق ، تتكلم خمس لغات ، ولها بالموسيقى شغف عظيم ، ولها مقدرة ملحوظة في العزف علي البيان ، وموهبة في سرد القصص جعلت لها شهرة عظيمة في هذا الباب حتى لقد كانت في حفلات الرقص تجتذب إليها كثيرين ممن يفضلون أن يستمعوا إليها على أن يشهدوا ما يدور في تلك الحفلات ؛ وكان الطفل يستمع إلى سيرتها في اهتمام كلما تحدثت عنها الخدم أو تحدثت عنها العمه تاتيانا ، فتقوم في ذهنة صورة لها تطمئن لها نفسه وبيتتهج فؤاده ، وتظل هذه الأحاديث تهجس في خاطره فترداد صورة أمه وضوحاً في نفسه كلما تقدم به العمر ، فإذا كتب عن أمه غداً فيما يكتب ، قال : « لست أذكر أمي ؛ لقد كنت ابن سنة ونصف حين ماتت ، وبسبب مصادفة عجيبة لم تحفظ لها صورة ، وعلى ذلك فلا أستطيع أن أرسم في خيالي صورتها المادية . وإني انفرح بهذا من وجهة نظر ، هي أن ما يقوم بذهني لها إذ أتصورها إنما هو صورتها الروحية ، وكل ما أعلمه عنها من هذه الناحية جميل ، وأظن أن ذلك لم يكن مرده إلى أن من يتحدثون عنها لا يذكرون لي إلا الخير ، وإنما كان مرده إلى أن نفسها كانت تنطوي علي كثير من الخير حقاً . »

ويبقى في ذاكرته من أحاديث الناس عنها الشيء الكثير ، ولكنه معجب بصفة من صفاتها يراها خير الصفات جميعاً ويشير إلى ذلك في قوله « إن أرفع خلاها قيمة هي أنها كانت علي حرارة مزاجها وسرعة تأثرها تضبط نفسها أبداً ،

وولقد يحمر وجهها ولقد تبكى كما أخبرتني خادمتها ، ولكنها لا تلفظ قط لفظه نائية بل إنها لا تعرف واحدة من تلك الكلمات ، ، ويقول عنها كذلك « إنها كانت تبدو في خيالي مخلوقاً علوياً روحياً طهوراً ، وبلغت من ذلك حداً جعلنى فى الحقة الوسطى من عمرى إبان جهادى ضد المغريات والوساوس القاهرة أتجه إلى روحها مصلياً ، مبتهلاً إليها فى صلواتى أن تأخذ بيدي . ولقد كان لي فى أكثر الأحيان فى هذه الصلوات كثير من العون » .

ذلك أثره فى نفسه وإن لم يرها ، أما أبوه فقد كان يحس ليوطيب قلبه وشدة عطفه على أبنائه ، وكان يحب قصصه التى يتلوها عليهم أثناء الطعام كما كان يراه رفيقاً بهم لا يعنفهم على زيادتهم ولا يضيق بهم إذا دخلوا عليه حجرة مكتبه ؛ وكان يعجب ليو بوجاهة أبيه وأناقته ملبسه إذا تاهب للذهاب إلى المدينة ، وبمهارته ونشاطه وجمال طلعتة إذا خرج للصيد . وكم كان ينظر إليه فى إعجاب ومحبة وهو جالس فى مكتبته وحوله عن قرب خدمه وكلاب صيده . كم كان يداخل الطفل شعور الإعجاب به لما يرى من هيئته ؛ واستطاع خياله الناشئ واستطاعت عيناه الصغيرتان أن تنفذا إلى سر تلك الهيبة ، وهو احترام الرجل نفسه وصونه كرامته فما يطأطأ أبوه رأسه أو يخفض صوته أو يغير لهجته لذي أى كبير من الحاكين مهما علا مقامه ؛ ثم إنه يفتن إلى معنى آخر يحجب أباه إليه ، وذلك أنه على ترفعه واستكباره أحيانا على الزراع ، يعطف عليهم فلا يرضى لهم بالعقوبة البدنية ولا يحب أن يرهقهم بالعمل ، فإذا حدث لهم شيء من ذلك كان على غير علم منه ، وإذا علم بشيء منه نهى عنه واشتد فى النهى وأخلص فيه .

وسيرت ليو صفات أبيه فيكون عطوفاً رؤوفاً يكره العنف على الزراع ، ويحب أن يعلمهم ويخرجهم من الظلمات إلى النور ؛ ولكنه كذلك سوف ينشأ معتداً بذاته ، كثير الذهاب بنفسه ، سريع الميل إلى ازدراء غيره ، ومهما حاول التغلب على تلك النزعات فى طبعه غلبته على أمره فى كثير من المواقف فيزهى ويتكبر ، ولا يقوم فى نفسه إلا شعوره بما نشأ فيه من أيامه من دلائل العظمة والثراء وعراقه الأصل

وحسبه أن ليس هناك في ياسنايا يوليانا وما حولها قوم لهم السيادة والجاه منذ عهد بطرس الأكبر إلا آل تولستوى .

وأحب ليو إخوته حباً شديداً وأحب اللعب معهم كلما أطلقهم الربى من حجرة الدراسة ؛ أحب أكبرهم نيقولا لأنه يعلمه كل شيء ، ولأنه عطوف عليه ، مرح ، فكه الحديث ، يراه ليو لا يبارى في سرد الحكايات والقصص الجميلة وفي رسم الصور المختلفة الأشكال والألوان ، وأحب سيرجى لوجهه منظره ، وأعجبه منه حبه الفناء واللهو وكبرياؤه وعدم مبالاته بما عسى أن يقول عنه القائلون ؛ أما ديمترى وهو أقرب الثلاثة إليه سناً فكان يأنس بهدوئه وابتسامته الحلوة وعاطفته الرقيقة ...

وكانت من أحب الألعاب إليه تلك اللعبة التي ابتكرها نيقولا ؛ فقد أسر إليه أنه اهتدى إلى نوع من السحر يستطيع به أن يجعل الناس جميعاً على ظهر الأرض أحبباً بعضهم لبعض ، وأن سحره هذا منقوش على غصن أخضر دفنه في مكان ما بالقرب من موضع حدده لهم ، ثم دعاهم إلى الجلوس معاً جنباً إلى جنب في بقعة صغيرة يظللهم سقف واحد كما تفعل النمل لتكون لهم مثل أخوة النمل ومحبة جماعته ، فأقبلوا حيث تلاصقوا تحت غطاء من القماش وضعوه على بعض الكراسي وتضحكوا في تعاطف ومودة ، وأخذ يحدثهم نيقولا أنه بالحب المشترك المتبادل يستطيع الناس أن يكونوا إخوة ، وهكذا صارت هذه اللعبة من أحب الألعاب إلى الأخوة ؛ ولكم تجمعوا تحت خوان أو في ركن من الأركان ومثلوا أخوة النمل ، وأحدثت اللعبة أثرها في خيال ليو ووجدانه ، فقبل أن يبلغ السادسة من عمره يستقر في نفسه حلم لذيذ عن عالم جديد يرتبط فيه الناس بعضهم ببعض برباط الحب والمودة حتى يصبحوا بذلك إخواناً .

استقر هذا الحلم في نفس الطفل وهو دون السادسة وما زال مستقراً فيها حتى بعد أن جاوز السبعين من عمره ، فقد كتب إذ ذاك يذكر ذلك الحلم فقال : « إن ذلك المثال وهو أخوة النمل وتعلقنا بعضنا ببعض متحابين بقي قائماً في نفسى

لا يتغير وإن لم يعد كما كان أمس تحت قماش يظلل كرسيين عاليين، فهو اليوم عندى تعلق البشر بعضهم ببعض متحابين تحت غطاء عظيم هو قبة السماء، وكما صدقت يومئذ أن هناك عصاً صغيرة خضراء نقشت عليها تلك الرسالة التي تمحق الشركه فى نفوس الناس وتبهيء لهم السعادة العامة، فكذلك أعتقد اليوم أن هذه حقيقة ممكنة، وسوف تنكشف للناس وسوف يمنحهم كشفها كل ما تعدهم به من سعادة» .

ولقد أوصي تولستوى فيما بعد أن يدفن حين يموت حيث دفنت تلك العصا الخضراء، فى تلك البقعة التي صارت حبيبة إلى قلبه من أجل ذلك الغصن الأخضر الذي أوحى إلى نفسه أن يتحاب الناس جميعاً ويتآخروا على نحو ما تنطق به قصة أخيه؛ وسوف يدفن فعلاً الكاتب العظيم فى الموضع الذى عينه أخوه مثوى للغصن الأخضر، وذلك بعد ستة وسبعين عاماً من قصة ذلك الغصن!

وحدثهم نيقولا حديثاً آخر أبهج نفوسهم الصغيرة وملاها شوقاً وتطلعاً وذلك أنه سيقودهم إلى تل ما وسيلبغ بهم قته، فاذا بلغوها وطلبت نفوسهم أي شيء فلا يلبثون دون أن يكون بين أيديهم، ولكنه لن يقودهم إلى ذلك التل إلا أن يجيبوه إلى ما يطلب إليهم أداؤه، فعلى كل منهم أن يقف فى ركن فلا يتجه ذهنه لحظة إلى دب أبيض، أي عليه ألا يخطر بباله هذا الدب، وعليه أن يمشى مستقيماً على شق بين الألواح الخشبية فلا يميل، ثم عليه أن يمتنع عاماً كاملاً عن رؤية أرنب حى أو ميت أو معد للمائدة، ومن أخذ نفسه منهم بهذه الشروط فليقسم أن تظل سرّاً لا يفشيه إلى أحد .

وكم أتجه ليو بخياله ووجدانه إلى ذلك الغصن الأخضر يود أن يعلم ما نقش عليه من سحر، وإلى ذلك التل العجيب يتوق أن يبلغ قته، وما علمه أخوه إلا أخوة النمل وإلا تلك الشروط التي لا بد من أداؤها لمن يطمع أن يبلغ قمة التل ...

ويتطلع ليو إلى سرجى يريد أن يكون مثله، تحدثه نفسه إذا قارن بينه وبين نيقولا أنه يفضل أن تكون له وجهة سيرجى ولو أنه معجب بأقاصيص نيقولا

وسحره ونكاته ؛ وهو مولع بتقليد سيرجى فيما يعمل ، ولكنه يألم ألا يستطيع أن تكون له مثل وجاهته فلن يجدى في ذلك تقليد ، وكانت وجاهة أخيه أحب صفاته إليه ، فما أشقاه أن تكون هي الصفة التي تستعصي عليه ؛ وإنه مهما حاكاه في الغناء واللهو والاعتداد بالنفس فلن يزال يشعر بعدم الرضاء أن لم يكن له ما لأخيه من حسن السمة وجمال الطلعة؛ وثمة شيء آخر لا يستطيع ليو أن يحاكي فيه أخاه ، وذلك عدم مبالاة سيرجى بما عسي أن يقول الناس عنه ، فهو لم يكن يوماً معنياً بنفسه وإنما يسير على سجيته لا يشغل باله بالتفكير في ذاته ، وقد خلق ليو على تقيض أخيه ، فهو بنفسه معنى منذ صغره ، عظيم الاهتمام بأراء الناس عنه ، شديد الإحساس بذاته ، كثير الانطواء على نفسه ، وتلك خلة أتعبته منذ نشأته وستكون منبع كثير من متاعبه في مستقبل الأيام .

ويتصف الطفل منذ نشأته بصفة لعلها وليدة شعوره القوى بذاته ، وتلك هي سرعة بكائه ، وما يبكي من غيظ فحسب ، فان عينيه لتدمعان إذا لقي حنواً أو مودة ممن هم أكبر منه ، وإن عجباً أن يبكي في موضع السرور ليعبر بدمعه عن امتنانه ، فهل كان لذلك سبب آخر هو إحساسه بئتمه منذ أن فطن إلى موت أمه ؟ ولكنه بكاء شكاء من قبل أن يفطن إلى ذلك ، وهو لا يملك أن يحبس دمه إذا رأى غيره يبكي وإن لم يدر ما بكأؤه ، ولقد يُغضب غيره حتى يبكيه ثم لا يستطيع إلا أن يبكي معه ؛ كتب فيما بعد عما كان بينه وبين تلك البنت التي كان يربها أبوه في أسرته فقال : « أتذكر أنى أخذت وقد تعلمت الفرنسية أعلمها حروفها الهجائية ، وسار ذلك سيراً طيباً أول الأمر ، وكنا يومئذ كلانا في نحو الخامسة من عمره ؛ ولكن التعب أدركها فأمسكت عن نطق الحروف كما طلبت إليها ، فألححت عليها فبكت ثم إذا بي أبكي مثلها ، ولما دخل علينا من هم أكبر منا لم نجد ما نقوله بسبب ما كنا نذرف من الدمع » .

وكان ليو أكثر من غيره من الأطفال حباً للثناء عليه وابتهاجاً بما يسمع من عباراته ، وذلك أنه يفطن إلى أن الثناء عليه ينصرف بالضرورة إلى ما يبدى من

دلائل الذكاء والنشاط والطموح ، إذ ليس يطمع في ثناء عليه بسبب منظره أو ملاحظة وجهه ، أو رشاقتة ، كما عسي أن يطمح سيرجي أونيقولا ؛ فما أبعد عن ذلك كله ، وهو شيء ليس في طوقه ، وإن كان يتمنى بينه وبين نفسه لو وقعت معجزة فبلغ بها ما يريد من وجاهة وحسن ؛ ولن تقع هذه المعجزة أبداً فليس له إلا أن يرقى بنفسه ويبدى مقدرته ولهذا كان إذا دعي إلى عمل جمع عزمه وحرص الحرص كله على أن يكون في أحسن حالاته ، ومن ذلك ما يكون منه بين يدي أبيه حين يدعوه إلى تلاوة قصيدة من شعر بوشكين أو غيره من الشعراء ، أو تلاوة أقصوصة من كتاب أو من ذاكرته ، أو حين يناقشه في دروسه ليعلم مبلغ فهمه . وكان شغفه بالموسيقى عظيماً يتفتح لها قلبه وتنفعل لها نفسه ويتهيج خاطره ؛ إذا سمع لحناً وانشغل غيره عنه ، فهو مقبل عليه بقلبه ولبه كأنه مسحور به لا يكاد يعي دونه شيئاً .

ويحب ليو الناس جميعاً ، لا يضره سوء لأحد ، ولا يتجهم لأحد ، ويكره أن يرى شخصاً يتألم أو تمشى في وجهه كدرة الهم كما يكره أن يعبس أحدهم في وجه صاحبه أو يتكره له أو يتجهمه بالقول ، فالصفاء والمحبة والمودة من خصائص طبيعه ومقومات خلقه



صبي نابه

تمكنت من نفس الصبي روح المحبة للناس جميعاً ، ولسوف تتوثق على الأيام وتزداد فيكون لها أثرها البعيد في تكوين آراء الكاتب العظيم في غد ، وفي توجيه روحه وتحديد مسلكه في مواطن كثيرة من مواقف حياته .

وكان يحب الطفل فيمن أحب في طفولته كبيرة الخدم العجوز التي لبثت من عمرها في القصر سنين طويلة لا يدرك مدى طولها ، والتي تقص عليه أحسن القصص عن أجداده وأحداث أسرته وتلاعبه وتضاحكه كلما ذهب إليها أو كلما لقيته في إحدى ردهات القصر أو حجراته ، وتخبىء له الحلوى في ثيابها لتلاقيه بها ، أو تفتح له خزانتها ليأخذ منها ما يحب ؛ وكان كذلك يحب كبير خدم المائدة لأنه يهش له دائماً ويظهر المودة والعطف ؛ والحق أنه كان يحب الخدم جميعاً وإنما يختص بمحبته من هم أكثر تودداً إليه .

دخل يوماً على العمة تاتيانا يشكو إليها أنه رأى منظرًا كدره وآلمه ، وذلك أنه شاهد أحد الفلاحين يساق إلى حظيرة حيث أوثقه رئيسه وضربه ، ولما سأله عمته لم لم يحل بينه وبين الضرب أطرق في خجل ولم يجر جواباً ، وكأنيما يزداد الماء ألا يستطيع أن يتدارك ما فاتته .

وبينما كان أفراد الأسرة كبارهم وصغارهم في الثوى الكبير ذات ليلة من ليالي الشتاء ، إذ أشار الكونت نيقولارب الأسرة بسبابته إلى الحجرة المقابلة وكانت مفتوحة ، فوقعت أعين الجالسين على منظر أثار ضحكهم ودهشتهم فقد عكست المرأة فيها صورة أحد الخدم يمشى على أطراف أصابعه ، وما زال حتى بلغ صندوق الطباقي فسرق منه قدرًا وانصرف ، وكان الكونت ينظر إليه ضاحكًا لم تزل عنه بشاشته ، بل لقد صحب تلك البشاشة شيء من التسامح والرفق ، ولما رأى ليو

تسامح أبيه امتلاً سروراً منه وازداد إعجاباً به ، وعند انصرافه ثم يده في حماسة ظاهرة ، ليريه مقدار ما في نفسه من رضاء علي ما أظهر من رحمة ورفق .

وامتد عطف الصبي حتى وسع الحيوان فقد أحزنه ذات يوم مرأى كلب مربيه والخدم يشنقونه ، وكان ذلك الكلب العزيز الرمادي اللون ذو العينين الجيلتين والشعر الناعم الجعد ، علي حد وصفه ، قد أصيب بكسر ساقه إذ مرت فوقه عربة ، فأعدم إذ لم تعد بهم حاجة إليه في الصيد ؛ وعجب الصبي لما رأى بقدر ما تألم منه ، وإنه ليروى هذا الحادث بعد فيما يروى من حوادث الصغر مما يدل علي شديد تأثره به ، قال : « كان الكلب يعاني الألم وكان مريضاً وقد شنق بسبب ذلك . لقد أحسست أن هناك خطأ فيما يقع ، ولكنني لم أجرؤ علي الثقة في شعوري ، حيال ما أرى من تصميم ثابت يأتي من جانب قوم أحترمهم » .

ووقف الصبي ذات يوم يمسح بكفه الصغيرة حصانه ، وقد وثب عن ظهره إلى الأرض إذ نبهه أحد الفلاحين وقد رآه يضربه أن لا جدوى من ضربه لأنه متعب ، ونظر الصبي إلى الحصان وهو يلهث ويخرج أنفاسه في زفرات مؤلمة متقطعة ، وجنباه يرتعشان والعرق يتبخر منهما ، فبلغ من حزنه أنه « أخذ يقبل عنقه الذي بلله العرق ويسأله الصفح عما أوقع به من أذى » ...

وممن وسعهم عطف الصبي وشملهم بره ، أولئك الفقراء الذين كان يعدهم الناس من الصالحين الأولياء ، وكانوا كثيرين في تلك المنطقة لقربها من كيف حيث يتقاطر الحجيج ليزوروا مواضعها المقدسة ، وكان مرأى هؤلاء في أسماهم البالية وبلاهم وتماتهم ، وعدم اكتراثهم لأى شيء ، أمراً يثير الدهشة في نفس الصبي كما يبعث فيها كثيراً من الرهبة ، ويوحى إلى خياله أطيافاً مبهمه وصوراً غامضة ؛ وكان ينبئه إخوته أن في هؤلاء الصالحين سراً لا يمكن كشفه يجعلهم على الرغم من حقارة مظهرهم وقذارة أسماهم أقرب الناس إلى مرتبة القديسين ، وقد وصف تولستوى هذه الطائفة في شخص « جريشا » الذي تحدث عنه في كتابه « عهد الطفولة » وقد كتبه وهو في الخامسة والعشرين من عمره

قال : « كان جريشا شخصية مخترعة ، وكان يغشي منزلنا كثير من هؤلاء البله الطيبين ، وقد علمت أن أنظر إليهم نظرة الاحترام الشديد وهو صنيع أحفظه لمن قاموا علي تربيته ، ولئن كان بين هؤلاء من يعوزه الإخلاص أو من قضى فيما سلف أياما في حالة من الضعف والادعاء ، فإن غايتهم في الحياة كانت على ما يبدو من سخفها في الواقع ، بالغة السمو ؛ حتى إنه ليسرني أنى تعلمت في طفولتي على غير وعى منى ما وصلوا إليه بأعمالهم من علو . لقد صنعوا ما تحدث عنه ماركس أورليوس حين قال : ليس هناك أسمي من أن يتحمل المرء الأزدراء من أجل أن يحيا حياة صالحة طيبة . إن الطموح الإنساني إلى المجد والعظمة أمر لا يمكن تجنبه وهو كذلك بالغ الضرر إذ أنه يفسد كل عمل حميد ، فلا يسع المرء إلا العطف على أولئك الذين لا يقتصرون على بذل جهدهم لتجنب أن يحمدا فحسب ، بل ويتعرضون فوق ذلك للاحتقار ... »

ومما كان يبهج نفس الصبي ويحبب إليه الحياة ما كان تحتشد له الأسرة من مظاهر الفرح في أعيادها وبخاصة عيد الميلاد ، فكانت تشيع البهجة في البيت كله فترى دلائلها في كل وجه ، وتحس روحها في كل ناحية ، فرب الأسرة وسيداتها وأبنائها وجميع من في القصر من خدم يتبادلون المحبة والمودة ويبدون سعداً في ثيابهم الجديدة ويستمتعون بما طاب من الطعام والشراب ، حتى الفلاحين ينالهم حظ من هذا الفرح فتطيب نفوسهم وهذا ما ينشرح له صدر الصبي .

وكان خروجه إلى الغابة للصيد مع أبيه وإخوته في العربات الجميلة أو على ظهور الخيل المسومة الفخمة يحيط بهم رهط من الأتباع وعدد من كلاب الصيد ، مما يملأ قلب الصبي سروراً وبهجة ، وكثيراً ما كان يبهجه كذلك الخروج إلى الغابة لغير الصيد في صحبة العمه تاتيانا أو في صحبة جدته أو غيرها من المربين فيرتع ويلعب ويقطفها شاء من الزهر ، ويستمتع إلى القصص ، حتى يعود إلى البيت وهو يظفر كما يظفر العصفور من فرط المرح .

وفي ليالى الشتاء كان تحلق الأسرة حول الموقد والاستماع إلى الموسيقى أو القصص الممتعة ، وتبادل العطف بين الكبار والصغار و بين بعضهم مع بعض مما يحبه الصبي ويأنس به ويحرص كل الحرص على شهوده ...
وليس ثمة إلا حجرة الدراسة تحلو من البهجة ويلقي فيها من دروسه عنثاً ورهقاً ؛ على أن عطف معلمه عليه يخفف عنه ، ورغبته في أن يرقى بنفسه ويكتسب من دواعي الفخر ما يباهى به إخوته ، يجعله يتكلم على نفسه ويصبر على مكاره الدرس .

وفيا عدا هذا كانت طفولته بهيجة محببة إلى نفسه ، ولن تجد وصفاً لهاتيك الأيام السعيدة الحلوة أبلغ مما كتبه عنها بعد ذلك في أول كتاب له وهو كتابه « عهد الطفولة » قال « ما أسعد هاتيك الأيام الحلوة ، أيام الطفولة التي لا تمنحي ذكراها ، وكيف ينسي امرؤ أن يحب ذكرياتها وأن ينعم بها ؛ إن هذه الذكريات لتنعش روحى وتسمو بها ، وهى المنبع لأعظم فيض من السرور يغمرنى ، وأى وقت هو خير من ذلك الوقت الذى لا يكون للحياة فيه من دوافع غير دافعين هما فى الفضائل أجمل فضيلتين : اللهو البرىء ورغبة النفس فى الحب رغبة لا تحد » .

كان كلما اقترب ليو من إخوته سمعهم يتحدثون عن موسكو وعن الرحيل إلى موسكو ، فيرفع بصره إلى وجوههم يتبين هل ثمة فيها شيء من الهم لقرب هذا الرحيل ، فإن الهم ما يبرح يهجس فى خاطره منذ علم بقرب انتقالهم إلى موسكو ؛ ولكن الغلام لا يجد فى وجوههم أية أماراة لذلك الذى يعتلج فى نفسه من الحزن كلما تطرق الحديث إلى موسكو أو كلما وقع بصره على ما يلح إلى الرحيل أو يشير إليه ، ومن ذلك تلك السراويل الجديدة ذات الأشرطة الزاهية يقلبها إخوته بين أيديهم فرحين ؛ وإنه ليشاركهم فرحهم بها ، وما ينقم منها إلا أنها سوف تلبس فى موسكو ؛ فعما قريب يرحل مع إخوته ليتعلموا فى تلك المدينة الكبيرة ؛ وإنه ليعجب كيف يطيقون الرحيل عن ياستايا فيتحدثون عن ذلك الرحيل

ضاحكين مستبشرين ، ويقع الحديث من نفسه موقعاً أليماً .

وهل كان يطيق البعد عن ذلك القصر وعن تلك المدينة وعن هاتيك الغابات القريبة التي أحبها وألف المرح في أرجائها ؟ وهل كان يطيق البعد عن العمّة تاتيانا وهو لا يجد له أمماً غيرها ؟ ومن إذاً يكون مربيه في موسكو مكان تيودور رويسل ؟ وهل هو واجد في موسكو ما يجده هنا من مسرات الحياة ولهوها ؟ أيطيق ألا يرى الخدم الذين أحبهم وأحبوه ، والخيل وكلاب الصيد التي أولع بها وأحب أن يراها كل يوم ! ولكن ما من الرحيل بد فليس له إلا أن يصبر عليه ، بهذا كان يتحدث الغلام إلى نفسه أو بهذا كانت تحدّثه نفسه .

وحان يوم الرحيل ؛ ومسح الغلام عينيه وقد انطلقت به وبأخوته العربية إلى موسكو ، فما يجدر به أن يبكي وهو ابن ثمان ، وهؤلاء إخوته حوله لا يبكون بل لا يكثرنون لشيء ، كأنما هم ذاهبون كما كانوا يذهبون بالأمس إلى الصيد في الغابة ! ونظر الغلام في موسكو إلى مربيه الفرنسي الجديد سنت توماس ، فإذا هو تلقاء رجل لا يحس في وجهه ما كان يحسه في وجه تيودور رويسل من عطف ومحبة وإخلاص ، وما لبث أن وجده يعنف عليه أشد ما يكون العنف ، فيحبسه في حجرة ويتهدده بالعصا ، الأمر الذي أغضبه أشد الغضب وكره إليه الغلظة والعنف ، ونفره من العقوبة البدنية ومن صور القسوة جميعاً طيلة حياته ؛ كتب بعد ذلك في مذكراته يشير إلى هذا الحادث فقال « حبسني سنت توماس أولاً في حجرة ، ثم جاء يتهددني بالضرب بعصاه ، ولست أذكر الذنب ولكنه كان أمراً لا يستحق العقاب ألبتة ؛ وعندئذ ذقت شعوراً مخيفاً هو مزيج من الغضب والاحتقار والاشمئزاز ، ولم يكن ذلك نحو سنت توماس فحسب ، ولكن نحو القسوة التي يتهددني بها كذلك » .

وأكبر الظن أن مربيه ما فعل هذا إلا لإهماله وانصرافه عن الدرس ، وعناده إذا دعاه إلى العمل ؛ ولم يتجن عليه سنت توماس فهذا أحد لداته قد تحدث عنه وعن إخوته فقال : « يرغب نيقولا في التعلم ويقدر عليه ، ويقدر سيرجى على العلم

ولكنه لا يميل إليه ، ويميل ديمتري ولكنه لا يقدر ، أما ليو فإنه لا يميل ولا يقدر « ولكن مربيه على الرغم من ذلك موقن من ذكائه ومن موهبة فيه عبر عنها بقوله « إن لهذا الغلام رأساً ... إنه مولير صغير » .

ماذا كان في رأسه يومئذ حتى يسميه مربيه هذا الاسم ؟ لعل مرد ذلك إلى نفاذ عينيه إلى ما تقعان عليه ، ونفاذ بصيرته إلى أفعال إخوته ولداته من التلاميذ وتفتنه إلى خصائص كل منهم ، فالغلام على حدائته يقظ مرهف الحس ، دقيق الملاحظة للناس وللأشياء جميعاً .

وهو وبن لم يتجاوز الثامنة بعد ، تطوف بقلبه الغض عاطفة الحب ، ولم يكن هذا الحب الجديد كذلك الذى يحسه نحو العمه تاتيانا أو نحو غيرها ممن أولوه مودتهم وعطفهم من أفراد الأسرة ومن الخدم وإنما كان حبا كذلك الحب الذى قلما خلا منه قلب فتى أو فتاة في ربيع العمر ، ويميل بعض علماء النفس إلى عد هذه العاطفة في مثل هذه السن الباكرة دليلاً على الموهبة الفنية ، ولذلك يرجى لصاحبها أن يكون في غده من الأفاذاذ ...

أحب ليو تلك البنت الصغيرة التى عاشت بين أفراد الأسرة في كنف عميها الكونت ، وكانت تسمى اسلنيف ، وأحب في موسكو غلاماً صغيراً من أبناء عمومته من آل پوشكين ، وقد بلغ من حبه إياه أنه كان ينعمد لسانه إذا وجد نفسه تلقاه من فرط إحساسه بعاطفته ؛ وكذلك أحب بنتاً لا تكبره في العمر جميلة زرقاء العينين تدعى سوشنكا ، وكان يشعر بين يديها بفيض من السرور والمودة والرفق ، فإذا غابت فإن ذكر اسمها كان يملأ مقلتيه بدموع الفرح من فرط نشوته ، وكانت عاطفته نحوها عميقة بالغة العمق ، صادقة خالصة الصدق ، بريئة من كل شائبة أو غرض ، حتى لقد اتخذها في مستقبل أيامه مقياساً يرجع إليه إذا شاء أن يقارن بين حالات شعوره ...

أما إسلنيف فكان يفار عليها أشد ما تكون الغيرة ، لا يطيق أن يتحدث شخصاً غيره كبيراً كان أو صغيراً أو تنجه حتى بنظرها إليه ، وكان يعنف عليها ويعصف

في وجهها إذا وجد منها ما يظنه ميلاً إلى غيره ، حتى إنه دفعها ذات مرة من شرفة حيث كانا يابان وقد بلغت بها الجرأة أن كلمت غلاماً أمامه ، فسقطت ولحق بها العرج من جراء ذلك بضع سنين ، وبعد قرابة ربع قرن من هذا الحادث شاءت الأقدار أن يتزوج ليوم من ابنة هذه التي غدت سيدة أنجبت بنات وبنين ، وأصبحت أم زوجته ، فقالت له ضاحكة تذكره بذلك الحادث « أكبر الظن أنك دفعتني من الشرفة إبان طفولتي لكي تتزوج بابنتي فيما بعد » .

وذاق الغلام في موسكو لوعة الحزن كما ذاق فرحة الحب ، فقد مات أبوه وكان في طريقه إلى مدينة توليا في صيف سنة ١٨٣٧ وسقط في الطريق جسماً لا حراك به ، فمن قائل إنه مات بنوبة من نوبات القلب ، وآخرون يهيمسون أن السم أودى به على يد فلاح ممن ملكت يده ؛ ويتسلط على رأس الغلام خيال عجيب فهو يحس أن أباه حي لم يموت ، ولا يستطيع أن يتصور أنه مات حقاً على الرغم من أن أخاه نيقولا قد شهد دفنه في ياسنايا بوليانا ؛ وإنه لينقل بصره بين وجوه المارة في شوارع موسكو يتوقع أن تقع عيناه على أبيه ، وظل هذا الخيال بضعة أشهر متسلطاً عليه .

ويتفكر الغلام مرة ثانية في الموت والحياة ، فقد تفكر في ذلك حين أدرك أن عمته تاتيانا ليست أمه ، وعلم من نيقولا بموت أمه ؛ ولقد أحس يومئذ أن الموت شيء كرهه مخيف ، ولكنه لم يدرك كنهه ، وهو كذلك يحس اليوم مثلما أحس بالأمس ، وإن كان يصحب إحساسه هذه المرة شيء من التفكير والدهشة ، وسيظل هذا شأنه كلما نظر في الموت حتى يجاوز الثمانين من عمره فيطويه ذلك الشيء الكرهه المخيف ، وهو لم يعد من طول النظر في أمره بشيء .

ولم تكد تضي تسعة أشهر على وفاة أبيه حتى ماتت جدته محزونة على ابنها ؛ وجاء المربي يحمل النبا إلى الصبية وهم يلعبون ، فانتقلب مرحهم وزياطهم وجوماً وسكوناً ، وأرهف ليو أذنيه ودار بعينه يسمع ويرى ، فكم كرهه رأى الحانوطية على مقربة من البيت في ملابسهم السوداء ، وكم بث في نفسه الخوف رؤية

التابوت بين أيديهم ، ووجوههم كثيبة عابسة من أثر ما يتكفنون من الحزن ؛ على أنه يطيب نفساً بما يشاهد من مظاهر العطف عليه وعلى إخوته وبما يسمع من عبارات البراء لهم والإشفاق عليهم وإن كان ذلك يزيد إحساسه باليتم ؛ ولقد تددت عيناه ذات مرة متأثراً بكلمة عطف سمعها من سيدة إذ قالت لجارتها « إنهم اليوم أيتام كل اليتيم ، فقد مات أبوه منذ قليل ، وها هي ذى جدتهم كذلك يأخذها الموت » .

وينظر الصبي إلى حلتته السوداء المخططة الخوافي بخيوط بيضاء وهو يرتديها حداداً على فقد جدته ، وقد صنعت لهذا الغرض خاصة ويعجبه منظره في هذه الحلة فينسي بعض ما يمسه من حزن .

وللغلام في هذه السن الباكرة اشتغال بما يعد الاشتغال به من أعجب الأمور ممن كان في مثل سنه ، وذلك هو نظره في الدين ومسائله ، ولندع توأستوى نفسه يتحدث عن ذلك قال في مستهل كتابه « اعترافاتي » إني أذكر كيف زارنا ذات يوم من أيام الأحاد في الحادية عشرة من عمرى غلام يدعى فالمرير موليتين كان في إحدى المدارس الابتدائية وراح يقص علينا ما سماه أحدث الطرائف من الأنبياء ، ألا وهو كشف اتفاق وقوعه في مدرسته ، ومؤدى ذلك الكشف أنه ليس لهذا العالم إله ، وأن كل ما لقناه عنه إن هو إلا محض اختراع . وإني لأذكر مبلغ ما داخل إخوتي من سرور عند سماع ذلك ، لقد دعوني إلى مجلسهم وأذكر أننا جميعاً شعرنا شعور النشوة لهذه الأنبياء ، وتليناها كأمر سار ممتع ممكن الحدوث كل الأماكن » .

وعرف الغلام منذ حداثته بقوة البدنية وحيويته المتوثبة ، تبين ذلك من حادثة تقصها أخته ، ومؤداها أن أخاها نزل من إحدى العربات ذات مرة وقد توقفت عن السير لأمر ما ، فظل ماشياً حتى أوشكت العربة أن تدركه فأخذ يعدو عدواً سرباً كيلا تدركه ، وإخوته في العربة يعجبون من سرعة عدوه وطول نفسه ؛ ولم ينقطع نفسه إلا بعد ميلين فصعد إلى العربة وهو يلهث ولكنه يحاول

أن يخفي تعبته ؛ ولسوف تلازمه هذه القوة البدنية وهذه الحيوية على الرغم مما ينتابه أحياناً من أسقام وآلام ، حتى يطويه الموت بعد أن يجاوز الثمانين .

وكان ليو منذ صغره مولعاً بركوب الخيل ، وقد تعلم الركوب في سن مبكرة على الرغم من معارضة أمه إياه في ذلك ؛ وقد رأى أخويه اللذين يكبرانهم يمتطيان جواديهما ذات يوم فما زال يلح حتى سمح له بأن يمتطى جواداً كما فعلاً فإذا به بعد خطوات فوق عرفه يطوق عنقه بساقيه ويمسك بجبهته ، فلما أعيد إلى حيث كان لم يبد عليه شيء من الخوف وصمم على أن يطلق العنان لجواده وانطلق به يعدو وهوثابت فوق صهوته ، ومن ذلك الوقت أصبح يجيد الركوب .

وفكر الغلام ذات يوم في أمر : لم لا يطير كما تفعل الطير ؟ لم لا يضع ذلك موضع التجربة ؟ إنه يرى أنه مستطيع بحركة ما أن يثب طائراً فيسبح في الجو كما تسبح الطير ؛ وإن في نفسه منذ صغره لميلاً إلى أن يضع ما يهجس في خاطره موضع الاختبار ، ولسوف يكبر معه هذا الميل فيظهر في مواطن كثيرة ؛ ويشد الغلام بيديه حول ركبته ثم يثب من نافذة يريد أن يطير ولكنه يصحو بعد ثمان عشرة ساعة قضاها في سبات عميق ، فيفتح عينيه دهشاً متحيراً يحاول أن يذكر ماذا كان من أمر طيرانه فيذكره إياه ما يحس من ألم في مفاصله وأضلاعه .

ولم يقتصر شذوذه على هذا الحادث ، وأكثر ما كان من شذوذه ما كان يتصل باهتمامه بهيئته ، ومن ذلك أنه حلق شعره ذات مرة بالموسى لعل في ذلك إصلاحاً لشكله ، ثم عاد فأطلق شعره حتى استطال ، وعمد إلى المشط فجعل به ذلك الشعر في موضع خاص لعل في ذلك أيضاً ما يكسبه وجاهة ويظهره في هيئة المهموم المفكر على نحو ما يظهر بيرون . وعمد مرة أخرى إلى حاجبيه فانزع شعرهما بملقط كي يشتد بعد ذلك نمائوه فيكسب ملامحه مظهراً عاطفياً شعرياً ، ولكنه لم يرجع من وراء هذا كله بطائل ، الأمر الذي نفص عنده العيش ولقد جاء في كتابه « عهد الطفولة » قوله « كنت أعلم حق العلم أنني لم أك حسن المنظر ، ولذلك كانت كل إشارة إلى هيئتي تسيء إلى إساءة مؤلمة ،

ولقد مرت بي لحظات تملكني فيها اليأس وخيل إلى أنه لا يمكن أن تنهياً
السعادة على هذه الأرض لمن كان له أنف كأنتى العريض وشفتان كشفتي
الغليظتين وعينان كعيني الصغيرتين الشهبوين ، وسألت الله أن يحدث معجزة
فيجعلني وجيهاً فأني لأجود بكل ما هو لدى وبكل ما عسى أن أظفر به في
المستقبل ، في سبيل وجه حسن .

وفي صيف ١٨٣٩ شاهد الغلام في موسكو مشهداً استقر في نفسه فلم يبرحها
حتى ظهر أثره في أحد أوصافه فيما بعد في قصته الكبرى « الحرب والسلام » إذ
وصف موكباً من مواكب الاسكندر الأول على لسان روستوف أحد شخصيات
تلك القصة ، أما الشهيد الذي رآه الغلام وجعله مثاله فيما كتب من وصف ، فهو
موكب نيقولا الأول يوم زار موسكو ليضع الحجر الأول في بناء كنيسة أقيمت
لتخليد ذكرى تحرير روسيا من غزو نابليون .

ولم يطل بالغلام المقام في موسكو فقد أعيد مع أخيه الصغير إلى ياسنايا
بوليانا ليكونا في رعاية العمة تاتيانا ، وبقى الأخوان الكيران في موسكو
ترعاها الكونتس أوستن سيكن عمتها على الحقيقة ؛ وكانت الكونتس أوستن
أو عمتها ألين امرأة تقية سالحة لله في السر والعلن ، تنفق مالها في سبيل الله فلا
ترد فقيراً ولا تتكره لدى حاجة ، وكانت بالخدم رحيمة عطوفاً تكره أن
توظهن إذا أوين إلى مضاجعهن فتعمل عملهن فيما تريد لنفسها من حاجة ؛ وكان
أثرها عميقاً في نفس الغلام فكان يشعر نحوها من الأجلال والأكبار بقدر
ما كان يشعر نحو عمة تاتيانا من المحبة ، واثن علمته العمة تاتيانا كيف تكون بهجة
النفس في المحبة ، فقد أوحى إليه ألين كيف تسمو النفس وكيف تطيب بالدين
ولكن هذه العمة قضت نحبها في خريف عام ١٨٤١ فصارت الوصاية على
الأخوة جميعاً لعمة أخرى هي السيدة يوشكوف زوجة أحد ذوى الثراء من الملاك
في قازان ، وثم قد نقل الصبية جميعاً إلى قازان فأقاموا هناك حتى ربيع ١٨٤٧ ؛
على أنهم كانوا يقضون إجازاتهم الصيفية في ضيعتهم المحبوبة بناحية ياسنايا بوليانا .

فتى حائر

كان ليو في نحو الثالثة عشرة من عمره حينما انتقل مع إخوته إلى قازان ؛ وكان جدهم أحد حكام قازان من قبل فكان الصبية ملحوظي المكنانة في مضطربهم الجديد ، وكان يصحب كل صبي منهم خادم خاص جيء به من بين عبيدهم في ياسنايا ، وترفع الصبية عن حولهم من الناس إلا من كانت لهم مثل مكائنتهم ولذلك قلت خبرتهم بقازان وأهل قازان ...

وكانت عمتهم يوشكافا التي يعيشون يومذاك في رعايتها طيبة القلب ولكنها لم تكن على قدر من الثقافة كبير ، وكان زوجها من ذوى الثراء يجعل أكثر وقته للموسيقى ولعب الورق وما إليها ؛ ولذلك كثيراً ما كان يغشى بيته جماعات من صحابه وكثيراً ما صرف الصبية عن الجد من الأمور مشاهدتهم هذه الجماعات وأوحى إلى نفوسهم اللعب واللهو فكان لذلك سوء أثره في دروسهم .

ولبكن ليو لا يسرف في ذلك إسراف إخوته ، بل إنه لميل إلى مجافاتهم إلى حد ما منذ أن رآهم يتغيرون عما ألفهم ، ورأى في أذواقهم وميولهم ما يحس أنه غريب عليه جديد عليهم ، وما لا يسهه إلا أن ينكره منهم بينه وبين نفسه . ولعله ما أنكر ذلك منهم إلا لأنه لا يستطيعه لنفسه ، فقد عاوده ما يكدر نفسه من اهتمامه بهيئته وماذا عسى أن يكون وقعها في النفوس ؛ وإنه ليطيل النظر في المرأة فلا تعجبه أذناه الكبيرتان ولا أنفه المفرطح الواسع المنخرين ولا عيناه الشهبوان ألباحظتان بعض الشيء ، ولا شفتاه الغليظتان بعض الغلظ . على أن له في القراءة مصرفاً عن هذا ، وعزاء ومتمعة غير ما يسعى إليه إخوته من متعة ؛ وهو اليوم في الرابعة عشرة من عمره يلتهم ما تصل إليه يده من الكتب التهاماً ؛ ولن يزال مكباً على كتابه ساعات طويلة حتى لينسى نفسه ، لأنه

يعيش بخياله فيما يقرأ ؛ وكان مما قرأه يومئذ كتاب ألف ليلة وقد أثرت في خياله وحسه قصة « الأربعين لصاً » تأثيراً قوياً وكذلك فعلت قصة الأمير « قر الزمان » ؛ وقرأ الغلام شعر بوشكين وأعجب بقصيدته عن نابليون ، وراقته قصة « الدجاجة السوداء » للكاتب الروسي بوجورولسكي ؛ وقرأ الأنجيل وكم تأثر قلبه بقصة يوسف فإن أثرها فيه كان على حد قوله هائلا ، ولم يزل بعد ذلك بسنين يصف ما أعجبه من وجازتها وبساطتها وصدقها ، ولم يكد يبلغ الخامسة عشرة حتى أصبح مسحوراً بجان چاك روسو ، وإنه من فرط تأثره به ليكاد ينسي كل شيء غيره ، وقد بلغ افتتانه به أنه استبدل صورة له بما كان يضع فوق صدره من صليب ، وأقبل على اعترافاته وكتابه « إميل » و « هلويز الجديدة » وقد سحرته هذه القصة فقرأها مرة بعد مرة ، وكلما أعاد قراءتها ازداد حبه لها واشتد تأثره بها . قال بعد ذلك يصف هذا السحر « كانت صفحات كثيرة منه وثيقة الصلة بنفسي ، حتى لقد خيل إلي أني أنا الذي كتبتها لاريب » .

ويتملىء ذهن الفتى في السادسة عشرة بكثير من مسائل الفلسفة ، بل إنه ليطلع أن يحل ألغاز هذا الوجود فيشغل نفسه بالنظر في خلود الروح ووظيفة الإنسان في هذا الكون وصلته به وإمكان وجود حياة أخرى ، إلى أمثالها من العضلات والمسائل .

وينظر الفتى في نفسه فيصل إلى رأي ، وذلك أن سعادة المرء لا تتوقف على العوامل الخارجية في ذاتها ولكن على صلة الإنسان بهذه العوامل ، ومن ذلك مثلا أن الإنسان إذا أخذ نفسه بالتقشف وتعود الآلام ألف شقاء العيش وآلامه فلن يشقى به ولن يألم منه ، وعلى ذلك فقد أخذ نفسه بألوان من العنف والشدة كأن يحمل بعض الكتب الثقيلة زمناً ويدها ممدوتان ، وكان يضرب جسمه وقد تعرى بجبل حتى تدمع عيناه ، ثم إنه يقنع نفسه بأن التفكير في الموت أمر لا محل له ، وللإنسان أن يستمتع بالساعة التي هو فيها فالموت أمر لا بد منه والحياة أتفه من أن يعنى بها المرء قلبه ، فليمرح الفتى ماوسعه المرح ولينصرف عن الدرس

وليقبل على كل ما يلذه من طيبات الحياة خيرها وشرها ، وليقض وقته في قراءة القصص وأكل الحلوى ...

ويحاول أن يتدسس إلى أعماق نفسه ليرى ماذا يجري في شعوره فيصل به الأمر إلى ما يقرب من الخبل . تجد ذلك في قوله « وكنت أفكر في أنى أفكر فيما كنت فيه أفكر » وإنه ليستغرق في تفكيره هذا حتى لياً كل ما في يده ذات مرة من ديدان كان أعدها طعاماً للسماك أثناء صيده ، ثم يمج الديدان من فمه بين الضحك والتفرز .

ولا يلبث الفتى حتى يجد نفسه قد أخذ التشاؤم من جميع أقطاره ، ثم يجد نفسه مستغرقاً في هذا التشاؤم استغراقاً ، فلا فكاً له منه ولا منتدح عنه . تجد ذلك واضحاً في عبارة جاءت له في كتابه « عهد اليقاعة » ، ولئن كان هذا الكتاب كسابقه « عهد الطفولة » وكلاحقه « عهد الشباب » لم يكتب على أنه تاريخ حياته ، فإن أكثر ما جاء فيه من وصف كان لشخصيات خلقها وأكثر ما جاء على ألسنة هذه الشخصيات يدور حول حياته ومن كان له بهم في هذه المهود صلة . قال « لم تشتد نزعة فلسفية في نفسي كما اشتدت نزعة التشاؤم ، تلك النزعة التي أشرفت بي ذات مرة على حافة الخبل فقد تخيلت أنه ما من شيء أو شخص هو قائم في هذا الوجود بجانب شخصي ؛ وأن الأشياء جميعاً ليست أشياء فقط ، ولكنها صور فحسب لا تظهر إلا عند ما أتجه بفكري إليها ، وإنها لتختفي حين ينتهي تفكيري فيها ؛ وقصارى القول أنى واقفت شلنج فيما ذهب إليه من أن الأشياء لا وجود لها في ذاتها وإنما الوجود هو علاقتي بها ؛ ومرت بي لحظات وصلت فيها تحت تأثير هذه الفكرة المتسلطة علي إلى حالة من الخبل حتى لألتفت في سرعة حولي كي أدرك اللاشيء ... لقد ازدهتني هذه الكشوف الفلسفية التي بلغتها وأثارت غرورى إلى حد عظيم ، وكثيراً ما تخيلت أنى رجل عظيم يكشف حقائق خير بنى الإنسان ، وبهذا الشعور الذي انطوت عليه نفسى ، شعور الكبرياء نظرت إلى باقى البشر ، ولكنى ما واجهت أحداً من هؤلاء الفنانين إلا أحسست بالخجل

حياته ، الأمر الذي يحمل علي كثير من العجب ، وكلما زدت قدرى نفسى شعرت
أبي أقل مقدرة لا على إظهار ما يخالجنى من شعور الرفعة فحسب ، بل كذلك على
أن أعود نفسى أن أتجنب الخجل الذي يعتريني من أبسط كلماتي وحركاتي .
وتتوزع فؤاده هواجس الشباب وأحلامه ، فبينما هو مستغرق في تشاؤمه
مسرف فيه ، إذا به يميل بغته إلى التفاؤل فيجمع عزمه على أن يجد في تحصيل
دروسه وأن يكون خير مثال للطالب المجتهد ، ويذهب به التفاؤل إلى أن يعترم
العمل على أن يكون موضع إعجاب كل من يراه من الناس ، فإن لم يتفق له هذا
في نواحي الكفاية والبطولة ، فليس ذلك بمانعه أن يبلغ مأربه في أن يصبح
أغنى بنى الدنيا وأشهرهم مكانة .

ولكنه لا تكاد تنقضى أيام على ما عقد عليه العزم حتى يعود إلى تشاؤمه
وإلى بطالته وهواه ، ثم إنه يطلق العنان لرغبات جسده ، وهو قتي قوى البدن
متدفق الحيوية يكاد يلتهب مما يخالجه من رغبات هذا البدن على الرغم من إسرافه
فيما يطنيه به هذا الظم المتصل ؛ وما يزال به شيطانه يغريه ويزين له كثيراً
من الإثم ، ويسوقه إلى مهاوى الفتنة حتى يوقع في حباله عذراء من الخدم ذات
ملاحة فيغويها ويقضي منها وطره ! ويبلغ نبأ هذا الإثم عمته فتطرد الفتاة من
البيت إلى حيث تتلقاها مهاوى الرذيلة ، ثم يطويها الموت قبل أوانه على صورة
محزنة نكراء ...

وما يعنيننا هذا الفعل إلا لأنه استقر في أعماق وجدانه . فكان منه حين
تجاوز السبعين من عمره صورة فذة لأهم شخصية في قصته « البعث » التي تعد
من أعظم آثاره الفنية وأخدها .

ويضطرب الفتى اضطراباً شديداً بين وساوس الشباب ، فما يكاد يخالجه
الندم على ما يعده تفریطاً منه في جنب الفضيلة ، حتى يستسلم ثانية إلى الرذيلة ،
ثم يعود فيجمع عزمه على الورع والطهر والعفة وعلى أن يأخذ نفسه بالجد من الأمور ،
ولكنه لا يلبث حتى ينقاد إلى ما يوسوس له به شيطانه .

وهكذا ما يزال الفتى يتعلق بالكمال مرة ، وينحدر حتى يقرب من قرارة الانحطاط مرة ، ويرضي عن نفسه حيناً ويحتم علي صدره الندم حيناً ، دون أن يستقر على وضع أو يركن إلى رأى ...

وللمرء أن يعجب حقاً من أن تشغل الفتى مثل هاتيك الأمور في سن كسنة يومئذ ؛ ولقد كان بعد ذلك بسنين يشعر بما عسى أن تثير من عجب ، بل إنه كان يخشى ألا يصدقها المرء أو أن يردها إلى المبالغة في القول كما ذكر ذلك في كتابه « عهد اليفاعه » . فما كان التفكير المتصل في الحياة والناس ، وما كانت الرغبة في بلوغ الكمال وتلمس السبيل إلى تحقيق تلك الرغبة مما يكافئ تلك السن ولا ذلك الوضع الذي كان فيه وهو حدث لم يلتحق بعد بجامعة من الجامعات ، وحسب أنداده أن يقرأ الفتى منهم قصة أو يلهو بديوان شعر ...

ولكنه كان فيما يشبه الحمى يومئذ مما كان يجول في رأسه من أفكار وما يهجس في نفسه من خواطر ، وما يعتلج في تلك النفس الحائرة من رغبة في السمو ومن طموح نحو المثل الأعلى ، وإن تولستوى الفتى اليوم لهو صورة مصغرة لتولستوى الكاتب العظيم في غد ، يوم يشتغل ذهنه الجبار بالفن وبالدين وبمسائل الاجتماع ، ويوم يبيحث حائراً قانطاً أول الأمر عن الغرض من هذه الحياة ، حتى تنزل السكينة عليه إذ يرى أن الغرض من الحياة يتلخص في العمل على السمو بها نحو ما يريد الله من كمال .

وإن تحمسه للمعرفة على هذه الصورة واهتمامه بأن يبلغ ما يطمح إليه من رفعة لدليل لا يدع مجالاً للريب على أنه فطر على البحث عن الحقيقة وأنه من العباقرة القلائل الذين تفتن بهم الإنسانية إلى سر وجودها ، والذين يأتون إلى العالم على فترات من الزمن ليقيموا الدليل بوجودهم في ذاته على أن حياة الإنسان جديرة بأن يحياها الإنسان .

وإنك لتجد مثلاً لما كان يُعنى به نفسه يومئذ فيما جاء بكتابه « عهد

اليفاعه » قال :

« كنت يومئذ في نحو السادسة عشرة ، وكان العرفاء لا يزالون يترددون علي ،
وكنت أتهياً في فتور وكره لألتحق بالجامعة ... وفي ذلك الوقت الذي أعده
نهاية اليقاعة وبدء الشباب ، كانت تقوم أحلامي على مشاعر أربعة . أولها حبي
« لها » تلك الفتاة الخيالية التي كنت أحلم بها دائماً على وتيرة واحدة والتي كنت
أتوقع أن ألقاها في أية لحظة وفي أي مكان ؛ وثانيها محبتي في أن أغدو محبوباً ،
فقد رغبت في أن يعرفني كافة الناس وأن يحبوني ، ورغبت في أن أصرح باسمي
فأجد من الناس جميعاً ما يدل على اهتمامهم بما أصرح به وأراهم يحيطون بي
فيسمعوني شكرهم إياي على أمر ما ؛ وثالثها أمل في حظ عظيم غير عادي ، وقد
بلغ من تسلط هذا الأمل على أن أشرف بي على الجنون ، ورابع مشاعري وهو
أهمها كان إحساسي باشمزازي من نفسي واستشعاري الندم ، ولكنه كان ندماً
ممتزجاً بالأمل في السعادة ولذلك لم يخالطه الحزن ... ولقد أحسست السرور في
نفوري من الماضي وحاولت أن أجعله أكثر اسوداداً مما كان عليه في واقع الأمر ،
وذلك أنه كلما كانت ذكرياتي عن الماضي أكثر سواداً ، ظهر لي الحاضر الناصع
الواضح أكثر وضاهة ووضوحاً ، وتراءت لقلبي أحلام المستقبل أكثر جمالا
ويهجة ، ولقد كان ذلك الصوت المنبعث في نفسي صوت الندم والرغبة القوية
الحادة في بلوغ الكمال هو الإحساس الرئيسي لروحي في تلك الحقبة من نموي ،
وكان هو الذي رسم لي أساس نظراتي في نفسي وفي البشرية وفيما خلق الله من كون .
وكان له يومئذ صديق في قازان ، وهو فتى طويل القامة ، عريض المنكبين
حسن الهيئة ، في وجهه ملاحظة ورقة ، يبتسم عن أسنان جميلة دقيقة ، ويزين
رأسه شعر مسبل ناعم ، ولكنه كان على الرغم من ذلك خجولاً كصاحبه إذا
لقي الناس ، بل لعله كان أشد منه خجلاً وأكثر حساسية ...
وقد حبب هذا الفتى إلى تولستوى إخلاصه لما يعتقد من رأى وتحمسه له
وصراحته في التعبير عما في نفسه مهما يكن من أمره ، وقد سأل ديا كوف ذات
مرة — وهذا هو اسمه — صاحبه تولستوى قائلاً أتدرى لماذا أحبك أكثر مما
أحب غيرك ؟ ذلك لأنك صريح لا تكتم شيئاً في نفسك ، وهكذا يجتمع الفتیان

على الصراحة فتربط بينهما ، وإني ليقاربان في كثير من ميولها ، ويتضح لها ذلك فيما يدير انه بينهما من حوار في أمور كثيرة ، فيما يتصل بالدين وفيما يتصل بالمجتمع وأركانها من حكومة وتعليم ونظم مالية وما إليها .

ولقد كان هذا الفتى شديد التأثير في حياة صاحبه فما فرغ من محاورته مرة إلا قويت في نفسه الرغبة في العمل على الكمال المنشود ، والانطلاق من حياة اللهو والعبث ، تلك الحياة التي يذهب فيها العمر سدى ، ولئن لم يك لتولستوى مالصاحبه من حسن الهيئة فليس ذلك بمانعه أن يعمل على كسب ما يحمل الناس على الإعجاب به ، مما هو أهم وأجدى من النظر وحسن الطاعة ، بل إنه لحافزه إلى ذلك العمل الذي يعقد عليه عزمه .

على أنه عزمٌ كما أكثر ما يعتزم الشباب فما يلبث أن يذهب فيما تحيطه به الحياة من مسراتها ومغرياتها ، ولكم اضطرب تولستوى بين عزمه وبين لهوه ، ولكم جدد العزم ثم تحلل من عزمه .

وكان ديا كوف هو شخصية ديمتري في كتاب « عهد اليقاعة » فما يفوت كاتب الغد أن يصور أشخاصه كما رآهم في مضطرب الحياة ولن ينسى شيئاً مما رأى أو يسهو عن أمر يتصل بما يقوم في رأسه من فكرة مهما بلغ من ضالة هذا الأمر ، وتلك ناحية من أهم نواحي مقدرته الفنية يوم يغدو أعظم من كتب القصة في أدب قومه وأحد أفذاذها القلائل في أدب أوربا كله ...

وستمضي الأعوام ويبقى أثر ديا كوف في نفسه ، فقد كان مما أوحته إليه صحبته عبادة الفضيلة ، وأن غاية الإنسان في الحياة العمل على بلوغ الكمال والسمو بالنفس أبداً ، وسوف يظهر أثر ديا كوف في قصة الحرب والسلام فيما جاء على لسان « أندري » أحد شخصيات القصة قبل معركة أوسترتز إذ يقول « إني أرغب في المجد ، أرغب أن أكون معروفاً عند الناس وأن يحبني الناس وما لي رغبة غير هذه ، وما أعيش إلا من أجلها ... وإني وإن كان ذلك مني أمراً مروعاً غير طبيعي لأضحى حتى بأعز الناس عندي في سبيل لحظة من المجد والفوز على الرجال ومحبة من لا أعرفهم من الناس ومن سوف لا أعرفهم بعد أبداً » .

طالب فاشل

لما بلغ ليو السادسة عشرة من عمره أراد أن يلتحق بجامعة قازان ، واختار قسم اللغات الشرقية إذ كانت بغيته أن يكون في غده من رجال السياسة ؛ وكان لا بد لمن يلتحق بهذا القسم أن يجتاز امتحاناً في اللغات العربية والتتارية والتركية ، مضافاً إليها بعض اللغات الغربية وبعض فروع المعرفة العامة ، ونجح الفتى في بعض مواد هذا الامتحان وأخفق في بعض ؛ وقد حصل في اللغة الفرنسية على أعلى درجة وتفوق في الألمانية والعربية والتركية ، وكان أقل من ذلك جودة في المنطق والرياضة واللغة الإنجليزية والأدب الروسي ؛ أما التاريخ والجغرافيا فقد كان نصيبه فيهما الرسوب إلى حد بعيد ، وقد ذكر عن نفسه أنه سئل أن يعدد الموانئ الفرنسية فما استطاع أن يذكر منها واحدة ؛ ثم أعيد امتحانه بعد أشهر فيما رسب فيه فنجح وقبلته الجامعة منتسباً ...

وجلس بين صفوف الطلاب ، منصرفاً أكثر وقتاً عما يقول الأساتذة ، يقلب عينيه في أقرانه حيناً فيعجبه منظر هذا وتضحكه هيئة ذلك ؛ وينظر إلى الأستاذ حيناً فيسخر مما يقول أو يرسم له صورة هزلية ؛ ثم ينشغل عما حوله حيناً كأنما أخذته عن نفسه حال فما يفيق إلا على نهوض الطلاب ينطلقون من دروسهم ، فيسرع في انطلاقه منه لأنه ضائق به ...

وكيف يجعل الفتى للدرس باله وإنه لني شغل تارة بما يطوف برأسه من أحلام الشباب وأوهامه ، وآونة بما يهبط على خاطره من أفكار منها ما يتصل بالدين ومنها ما يتصل بالحياة ...

أما عن الشباب وأحلامه فقد كان له في قازان مجال أي مجال للهو واللعب ، وألني الفتى نفسه وقد أخذ حب اللهو عليه كل مذاهبه وطالعه مفاتن الحياة

ومسراتها من جميع أقطاره ، وهو قتي متوثب الشباب تعتلج في نفسه عواطف شتى من الحب والطموح والشهوة وكل ما هو بسبيل من هذا ؛ ولذلك ألقى بنفسه في متع الحياة صالحها وفاسدها وأرخص العنان لشهواته ونزواته ، حتى لينسى في تلك المسرات كل ما عنى به نفسه من قبل من رغبة في الكمال ...

والكمال عنده يومذاك أن يلبس أحسن الثياب وأجملها وأن يفتن في اختيار الألوان حتى يحمل الناس على الإعجاب بذوقه ، ولعل عدم رضائه عن خلقته قد أدى به إلى كثير من الإسراف في هذا السبيل ؛ ثم إنه يلعب الورق ويشرب الخمر في جماعات من لداته ؛ ويدخن الطباق في غليون جميل يحرص أن يكون ثمنه أغلى ثمن ، ويتطيب ويمشط شعره ويدهنه بما يكسبه اللعان ، ويتكلم الفرنسية في أناقة متكلفة ؛ وإنه ليشهد كل حفلة يقيمها أرستقراط المدينة وذلك بدعوة من أصحابها فأينوت أحداً أن يدعوه وقد أمسي شخصية من شخصيات المجتمع ، وإنه ليبذل قصارى جهده أن يلفت الأنظار إليه ، ولكم يبهجه أن يتحقق له ما يريد وبخاصة إذا ظفر بنظرات الأوانس ، ولكم يؤله ويكدر عليه عيشه أن يصادف من احد عدم الاكتراث له أو الفتور في تحيته ؛ وإنه ليندس بين كل جماعة فيتحدث ويعرض آراءه ويخالف ويعارض ليبرهن على أصالته وقوة شخصيته .

وإنه ليغشي دور اللهو جميعاً ، فيتكاف أكثر ما يستطيع من مظاهر أرستقراطية في حديثه وتحياته ومشيته وجلسته ؛ ويدلى بآرائه فيما يشهد من تمثيل أو يسمع من موسيقى ، ويأخذ بقسط من الرقص ، وإن كان لا يحسنه كما يجب أن يحسن . وإنه ليحسب أكثر من مرة أنه نضوح ، فيخيل إليه تاره أنه أسير هوى لشقيقة صاحبه دياكوف ، وتحدثه نفسه أنها خير ما يختار من زوجة ؛ ثم إذا به يتجه بخياله وقلبه إلى صديقة لأخته ماري إذ يراها وهي طالبة في معهد عال تجمع إلى جمال الخلقه حسن الخلق وسعة الثقافة ؛ ولكنه لا يلبث أن يرى نفسه وقد علق قلبه بفتاة تزوجت حديثاً ، علي أنه يؤثر أن يموت بين يديها على

أن يكشفها بما يحس نحوها من حب ... ولن تزال أحلام الحب تطوف بقلبه شأنه في ذلك شأن غيره من الشباب ، ولا تزال الرغبة في الزواج تلح على نفسه وتوحي إليه كثيراً من الأمانى العذاب ، ولكنه لا يستقر على رأى ، وقصاراه أن يحلم بمن يتوق إلى أن يحبها لتكون له زوجاً تجمع بين صدق العاطفة ورجاحة العقل وتحس نحوه مثلما يحسه نحوها وتفهمه كما يفهمها ، وأنى له أن يظفر بهذه الزوجة التي لا يجدها إلا فيما يحلم من حلم ؟

ولم يقتصر الفتى على الأحلام ، فقد كان طُلبَ نساء يسعى إليهن ويسعين إليه ولا يتورع أن يتسلل إلى بيوت يتهامس الناس بأسمائها ويتغامزون إذا مروا بها ؛ ولن تخرج المرأة في رأيه عن إحدى اثنتين ، فإما واحدة يلهو بها ويطنى هُليب جسده ، وإما ثانية يحلم بين يديها أحلام الزواج والعفة ولا يستطيع خياله أن يتجه لحظة أمامها إلى معنى من معانى السوء ، ومن عجيب أمره أنه على تنبله بالثياب والمال وعلي حيويته وقوة بدنه كان خجولاً شديداً الاضطراب إذ وجد نفسه بين أوانس أوسيدات مهما بلغت ألفتة هن ، أو إذا تحدث إلى فتاة أوسيدة ، فما يزول عنه خجله أو يبارحه اضطرابه إلا بعد حين .

ومن كان يحيا حياة كهذه مطلق العنان مسرفاً في اللهو كان حقيقاً أن يفشل في طلب العلم ؛ ولذلك فشل تولستوى فشلاً كبيراً ، على أنه يحاول أن يبرىء نفسه فيرد سبب إخفاقه إلى اضطغان أستاذ التاريخ الروسي عليه ، ويزعم ، أنه كان حسن الإلمام بهذه المادة ، كما يعلن أن هذا الأستاذ أسقطه كذلك في اللغة الألمانية على الرغم من أنه يجيدها أكثر من أى طالب آخر في قسمه ، بما لا تجوز معه المقارنة .

وترك تولستوى كلية اللغة الشرقية إلى كلية القانون ، ولكنه في عامه الثانى بالجامعة لم يك أحسن حالاً منه في عامه الأول ، فقد ظل مسرفاً في لهوه لا يقف فيه عند حد ، يسهر أكثر لياليه في مجونه حتى يسفر الصبح ، ولبث على هذه الحال حتى انتصف العام الدراسي أو جاوز المنتصف .

وكان في الجامعة يتنبل بماله وثيابه ، يصل إليها على جواد جميل وحوله بعض الخدم ، ولا يجالس أو يصاحب إلا من يراه في مثل طبقته ، ويترفع على من يراهم دونه ، ولذلك كان بغيضاً إلى هؤلاء ثقيلاً عندهم ، قال أحدهم يصف شعوره نحوه « لقد كنت أبتعد عن الكونت ، ذلك الذي نفرني من أول الأمر تظاهره بالجفاء كما نفرني شعره القصير الخشن وما ينبعث من عينيه نصف المقفولتين من معان نخز النفس ، وإني لم ألق قط شاباً له مثل ما لهذا الشاب من ذهاب بالنفس ورضاء عنها ، الأمر الذي يعد غريباً كما أنه لا يفهم ؛ ولما كنت أقابل الكونت أول الأمر ، ذلك الذي على الرغم من قبيء منظره وخجله قد اتخذ له رفقة ممن يدعون الأرسقراط ؛ ولما عني بأن يرد تحيتي كأنما يريد أن يشير بذلك إلى أننا أبعد من أن نتساوى حتى في هذا المكان حيث أنه يأتي إليه في عربة أو علي ظهر جواد وآتى أنا راجلاً » وذكر هذا الزميل مرة أخرى أنه تصادف أن حبس في حجرة بالكلية هو وتولستوى بعض الوقت عقاباً لهما على تقصير ، فرأى تولستوى في يده كتاب تاريخ ، فقال إن التاريخ في رأيه أضعف موضوع ، فما هو إلا مجموعة من الخرافات والتفاصيل العديمة الجدوى تتخللها طائفة من الأرقام وأسماء الأعلام ؛ وتطرق الحديث إلى الشعر فتهكم تولستوى وسخر من الشعر ؛ ثم تحدث عن التعليم الجامعي بوجه عام فسخر منه ما وسعته السخرية وسخر من تسمية الجامعة دير العلم إلى أن قال « ويحق لنا أن نتوقع أننا نترك هذا الدير رجلين نافعين مزودين بالمعرفة ، ولكن ما ذا عسي أن نحمله معنا من الجامعة حقاً ، وأي شيء نصلح له ولمن من الناس نكون ضروريين ؟ »

هذا هو رأي زميله عنه ، ولكن الذين عرفوا تولستوى وقد نسي تكلفه يجدونه شخصاً غير هذا ، فهو ذكي الفؤاد محب العشرة إلى رفقائه ، طيب القلب ، واسع الأفق ، متوثب الروح ، صادق الحماسة لما يعتقد أنه حق أو صواب .

وهو في أثناء إجازته الصيفية في ياسنايا ، ينسى ما كان منه في المدينة من تكلف يبعده عن طبيعته ، ولو أن أحداً من خلانه رآه هناك لأخذه العجب من

أن يكون هذا هو الطالب الأرستقراطي الذي عرفه في الجامعة ؛ فهو هنا في القرية يستحم في النهر ويجلس تحت شجرة يطالع قصة فرنسية ، ويصيد السمك أو الطير ويمشي في الغابة ما وسعه المشي وقد أطلق نفسه على سجيته ، فلا أناقة في ملبس ولا تكلف في مشية أو جلسة أو حديث ؛ وإنه لينام في شرفة وياً كل حيث يحب ويلبس ما يلائم لبسه الحر فحسب ؛ حتى إذا عاد إلى المدينة رجع إلى تكلفه وأرستقراطيته .

وتجده بعد إسرافه في لهوه يعود بعد منتصف العام الدراسي الثاني إلى شيء من الجد ؛ ويحد لذة في دراسة القانون المقارن والقانون الجنائي وعقوبة الإعدام ويقبل على القراءة إقبالا شديداً حتى ليتجاوز المقرر كثيراً في هذه الموضوعات ، ويأس منه أستاذه هذا الإقبال فيكلفه أن يقارن بين كتاب منتسكيو « روح القوانين » وبين قانون كاترين الثانية ، فيجد الفتى في هذه المقارنة متعة عظيمة حتى لميل إلى ترك الجامعة كي يستطيع أن يقرأ ما يحب أن يقرأ في غير قيد بما يتطلب المنهاج ، فإنه إذا أقبل على قراءة شيء أحبه لا يجب أن ينصرف عنه إلى غيره حتى يستوعبه ويستوفى منه ما يريد . ويخرج الفتى من مقارنته بين الكتابين بأن كاترين في كتابها قد خلطت آراء منتسكيو الحرة باستبدادها وغرورها ، وأن هذا الكتاب قد أجدي علي كاترين من الصيت أكثر مما أجدي علي روسيا من الخير ...

وفي شهر مارس من سنة ١٨٤٧ يصابه المرض ويلج على بدنه القوى فيحمل إلى مستشفى يقضى به أياماً ؛ وهناك يبدأ الفتى كتابة يومياته فتكون هذه اليوميات من أهم مصادر تاريخ حياته ، فلقد دأب على كتابتها أكثر أيام عمره ؛ ولم ينقطع عنها إلا بضع سنين ثم عاد إليها .

وكانت أول صفحة منها بتاريخ اليوم السابع عشر من ذلك الشهر ومما جاء فيها قوله : « ليس يصحبنى خادم هنا ولا يساعدي أحد ، وعلى ذلك فلن يؤثر مؤثر خارجي في ذاكرتي أو حكمي على الأشياء ، ويجب تبعاً لذلك أن يزداد

شاطى العقلى ... وإن أهم ما كسبته من ذلك هو أن أرى فى وضوح أن تلك الحياة المضطربة التى يعزوها الناس عرفاً إلى الشباب إنما سردها فى الحق إلى فساد روحى مبكر ؛ إن من يعيش فى جماعة يجد فى العزلة من الفائدة مثلما يجده فى الجماعة من كان يعيش فى عزلة ؛ وما على المرء إلا أن ينسحب من الجماعة وينطوى على نفسه ليرى كيف يطرح عقله ذلك المنظار الذى كان يرى خلاله كل شىء حتى ذلك الوقت فى ضوء مهوش ... ولأن يكتب المرء عشرة مجلدات فى الفلسفة أهون عليه من أن يحقق فكرة واحدة تحقيقاً عملياً .

وفى منتصف أبريل من تلك السنة كتب فى يومياته يقول : « لقد فشلت منذ قريب فى أن أجعل سلوكي كما أريد ، وكان سرده ذلك بادئ الرأي إلى أننى تركت المستشفى ، ثم بعد ذلك إلى من أجدنى أعود إلى مخالطتهم من رقة يوماً بعد يوم ؛ وأختم ذلك بأنه ينبغى أن يقودنى تغيير المكان إلى أن أفكر فى جد كيف تؤثر فى الظروف الخارجية كلما تجددت الشروط والأوضاع .

ويتفكر فى مستقبله فيعاوده ما كان يطمح إليه من كمال على الرغم مما أسرف فيه من عبث وهو فيقول : « إنى أجدنى دائماً بحيث يطالعنى هذا السؤال : ما الغرض من حياة الإنسان ؟ و بغض النظر عما بلغته بطول تفكيرى من نتائج وعما أعده فى رأى منبع الحياة ؛ فإنى ما أزال أصل إلى خاتمة لا تتغير وموداها أن الغرض من الوجود الإنسانى إنما هو أن نبذل أكبر عون نستطيعه فى سبيل أن يرقى كل شىء حتى رقىاً عالمياً عاماً ؛ وإنى لو لم أجد غرضاً لحياتى لكنت أشقى بني الفناء ؛ علي أن يكون غرضاً نافعاً عاماً .. وعلى ذلك فيجب أن تكون حياتى منذ اليوم كفاحاً دائماً نشطاً فى سبيل تحقيق هذا الغرض الذى ليس لي غرض سواه .

ويعود الفتى إلى اعتزامه وما يقطعه على نفسه من مواعيق فيذكر ما سوف يأخذ به نفسه من ألوان الجد فى عاميه القادمين بالقرية ، فيسدرس القانون كله ليتبهاً للامتحان النهائى للجامعة ، ويسدرس الطب العملى وقسطاً من ناحيته النظرية

واللغات الفرنسية والروسية والألمانية والانجليزية والاطليانية واللاتينية ، والزراعة النظرية والعلمية والتاريخ والجغرافيا والرياضيات والعلوم الطبيعية ، وسيدون ما يعن له من ملاحظات وسيبلغ درجة الكمال في الفن والموسيقى . وسيكتب المقالات في شتى المواضيع التي يدرسها ، إلى غير ذلك من ألوان الجهد والدأب ... ثم إنه يقطع على نفسه عهداً أن ينجز ما عقد عزمه عليه مهما تكن العقبات وأن ينجزه على خير وجه وألا يرجع إلى انكسب فيما نسي من أمر بل يعمل على أن يسترده من ذاكرته ؛ وأن يحرص أن يبذل عقله أقصى ما في وسعه من طاقة ، وألا ينجل من أن يصارح من يقطعون عليه عمله بأنهم يعوقونه عنه ؛ وليدعهم أول الأمر يشعرون بذلك ، فإن لم يفهموا فليصارحهم به في شيء من الاعتذار . وحق للمرء أن يعجب من هذا الذي يعتزمه الفتى بعد ما كان من لعبه وبطالته ، ولعل إسرافه على نفسه هو الذي يوحى إليه ما عسي أن ينسبه ذلك العيب ويعوضه عما فاتته من جد ؛ وفيه العجب والشباب يتخيل أنه قادر على كل شيء فلننظر ما ذا أنجز الفتى من هذا الذي جمع العزم عليه .

لم يلبث الفتى أن ترك الجامعة دون أن يحصل على شهادة ما ؛ ففي سنة ١٨٤٦ خرج أخوه نيقولا من الجامعة والتحق بالجيش ، وعاش ليو مع أخويه الباقين في بيت استأجروه وقد تركوا بيت عمتهم فلا رقيب عليه ؛ وبعد أشهر قليلة قسمت ثروة أبيهم بينهم فكانت ياسنايا بوليانا من نصيب ليو ، مضافاً إليها أربع ضياع أخرى تبلغ اربعمائة وخمسة آلاف من الأقدنة ، كما كان من نصيبه نحو خمسين وثلاثمائة من الفلاحين المذكور ومن ورائهم أسرهم ؛ وفي يناير سنة ١٨٤٧ يحس ليو بكثير من الضيق بعد أن بارح أخوه الجامعة كما يسأم حياة المدنية وملاهيها وغرورها ، وحياة الجامعة وقيودها والامتحانات وسخفها ، فيكتب إلى إدارة الجامعة لتستبعد اسمه من سجلاتها معتذراً بسوء صحته وبأمور تتصل بمطالب أسرته وينطلق من الجامعة إلى غير عودة ، فهل هو فاعل في غده ما تخيله في قازان من ضروب الجهد ؟

بين الجد واللهم

ودع تولستوى قازان وفي نفسه أنه ودع اللهم والعبث فما إليهما من عودة ،
و بلغ ياسنايا تلك الضيعة المحبوبة وقد زاده محبة لها أمها غدت من نصيبه ، وإنه
ليشعر أنه أصبح مسؤولاً عنها وعن يعيش فيها من الناس ؛ ولقد زاد هذا الشعور
لا ريب في نفسه العزم أن يطلق حياة اللعب والعبث ...

ثم إن فكرة تسيطر على لبه اليوم وتملأ جوانب نفسه ، ومؤداها أن يعمل
في جد على إصلاح حال الفلاحين في الضيعة وما جاورها ، فما يليق به أن يذره
فيهم فيه من جهل وبؤس .

وتستمع إليه العمه تاتيانا دهشة متبسمة فما يخرج الأمر عندها عن أن يكون
نزعة جديدة من نزعات الشباب ؛ ولكنه يعود كل يوم إلى هذا الحديث وإنه
لأقوى عزماً وأكثر جداً ؛ وإن تفكيره في هذا الأمر ليصرفه عن القراءة وعن
الموسيقى التي أحبها حباً عميقاً خبرته عمته ؛ وإنها لتجلس إلى البيان تحاول أن
تمتعه بلحن مما يحب ، فما يروعها إلا انصرافه عنها وعن لحنها ليقبل على حديث
إصلاح الفلاحين ...

وتعجب عمته ويزداد عجبها إذ تراه يتخذ لنفسه زياً خاصاً به ، يعتمز أن
يلبسه في كل وقت وفي كل مكان لأنه يظهره في مظهر الفيلسوف ؛ ولكن الفتى
لا يلبث حتى يخلع هذا الرداء ويلقي به لأن أحد الزائرين لم يتمالك نفسه ذات مرة
من الضحك من مظهره ، وكره الفتى أن يكون موضع استهزاء ، وهو الذي طالما
تأنق وتنبل بالثياب ...

وما الذي ألقى في قلب الفتى هذه الرغبة القوية في إصلاح حال الفلاحين ؟
أهي مجرد نزعة من نزعات الشباب حقاً ؟ أم هي خيال ألقاه في نفسه قراءة قصة

حديثه تسمى « القرية » ألفها تصمعي يدعى جري مجرور وقتش وصور فيها حياة الفلاحين صورة مؤلمة تبث في النفوس شعور الرثاء الحالم؟ أم أن مرد ذلك إلى تلك العاطفة التي عرف بها منذ طفولته وهي أنه يحب أن يرى الناس جميعاً حوله سعداء؟ الحق أن الفتى ما كان ليستطيع أن يرى مظاهر البؤس من حوله ثم لا يتحرك لها قلبه الإنساني الرحيم ، وكيف كان يطيق أن يسمع فيما يسمع أن امرأة قضت نجبتها من الجهد ، وأن المرض يفتك بالناس فلا يستطيعون له دفعا ؛ وكيف كان يطيق أن يخرجوا على قدميه سجداً يسألونه القوت ؛ لقد كان ذلك يؤلمه أشد الألم أو كما يقول « إن ذلك كان يؤلمني كما تؤلمني ذكرى جريمة ارتكبتها ولم يكفر عنها » . على أنه يعجب أشد العجب من إعراض الفلاحين عن إصلاحاته ؛ ويألم إذ يرى في وجوههم الشك والإنكار والعناد ، وإذ يسمع أنهم يصفون ما بنى لهم من أكواخ جديدة بأنها سجون ، وأنهم برموا بالمدارس التي افتتحتها لأبنائهم والتي كان يعلمهم فيها بنفسه أحياناً ، فعندهم أن هذه المدارس تجرمهم من معاونة أبنائهم إياهم في أعمال الزراعة ؛ ويقلب تولستوى كفيه حائراً من أمرهم ، وفي نفسه شعور الغضب ومرارة الخيبة ...

ولا يلبث اليأس أن يصرفه عما شرع فيه ، فينصرف عنه مكرهاً لأنه كان شديد التعلق به ، بدلنا على ذلك ما جاء في قصة كتبها بعد سنوات قليلة ، هي القصة المسماة « صباح أحد المالكين » فقد صور فيها أميراً يحلم بأن يعلم الفلاحين ويسعدهم ويوفر لهم أقاتهم ، ويصلح رذائلهم التي تنجم من الجهل والتعلق بالخرافات ، ويجعلهم يحبون الهدى والحق ؛ وفي هذه القصة يترك الأمير الجامعة ليعود إلى القرية ويكتب إلى عمته برغبته في إصلاح حال الفلاحين في ضياعه قائلاً بعد أن يصف مبلغ بؤسهم : « أليس واجبي الواضح المقدس أن أعنى بحال هذه الأنفس السبعائة التي سوف يسألني الله عنها حساباً ؛ ثم أليس من الإجرام أن أجرى وراء أتماط من اللهو والطمع بينما أدعهم لمشايخ أوروساء ، هم عليهم خشن غلاظ ؛ ولم أبحث في نواحي أخري عما عسي أن يظهرني بمظهر الرجل النافع الخير

في حين أن أمامي هذا الواجب الوضي^٤ النبيل الذي أعرفه عن وثوق وخبرة ؟ .
ولم يكن يدور بخلد أن يجد من الفلاحين هذا الجمود ، فما أشد ما كره
ما كان فيه من جد وما أسرع ما أقبل على لهوه وعبثه ، وقد نما إليه أن خاه
سيرجى يعيش مع غجرية مغنية عيشة مطلقة من كل قيد في ضيعته ؛ فحبب إليه
عبث أخيه أن يعود هو كذلك إلى عبثه ، فأقبل على المجون واللعب وأسرف في
ذلك إسرافاً شديداً وبخاصة في مخالطة النساء مخالطة لا تأثم منها ولا تورع فيها
حتى لقد أحدثت أثرها في بدنه القوي أو كادت ، وحتى لقد عاد الفتى إلى سالف
ندمه فإنه يكتب في يومياته في منتصف شهر يونيو سنة ١٨٤٧ يقول « ما أصعب
على من يقع تحت تأثير الشر أن يزيد ما تنطوى عليه نفسه من خير ... هل
أبلغ بعد الأمد الذي أجدني فيه مستقلاً عن المؤثرات الخارجية ؟ إن ذلك معناه
في رأي الوصول إلى كمال عظيم ، حيث أنه في حال الرجل الذي يتخلص من
العوامل الخارجية ، تسيطر الروح على الجانب المادى منه بالضرورة فيبلغ ما يريد ؛
وسأضع اليوم لنفسي قاعدة جديدة وهي أن الاجتماع بالنساء إن هو إلا شر من شرور
المجتمع لا بد منه ، وعلى المرء أن يتجنبه ما استطاع ؛ وممن نتعلم في الواقع الشهوة
والخنوثة والتفاهة في كل شيء إن لم تتعلمه من النساء ؟ وعلى من تقع تبعة فقداننا
تلك المشاعر الغريزية فينا كالشجاعة والمناعة والبأس والتصبر والعدالة إن لم تقع
على المرأة ؟ إن المرأة أشد استجابة من الرجل للمؤثرات ، وكانت في عصور
الفضيلة خيراً منا ، ولكنها الآن في عصر الفساد والرذيلة قد باتت أسوأ منا
وأرذل ... »

وتلح إليه العمّة تانيا نا ذات يوم بقولها « إنه لا شيء يكون الشاب خيراً مما
يكونه ارتباطه بفتاة ذات خلق » ؛ ولكن توثب حيويته وعرامة فتوته وحبه
الاستقلال ، كل أولئك يميل به عن أن يركن إلي ما تقول ..

وسيكبر هذا الفتى وقد ذاق حلو الحياة ومرها فيكون له من ذلك مادة
لفنه وسيفيد من لهوه هذا كما يفيد من جده ، فلما ينسى شيئاً مما تطالعه به الحياة ،

وسوف ترى نظراته هذه إلى المرأة سنة ١٨٤٧ وهو في التاسعة عشرة ، تتجدد في قصة يكتبها سنة ١٨٨٩ وهو في الحادية والستين ، وهي قصة كروتزسنانا .
لم يعد للفتى أمل في إصلاح فلاحيه وأحس أنه يقضي أيامه في ياسنايا عبثاً فصم على الرحيل منها ، وفي شهر أكتوبر سنة ١٨٤٨ سافر إلى موسكو حيث قضى ثلاثة أشهر أو أربعة مطلق العنان لا يلويه عن العبث واللغو شيء ، وله من فراغه وشبابه وماله ما يزيد جوحه ويمد في حبال غوايته ؛ ثم سافر الفتى إلى بطرسبرج فدخل جامعته ليدرس القانون ثانية وليحصل على درجة علمية تهيئه للالتحاق بوظيفة من الوظائف المدنية .

وأقبل الفتى علي الدراسة في جد وعزم كأن لم يعرف اللعب يوماً ؛ وكتب إلى أخيه في فبراير سنة ١٨٤٩ يخبره بما هو فيه من جد ، ويتبثه بأنه سيبقي في بطرسبرج إلى الأبد ، ويصف له في كتابه مبلغ ما للحياة في هذه المدينة من أثر في نفسه ، فكل شيء يبعث على الجد والدأب ، وكل امرئ يسعى سعيه حتى لن يجد المرء من يصحبه إلى حياة عابثة ، ولن يستطيع المرء أن يحيا هذه الحياة وحده ، إلى أن يقول لأخيه « أعلم أنك لن تصدق أنني غيرت ما بنفسى وأنت ستقول إنها المرة العشرون ولكن في غير جدوى ؛ كلا ... لقد تغيرت الآن ... وفوق ذلك فانتى اليوم يداخلى إحساس بأن المرء لا يستطيع أن يعيش بالنظريات والفلسف ، ولكنه ينبغى أن يحيا حياة واقعية ، أعنى أنه يجب أن يسلك سلوكاً عملياً ... وهذه خطوة واسعة نحو التقدم » .

وفي شهر أبريل يجتاز ليو امتحاناً في القانون المدني والقانون الجنائى بنفوق ملحوظ؛ على أن ذلك لم يكن في الواقع ثمرة جهد متصل وإنما كان ثمرة أسبوعين استوعب فيهما ما استطاع أن يستوعبه من هاتين المادتين ...
وفي شهر مايو يكتب لأخيه فإذا به يقول في كتابه « أى سير يوشا ... أتوقع أنك سوف تقول إنى أكثر من عرفت ضعف عزيمة ، ولكى أكون

أميناً ، ينبغى أن أقول إن الله يعلم ماذا كنت أفعل هنا !... لقد جئت بطرسبرج
بغير سبب معين ، ولم أعمل هنا عملاً ذا عائدة ، وقصاراى أنى أنفقت مالا
كثيراً حتى لقد تورطت فى الدين ؛ يا للغباء ! وأى غباء ؟ لن تستطيع أن تصدق
كيف يؤلمنى ذلك ، وبخاصة تلك الديون التى يجب أن أؤديها بأسرع ما فى
وسعى ، وذلك لأننى إن لم أفعل فلست أقصد المآل فحسب ، بل أقصد معه شرف
سمعتى . أعلم أنك ستضج بالشكوى ، ولكن ماذا عسى أن أصنع ؟ إن الإنسان
يقترف مثل هذه الحماقة مرة فى مدى عمره ... وإنى لأركن إلى عطفك إذ أرجو
منك أن تتدبر فى إخراجي من هذا الوضع الكريه حيث أجدنى مفلساً يحيط
بى الدين من كل جانب .

ويعتزم الفتى أن يلتحق بالجيش فى فرقة الفرسان متطوعاً فى الحرب ، وأن
يترك جامعة بطرسبرج دون أن يتم دراسته فيها كما ترك جامعة قازان من قبل
وكانت الحرب التى يريد أن يتطوع فيها هي تلك الحرب الظالمة التى قذفت بها
النمسا الأحرار المجاهدين فى المجر ، أولئك البواسل الذين رغبوا فى الاستقلال عنها
وردوا جيشها وقد عصفت العواصف بأنحاء الامبراطورية حتى استعانت بالجيش
الروسى فجاء لمعوتها خمسون ومائتا ألف من هذا الجيش ، وكانت روسيا تريد أن
تطفى نار الثورة فى المجر حتى لا تمتد إلى بولنده ، وكانت تحت حكمها ، فتخلع عنها
نير الاحتلال ؛ ومن عجب أن يتجه تولستوى إلى التطوع فى حرب ظالمة كهذه
الحرب وهو الذى سوف يكون فى غده من أكبر الساخطين على العدوان وعلى
الحرب أيا كانت بواعثها ...

وكان لزاماً على من يتطوع أن يقضى سنتين فى صحبة الجيش العامل
قبل أن يسمح له بحمل السلاح والقتال ، ولكن تولستوى كان يطمع أن
يتخذ مكانه فى الصفوف قبل انتهاء هذه المدة بما عسى أن يبدى من مهارة وقوة
وإن خياله ليسهل له كل شيء فما إن يفكر فى أمر حتى يحسبه حقيقة واقعة ،
وإنه ليحدث نفسه بأن عمله فى الجيش سوف يكسبه خبرة بالحياة والناس ،

وسوف يخلق منه شخصاً جديداً ، إذ أنه بهذا العمل ينجو مما يغريه به الفراغ والشباب من عبث وهو ...

ولكنه لا يلبث إلا قليلاً حتى يكتب لأخيه يقول له : « أثبت في كتابي الأخير إليك كثيراً من الالغو ، وكان أبرزه ما أشرت إليه من رغبة في التحاقى بفرقة الفرسان ، وسوف لا أفعل ذلك إلا إذا فشلت في امتحاناتى أو إذا كانت الحرب ذات خطر » .

وجاء الربيع يبعث البهجة والحياة في كل حى ، وطافت بخيال الفتى مجاليه في أسحاره وأصاله ، هناك في ضيعته المحبوبة ياسنايا بوليانا ، فسرعان ما انطلق من جامعة بطرسبرج كما انطلق قبل من جامعة قازان ، وسرعان ما أبعده عن فكره وخياله العمل في الجيش وفي الوظائف المدنية جميعاً ، ثم أقبل على ياسنايا ، وليس في نفسه هذه المرة من عزيم إلا تعلم الموسيقى !



بين العبث والندم

لن يصبر الفتى على المقام طويلا بيسنايا ، فإن المدينتين : موسكو وبطرسبرج ما تزالان تدعوانه إلى مفاتهما وزيتهما ، وما إن يأخذ الفتى حظه من اللهو في إحداها أو في كليهما حتى ينطلق إلى ياسنايا يطلب الهدوء ويأمل في التوبة ، ويرجو أن يتفرغ لشؤون ضياعه ، وعلى هذه الحال قضى الفتى ثلاث سنوات يلقي به طول عبثه إلى الندم ، ويؤدي به سأمه من ندمه إلي ما كان فيه من عبث ؛ وكان في حاله يمثل حياتي أخويه . فإذا أمعن في عبثه ومجونه وعدم اكترائه لشيء مثل حياة سيرجي ، وإذا ندم وتكشف وزهد في الحياة الدنيا وزينتها عاش عيشة ديمتري .

ولم يقف عبثه عند حد في العاصمتين ؛ فهو في ليله يسرف في الميسر ويغشى أمكنة اللهو وينتقل بين «صالونات» الأرستوقراط وأما كن العجريات المغنيات ، يقضى أرب مشاعره من الجمال والبهجة ، وغاية بدنه من الفسوق والرجس ، وهو في نهاره يستمتع بالصيد أو بركوب الصافنات الجياد ، أو يملاً فراغه بلبع الورق أو الشطرنج أو بكتابة ما يداخله من ندم في دفتر يومياته ، أو باللعب ساعة على البيان ، وهو في ليله وفي نهاره يشرب الخمر ويصيب ما يلذه من طعام في أشهر مطاعم المدينة وأغلاها ثمنًا . يفعل ذلك في رقعة من صحابته يعبثون ويلهون كما يعبث ويلهو ، ويفوزون منه بما ينفق عليهم من ماله ...

ويحاول أحياناً أن يصنع ما نصحت به عمته تاتيانا إليه ، وذلك أن يرتبط بفتاة ذات خلق وكرم محتد ، فيدور بعينيه في سهرات الأرستوقراط يطالع وجه الأوانس ، ويخفق قلبه لهذه أو لتلك ، ولكنه لا يلبث حتى ينطلق تحت ستار الظلمة إلى حيث يلقي بنفسه بين ذراعي إحدى العجريات !

ويحلم تارة أحلام الزواج فيهبو قلبه إلى الأنسات في صحبة أمهاتهن وقد تبرجن

وأبدن زينتهم ، ويتظرف في حديثه ويظهر أكثر ما يستطيع من مظاهر الاستوقراطية والنبيل ، ولكنه سرعان ما ينصرف عن هذا إلى ما يوسوس به الشيطان من فجور وإثم يطفىء به ضرام بدنه القوي الذي ما يزال يلتهب من شهوة ويعود إليه تارة تخيله أنه محب وأنه أسير هوى غادة عرفها في موسكو هي الأميرة شرباتوف ، وإن كانت هذه الغادة لتجهل كل الجهل ما تحدثه به نفسه من حب ، ولا تظن إلى ما يخيل إليه أنها بعثت في نفسه من عاطفة ... وكذلك تساوره أحياناً رغبته في الكمال ، تلك الرغبة التي تسلطت عليه زمناً في قازان ، ولكن الكمال هنا يتخذ منحى جديداً غير منحى الثقافة والمعرفة ؛ فهو يريد اليوم أن يكون رجل مجتمعات ، يشار إليه في المنتديات والصالونات ، ويريد أن يكون حديث مجالس ينصت إليه ذوو المكانة ويصفونه بأحسن أوصافهم من النبيل والتهذيب والظرف واللباقة ؛ ولكنه لا يستقر على هذا الاتجاه وما هو إلا أن تـوسوس له أقل المغريات حتى يعود إلى مجونه وجنونه ، ليعب منهما ما يشاء له شبابه ، ثم يعمد إلى دفتره فيثبت فيه ما يخالجه من ندم ومن تأنيب منه لنفسه ؛ وهكذا يحيا الفتى في المدينتين حياة لا تختلف عن حياته في قازان إلا بما يكون من إفراط في اللهو وإسراف في المال .

ولن يزال الفتى كالفراش الهائم يطير من زهرة إلى زهرة ، ومن ثمرة إلى ثمرة ، أو يقع على اللهب ليرتد عنه ثم يجذبه الضوء فينجذب إليه ، ولا يجد ما يئته خلجات شعوره ونوازع وجدانه إلا دفتر يومياته ؛ كتب في هذا الدفتر سنة ١٨٥٠ يقول وقد كان في موسكو « إن هذه ثالث سنة لي أقضى شتاءها في موسكو دون أن أكون في منصب ما ؛ هنا حيث أقضى حياة سخيقة لا غناء فيها ، حياة فارغة لا تهدف إلى غرض ؛ ولم أحى هذه الحياة لأن كل امرئ في موسكو يفعل مثلما أفعل ، ولكن لأن مثل هذه الحياة هيأت لي أسباب المسرة » .

وبلغت حاله من السوء في أواخر تلك السنة بما أسرف على نفسه في الميسر أن أصبح يطلب القليل من المال فلا يكاد يجده ولذلك فكر في أن يشغل منصباً

يرتزق من وظيفته ، واتجه إلى منصب مدير البريد في مدينة تولا : ولكنه لم يجد في نفسه المقدرة على أن يعمل عمل الموظفين فانصرف عن هذا المتجه ...

ولكن ماذا عسي أن يصنع وقد اشتدت به الحاجة إلى المال وفدحته أعباء الدين ؟ ... يا عجبا ! إنه يريد أن يحذق لعب الورق ليكسب المال من الميسر ، عسى أن يعوض شيئاً مما خسره فيما سلف من لعبه ، ولكنه ما لبث أن رأى أن الميسر ما كان وسيلة لكسب المال وإنما هو كما عرف من قبل وسيلة للإنلافه؛ ثم إن الفتى يضيق بحياته هذه حتى ما يطيق صبراً فيعود إلى يا سنايا بوليانا

ويقضي الفتى في ضيعته بضعة أشهر لا يكدر عليه صفوه ولا يقطع هدوءه إلا إلحاح عاطفته الحيوانية عليه وظماً بدنه ذلك الظماً الذي لا يفتر؛ ولكنه يغالب تلك العاطفة بكل ما في طوقه من عزم ، ويصبر على ذلك الظماً ما وسعه الصبر؛ ثم لا يلبث حتى يجد نفسه وقد غلب على أمره فعاد أكثر مما كان نهماً وطمعاً. والحق أنه كان يعاني كثيراً من الضيق من جراء فشله كلما فشل في مغالبة هذه العاطفة؛ أشار إلى ذلك مرة لأحد مترجمي حياته بعد أن تقدم به العمر فذكر أنه ما من شيء كان أشق على نفسه من محاولته قهر هذه العادة التي تسلطت عليه فلم يقو على دفعها؛ ولقد كان يتأثم منها ويندم أشد الندم كلما منى بفشل جديد ، تجد ذلك في مثل قوله سنة ١٨٥٠ « إني أعيش عيشة بهيمية ، ولقد هجرت كل ما عسي أن يشغلني من عمل ؛ وإن ذلك ليكدر روحي كدراً شديداً » .

ولا يكاد الفتى يجمع من المال قدراً حتى يعود إلى موسكو في مارس سنة ١٨٥١؛ وفي نفسه هذه المرة أن يتعد عن كل ما يشين لأنه اليوم يريد أن يصل إلى مكانة مرموقة في المجتمع وأن يشغل منصباً ذا خطر وأن يتزوج من ذات ثراء ومحتد ...

وراح يغشى أواسط الارستوقراط يشهد الحفلات والولائم ، يهيمه أن يتعرف إلى العلية وذوى المكانة والنفوذ؛ إذا جلس في حلقة أخذ بقسط موفور من الجدل والحديث ، وحاول ما استطاع أن يكون هو الذي يدير الكلام ويصرف

وجوهه ، وحرص على أن تكون آراؤه مثيرة للدهشة أو للانتباه أو للمعارضة ، واجتهد أن يبرز أقصى ما لديه من علم فيما يشفق إليه الحديث من مسائل فيفيض ويشرح وجهة نظره ويسرد الأمثلة ويبسط الحجج في لهجة المتمكن القادر .

وعادت تطوف برأسه أحلام الزواج ؛ وعاد يتذكر ما تمنته له عمته تاتيانا ؛ فقد كان أجل ما تمنته له أن يتزوج بفتاة عظيمة الثروة وأن يمتلك من رقيق الزراع أكثر ما يستطيع أن يمتلك ؛ ولكنه يرى أن مثل هذا الرباط لن يكون إلا بالحب ، وهذا ما لا يحس أنه انتهى فيه إلى رأى ...

وكان لا يزال يطمع أن يعينه بعض ذوى النفوذ والجاه من أقربائه أو أصدقائه علي أن يظفر بمنصب من مناصب الدولة ينعم فيه بالمال والجاه ، ولكنه لم يصل من ذلك إلى كل ما يريد ..

وكان قد صمم عند مجيئه إلى موسكو ألا يقرب للميسر وقد أوصته عمته أن يتحرر من هذه العادة الملتفة للمال الموبقة للروح ؛ ونفذ الفتى أول الأمر ما عقد عزمه عليه وابتعد عن الميسر كل الابتعاد كأنه أمر ينفر منه بطبعه ، ولكن ما كان أعجب عودته إليه بعد قليل يأمل من جديد أن يجد فيه مخرجاً مما هو فيه من عسر ؛ ولعب ما وسعه اللعب وخسر خسارة كبيرة ، ولكن الخسارة لم تزد إلا إسرافاً في اللعب وعدم اكتراث لما يكون للعب من عاقبة ، حلوة كانت أو كانت مرة قاسية المرارة ؛ ولقد بلغ به الأمر أن رهن ساعته يوماً ليدفع ثمن معطف ذى فراء أراد أن يدخل على روحه بعض البهجة بلبسه والتنبل به وإن صغرت من المال يده ...

وضاق صدره بحياته على هذه الصورة وعزا هذا الاضطراب إلى ضعف عزيمته . كتب في دفتره يقول « إنى ألاحظ أن أهم عاطفتين تتسلطان علىهما الميل إلى اللعب ثم الغرور » ، وراح يتهم نفسه كل يوم في دفتره ويندم ما وسعه الندم ، وجعل لكل يوم من أيام الأسبوع في دفتر آخر فضائل يؤديها وأخذ يشير بعلامة إلى ما قصر في أدائه حتى لا يعود إلى التقصير في مثل ذلك اليوم من الأسبوع التالي ، ثم لاذ الفتى بالدين فزهد الحياة أياماً وصام وصلي وألف

دعاء يدعو به الله ايجرجه مما هو فيه ...
ولحت للفقي بارقة أمل ، لم لا يجعل الأدب حرفة له ؟ ألم تكن عمته تانيانا
على حق حين قالت له ذات يوم « إني أعجب يا عزيزي . ليو كيف لا تكتب
رواية ولك مثل مالك من خيال ؟ » .

وكان الفقي يقرأ القصص أكثر ما يقرأ ، ولم ينقطع عن القراءة مهما شغلته
الشواغل أو ملأ حياته اللهو ، ولا يزال إعجابه بروسو عظيماً ، وكذلك لا يزال
يجعل له كنز منزلة عظيمة في نفسه ، أما الكتاب الروس فقد كان يقبل منهم
على بوشكين وجوجل إقبالاً شديداً ، وكان لثانيهما تأثير قوي في خياله وعقله ،
وبداً يلتصق اسم ترجميف وكان أكبر من تولستوى بعشر سنوات ، وقد نشر
أول كتبه سنة ١٨٤٧ وهو « مذكرات رجل صيد » ، وكان لهذا الكتاب كذلك
تأثير عميق في خيال ليو ووجدانه ، وبخاصة ما أظهر مؤلفه في فنه القوي المحكم
من حياة رقيق الأرض ... وقرأ الفقي لغير هؤلاء الكتاب كتب شلر وكتب
ستيرن وغيرهما من فحول القصة والشعر .

وتصادف أن كانت قصة دكنز العظيمة دافيد كويرفيلد تنشر يومئذ تباعاً
في إحدى المجلات فأحدثت في نفسه أثراً لم تحدث مثله قصة غيرها وظلت لها في
نفسه المكانة الأولى حتى آخر حياته ...

وماذا عسى أن يكتب الفقي ؟ ذلك ما حيره أول الأمر حيرة شديدة ، أيصف
حياة الفجر كما فعل بوشكين وإنه اليوم بهم عليم ؟ أيكتب قصة عمته تانيانا ؟
لا ؛ إنه لا يميل إلى هذه ولا إلى تلك فماذا يكتب ؟ ليصف زيارته بالأمس لتلك
الأميرة شيربانوف التي ظن أنه يحبها ؛ وأقبل الفقي فوصف هذه الزيارة ، ولقد
نشرت هذه القصة الصغيرة حديثاً بعد أن عثر عليها ، ورأى الناس أول عمل أدبي
لنايفة كتاب القصة في القرن التاسع عشر ، فإذا بهذه الباكورة تنطق بكثير من
دلائل عبقريته ...

ويقول ليو في دفتره « إن الوصف ليس كل شيء .. كيف ينقل المرء إلى
القاري شعوره ؟ » . قال ذلك لأنه كان قد اعتزم أن يجعل الوصف غاية من



تواستوى عند ما ترك الجامعة

obeykandl.com

الكتابة فيصف كل ما تقع عليه عيناه .
ثم بداله وكان أثر دافيد كوبر فيلد قوياً في نفسه أن يكتب أيام طفولته ،
وانسكب على الكتابة كل صباح من الساعة الخامسة إلى الحادية عشرة ، حتى
أتم باكورة آثاره التي كتب لها الخلود .

ولكن حياة اللهو وأسفاه تعود فتصرفه عن هذا الجد . فيقبل على لذائذه
ويسرف من جديد في مجونه وعبثه ، ثم لا يجد آخر الأمر خيراً من أن يلوذ
بضيعته من هذه الحياة التي سئها وسم نفسه بسببها فيعود إلى ياسنايا في صيف
عام ١٨٥١ ولم يتزوج من ذات ثراء ولم يظفر بمكانة في المجتمع ولا بمنصب خطير
من مناصب الدولة ، ولم يتحرر من الميسر ولا مما يوهن عزمه من نوازع بدنه
القوى الذي لا تهدأ حيوانيته ...

وأقام في القرية أياماً يخالجه شعور الندم على ما كان من عبثه الذي أسرف
فيه على نفسه وشعور الحسرة على ما آلت إليه حاله من عسر ومن دين ، وينظر
اليوم إلى هؤلاء الرقيق الزراع الذين أراد إصلاحهم بالأمس فيؤلمه أنه انقلب
اليوم مبدداً لما تنتجه أيديهم من خير ؛ فلا هو أصلحهم ولا أفاد من كدم إلا
ذلك المال الذي يذهب هباء في الميسر والترف والفرور والفسوق .

وينقاد إلى جموح بدنه في القرية كما كان يفعل في المدينة ، لا يهدأ هذا
البدن ولا ينطفي لهبه ؛ ولكنه يشعر بآثار شديدة ذات ليلة إثر فعلة من فعلات
الشباب فعلها تحت جناح الظلام ، وكأنما استيقظت في نفسه مشاعر جديدة في
تلك اللحظة جعلته ينكر هذا الذي فعل إنكاراً شديداً كان أكثر قيمة من ذلك
الندم الذي كان يخالجه كل مرة ثم لا يلبث أن يموت .

كره الفتى حياته كرها شديداً ، وضاق بالتمام في ياسنايا وفي موسكو وفي
بطرسبرج ، وما له غير الرحيل شفاء لنفسه ومنجاة لروحه ، فليرتحل إلى حيث لا
يجد شيئاً يذكره بالذي كرهه أشد الكره وأنكره كل الإنكار من مواطن
مجونه وعبثه وفراغ حياته .

روسيا لا تزال في الغسق

أهل على أوروبا نور القرن التاسع عشر وروسيا ما تزال في الغسق : ولئن لاحت في أفقها بشائر الفجر لحظة على يد قيصرها الإسكندر الأول الذي ولي أمرها في أول أعوام هذا القرن فإنها ما لبثت أن علمت أنه الفجر الكاذب ! كان الإسكندر يريد أن يوجه همه إلى النهوض ببلاده في الداخل ، وقد اعتزم أن يجنّبها وييلات الحرب في الخارج ، ولكن سرعان ما فطن أن طوفان الحرب لا بد مدرّكه فخالف إنجلترا والنمسا وظاهرهما على نابليون ، ومن ثم ذهبت بشائر الفجر أبديداً في حلّة الليل العابس .

وما لبث أن ساق نابليون الجيش الأعظم ليدلّ به روسيا ؛ ولكن حملته عليها كانت بداية نهايته ؛ ولما أُحْمِلَ بعد وترو إلى سنت هيلانة ، أصبح القيصر في القارة مرموق المكانة عظيم الخطر .

ولكن هذا الوضع الذي هيأته الظروف لروسيا في سياسة القارة كان يتطلب رجلاً غير الإسكندر ، فلقد حار هذا الرجل بين دعاة الرجعية وأنصار الحرية ، كما أضله زمناً تصوفه وحلمه اللذيذ الذي خيل إليه أن في الإمكان أن تجعل أوروبا تسامح المسيحية أساس العلاقات الدولية ؛ وأخيراً تغلبت عليه سياسة مترنخ ، فصار من أكبر أنصار الرجعية في القارة وفي روسيا ، وفقد دعاة الحرية أملاً عللوا به أنفسهم برهة على يديه .

وأخذت أوروبا تقاوم الرجعية ، فكانت تلوح بشائر النور مرة وتختفي مرة ، ولكنها كانت ترى كل مرة أسطع منها في سالفاتها نوراً وأطول أمداً حتى ذهب الليل وانهل النور فأضاء كل ركن في القارة ومحا كل ظلمة .

ولكن ليل روسيا قائم قائم وآفاقها عابسة دامية ؛ وكان يدب تحت هذا

الليل نحو تسعة وأربعين مليوناً من الأنفس كلهم عبيد ومن هؤلاء زهاء ثلاثة وعشرين مليوناً تابعون للقيصر ، ومثل هذا العدد تابعون لملاك الأراضي ، وماتبقى بعد ذلك للكنيسة ، أو أوزاع وخدم .

ولم يك هؤلاء الملايين يملكون من أمرهم شيئاً ، إذ كانوا في كل أمر خاضعين لمشيئة سادتهم لا يذتقلون من جهة إلى جهة غيرها ولا يمتلكون شيئاً أو يبيعونه إلا بإذن من هؤلاء السادة ؛ وهم فوق ذلك مكلفون بأن يؤدوا للسيد ما يطلب من المال ضريبة أو منحة وأن يعملوا مسخرين في أرضه ، وللسيد إذا باع أرضه أن يبيعهم كما تباع القطعان والسلع ؛ وهو ينزل بهم ما شاء من أنواع العقاب كالجلد والحبس والنفي إلى سبييريا .

وكان السادة الأرستوقراط يعيشون عيشة مترفة ، ولهم في قصورهم كل ما في الحياة الأوروبية من مظاهر النعيم ، فالمواد والحفلات الساهرة والأثاث والخدم علي اختلاف أعمالهم ومراتبهم كل أولئك على النمط الأوروبي ؛ وأخذت العادات وآداب المجتمع الأوروبي تتغلب على عادات الروس وعرفهم في هذه البيوت الأرستوقراطية التي تجعل قياس التمدن الأخذ بأكثر قسط من كل ما هو أوروبي حتى اللغة فإنهم في هذا الوسط يتكلمون الفرنسية في حفلاتهم التي تجمع بين الرجال والنساء وفق الأسلوب الأوروبي ..

وانحطت الحكومة ، فلا أمانة ولا عدالة ولا إصلاح ؛ وكانت وظائف الدولة لمن يدفع من المال أكثر مما يدفع غيره ، أو لمن كان له بدوى الجاه صلة ، فأصبحت الرشوة أمراً لا غرابة فيه ، ونفشت حتى تسالت إلى المحاكم دانيها عاليا ؛ ولم يكن للحكومة منهاج أو شبه منهاج للإصلاح ، وحسب رجالها في المقاطعات أن يجمعوا لأنفسهم المال بكل ما وسعهم من حيلة أو واتهم من بطش ...

وكان الملايين من الزراع أضعف من أن يشتكوا ؛ لهذا حملوا الآلام كما تحملها الدواب فلم يكونوا صابرين على حالهم وإنما لم تكن لهم فيه حيلة ! ولقد

كانت حال هؤلاء المساكين أسوأ كثيراً من حال المزارعين في فرنسا قبل ثورتهم الكبرى ، ولكن أولئك الفرنسيين كانت بينهم طبقة امتلكت وتعلمت وتأثرت بكتابة المفكرين والفلاسفة وهي الطبقة الوسطى ، ومن بين صفوف هذه الطبقة انبعثت الشكوى ثم رجفت بعد ذلك الراجفة !

أما في روسيا فلم يكن غير كبار الملاك وهم السادة وملايين المزارعين وهم العبيد . على أن مقاومة الاستبداد في روسيا جاء على يد نفر من هؤلاء السادة التملكين ، الأمر الذي يبدو عجيباً لما فيه من تناقض ، ولكن للمسألة وجهاً يفسر هذا التناقض ، وذلك أن هؤلاء السادة لم يكرهوا الاستبداد ولكنهم كرهوا أن تعتمد الحكومة القيصرية على طبقة الموظفين والحكام ومعظم رجالها من عنصر ألماني ، وتهمل أعيان الروس رغبة في القضاء على طموحهم نحو التسلط ، ومن ثم رحب هؤلاء بكل شكوى تنبعث ضد القيصر وحكومته .

وثمة فريق آخر يعطف أشد العطف على كل رغبة في الإصلاح وهؤلاء هم رجال الجيش العائدون من فرنسا والقارة بعد سقوط نابليون وبخاصة الشبان ، فلقد امتلأت قلوبهم بأمال وأحلام ، وعادوا إلى روسيا آملين أن يطلع علي بلادهم نور يزيح عنها هذا الغسق ، كما عاد لافاييت وأقرانه من شباب فرنسا الذين تطوعوا في صفوف الأمريكان في حرب استقلالهم إلى وطنهم يحملون مبادئ الثورة ويرتقبون الميلاد الجديد ...

وتسامع هؤلاء الرجال بالجمعيات السرية في القارة كالكاربوناري في إيطاليا والهييتيريا في اليونان ، فأسسوا لهم في روسيا رابطة الخير العام ، وجعلوها سرية بالضرورة ، وتفرع من هذه الجمعية فرع في الشمال كانت وجهته الملكية الدستورية ، وفرع في الجنوب كان لا يرى غير الجمهورية ، كما نبثت في الجنوب جماعة سرية أخرى جعلت منها جها ضم جميع السلاف في اتحاد عام .

ولكن هذه الجمعيات كانت كما وصفها أحد الكتاب « جيلا لا آباء له ولا أبناء » فظلوا لبعده أفكارهم ومبادئهم عن أذهان معاصريهم محصورين لا يكاد

نطاقهم يتسع ، ولم يأتوا عملاً ذابال إلا في سنة ١٨٢٥ فإنه لما مات الإسكندر ترك ثلاثة إخوة كان أكبرهم قسطنطين ولذلك فهو وارث الحكم ، ولكن الذى ارتقى العرش كان نيقولا بدعوى أن أخاه تنازل له عن حقه كما أراد القيصر المتوفى ، وأحيط ارتقاء نيقولا العرش على هذا النحو بشبهات فانتهزت الجمعيات السرية الفرصة ورفضت فرقة جيش موسكو أن تقسم يمين الولاء للقيصر الجديد ، ووقعت بعض القلاقل في الجنوب ، ولكن القيصر مالبث أن تقلب على هذه الحركة في سر وتعرف بحركة الديسمبريين لأنها وقعت في ديسمبر من ذلك العام ، ولقى بعض أفراد الجمعيات حتوفهم ونفى البعض إلى سيبيريا . قال أحد زعمائهم عند إعدامه « لقد كان خطأى أبى حاولت أن أجمع الحصيد قبل أن أبذر الحب » ، وقال آخر « لقد عرفت من قبل أن لا أمل لنا في النجاح كما عرفت أنه لا بد أن أضحي بحياتي ! إن ساعة الحصاد آتية فيما بعد » .

ولقد كان الحصاد الذى يرجون هو الحكم الدستورى والمساواة لدى القانون وتحرير الزراع ، ولئن قضى عليهم اليوم فلم تذهب دماؤهم عبثاً ، وما يقدم عبثاً دم هو مهر للحرية الزهراء .

واشتدت حلكة العسق في عهد نيقولا الذى عرف منذ البداية بالصرامة القاسية ، وامتدت يد الطغيان إلى كل مكان ، فعلى كل ما يطبع من الكتب والصحف وما يرد منها من الخارج رقيب عتيد له من السلطان ما يمكنه من إلقاء أى شخص في غيابة السجن أو نفيه بغير محاكمة ، والشباب سجناء في روسيا لا يسمح لهم بالتعلم في أوروبا مخافة العدوى ، ورجال الشرطة السرية يثبون عيونهم في كل ركن ، ولا يحسد سلطانهم قانون ولا عرف ، ولا تقل آثامهم وفظائهم عن فظائع محاكم التفتيش الإسبانية في العصور الوسطى إن لم تزد عنها فحشاً وهولاً ، والقيصر مهيم من متربع على عرشه يحسب سكون الناس رضاء وولاء أو لا يجرى في حسابه شيء من عصيان أولياء ...

ونسي القيصر أو لم يدرب بخنده أن الحرية يعمل لها أعداؤها وأنصارها على سواء ، فأولئك يذيقون الناس لباس الذل والخوف ليزدادوا له مقتاً ويحتالوا على

النجاة منه ؛ وهؤلاء يذيقونهم الأمن والسلام ليلذم طعمه ويحرصوا على الدفاع عنه ونعم القيصر بالا بما يرى من هدوء ، ولكن دوى العاصفة يسمع من خارج روسيا لا من داخلها ، فها هي ذى حرب القرم تضعه وجيشه منذ سنة ١٨٥٣ تلقاء جيوش إنجلترا وفرنسا وتركيا مجتمعة ، ويتلفت القيصر باحثاً عن حماسة الروس فينتقلب إليه البصر خاسئاً إذ أن كل ذى رأى في البلاد ينقم على الجيش وضعفه ويعزو ذلك إلى ما شمل الحكومة كلها من فساد .. ويحرم الطاغية من الاحترام كما حرم من المحبة ، ويوشك أن يسمع دويماً آخر من داخل بلاده ؛ وأي دوى كان إذا مس أذنه أشد إزعاجاً له مما احتواه ذلك المخطوط الذى تداوله الناس فيما تداولوا من المخطوطات على غفلة من الرقيب والشرطة السرية . قال مؤلفه فيما قال « يقول القيصر : لقد جعلنى الله حيث أنا مهيمناً على روسيا فليكم أن تنخنوا را كهين أمامى فإن عرشى هو كرسيه ، ولا تمنوا أنفسكم بالمصالح العامة فإنى أفكر من أجلكم وأسهر على مصالحكم كل ساعة ؛ إن عيني الساهرة تنفذ إلى المساوىء الداخلية وإلى ما يعده لنا فى الخارج أعداؤنا ؛ وما أنا فى حاجة إلي من يشير على فإن الله يلهمنى الحكمة ، فافخروا إذا أمها الروس بأنكم عبيدى واجعلوا مشيئتي قانونكم .

ولقد أنصتنا معشر الروس إلى هذه الكلمات فى خشوع عميق وسلطنا بها طائعين . فإذا كانت العاقبة ؟ كانت عاقبة ذلك أن دفنت المصالح الحقيقية تحت جبال من أكداس الأوراق الحكومية ، وصار يستمسك بحرفية القانون فى كل ما يصدر منهُ ، بينما يترك الإهمال والجريمة بغير عقاب إذا جاءت من أعوان الحكومة ، هؤلاء الذين يتمرغون فى التراب أمام الوزراء ثم يسرقون فى غير حياء ... لقد بانت السرقة أمراً مألوفاً حتى أصبح أكثر الناس احتراماً أكثرهم سرقة ، وصارت تقرر كفايات الضباط بمجرد النظر ، وإذا حصل شخص على منصب قائد فإنه فى نفس الوقت يمكن عده حاكماً قديراً أو مهندساً ممتازاً أو سياسياً حكماً . وإن هؤلاء الذين يختارون حكماً فى الجملة هم طغاة حقاً يوكل إليهم عذاب الناس فى الأقاليم ، وكذلك تملأ المناصب الأخرى دون أقل مراعاة

للاستحقاق ، فسائس الخليل مثلاً يعين رقيباً للمطبوعات ! والمالجن الأحمق من حاشية القيصر يعين أميراً للبحر !... وماذا صنعنا نحن معشر الروس طوال ذلك الوقت ؟ لقد نمنا !.. أدى الفلاح ما فرض عليه وهو يئن ورهن المالك نصف ضيعته وهو يئن ، وأديننا جميعاً ما يطلب منا لرجال الحكومة ونحن نئن ، ولقد هزنا رؤوسنا أحياناً في جد هامسين إن هذا عار وهوان ، كما تهامسنا أن لا عدل في ساحات العدل ، وأن الملايين يقضون حياتهم عبثاً في سبيل تمتع القيصر بسياحاته وجواسق حرسه ومباني أبهته وسرادقائه ، إن كل شيء حولنا خطأ ، ومع ذلك فأنا بضمير هادئ يشاغب بعضنا بعضاً ليحظى بالتقدم خطوة ليلحق بهذه الخدمة التي نتمتها كل المقت ... فإذا صاح أحد بنا بغتة في هذه الغفلة الشاملة أن أفيقوا وجاهدوا في سبيل الحق وفي سبيل روسيا فما أعظم ما يبدو لنا من سخفه ، ثم إنه يتعلم في سجن مظلم في سيبيريا أي إثم عظيم ارتكبه بمحاولته إقلاق ما يفظ فيه من نوم عميق الغافلون من العبيد .

ولكننا مع هذا كله كان لنا عزاء واحد ؛ أمر يحق أن نفخر به وذلك هو قوة روسيا ؛ وها نحن أولاء واأسفاه بعد تفاخرنا قد أخذنا على غرة وأحيط بنا ونحن غافلون ... أفيقي يا روسيا ! التهمك الأجانب من أعدائك وحطمتك العبودية ، واضطهدك واخجلاله الحمقى من ذوى السلطة ومن الجواسيس ... أفيقي من نومك هذا الذي امتد في جهل وغفلة ، وفقى ثابتة هادئة أمام عرش الطاغية وأسأليه أن يقدم حساباً عن الكارثة القومية »

وكان رجال الحكومة يشعرون أن كثيراً من الأنظمة القائمة يومذاك إنما تقوم على ما يحسه الناس في أنفسهم من اطمئنان إلى قوة القيصر أو قوة الدولة ، فلما سقط حصن سياستبول زلزلت القيصرية زلزلاً عنيفاً ، حتى لقد تناثرت الإشاعات أن القيصر نيقولا حين قضى نحبه إنما مات منتحراً . ولقد كان حكم ذلك القيصر الذي حكم روسيا ثلاثين سنة أشبه بظلمة الليل إذا تشتد حلكته قبيل الفجر ، وكان لروسيا آخر عهدا بالظلمة ، فلما مات تنفست الصعداء ، وتلقت تتلمس مطلع النور .

خيوط من النور

لئن اشتدت حلكة الليل في عهد نيقولا ، وأحاطت بالناس الخاوف مما كان يتهددهم من المهالك ، فإن خيوطاً من النور برغم ذلك كانت تتراءى على الأفق فتكون لأنفس الأحرار أنساً وشفاء وعزاء .

حالت القوة بين الروس وبين أى عمل يتصل بالسياسة ، فقام الفكر والأدب مقام العمل ؛ ولكن أى فكر هذا وأي أدب ؟ وكيف يتسنى له أن يخرج من الرؤوس ، وكيف تتجاوب به نفوس الأحرار والرقيب من ورأئهم محيط ، وسلطته لا يجدها قانون ولا تقومها نصفة ؟ ليس غير الفن ينفس به الأحرار عن أنفسهم ؛ وقد اختاروا من صور الفن : القصة والشعر والموسيقى ... وراحوا يهمسون بهذا الفن همساً سوف يكون له في روسيا دوى عظيم .

كانت القصة الروسية على حد تعبير أحد الكتاب « صرخات من فوق خشبة الصلب » ، ولكنها كانت صرخات القوى الذى أنطقه الألم الهائل على رغبة ، لا صرخات الخائز الذى يستعطف ويبكى ...

ولما كانت القصة في مقدمة الوسائل التي عبر بها الروس عما في نفوسهم ، فقد برعوا فيها براعة جعلت الكثيرين من فطاحل النقد في أوربا يسمون لروسيا بالسبق في هذا الميدان ، فعندهم أن فن القصة بلغ أوج كماله في القرن التاسع عشر في روسيا ، فقد سبق الروس في هذا القرن أساتذتهم من الفرنسيين والإنجليز والألمان حتى غدواهم الأساتذة ، وأحدثوا في هذا القرن أثراً بعيداً في فن القصة في هذه الأمم الثلاث وفي غيرها ممن نقلوا القصة الروسية إلى آدابهم ...

وليس بعجيب أن ينبغ الروس في هذا النوع من القصة ، فأمام غيرهم مجال القول متسع في غير هذا الفن ، ولكن الروس اضطروا أن يظلوا على القصة

بما كفين زمنًا طويلًا قهيات لهم أسباب التفوق ، وتعددت في القصة مذاهبهم
وأساليب تعبيرهم ، واتضحت هذه المذاهب واستقرت ، وطوعت هذه الأساليب
وأسلس قيادها .

كان على كتاب القصة أن يخلقوا وسيلة بها يتكلمون ولكن على ألا
يفطن إلى ما يريدون المنصتون من الحكام والرقباء ، وكانت القصة في ذاتها
كعمل فني خير معين لهم على ذلك ولكنهم أضافوا إليها ما أضافوا من صور
الوصف فأبدعوا تصوير ما كانوا يريدون تصويره من مشاهد الحياة والآمها ،
وألوان العواطف الإنسانية وخلقاتها ؛ ولقد أدى بهم هذا إلى أن يسلكوا وإن
لم يقصدوا ، مذهب الفن للفن ، فلم يدعوا إلى شيء إيجابي أو يقترحوا علاجاً لداء ؛
وإنما اكتفوا ، أو اضطروا في الحق أن يكتبوا ، بتصوير الحياة الروسية كما هي بما
فيها من خير وشر ، ومن هنا كذلك كان المذهب الواقعي هو الغالب في
القصة الروسية .

وكان ما أتقنوه من وصف أعلى في الأذان صوتاً وأعماق في النفوس أثراً من كافة
صور التعبير التي أتاحت لغير الروس ، من فلسفة ومقالة ومحاضرة وبحث ، وتلك
هي ميزة الفن عامة وفن القصة خاصة وقد بلغت أقصى ما يبلغه الفن كأداة للتعبير
على أيدي أساطين القصة الروسية .

وثمة صفة أخرى للقصة الروسية ، وتلك هي انطوائها على كثير من النذر ،
ويشاركها في ذلك الشعر إلى حد كبير ، حتى ليمكن القول إن الأدب الروسي
في القرن التاسع عشر كان أكثر من أدب أية أمة تنبؤاً بالمستقبل الخيف ؛ بل
لعل هذا التنبؤ هو خاصته التي مازته من غيره ، فهو نذير للناس بالهول والبلاء والشر
المستطير ، وقل أن كان بشيراً بشيء إلا بما يفهم مما يتضمنه هذا الشر المنتظر من
معنى الثورة التي تذهب بالمساوي القائمة وتفتتح في تاريخ البلاد عهداً جديداً ..
ولقد كان الأدب الروسي في الواقع لهذه العوامل المحيطة به أدباً ثائراً ؛ لا بما
كان ينذر به من هول فحسب ولكن بما كان يصف من سوء الحال ، فإن ذلك

الوصف على ما يبدو من هدوئه كان متنفساً للنفوس مما كانت تنطوى عليه من ثورة ، أو كان شكاة وأنياباً أو « صرخات من فوق خشبة الصلب » .

والفرق واضح بين هذا الأدب الروسي وبين أدب فرنسا قبيل ثورتها الكبرى على أيدي فاتيروروسو وديدرو وأضرابهم ، فقد تفلسف أولئك الفرنسيون وسخروا وبنوا سبل الخلاص وواجهوا المسائل السياسية والاجتماعية والاقتصادية مواجهة مباشرة فكانوا في الغالب فلاسفة مفكرين ، ولكن الروس صوروا فحسب ، فلم يبينوا لنا المعايير الاجتماعية وأسبابها وشقاء العيش وعواممه ، وإنما خلقوا لنا أناساً أشقياء يتألمون وتفدحهم كوارث الحياة ولا يدرون ماذا يفعلون .

ولقد أحدث هذا الأدب أثره العميق في النفوس على الرغم من الرقابة والرقباء ، حتى انتهى الأمر إلى ثورة نفسية جارفة كانت في الواقع من صنع الفن وحده ؛ وليس في هذا الذي نذكر شيء من الغلو ، فبالفن لا بالأفكار المجردة ، ولا بالدراسة المباشرة لمشكلات روسيا ، هدم أدباء الروس صرح العهد القديم ، وعلى السنة أشخاصهم التي خلقوها ، وفي ميول هذه الأشخاص ونزعاتها وحركاتها ، عبر الكتاب عما يريد كل روسي وأفصحوا دون أن يقولوا قولاً صريحاً ، عما كان يشغل الأذهان من آراء في الاجتماع والسياسة والاقتصاد ما كان يسمح بها الرقيب .

وفي الأدب الروسي جانب روحي أكسبه صفة إنسانية عامة ، بها وجد سبيله إلى قلوب الناس في كل أمة ؛ وهذا الجانب الروحي فيه هو محاولة الوصول إلى خلاص للإنسان عامة من شرور الحياة وشقائها ، وتوقعه حياة أخرى أسمي من هذه الحياة ، ومرد ذلك في الواقع إلى هول ما عانى الروس من ظلم وما ذاقوا من ألم وشقاء . ومن عجب الأمور أن كثيراً من الأدباء الروس على ما بلوا من شرور الحياة حولهم وآثامها ، كانوا يؤمنون في كتابتهم بالخير وأنه هو الأصل في الإنسان ، وأن الشرياتي من الحياة وملابساتها ، فكان هؤلاء الأدباء متفائلين مع ما كانت تربهم الحياة من دواعي التشاؤم .

وكفر أدباء روسيا بمدينة الغرب وثقافة الغرب ، فلم يروا أنهما حق كلهما ،

وإنما أحسوا فيهما بكثير من صور الباطل ؛ وارتابوا في كثير من المبادئ التي أخذ بها العالم الغربي واطمأن إلى استقرارها وصلاحيتها لتقدم العمران والسمو بمستوى الحياة ؛ وساورهم كثير من القلق فيما عسى أن تفضى إليه هذه المبادئ من كوارث قد تطيح بها وبمدنية الغرب جميعاً ، وقد أضاف هذا الكفران بمدنية الغرب وثقافته إلى الأدب الروسي والقصة الروسية نعمة ارتاحت إليها النفوس القلقة ، وزادت هذه النعمة ثورة هذا الأدب ظهوراً ، وجعلت له خطراً كبيراً في تاريخ الفكر البشرى ...

وأدى هذا الكفران بمدنية الغرب ومبادئ المجتمع الغربي إلى اتساع أفق الأدب الروسي ، فبات يتعمق النظر في مسائل الحياة والموت وما عسى أن يكون وراء هذا الكون العجيب من أسرار ود الأدباء لو استطاعوا أن يهتدوا إلى شيء منها ، وقد صبغ هذا الاتجاه الأدب الروسي بصبغة دينية صوفية لا مثيل لها في أدب الغرب ...

كان الشعر أسبق من النثر في هذا القرن ولذلك حق أن نتكلم أولاً عما كان للشعر من أثر فيما نحن بصدده ، وقد تجلى هذا الأثر في شعر شاعرين كانت لهما أوعلى الأصح كانت لأولهما زعامة الشعر الروسي الحديث وهما بوشكين وليرمونتوف . وقد ولد أولهما سنة ١٧٩٩ ومات في الشهر الأول من سنة ١٨٣٧ وولد ثانيهما سنة ١٨١٥ ومات سنة ١٨٥١ .

وتمثلت الروح الجديدة في حياة بوشكين وفي شعره ، ولقد كان لهذا الشاعر القذ الذي مات في الثمانية والثلاثين من عمره ، أعمق الأثر في الأدب الروسي في القرن التاسع عشر ...

يعد بوشكين بحق أحد عباقرة الشعر في جميع عصوره وعلي اختلاف بيئاته ، فقد خلق موهوباً كما يخلق أفذاذ هذا الفن وفحوله فله قوة الشعور وعمق الفكرة وحدة الإحساس وسمو الروح وحرارة الأيمان وجمال النفس ، وله إلى

جانب ذلك الأداة الطيبة من التعبير الجميل القوى والموسيقى الرائعة الحلوة .
على أن ما يعنينا هنا هو أثر فنه لا قيمة ذلك الفن ؛ ولقد كان أكبر تأثيره
في حياة قومه بما تغنى به من أغاني الحرية ، تلك الأغاني التي هزت النفوس هزاً .
تأثر بوشكين بشاعر عظيم متمرد ناثر هو اللورد بيرون الذي قضى نحبه
سنة ١٨٢٤ في حصار مسولنجي مصاباً بالطاعون ، وقد كان يدافع مع المدافعين
عن حرية اليونان ، وأعجبت بوشكين حمية بيرون كما أعجبت طريقتة في الشعر ،
وكان من أبرز خصائص بوشكين أنه يتمثل آثار غيره ويتأثر بها ولكنه لا يفقد
أصالته ، ولذلك فقد احتفظ بروحه الروسية وإن اصطنع أسلوب بيرون .

تغنى بوشكين بعظمة روسيا وقوتها وكان يعد بطرس الأكبر بطلها الفرد ،
وغنى بمثل البكاء حياة فلاحها وشقاءهم ، وكان شعره مليئاً بالندى ، فكان منذراً
للطاغين ، مبشراً بحرية سوف تنعم بها روسيا بعد طول الأسر والعذاب ، تجدد ذلك
في قوله « إنا منتظرون ، وقلوبنا المتلهفة تخفق بالأمل في الحرية المقدسة كما ينتظر
العاشق الشاب ساعة لقائه بفاتنته » .

وتأثر بوشكين كذلك بمبادئ الثورة الفرنسية ، وكان صديقاً للديسمبريين
ولكنه كان قد نفى إلى ضيعة أمه قبيل حركتهم فلم يشارك فيها ، ونجا بذلك من
الموت لينظم لروسيا خيراً ما أخرجت من شعر ، وليوقظ مشاعرهما ويطلع أديها
بطابعه ، وليكون شعره حذاءها الممتلىء بالأمل والسحر .

وكان حول بوشكين عدد من الشعراء ، كان ليرمنتوف الذي بدأ ينظم
الشعر من سن الرابعة عشرة أبرزهم وأقوام موهبة ، وقد تأثر هذا الشاب الشاعر
ببوشكين أولاً ثم بشلر ، وأخيراً باللورد بيرون ذلك الذي أحبه ليرمو تنوف حباً
كاد ينسيه كل شاعر غيره حتى بوشكين نفسه .

وكان ليرمو تنوف في شعره منذراً أكثر مما أنذر بوشكين ، وقد أذاع قصيدة
غفلاء من اسمه سنة ١٨٣٠ تنبأ فيها بالثورة ، حتى ليعجب من يقرأها بعد الثورة
الباشفية من صحة نبوءته ؛ فكأنما كانت تتكشف له حجب الغيب ؛ وتغنى ليرمو تنوف



یوشکین

obeykandl.com

بالحرية كما تغنى بوشكين، وكان ينظم الشعر في يسر فيجي* قوياً متدفقاً كالسيل ولكن الموت لم يمهله لتمد موهبته غاية مداها فمات وهو في السابعة والعشرين ... على أنه قبل وفاته بسنة أخرج قصة نثرية سنة ١٨٤٠ تعد أول قصة تحليلية في الأدب الروسي الحديث وهي القصة المسماة « بطل من أبطال عصرنا » ولذلك يعد هذا الشاعر الفذ طلعة في فن القصة .

ونعود بالحديث إلى القصة فنجد أن الكاتب الذي يعد مقامه في القصة كمقام بوشكين في الشعر هو جوجول المولود سنة ١٨٠٩ والمتوفى سنة ١٨٥٢ ؛ وليس معنى ذلك أنه لم يوجد قبل جوجول قصصى ، وإنما نقصد أن جوجول كان رائد القصة الروسية في القرن التاسع عشر وكان زعيماً من أكبر زعمائها غير مدافع ...

قام فن هذا القصصى الموهوب على أساس السخرية من المعايب الاجتماعية في عصره ، ولم تكن سخريته سخرية نفس هادئة تعطف على ما تخلق من الشخصيات ، وترفق بهم ، وتضحك مع الضاحكين ، كسخرية شارلزدكنز مثلاً ، وإنما كانت سخرية عنيفة هدامة تبرز المعايب عن سخيمة ونقمة ، كأنها سخرية شيطان يلهو بزلة فريسة من فرائس غواية

كان يؤلم جوجول أن يرى روسيا وقد ذاع فيها الشر والفساد والباطل ، وماتت فيها روح العدالة والخير ، وكان يقول دائماً إنها ممتلئة بالأقنعة الكاذبة حتى ماتت العين على آدمى واحد فيها ، والحق أنه كلما اطمأن إلى وجود شيء من الخير في الحياة الروسية فقد استشرى الشر في رأيه حتى لم يدع للخير مجالاً ...

وقد أنتج جوجول عدداً غير قليل من القصص والصور الاجتماعية ويهمنا فيما نحن بصدد ثلاثه منها هي « المفتش العام » و « الأنفس الميتة » و « العباءة » أما القصة الأولى فهي ملهامة تهكمية تدور حول نبأ أذيع بأن مفتش الحكومة العام قادم للتفتيش في مدينة من مدن الأقاليم ، ولما كان المفتش غير معروف فقد

أخذ الموظفون مسافراً من المسافرين على أنه المفتش المهرب الجانب ، فأكرموا وفادته ومشوا بين يديه بالزنى وأعطوه المال والهدايا ، ولما رأى ذلك المسافر أنه قد أخذ منهم كل ما استطاع أخذه من المال فرهارباً ؛ ويسدل الستار عقب إعلان أن المفتش الحقيقي قد وصل فعلاً ؛ ولقد أحدثت هذه الملهة ضجيجاً كبيراً وأثارت من حنق الحكومة على مؤلفها ما اضطره إلى مغادرة روسيا إلى إيطاليا حيث أتم قصته الكبرى « الأنفس الميتة » .

تعد هذه القصة الثانية من أعظم الآثار في أدب أوروبا جميعاً ولم تكن لها عقدة معينة أو حكاية غرام ، وقد أتمها جوجول في عدة سنوات ، وفيها سخر أشد السخرية من كل ما عده معيباً في الحياة الروسية ، وتهزأ بمن ساء من الأشخاص الذين صور أمثلة لهم في قصته الكبرى ، وقد نفذت عيناه نفاذاً عجيباً إلى كل معيب شائن في جوانب تلك الحياة وإلى كل وضع مرذول من صور الناس وأنماطهم ، لم يفادر شيئاً من ذلك إلا أحصاه ..

ولو أراد النقاد أن يعدوا عشرة كتب في فن القصة لها أثرها في توجيه هذا الفن ، ولها خطرهما فيما تقاس به رسالة هذا الفن لكان كتاب جوجول « الأنفس الميتة » أحد هذه الكتب العشرة بلا جدال ، فهو فيما تواضع عليه نقدة الأدب أعظم ملحمة للضعة الآدمية في أدب العام كله ، وذلك حسب ما يفهم من معنى الملحمة كعمل فني ، وليس كما قد يذهب إليه الذهن من معنى المعركة . فما في القصة معركة ما ، وإنما نقصد معنى الملحمة كما تسمى ملهاة دانتى المقدسة ، أعني أنها عمل أدبي شامل يحيط بكل شيء مما هو منه بسبب ...

وبطل هذه القصة التي هي في الواقع مجموعة فصول أقوى مثال للصعلوك الذي لا يكثرث لشيء والذي لا يتأثم من شيء ، والذي يرضي كل الرضاء عن أعماله جميعاً لا يشعر بأي أثر في نفسه مما يسميه الناس وازع الضمير ؛ وفكرة القصة الرئيسية التي تدور حولها حوادثها هي أن هذا الصعلوك المسمى شيشكوف قد اعترم أن يشتري من ملاك الضياع من يموت من رقيق الأرض قبل أن يسجل في سجل

الموتى اسمه ، لكي يرهن هؤلاء للمصرف على أنهم أحياء ويربح من وراء ذلك ربحاً كبيراً ؛ وينتقل من مالك إلى مالك يتواطأ معهم على الإقرار بوجود هؤلاء الرقيق ، وفي أثناء ذلك يصف المؤلف حال هؤلاء التعساء الذين يقول عنهم إنهم لا يحيون كما يحيا الخلق وإنما يوجدون فحسب ! وكان هؤلاء الرقيق يسمون في روسيا وقتذاك الأنفس وكان الواحد يسمي نفساً ، فإذا سأل أحد الملاك صاحبه عن عدد رقيقة قال له كم نفساً تمتلك ، ومن هنا جاء اسم القصة « الأنفس الميتة » والقصة مليئة بتلك السخرية القاسية وذلك الضحك الشيطاني الذي يتميز به فن جوجول ...

ونشر جوجول في نفس الوقت الذي نشر فيه « الأنفس الميتة » قصة كان لها أثرها في النفوس ؛ وهي تالفة ما أشرنا إليه من قصصه ، ألا وهي قصة « العباءة » أو « المعطف » أو ما يؤدي معنى الرداء الخارجي الذي يلبس فوق الملابس جميعاً اتقاء للبرد ، وخالصة هذه القصة أن أحد الكتبة الفقراء وهو شيخ ضعيف كانت أعظم أمنية له أن يشتري معطفاً ، فما زال على خصاصته يقتصد من ماله القليل حتى اشترى المعطف المنشود ، ولكنه منى في أول يوم فرح فيه بمعطفه بفتية من صعاليك الشوارع سرقوا منه المعطف فقضي نجه من فرط غمه ويأسه ، والقصة على بساطة موضوعها تصف البؤس والشقاء وسوء الحظ أقوى تصوير وأصدق .. ولجوجول كما أسلفت القول غير الذي ذكرت كثير من القصص الطويلة والقصيرة والمسرحيات والنبد الوصفية وما إليها ، وإنما اخترت هذه القصص الثلاث لأنها أكثر صلة بما نريد بيانه وأعني به كيف عبر أدباء الروس بالفن عن ثورة نفوسهم المكبوتة .

وهكذا كان بوشكين وجوجول ومن دار حولهما من النوابغ يلقون على الأفق الخالك في حكم نيقولا الأول خيوطاً من النور كانت لأنفس الأحرار أنساً وشفاء وعزاء ...

بقيت بعد ذلك كلمة عن تيارين فكريين قوى ظهورهما في عهد نيقولا وأغنى بهما المدرسة الشرقية والمدرسة الغربية ، أو بعبارة أخرى الاتجاه نحو أوروبا والإبقاء على سلافة روسيا ..

وكانت المدرسة الشرقية أو السلافية تؤمن بان مدينة روسيا غير مدنية أوروبا، وأن على الروس أن يحذروا ماديه الغرب الوضيعة وأن يعودوا إلى تلك الجماعات التعاونية التي أقامها السلاف الأقدمون في قرى روسيا ؛ وكان قادة هذه المدرسة يعتقدون أن بطرس الأكبر لم يخدم روسيا بقدر ما أساء إليها بمحاولته صبغها بالصبغة الأوروبية ، وكذلك كان أنصار السلافية يعدون الغرب في طور انحلاله لأنه بعد عن الجانب الروحي من الحياة ، ذلك الجانب الذي اتصفت به روسيا السلافية والذي يجب أن يعيده الروس اليوم سيرته الأولى فينعموا بالإيمان والمحبة والتعاون فيما بينهم ، ثم يذيعوا هذه المبادئ حتى تشمل الإنسانية جميعاً فيكون ذلك رسالة روسيا إلى العالم .

أما أنصار المدرسة الغربية ، فكانوا يعززون ما في روسيا من شقاء العيش وطفين الحكام إلى عزلتها عن أوروبا وفلسفة أوروبا وعلم أوروبا وثورات أوروبا فإذا أرادت روسيا أن تخرج مما هي فيه فعليها أن تأخذ بمدينة أوروبا في كل شيء . فهذه سبيلها التي لا سبيل لها غيرها .

ومهما يكن من خلاف بين المدرستين فقد أفادت روسيا من دفاع كل منهما عن وجهتها ، وكان لها من خلافهما يقظة ، وبخاصة لأن هؤلاء المختلفين قد اتفقوا على أمر جوهرى ، وذلك أنه في أى الوضعين لا يرجى لروسيا خير إذا أسلم أمرها إلى رجل واحد يستبد فيها بالأمر ، ويصرف شؤونها كما لو كانت ضيعة من ضياعه .

هذه لمحة إلى الحال الأدبية في روسيا حتى أواخر حكم نيقولا الأول أى حوالى سنة ١٨٥١ عندما بدأ الفتي ليو تولستوى يتجه في جد إلى الأدب ليغدو بعد أمد غير بعيد أعظم كتاب القصة في القرن التاسع عشر ، لا في روسيا وحدها بل في أوروبا جميعاً .



جو جول

obeykandl.com

هجرته إلى القوقاز

كان لا بد للفتى من هجرة إلى بلد ما فقد ضاقت نفسه بيسنايا وبموسكو وبيطرسبرج جميعاً ، ومل حياته بين العبث والإسراف فيه ، والندم والركون إليه حتى لم يعد يطيق شيئاً من هذا ، بل إنه لم يعد يصبر حتى على التفكير فيه ... واتفق أن جاء من القوقاز أخوه الضابط نيقولا إلى ياسنايا في إجازة عيد الميلاد فنصح لأخيه نصحه في كثير مما كان يشغل باله ، ومن ذلك أن يدع الزواج حتى يطمئن إلى ارتباطه برباط الحب ، ثم حبب إليه أن يصحبه إلى القوقاز فما أسرع ما أخذ ليو برأى أخيه وتأهب للرحيل ... واتفقت الأسرة أن يصرف زوج أخته أمور ضياعه في غيابه وأن يدفع عنه ديونه وذلك على أن يقنع ليو بخمسين ومائة جنيه كل عام حتى يؤدي الدين كله ، وقبل ليو هذا الشرط وسافر في صحبة أخيه . ووقفت بهما العربة عند أول محطة على بعد أربعة عشر ميلاً فأراعه إلا كلبه الأسود المحبوب قد أقبل يلهث من شدة الحر ومن سرعة العدو حتى لحق به ، وعلم بعد ذلك أنه كسر لوحاً من زجاج إحدى نوافذ الغرفة التي كان محبوساً بها وانطلق يعدو ليدركه لأنه لم يطق أن يرحل عنه .

ويدكرنا هذا الرحيل بـ « تشايلد هارولد » أو اللورد بيرون حين اضطر إلى مغادرة إنجلترا إذ ضاق بها وضاقت به بعد أن أسرف على نفسه فيما أنكره المجتمع منه ، وقد وجه بيرون الخطاب إلى كلبه في أول قصيدته التي وصف فيها رحلته هذه يقول إنه لا يجد من يأسف على رحيله حتى كلبه هذا فلسوف ينساه وينكره حتى ليثب عليه ويعضه إن قدر له أوبة من غربته .

كانت رحلة بهيجة سارة ، فقد قطعاً جانباً منها إلى استراخان في زورق على صفحة الفلجا ، وقد عرجا على موسكو وقازان وقضيا بضعة أيام في كل من

المدينتين ، وكتب ليو من موسكو إلى عمته تاتيانا يخبرها في لهجه الفخر أنه استطاع أن يقهر نفسه حين زار ناحية العجريات ، ويصف لها مقدار ما بذل من مغالبة منه لنوازع نفسه حتى أمكنه أن ينتصر بعد جهد بالغ ...

وفي قازان قابل تلك الفتاة التي عرفها منذ نحو خمسة أعوام صديقة لأخته ماري وأحس يومها بميل شديد نحوها وهي زنايدا مولستفوف ، ولقد أحس أنه على الرغم من تلك الأعوام الخمسة لم يزل بها متعلقا . قال في يومياته بعد ذلك بشهرين « لم أفه بكلمة من كلمات الحب ، ومع ذلك فقد كنت واثقا أنها كانت تدرك مشاعري ، واثن كانت بادلتني إياها فذلك لأنها كانت تفهمني .. كانت صلاتي بزنايدا يومذاك لا تعدو تلك المرحلة البريئة ، مرحلة انجذاب وروحين كل منهما نحو الأخرى؛ أيداخلك الشك في أني أحبك يا زنايدا ، إن كان الأمر كذلك فإني أسألك الصفح فإن الخطأ خطأي إذ كان على أن أو كذلك ذلك بكلمة .. أتذكرين حديقة كبير القساوسة يا زنايدا ومرها الجانبي ؟ كان على أثلة لساني ما أفصح به عما في نفسي كما كان على لسانيك ، ولكن كان على أن أكون أنا البادئ ؛ أتدريين لماذا فكرت ثم لم أقل شيئا ؟ ذلك لأنني كنت من السعادة بحيث لم يبق ما أرغب فيه ، وخشيت أن أفسد لا هناءتي وحدي بل هناءتنا .. وسيبقى هذا اللقاء أعز ذكرى إلى نفسي حتى نهاية حياتي » .

غادر ليو قازان إلى القوقاز مستمتعا بصحبة أخيه ، مبتهجا النفس بما تركه فيها لقاء زنايدا ، مرتا حيا إلى ما يهيجس في خاطره من أنه انطلق من حياة العيش انطلاقا لارجمة فيه ؛ ويجد القارى وصفها هذه الحال النفسية في شخصية أولينين بطل قصة « أهل القوزاق » التي كتبها بعد ذلك ، وكان أولينين كذلك مسافرا قال « في مثل هذه الحال العقلية السعيدة التي يحدث فيها نفسه فجأة شاب يستشعر أخطائه الماضية قائلًا إن ذلك لم يكن حقيقيا ، فكل ما حدث في الماضي كان عرضا عديم الأهمية ، وإنه حتى ذلك الوقت لم يكن حاول محاولة جدية أن يعيش ، ولكن حياة جديدة بدأت تنهيا له أسبابها ، حياة لاشيء فيها

من خطأ ولا من ندم ، فليس إلا السعادة . وكان من الأمور البينة أن تلك الأخطاء لن تعود بين الجبال ومساقط المياه والأخطار والشركيات الحسان » .
وجد المسير بهما جده حتى بلغا ستارى يورت فى القوقاز وأقاما فى خيمة أول الأمر وأعجب ليو بمنظر الرواسى الشاخحة من الجبال ، وكان لا يفتأ يقلب عينيه فيها ويتأمل فيما يبعتها منظرها من رهبة فى نفسه ، وكتب إلى عمته تانيا نا يصف لها تلك الأطواد فى نشوة وحماسة ، ويشرح لها البيئة التى سوف يقضى فى قراها قرابة ثلاثة أعوام ؛ وإن المرء إذ يقرأ ما جاء فى قصة « أهل القوزاق » من وصف للجبال ليلمس العجب من روعة ما جاء فيها من وصف ، ومرد ذلك الوصف البليغ الساحر إلى معيشته سنين فى سفوح هاتيك الجبال الشاهقة ...

ولم يكد يمضي أسبوعان عليه فى ستارى يورت حتى عاد إلى إحدى عاداته السيئة التى كم اعتزم أن يطلقها ألا وهى الميسر ، فجلس يلعب ذات ليلة فخر فى هذه الجلسة خمسين وثمانمائة روبيل أو ما يساوى سبعة وعشرين ومائة من الجنيهات ، وكدرت نفسه هذه الخسارة لأريب ، وكدرها كذلك عودته إلى هذا الذى طلب الهجرة ليتخلص منه وهو من أرذل نزعات نفسه ؛ ولكن الندم عقب ذلك أخذ يتغلغل فى أعماق نفسه . وآية ذلك أنه استطاع ألا يقرب الميسر بعد هذه الليلة ستة أشهر كاملة ، كان يقضى فيها أوقات فراغة فى الصيد والكتابة والقراءة « وتعقب حسان القوزاق » ..

ولفت إليه ببساتته القائد العام فى تلك الجهة للجيش الروسى وذلك أثناء تطوعه ذات مرة فى حملة على بعض القبائل كانت مهمة ذلك الجيش هناك مطاردتها ؛ وقد اقترح القائد أن يلحقه بالفرقة ليكون أحد رجالها ؛ ووقع ذلك من نفسه موقعا حسنا ، ولعله تخيل لنفسه ما تخيله أوليين بطل قصته من البسالة والقوة ، وحلم كما حلم أوليين بأن يكون قاهر القوزاق وبأن يعزى إليه وحده الفضل فى إخضاع القبائل الثائرة هناك .

وأرسل إلى تفليس ليمتحن هناك نوعا من الامتحان يهينه النجاح فيه للالتحاق

بالجيش ، ورأى في تفليس ما يشبه الحياة في قازان فحن إلى حياة المدن بعد تلك الأشهر التي قضاها في القرى والأماكن البرية وأوشك أن يعقد النية على أن يعود أدراجه إلى موسكو ، وصار يحس أنه يحيا في تلك القرى حياة أشبه ما تكون بحياة المنفي ...

وظل في تفليس أياما يستمتع بمثل ما كان يستمتع به في موسكو أو في قازان ويتربق بقلب نزوع وصبر فارغ نبالاً لحاقه بالفرقة الرابعة متطوعاً فإن ذلك كفيل أن يخرج من تردده ويجعله يركن إلى البقاء في القوقاز .

وتم له ما أراد فعاد إلى ستارى يورت والحق بفرقة المدفعية الرابعة في شهر فبراير سنة ١٨٥٢ ، وهناك توثقت عرى الصداقة بينه وبين فتى يدعى سادو ، وكانا يتعاونان في السراء والضراء ويطعمان معاً كلما واتتهما فرصة لذلك ، ويقنسان المال بينهما ويتبادلان الهدايا ، وقد أعجب ليو بصاحبه وبما رأى من بسالته وجميل مودته وإخلاصه له ، ذلك الإخلاص الذى أدى به أكثر من مرة إلى أن يعرض نفسه للأخطار لينجى صاحبه ؛ وطاب الفتى نفساً بهذه الصداقة وأحب من أجلها الحياة في القوقاز .

وكان سادو مقداماً لا يهاب شيئاً ، يهجم على قرى الأعداء فيأتى منها بما يبيعه وبذلك يحصل على المال فهو متلاف ييسط يده كل البسط ، وأبوه على نرائه يرضن عليه إلا بالقليل الذى لا ينقع غلته ...

وكان على ليو أن يدافع عن سادو كما يدافع هذا عنه ، ولذلك كان يتعرض لكثير من الخطر من أجله ، حتى لقد أوشك ذات مرة أن يؤسر هو وصاحبه ، ونجا مرة أخرى من الموت وهو على حافته إذ انفجرت قذيفة مدفوع على مقربة منه ...

ويعيننا ذكر هذا الذى نذكره عن حياته في القوقاز لصلته بنفسه ، فلسوف يصف هذه الحياة وصفاً يكسبه على حدائته ذبوع الصيت في دنيا القصة ، ويضني على عمله من الإصالة والروعة والدقة ما يسلكه وهو حدث في القلائل الأذناد .



تولستوى سنه ١٨٥١

obeykandl.com

في القوقاز

كان أكثر ما يجد ليو من الأنس في صحبة صديقه سادو وفي صحبة رجل آخر هو إيشكا القوزاقى صاحب الكوخ الذى كان يقيم به ، ذلك الذى برع فى الصيد براعة عظيمة أو الذى برع فى الحديث عن قدرته ومهارته فيه ، وعن أيام شبابه الأولى وكيف كان الغوانى يأخذن عليه كل سبيل ويفتنن به كل الافتتان ، ولقد جعل منه ليو صورة إروشكا فى قصته « أهل القوزاق » فبلغ فى ذلك غاية الإبداع .

وكان الصيد من أحب ما يلهو به فى ساعات فراغه ، وقد كانت الأرض غنية بطلبته من الأرانب البرية والثعالب ، وكان يصحبه إيشكا إلى قرى وأما كن بعيدة فى الجبال حيث كانت تحيط بهما المخاطر فى كثير من الحالات .

وليته جعل للصيد كل فراغه ، فلقد عاد إلى الميسر منذ سنة على الرغم من مغالبتة نفسه ابتغاء الإقلاع عنه ، وما استطاع أن يكف عنه إلا ستة أشهر بعد أن وقع فى الشرك ولم يمض عليه فى القوقاز أسبوعان ؛ وما إن عاد إلى التفرج برؤية إخوانه الضباط وهم يلعبون حتى غلبه حب اللعب فأقبل عليه إقبال النهم الذى حيل بينه زمناً وبين الطعام ، ففى كتاب منه إلى عمته تاتيانا فى شهر يناير سنة ١٨٥٢ أخذ يقص عليها كيف عاد إلى الميسر وكيف لحقته الخسائر من كل فج ! وظل هذا شأنه طول تلك السنة والتي تلتها حتى عاوده ندمه وضيقة .

أما عن جانب الجد من حياته فى القوقاز ، فإنه فى الجيش قد أبدى من البسالة فى مواطن كثيرة ما استحق به صليب سان جورج للبطولة ، ولكنه لم يحزه فعلاً نظراً لعجزه عن تقديم شهادات وأوراق خاصة كان لا بد أن يقدمها من يحظى بهذا الإنعام ...

وكان كما سلفت الإشارة إليه قد أخذ يكتب منذ سنة ١٨٥١ . وفي شهر يوليو سنة ١٨٥٢ أتم كتابه « عهد الطفولة » باكورة فنه وخطوته الأولى صوب المجد وذهاب الصيت وأرسله بإمضاء ل . ن إلى مجلة شهيرة كانت تسمى « المعاصر » وكان يصدرها رجلان من أعلام الأدب وقتئذ وهما نكراسوف وپانييف ... وظل ليو شهرين ينتظر رداً من المجلة وهو يسلم نفسه إلى الأمل الخلو تارة وإلى اليأس المرير تارة ، حتى جاءه كتاب من نكراسوف ينبئه فيه بقبول القصة للنشر ولكن على ألا يدفع لصاحبها أجراً حسب ما تعارف عليه أصحاب المجلات الأدبية يومئذ إذ كانوا لا يدفعون أجراً لكاتب غير معروف على أول شيء . يقبل منه للنشر ...

وفرح تولستوى فرحاً عظيماً بالنشر في ذاته فهذه أمنيته ، أما الأجر فما خطر بباله قط ؛ وازداد فرحاً إذ جاءه كتاب ثان من نكراسوف يقول فيه إنه ازداد رضاً عن القصة وهو يصحبها للطبع وأنه يعتقد أن مؤلفها ممن وهبوا المقدره ، وأنه لأمر ذو أهمية أن يعلم المؤلف ذلك في بداية عهده بالكتابة . ونشرت القصة في عدد أكتوبر فسرعان ما حظيت بثناء أهل الفن جميعاً وفي مقدمتهم ترجميف ذلك الذي بدأ اسمه يلتصق يومئذ في فن القصة ، ومنهم دستويفسكي وكان في منغاه بسبيريا فكتب إلى أحد أصدقائه يسأله من يكون ل . ن هذا صاحب تلك القصة ...

ولم يكن بالأمر الهين أن يلتفت ترجميف ودستويفسكي إلى هذا الكتاب فقد خلف هذان الكاتبان جوجول في زعامة القصة واغتدى اسمها أرفع الأسماء في الجيل الذي أعقب جيل جوجول ...

وطابت نفس الفتى ليو نيقولا تولستوى وابتهج فؤاده بهذا النجاح ، وإن كان ضايقه من الناشر أنه غير عنوان الكتاب فجله « تاريخ عهد طفولتي » بدلا من عنوانه الأصلي « عهد الطفولة » وذلك أن الكاتب كما ذكر في أكثر من موضع لم يقصد بكتابه أن يكون ترجمة منه لنفسه . وكذلك ضايقه أن الرقيب

تناول بالحذف أو التغير بعض عبارات الكتاب . أخذت تفتتح الأكام في هذا الكتاب عن عبقرية الكاتب الناشئ الذي لم يتجاوز الرابعة والعشرين من عمره ، وبدأت تنجلي خصائص فنه وتتضح مواهبه وفي مقدمة تلك المواهب إحساسه المرهف ، وقلبه الشاعر، وذكاؤه الحاد ، وبصيرته النافذة إلى أعماق الأشياء ، المحيطة بتفاصيلها ودقائقها ، وروحه الدائبة المتوثبة التي لا تعرف سأمًا ، وحيويته الفكرية التي لا تقل عن حيويته البدنية .

أما فنه فكان قوامه الأصالة والصدق والسمو وتجنب ما لا عائدة منه في التعبير والتصوير ، وكان يجمع فيه بين عاطفة الفنان ومهارة الصانع وتفظنه إلى كنه ما في يده ؛ وكان يقبل على الكتابة في حمس شديد وإخلاص بالغ ، ثم يطيل النظر فيما يكتب فيمحو ويثبت ويحذف ويضيف حتى يستقر على وضع تراح نفسه إليه ، ويقرأ ما يكتبه على من يدخل عليه يتبين أثره في نفسه ، كما كان يفعل انفعالا شديداً إذ يتلو لنفسه ما كتب فتدمع عيناه ويهتز بدنه وترتمش يده ، ثم يشيع السرور في كيانه وتستقر الطمأنينة في وجدانه .

كتب في مذكراته في هذه السن المبكرة يقول في أوائل سنة ١٨٥١ « إن الخيال هو مرآة الطبيعة ، مرآة نعملها في أنفسنا وفي هذه المرآة تصور الطبيعة ، وأجل الخيال هو أصنى المرايا وأصدقها وتلك هي التي نسميها العبقرية ... إن العبقرية لا تخلق وإنما هي تعكس ما ترى » وقال في موضع آخر « إن الكتابة الأدبية ينبغي أن تكون أغنية منبعثة من صميم نفس الكاتب » .

لم يكن كتابه « عهد الطفولة » ترجمة لحياته ، ولم يكن كذلك عملاً خيالياً بحتاً ، وإنما كان وسطاً بين هذا وذاك ، ولعله كان إلى وصف حياته وبيئته الأولى أقرب . قالت زوجته فيما بعد « كانت كل الصور فيه مشتقة من أعضاء أسرته ، وكان الإسكندر إسكندر هو صورة جدى لأمي » .

ولم يعن تولستوى في كتابه هذا بالحوادث في ذاتها فليس فيه إلا الحياة العادية التي يحياها الناس كل يوم ، وإنما عنى بإبراز المشاعر والأحاسيس التي تثيرها

الحوادث فيما صور من الأشخاص فكان عمله أقرب إلى التحليل النفسي الذي سوف تمتاز به القصة الروسية عما قريب بوجه عام وفي فن دستوفسكي بوجه خاص .

ولقد وفق تولستوى توفيقاً كبيراً في تصوير الخلجات النفسية في كتابه هذا حتى ما يظن قارئه إن لم يكن يعرف أنه عمل مبتدئ ، هذا إلى دقة اللسة الفنية والبراعة في عرض الصور مع وضوحها وخلق المناسبات ، واختيار ما يحتاج إليه السياق في غير استطراد ممل أو على حد تعبيره « استبعاد كل ما لا ضرورة له وكل ما هو سطحي أو ضعيف » .

وللكتاب أهمية من ناحية أخرى إذ هو يرينا تأثيره إلى حد ما بروسو وستندال ودكنز وبخاصة في قصة دايفد كوبر فيلد التي هي الواقع حياة دكنز في بيئته الأولى مقنعة كما شاء القصصى العظيم ، وكانت هذه القصة كما ذكرنا تنشر تباعاً يومئذ مترجمة إلى الروسية في مجلة المعاصر ...

وحفره نجاحه في كتابه الأول إلى أن يكتب « عهد اليفاعه » فأقبل على ذلك في نشاط وأمل وغبطة ؛ وكان أثناء كتابته « عهد الطفولة » قد بدأ يكتب بعض الأفاصيص عن حياته في الجندي ومنها « قطع الغابة » و « الغارة » ، وقد أرسل هذه الأخيرة إلى « المعاصر » فنشرتها وقد اطمأنت إلى القصصى الشاب ؛ ولكن الرقيب شوه بعض أجزاء هذه الأقصوصة حتى لقد اشتكى مؤلفها قائلاً : « لقد قضى عليها الرقيب ، فقد محا كل ما كان حسناً فيها أو بدله » .

وأقبل القصصى الشاب على مذكرته يثبت فيها ما يعتزم كتابته من قصص ؛ وكلما طرأ على خاطره موضوع يصلح لقصة عجل بإثباته ودون ما يعن له من ملاحظات ليعود إليها في حينها ، وكلما أعجبته حادثة أو شخصية ممن يحيطون به كتبها مخافة أن ينساها ليجد لها فيما بعد حين يأخذ في بناء قصصه وهكذا بث نجاحه الأول في نفسه كثيراً من الأمل والنشوة ...

أخذ يزداد سأم الفتى من القوقاز ومن حياة الجنديّة يوماً بعد يوم ، منذ أن ذهبت عن تلك الحياة جدتها ؛ واشتد ضيقه في شهر أكتوبر سنة ١٨٥٢ حتى إنه ليكتب في يومياته إنه يعد سنى نفيه من ذلك التاريخ ، ويقول فيما يشعر بالأسى أنه لن يستطيع أن يعتزل خدمة الجيش إلا سنة ١٨٥٥ « وعندئذ أكون في السابعة والعشرين من عمري ، وما أكثر ما أكون من الكبر في هذه السن ! ثلاث سنوات أخرى في خدمة الجيش منذ اليوم ؟ إن على أن أقضيها فيما يجدي » . وفي مستهل سنة ١٨٥٣ يقول « يا للناس من أغبياء ! إنهم جميعاً وبخاصة أخي لا يدعون الخمر ، وهذا شيء أراه كريها ... إن الحرب أمر باطل ... هي شر لا ريب حتى إن الذين يخوضون غمارها ليحاولون تلقاءها أن يخنقوا ضماثهم . أحق ما أنا فاعل ؟ أرشدني يا إلهي واغفر لي إن كنت أعمل باطلا ... »

والحق أنه لولا ما كان يصادفه في القوقاز مما يكون مادة طريفة لفنه من الناس والحوادث والمناظر ، ما استطاع صبراً على العيش هناك ، ولا أطاق حياة الجنديّة وما فيها من خشونة وما كانت تبعثه في نفس كنفه من سأم وضيق بأيامها المتكررة المتشابهة ...

وبدأ يشكو أسقاماً في معدته وأمعائه وكان مرد ذلك إلى ما اعتاده من إسراف في الطعام ، فقد كان من مردول عاداته نهمة في تناول أنواع من الأطعمة كان يجبا كالفطائر والمثلجات وأصناف الحلوى ، وكان لا يستطيع أن يصد نفسه عنها إذا تهيأت له ، أو يفظمها إذا غابت عنه ، وإنما كان يسمي إليها سعياً حتى يظفر منها بأوفر نصيب وإن مسه الضر ؛ وكان لا يكثر لنصح أو يشفق من أذى اتكالا على ما يحس من قوة بنيته وشدة حيوانيته ، ورغبة منه في تعويض ما يبذله من طاقة في تلبية نداء جسده . . ؛ وإكّن ذلك النهم قد أضر بمعدته ضرراً أخذ يزداد منذ كان في القوقاز وسوف يتمكن منها حتى ليستعصى علي العلاج حين يتقدم به العمر ...

وكذلك أخذ يشكو من الروماتزم والحصى والرعاف والتهاب الحلق في كثير

من الأحيان ، ونجده يكتب إلى عمته تاتيانا ذات مرة يقول لها « لا تظني أنني أخفي عنك شيئاً ... إني وإن كنت متين البنية أعاني دائماً ضعف الصحة » .

وفي شهر مارس سنة ١٨٥٣ يكتب في يومياته قائلاً « إن الخدمة في القوقاز لم تجر على إلا المصاعب والكسل ومعرفة غير الأخيار ... إنه ينبغي أن أخلص منها أسرع ما أستطيع ... لقد فقدت ما كان معي من المال جميعاً ، ولا زلت مديناً بثمانين من الروبلات لأوجولين وستة لياووثش وخمسين لسكوفنين وثمان وسبعين لقسطنطينوف ؛ وتبلغ جميعاً أربع عشرة ومائتين ، وقد أنفقت فضلاً عنها ثلاثين ومائتين كانت كل ما أملك ... إن ذلك لسيء » .

قرأ ليو كثيراً في القوقاز وهو منذ حادثته لا يسلو الكتب مهما صرفته عنها أهواء شبابه ؛ فإذا عاد إليها أقبل يقرؤها في جد وعناية قراءة تدبر واستمتاع ، ولم يفته كتاب مما كان يصدر يومذاك في روسيا أو أوروبا ، كذلك لم تفته صحيفة أدبية تعنى بالوان الأدب المعاصر وتهتم بنقده ، وكان في مقدمة تلك الصحف مجلة « المعاصر » التي نشرت له أول آثاره ...

وكان لترجينيف جانب كبير من اهتمامه ، وكان ترجميف الذي يكبره كما أسلفنا بشرة أعوام قد نشر سنة ١٨٤٨ أول كتاب له وهو « مذكرات رجل صيد » الذي سبق أن أشرنا إليه ، فكان ليو يعيد قراءته بين الحين والحين ؛ ولعل ما استمتع به ترجميف من ذهاب الصيت بكتابه الأول هذا قد ألقى في نفس ليو تولستوى أحلام المجد الأدبي وبخاصة بعد أن صادف كتابه « عهد الطفولة » ما أشرنا إليه من نجاح .

وكان لجوجول كذلك منزلة عظيمة في نفس تولستوى ، فكان يطيل التأمل في قصة « الأنفس الميتة » وفي قصته الفكاهة « في » ...

ولم يسه تولستوى عن الأدب الأوروبي فكان يقرأ آثار أعلامه جميعاً ، وكان يتتبع ما نشر دكنز في شغف كبير ويقدمه على كل قصصي سواه ؛ وكذلك كان عظيم الإعجاب بالكاتب الإنجليزي ستيرن الذي ذكرنا اسمه قبل فيمن ذكرناه

من قرأ الفتى آثارهم ؛ كان ستين من رجال الدين ولد سنة ١٧١٣ وتوفى سنة ١٧٦٨ فهو من أعلام القرن الثامن عشر وقد اشتغل بالأدب ، وامتازت مؤلفاته بروح الفكاهة والماطفة ، وبلغ في قوة خلق الأشخاص وتصويرهم مالا يبلغه إلا الأفاذ القلائل ، فكان لآثاره ميزة الأصالة والنبوغ ، وقد نشر قبيل وفاته أشهر كتبه وهو « الرحلة العاطفية » ، وقد كان تولستوى شديد التأثر عظيم الانجذاب نحو هذا الكتاب ، يضعه في مستوى آثار روسو من حيث قيمته في ذاته ومن حيث أثره في نفسه ...

وكثيراً ما كان الفتى يطيل التأمل في ساعات فراغه ، أو عقب قراءته كتاباً من كتبه ، وكثيراً ما كان يثبت تأملاته في كراسته فكان لهذه الكراسة بذلك خطرهما كمصدر من مصادر تاريخ حياته .

وكان أول ما تأمل الفتى في الدين ولما يمض عليه في القوقاز غير أيام ، ولم تكن هذه أول مرة يتجه فيها تأمله هذا الاتجاه ، فقد سبقها مرات ومرات ؛ وقد أشرنا قبل إلى ما ذكره في مستهل كتابه « اعترافاتي » عن ذلك الصبي الذي تحدث إليه ذات مرة وهو في نحو العاشرة عن الله ووجوده ، وكيف تلقى ذلك الحديث في اهتمام وأفضي به إلى إخوته ... ومما ذكره كذلك في مستهل ذلك الكتاب قوله « لقد عمدت ونشئت على العقيدة المسيحية الأورثوذوكسية ؛ وقد علمت هذه العقيدة في طفولتي وطول أيام يفاعتي وشبابي ؛ ولكنني عندما تركت الجامعة وأنا يومئذ في الثامنة عشرة لم أعد أصدق شيئاً مما علمته . وقد ذهبت للمعتقدات الدينية التي علمتها في صغري ؛ ونظراً لأنني منذ سن الخامسة عشرة بدأت أقرأ الآثار الفلسفية ، فإن رفضي هذه المعتقدات كان أمراً شعورياً في سن مبكرة جداً ؛ فنذ سن السادسة عشرة انقطع ذهابي إلى الكنيسة وانقطع صومي ولم أصدق ما لقنت في طفولتي ولكنني كنت أصدق شيئاً ما ؛ أما ما هو ذلك الشيء فما كنت أستطيع وقتها أن أقول ، لقد صدقت بالله أو على الأصح إنني لم أنكر الله ، ولكنني لم أستطع أن أقول أي إله هذا ، وكذلك لم أنكر المسيح

ولا تعاليمه ، ولكن م كانت تتألف تلك التعاليم ؟ ذلك أيضاً ما لم أكن أستطيع أن أقوله ...

وإذا رجعت إلى تلك الحقبة من عمري أرى الآن في وضوح أن إيماني ، إيماني الحقيقي الذي لم يكن لي غيره ، ذلك الذي كان يحفز حياتي بصرف النظر عن غرائزي الحيوانية ، هو عقيدتي في بلوغ الكمال النفسي ، ولكن م يتألف هذا الكمال وما غرضه ؟ ذلك ما لم أستطع أن أبينه ، لقد حاولت أن أكمل نفسي عقلياً ، فدرست كل ما استطعت أن أدرس ، كل شيء ألقته الحياة في طريقي ، وحاولت أن أكمل إرادتي فوضعت قواعد أخذت نفسي باتباعها ، وكملت نفسي من ناحية البدن فدربت قوتي ونشاطي بكافة أنواع التمرينات ، وعودت نفسي التحمل والصبر بكافة ضروب التقشف ؛ واعتبرت كل أولئك وسائل نحو الكمال وكان أول ما اتجهت إليه الكمال الأدبي ، ثم أعقب ذلك وحل محله الكمال من جميع الوجوه ، أو الرغبة في أن أكون أحسن حالا ، لاني نظري فحسب ولا عند الله وحده ، ولكن في نظر غيري من الناس . وسرعان ما اتجهت محاولاتي بعد ذلك إلى رغبة أخرى هي أن أكون أقوى من غيري وأبعد منهم صوتاً ، وأعظم خطراً وأكثراً .

هذا هو مبلغ اهتمام الفتى بالدين وكل ما هو من الدين بسبب منذ حدثته ، أما اهتمامه به في القوقاز فتجد شاهداً عليه فيما أثبتته هناك من تأملاته ومنها قوله بعد أن ذكر أنه لم ينام ليلته بسبب صلاته ونسكه لله « إذا أريد بالصلاة أنها استغفار أو شكران فإني إذا لم أكن أصلي ؛ بل إن رغبة كانت تملكني نحو شيء طيب سام . أما عن كنه ذلك الشيء ، فذلك ما لا أستطيع تفسيره ، ولو أنني أشعر شعوراً تاماً ماذا يكون ذلك الذي رغبت فيه ؛ إن الذي رغبت فيه هو أن أذوب فأمتزج بذلك الجوهر المحيط بكل شيء ، وأن أستغفره عن آثامي . لا ، ليس هذا ما رغبت فيه لأنني شعرت إذ منحني هذه اللحظة المباركة أنه بهذا منحني كذلك المغفرة . »

والذى يستخلص مما كتبه تولستوى حتى هذه السن أنه لم يفقد الإيمان لحظة بقوة مطلقة في هذا الوجود ، وكان سرمد إيمانه إلى عاطفته وإن كان يشعر أنه لا يستطيع أن يصلح عليها عقله ومنطقه ، فلقد كان شديد الشك في صورة العقيدة كما تضعها الكنيسة الأورثوذكسية الروسية ، ولذلك عظم الصراع بين عاطفته وعقله . وتراه يتساءل ذات مرة في دفتره معتمداً على العقل والقياس قائلاً : حتى ولو أن الجسم والروح شيئان ، وأن الجسم يلحقه الفناء ، فاذا في ذلك من البرهان على فناء الروح ؟ لقد رأيت الجسم يموت ، وعلى ذلك أستخلص أن جسمى أنا سوف يموت ، ولكن ليس فيه ما يربى أن روحى سوف تموت ؛ من أجل ذلك أقرر بناء على ما يقوم في فكرى أنها خالدة .

وقال عن الصلاة في موضع آخر « هل الصلاة لازمة ؟ وهل هي ذات فائدة إن التجربة وحدها هي التي ترينا مدى ما يكون في ذلك من اقتناع . إنى أصلى هكذا : رب نجنى من السوء ومن الفواية أن أفعل السوء ، وهب لى الخير أوهب لى القدرة على أن أعمل صالحاً ؛ وسواء أكان خيراً أم كان شراً ما أعمل فإن مشيتك هي النافذة » .

وعاد يبحث عن الله في قوله « هل لى أن أنجح نجاحاً لا مربية فيه فأكون عن الله فكرة واضحة وضوح فكرتى عن الخير ؟ لقد باتت هذه الرغبة أقوى رغابى إن فكرة الإنسان عن الله هي وليدة تظنه إلى ضعفه هو . ولم يقنعى بوجوده وبصلتنا به شيء أقوى من هذه الفكرة : ألا وهي أن كل مخلوق قد وهب من المسكنة ما يتفق مع ما يرغب فيه من مطالب ، لاشيء أكثر من ذلك ولاشياء أقل ؛ ولأى غرض وهب الإنسان قوة إدراك مثل هذه المسائل : وهي العلة الأولى والأبد واللانهاية والقوة المطلقة ؟ إن المقدمة فيما أحدث عنه هي فروض تؤيدها علامات ، وإن الإيمان حسب تقدم المرء يتم صحة هذه الفروض » .

وتشتد حيرته بعد ذلك فيقول : إنى عاجز عن أن أثبت لنفسي وجود الله . أو حتى عن إيجاد قرينة مقنعة به ؛ كما أنى لست أرى ثمة ضرورة حتمية لهذا

الأدراك ، إنه لأيسر وأبسط أن نتخيل الوجود الأبدي للكون بنظامه العجيب الذى لا يمكن تصور مداه ، من أن نتخيل وجود خالق له ... إن تطلع الجسم والروح إلى السعادة هو السبيل الوحيدة إلى تفهم أسرار الحياة ، وإذا تصادمت نوازع الجسم ونوازع الروح فيجب أن تهيمن نوازع الروح لأن الروح خالدة كالسعادة التى تنتجها ... وإن تحقيق السعادة هو السبيل لتقدم الروح ورفيها . وإنى لست أفهم ضرورة وجود الله ، ولكنى أومن به وأصلى له كي يعيننى على أن أدركه .

وستنطوى سنوات كثيرة قبل أن يغير تولستوى ما أثبتته فى كراسته فى نوفمبر سنة ١٨٥٢ وهو قوله : « إنى أومن بالله واحد لا تدركه الأبصار وأومن بخلود الروح وأومن بالجزاء على أعمالنا ؛ وما يضيرنى أنى لست أفهم خفايا الثالوث ومولد ابن الله ؟ إنى أجل عقيدة آباي ولست أجدها » .

ويتأمل الفتى غير الدين فى أمر يتصل بالأخلاق فيقول « إن الضمير خير رائد لنا وخير ما نعول عليه من هاد ، ولكن ما هى الشواهد التى بها نميز صوت الضمير من الأصوات الكثيرة التى تنبعث فى أنفسنا ، على أنه الصوت الوحيد الحق ؟ ذلك لأن الغرور يتكلم بنفس القوة . إن الرجل الذى يكون غرضه فى الحياة سعادة نفسه هو رجل سوء ؛ وإن الذى يكون غرضه حسن رأى الناس فيه رجل ضعيف ؛ وذلك الذى يجعل غرضه إسعاد الآخرين رجل خير ؛ ولكن الذى يجعل غرضه وجه الله هو رجل عظيم . إن الشرف فى رأى يتكون من اتباع السوء تجاه الآخرين والخير كامن فى محبة الخير لهم ؛ بهذا يتحدث الضمير أبداً ؛ وإن غرض الحياة لهو الخير وهو عاطفة موروثه فى النفس ، ورأى أن وسيلتنا لتعيش عيشة طيبة هى معرفة الخير والشر ... وإنا لن نكون أخياراً إلا عند توجه جميع قوانا دائماً نحو هذا الغرض » .

وإن المرء ليلمح فى هذا الفتى أثناء مقامه فى التوقاز صورة فى مجال ضيق للكاتب العظيم والفيلسوف الكبير تولستوى ، يوم يغدو أحد أفذاذ رجال القلم

في هذه الدنيا ؛ فلسوف يبلغ في عالم القصة مبلغاً لم يتفق لأحد من قبله في موطنه ، ثم ينصرف عن الفن إلى الدين ومسائل الدين فيتدبر فيه طويلاً ويدرس الكتاب المقدس ويقلب وجوه الرأي وتعظم حيرته بضع سنين ، ثم يخرج على الناس برسالته في هذه الناحية ، فتحدث من الضجيج وتثير من اهتمام الكنيسة والناس ما لم تحدث أو تثير كذلك آراء أحد من قبله في روسيا ...

ولم يكن للدين والفن وحدهما كل همه إذا فرغ من أعمال الجندية أو إذا عاد من لهوه إلى كوخه ، فلقد كان يتأمل في غير هذه ويطيل التأمل إذا جلس وحده بباب كوخه أو بباب خيمته ، كما كان يفعل أولينين بطل قصته « أهل القوزاق » أو كما جعله هو يفعل ذلك فيصور نفسه فيه أحسن تصوير وأصدق .

كان يتأمل الفتى فيما هو خليق أن يملأ خيال كل فتى في مثل سنه ، وماذا عسى أن يكون ذلك غير أحلام الحب والزواج والسعادة التي يجدها المرء في زوجه إذ يسكن إليها وفي أولاده إذ يظلمهم بجناحيه ، وفي عشه إذ تتوفر فيه أسباب المتعة والراحة ورخاء العيش وما إليها من أطيايف الجنة ؟

كان كثيراً ما يتأمل الفتى في ذلك كله ، ولعل ضيقه بحياة القوقاز هو الذي كان يصرف خياله إلى هذا المتجه الحلو فتأنس به روحه ساعات ويجد فيه مثل ما يجده المكدود ألقى به طول السير في ظل دوحه ...

كان يفكر كما يفكر أولينين فيتخيل « امرأته في ملابس الصباح البيضاء ومن حولها أولادها يجرون من بعض إلى بعض في الحديقة ويقتطفون الزهر فيلقون به إلى أيهم » ... وكانت تتابع الأخيلة علي ذهنه وضئته بهيجة تملأ نفسه حبوراً وغبطة .

كتب إلى عمته تاتيانا كتاباً يومئذ يفيض بما كان يتخيله ومنه قوله : « سأجد نفسي بعد بضع سنين وقد عدت إلى ياسنايا وما أنا بالكبير جداً ولا بالصغير جداً ؛ وستكون شؤوني كلها منظمة وليس ما يضايقني في حاضري ولا يقلقني على مستقبلي . وسوف نعيش كما عشنا في الأيام الماضية ، فللصبح عملي ولكننا نلتقي ويرى أحدنا

الأخر فيما بقي من النهار ... وستعشى معاً في المساء ، وسوف أقرأ لك شيئاً ساراً ثم نأخذ بعد بأطراف الأحاديث ، وأقصى عليك حياتي في القوقاز ، وتقصين على قصصاً عن حياة أبي وحياة أمي ؛ تقصين على بعض هاتيك القصص المرعبة التي كنا نستمع إليها في الأيام الماضية وأفواهنا فاغرة وفي أعيننا الخوف ؛ وسوف نتكلم عن إخوتي الذين يأتون لزيارتنا وعن أختي ماشا الحبيبة ... وسوف أكون زوجاً وستكون زوجتي نبيلة محبة رحيمة ، وستحبك كما أحبك .

ولكنه كان يصحو من هذا الحلم الجميل كل مرة على ما كان يحيطه به الواقع مما تضيق به نفسه ، ومما يستكرهها استكراهاً على أن تصبر عليه ؛ وكان يفرع إلى كتبه إذا ذهبت عنه رؤي حلمه أو يقبل على الكتابة ، أو يدع هذا وذاك إلى لهوه فيخرج للصيد مع خلانه ، أو ينسى نفسه في حلبة الميسر حتى يوقظه خلو جيبه من المال وامتلاء صدره بالقيظ والنكد ...

وما يزال يحمل نفسه على الصبر تارة ولا يطيق الصبر تارة أخرى ، حتى أتيح له في شهر يناير سنة ١٨٥٤ أن يترك القوقاز ، إذ نقله أولو الأمر بناء على طلبه إلى جيش الدانوب .

وعاد ليو ليقضى أياماً في ياسنايا بوليانا بعد أن غاب عنها ثلاث سنوات طويلة كان بعدها بينه وبين نفسه سنوات نفى .



في حرب القرم

لم يستطع ليو أن يقيم طويلاً في ياسنايا ، فقد تشوقت نفسه إلى مباحج العاصمة وملذاتها ، ومن ثم فقد سافر إلى موسكو . . . وعاد في موسكو يبسط يده كل البسط ويسرف في ماله إسرافاً كبيراً . على أنه ما لبث أن استدعى إلى جيش الدانوب ، ولم يكن يسمعه إلا أن يلبي في غير إبطاء . فأتخذ سبيله معجلاً إلى بخارست حيث أمر أن يذهب ، فبلفها في مارس سنة ١٨٥٤ وكانت رحلته إليها في طرق وعرة أثرت في صحته وفي نفسه ؛ بيد أنه ما لبث أن وجد من رعاية أحد أصدقاء والده وهو الجنرال الأمير جور شاكوف ومن كرمه ما أنساه عناء سفره وحبب إليه هذا الميدان الجديد .

وأتيح لتولستوى وهو يومئذ في الخامسة والعشرين أن يشهد حرباً كبيرة فيكتسب بذلك خبرة جديدة بناحية خطيرة من نواحي الحياة الإنسانية ؛ وكان قد قرأ عن الحرب وأنباء المعارك الكبيرة في بعض الكتب ، وكان ما كتبه ستندال خير ما أعجبه منها وبخاصة وصفه لمعركة وترلو . . . وسوف يكون لمشاهدة تولستوى معارك القرم أثره العظيم في فنه يوم يكتب قصته الكبرى « الحرب والسلام » ، فلقد بلغ من روعة وصفه الحرب في تلك القصة ما لا يتفق مثله إلا لدى موهبة فنية يستغل من المشاهد ما رآه رأى العين . . . فتعجب إذ يريك ما يصف وكأنك تقع عليه ببصرك لا تقرأه في سطور كتاب . . .

واتتابت تولستوى الحمي فأقعده أياماً في بخارست بعد أن أخذ يؤدي واجبه في إحدى فرق المدفعية ثم أبل فألحق بالجيش الذي كان يحاصر مدينة سلهستريا وكان ذلك قبل الانصراف عن محاصرتها ببضعة أسابيع . . . وشهد تولستوى في هذا الحصار من مناظر الموت والدمار ما اختزنه في ذاكرته العجيبة

ليجتره فيما بعد فأذا هو بعض فنه ؛ وكذلك كان يدرس مسلك القواد والضباط وعلاقاتهم بعضهم ببعض ، ولعله كان في غير وعى منه يخترن في نفسه بعض شخصيات قصصه .

وكان مما أطل فيه التأمل من حياة الجند أو جوانب النفس البشرية ، أن الجنود الذين يقضون أياماً تحت النيران وبين الأشلاء المتناثرة والجثث الطريجة والدماء الجارية ، إذا هم بعدوا عن الميدان يوماً أو بعض يوم للراحة أقبلوا على متع الحياة ومسراتها فلعبوا وشرّبوا وضحكوا كأنهم قوم خرجوا للنزهة فليس يشغل أذهانهم شيء . . .

وكان رفع الحصار عن سلبتريا في شهر يونيو ، وعاد تولستوى إلى بوخارست وهناك طلب إلى جورشاكوڤ أن ينقله إلى القرم . . .

وعاوده المرض فأجريت له جراحة ألزمته الفراش ستة أسابيع ، وكان في طريقه إلى بوخارست قد عاد إلى الميسر واقترض بعض المال « الأمر الذى يلحق المهانة بكل امرئ » وبخاصة بشخص مثل « كما ذكر في يومياته . . .

وعاد إلى نقد نفسه أو على الأصح عاد يلوم نفسه ويؤنب نفسه كأنما يجد في هذا نهدة لروحه القلقة ، إذ كان يتساءل كما جاء في يومياته ماذا عسى أن يعمل في الحياة وهو يرى أنه في الواقع ليس يعمل شيئاً .

وكان يرى أن بلوغه ما ينشد من كمال في الحياة إنما يتعذر عليه أو يبدو له صعباً لأنه يخلط بين الكمال في ذاته وبين تكميل نفسه ، فعليه قبل كل شيء أن ينظر في أخطائه أو أوجه نقصه ويتبينها ثم يعمل على إصلاحها أما أن يتصور المثل الأعلى للكمال ثم يقارن بينه وبين ما هو عليه فذلك ما يجمله يستبعد الشقة . . .

وكان قاسياً على نفسه فيما أثبتته في دفتر يومياته في السابع من شهر يوليو إذ يسأل نفسه ماذا عسى أن يكون ، ثم ينسب إلى نفسه الضعة والجهل وسوء تدبيره شؤونته إلى أقصى حد ، وقد أصبح سيد نفسه منذ سن السابعة عشرة ؛

كما كان يعيب على نفسه أنه رجل لا يحس في نفسه شيئاً من المبادئ ، وأنه نقي نفسه إلى القوقاز ليهرب من ديونه ومن عاداته السيئة ، وأنه الآن في السادسة والعشرين لا يملك من المال إلا ما يدفع له من أجر لأن ماله من أملاكه يدفع وفاء لديونه ؛ ثم يسرف في وصف نفسه فيقول إنه قبيح المنظر خجول كالصبي غريب الهيئة لا علم له بالأوضاع الاجتماعية ، قلق مضطرب يتعب من يعامله ، غير متواضع ولا معتدل ، لا يكاد يستقر على وضع ، ولا يكاد يثبت على عزم أو يسير على نهج ، وأنه مع ذلك يداخله غرور غبي إلى أن يقول « إني على قدر من الذكاء ولكن ذكائي لم يمتحن قط بشيء من الأشياء ... وإني أمين أعني أنني أحب الخير وقد بنيت عادة حب الخير حتى إنني لا أرضى عن نفسي إذا تنكبت هذه العادة ، ثم أجدني أعود إليها في غبطة ، ولكن ثمة شيء أحبه أكثر مما أحب الخير وذلك هو الصيت . وإني لشديد الطموح ولكن هذا الشعور لم يجد متنفساً حتى إنني لو خيرت بين الصيت والفضيلة فإني أخشى أن يكون الصيت ما أختار » وفي هذا الذي يذكره عن نفسه كثير من المغالاة فقد كان واسع أفق المعرفة وقد امتحنت مقدرته فيما نشر من آثار قلمه مما تقبله الناشر ورجال الفن بقبول حسن .

وكتب في منتصف أغسطس يقول « إني أكرر ما كتبت من قبل : إن صفاتي نقائص ثلاث ، فإني تعوزني الشخصية وإني عنيف المزاج وإني ذوكسل وعلي أن أعالج هذه العيوب في نفسي وأن أراقبها بكل ما يسعني من انتباه وأن أدون ما أقع عليه منها » .

وفي أوائل أكتوبر كتب يقول إنه يحس أنه آخذ في الاستقرار ، ولكنه في الحادي والعشرين من هذا الشهر يثبت في دفتره : « لقد خسرت كل ما كان معي من نقود في لعب الورق » .

وقد قرأ نولستوي في تلك الأثناء بعض آثار جيتي ودكنز وشلر وبلزك وهيني وبوشكين وجورج ساند وثورى وبلزك كما قرأ القصة الأمريكية

« كوخ العم توم » وأعجب بها إعجاباً شديداً وبخاصة ما جاء فيها عن الرق .
وقد كانت الدعوة تنتشر في روسيا للقضاء على مخلفات عهد الأقطاع ..

وفي السابع من شهر نوفمبر بلغ تولستوى حصن سباستبول حيث كان
الهجوم على الحصن من جانب الترك والإنجليز والفرنسيين على أشده وكان الروس
يستميون في الدفاع عنه ...

وامتلاً قلبه حماسة كما لو كان جندياً بطبعه ، وكتب إلى أخيه سيرجي يقول
إن تحمس الجيش أعظم من أن يحيط به وصف وإن الأغبى الأقدمين
لم يشهدوا مثل ما يشهد من بطولة .

وكان ينقل تولستوى من حصن إلى حصن أثناء القتال ، وكانت تبعد هذه
الحصون أحياناً عن سباستبول نحو سبعة أميال ؛ وكان يضيق الفتى بحياة الجندي
أحياناً ويرتاح إليها أحياناً . كان يضيق بها حين يتجه بفكره إلى ما فيها
من خشونة وغلظة وتحاسد وتباغض بين الضباط والقواد ، وأكبر ما كان يتألم
منه ابتعاده زمنياً طويلاً عن الأوانس وعن دور اللهو ومسارح التمثيل فليس يحيط
به هنا إلا صور الموت والدمار ، يعيش في خيمة أو في كوخ من الطين يسد نوافذه
بالورق ويتقي الرطوبة على حائطه محصر من القش

وكان يرتاح إلى حياته حين يتجه بفكره إلى أنه يؤدي واجباً تقتضيه إياه
الرجولة والوطنية وأكبر ما كان يرتاح إليه أنه يشهد من المناظر ومن صور الحياة
ما يختزنه في نفسه ، في وعى منه وفي غير وعى ، ليكون في المستقبل أو في الحاضر
مادة لفنه ...

ولقد اكتسب ليو على الرغم من تعاليه أحياناً محبة الكثيرين ممن أحاطوا به
فقد أعجب أقرانه ببسالته واتحامه الأخطار في سكون وثبات إذا دعا الداعي إلى
الإقدام والقداء ، كما أعجبوا بقوة بدنه وقد باتت بينهم مضرب الأمثال ، هذا إلى
ما كانوا يلمسونه من رقة حاشيته إذا ألف الناس وألفوه ومن طيبة قلبه وصراحته
وعفته ونزاهته ... وكثيراً ما كان ينظم الشعر في يسر فيشيع في أقرانه كما أنه

كان عذب الحديث يقص على رفاقه من الضباط من قصصه ونادراته ما يضحكهم ويمتعهم ويدفع عن قلوبهم السأم ...

على أن بعض صفاته هذه قد كرهته إلى نهر من رؤسائه وكرهتهم إليه فهو صريح في نقد ما لا يعجبه من خطط وهو أكثر صراحة وجرأة حين يشتم شيئاً مما لا يتفق مع النزاهة؛ أثبت في يومياته يوماً « ما أسهل أن يسرق المرء هنا ، لقد بات الأمر من السهولة بحيث يعد من المستحيل ألا يسرق الإنسان ! » وكانت حياة الجندي تشغله أحياناً عن القراءة والكتابة ولكنها لم تصرفه صرفاً باتاً عن ذلك فهو إن انصرف عن كل شيء لا يستطيع أن ينصرف عن كتبه وأوراقه وكانت سنة ١٨٥٤ تقرب من نهايتها وهو يكتب كتابه « عهد الشباب » كلما أتت له الوقت ، كما كان يتم ما بدأ من قصص قبل ذلك ، يفعل ذلك وفي نفسه شعور اللذة بالكتابة وشعور الضيق من جراء ما يقطع عليه هذه اللذة .

وفي مستهل سنة ١٨٥٥ عاد إلى الميسر ، وعاد يشكو من خسارته ويتبرم بما يفعل ، والغريب أنه لا يقع في ذلك إلا اشتكى ثم هو لا يكاد يفرغ من شكاته حتى يفرق فيه إلى ذقنه ! وقد بلغ من خسارته أنه أرسل إلى وكيله كي يبيع بيته في ياسنابوليانا ، كما جاء في يومياته في اليوم الثامن والعشرين من يناير سنة ٢٨٥٥ وكان قد كتب إلى أخيه من قبل وهو في القوقاز ليبيعه فلم يتم البيع ، وهكذا يذهب هذا القصر الذي ولد فيه والذي ورثه عن جده وفاء لما يخسر في الميسر ! وليته وقف عند هذا فقد أثبت في يومياته بعد ذلك بخمسة أيام يقول إنه لم يكفني أنني خسرت كل ما كان معي فقد أصبحت مديناً بمائة وخمسين روبل ليس في يدي شيء منها » . وبعد ذلك بعشرة أيام خسر خمساً وسبعين غيرها .

ويفرغ تولستوى من الميسر أو من خسارته فيه على الأصح ليعود إلى انتقاد نفسه على عاداته وأخذها باللوم والتعنيف ، وإنه ليسخر من عمله هذا أحياناً فيما يثبته من يومياته ، ويقول إنه من المضحك حقاً أن يضع لنفسه من القوانين ما لا يكاد يفرغ من وضعه حتى يخرج عليه ... ثم تراه بعد هذه السخرية من

نفسه يكتب في مذكراته : « للمرة الأخيرة أحدث نفسي أنه اذا مرت ثلاثة أيام ولم أؤد عملاً يعود بالخير علي الناس فسوف أقتل نفسي برصاصة ! »
ويفكر الفتى في أن يصدر صحيفة وهو في الميدان يكتب فيها ما يثير حساسة الجند وما يظهر نفوسهم ويدخل المسرة على قلوبهم ، ويفتح لهم آفاقاً من المعرفة ، ويسأل القائد رأيه فيعجب بالفكرة ويقره على ما قدم من منهاج للصحيفة ، ويعده أن يستأذن القيصر . ولشد ما تألم تولستوى ، ولشد ما غضب أن جاء رد القيصر بالرفض .

ويتجه تولستوى هنا إلى الدين كما كان يفعل في القوقاز فيستعين الله ويستغيثه ليخرجه مما هو فيه من ضلالة وحيرة ، وليجنبه الألم والمرض ، وغنت الخصومات ، وغل الحزازات ، والدَّين ، وسوء المنزلة في الناس ، وليهديه إلى محبته والأمل في رحمته وإلى محبة الخلق والعمل في سبيل الخير .

وخطرت بباله فكرة في أوائل شهر مارس سنة ١٨٥٥ عبر عنها في مذكراته بقوله : « بالأمس خطرت لي فكرة أثناء حوار كان يدور حول الإيمان والقداسة... فكرة عظيمة هائلة ، أشعر أنني خليق بأن أجعل لتحقيقها كل ما بقي من حياتي ومؤدى هذه الفكرة أن أخلق ديناً جديداً يماشى التقدم البشرى الحالى ، ديناً هو المسيحية مطهرة من النصوص الجامدة والصوفية الغامضة ، ديناً عملياً لا يعد بسعادة مستقبلية ولكنه يتيح السعادة على الأرض . وإني أحس أنه لكي يتحقق ذلك فلا بد أن أشترك أجيال في تحقيقه اشتراكاً مقصوداً ، فيلتي كل جيل بالفكرة إلى الجيل الذي يليه حتى يأتي يوم تصل فيه الحماسة أو الإرادة إلى تحقيقها ؛ إن العمل في تمهل وحذر على أن يكون الدين هو الرابطة التي تربط البشر جميعاً هو المبدأ الذي يرشدني والذي آمل أن يسيطر على ذات يوم » .

ومات القيصر الرجعي المستبد تقولا الأول في هذا الشهر وقد آدته أعباء الحرب وما تعرضت له من جرائها سمعته من هوان ، وخلفه على العرش الإسكندر الثاني الذي كان يعد إذا قورن بسلفه من الأحرار .

والتقى بعد أيام على عاتق جورشا كوف أحد أقرباء تولستوى الدفاع عن سياستبول ، ونقلت فرقة تولستوى إلى المعقل الرابع حول هذا الحصن وكان أهم المعامل جميعاً وأقربها إلى نار الأعداء ، وأقام الفتى هناك ستة أسابيع يحيط به الهول والموت من كل مكان ، ولكنه بهر أقرانه ورؤساءه برباطة جأشه وأهبتة أبدا للقاء الأخطار ...

ولم تطغ الجنديّة فيه على الأدب حتى في هذا الموضوع فأخذ يعمل في كتابه « عهد الشباب » . كما أخذ يكتب في نشاط مابداً من قبل تحت عنوان : « سياستبول في ديسمبر » .

والحق أنّ تولستوى على ما كان يشغل فراغه من لعب الليسر وما كان يشغل رأسه من التفلسف في الدين ومن النظر في شؤون نفسه وتبين نقائصه ، لم يسه عن فنه الذي يحس في دخيلة نفسه أنه أئمن عنده من كل شيء . فكان كثيراً ما يدون من المناظر والآراء ويصور من الأشخاص ما عسي أن يرجع إليه يوماً ما .

ونشرت « سياستبول في ديسمبر » في عدد شهر يونيو من مجلة المعاصر ، وسرعان ما أحدثت أثرها في دوائر بطرسبرج الأدبية ، وقرأها القيصر الجديد فأعجب بها إعجاباً جعله يكتب إلى القائد العام يأمره أن يحرص على حياة المؤلف الشاب ، كما أمر أن يترجم الكتاب إلى الفرنسية .

وعلى الرغم من إعجاب القيصر نفسه بما كتب تولستوى لم ينج الكاتب من عنق الرقيب ومضايقاته ، وإن تولستوى ليذكر ما لحق غيره من أذى الرقابة ؛ فيزداد لها كرهاً ومقتاً ؛ فقد أصاب بوشكين من قبل غير قليل من المهانة ، وأرغم جوجول على أن ينكر بنفسه بعض آرائه ونقى دستويفسكي وليرمنتوف وهيرزن وسالتيكوف ، وقبض على ترجنيف لأنه طبع مقالا عن جوجول .

كان تولستوى واقعياً في « سياستبول في ديسمبر » وكانت تغلب عليه النزعة الوطنية فأثبتت هذه النزعة بصره في كل نبيل كريم من شؤون الحرب والجهاد

وصرفته عن كثير من السوءات ، فكان لما كتب وقع جميل في نفس القارى ؛
ففيه روعة الفن تتجلى في عمق النظرة وصدقها وشمولها مع جمال التعبير وبراعة
السياق . وفيه محبة الوطن تستبين فيما عرض من مواقف البطولة والفداء .

وأغراه نجاحه بالكتابة ثانية في هذا الموضوع فبدأ يكتب في يونيو
« سباستبول في مايو » فكان هذا من حيث الصدق وروعة الفن في مستوى
سالفه . ولكن الكاتب هنا يعرض الحسنات والسيئات ويصف الصناديد
والرعاعيد ، ولا يكاد يغادر صغيرة ولا كبيرة مما يكون في الحرب خيره وشره .
كتب إلى صديقه بانيف شريك نكراسوف في تحرير مجلة المعاصر يقول :
« إني علي يقين أن هذا سوف لا يلقى قبولا ، بل إني لأخاف ألا يسمح بنشره
ألبته » وكتب نكراسوف إلى ترجنيف يقول : « إن المقال حافل بالصدق
العميق الصارم حتى إنه لمن العيب أن نفكر في نشره » .

وعرضت المقالة على أحد الرقباء فتناولها بالحذف والتشويه ، ولم يكتب بهذا
ذوو السلطة فعرضوها على كبير الرقباء فزادها حذفاً وتشويهاً ، وإنه ليعلم سخطه
على الرقيب الذي قرأها لما كان من هوادته ، وعلى بانيف لتجرؤه على التقدم بمثل
هذه المقالة إلى الرقابة .

وكتب بانيف إلى تولستوى يعلن إليه أسفه ويعتذره عن نشرها على
هذه الصورة ويعزیه عما لحق فنه من تشويه ويثني على أصالته ورسوخ قدمه
في الوصف الواقعي الدقيق الذي لا يحسنه إلا القليلون ، وكان مما قاله « إنك علي
حق أن تعد هذا الجانب من موهبتك أسمى الجوانب جميعاً ، فالصدق علي الصورة
التي أدخلتها في أدبنا يعد أمراً جديداً يننا كل الجدة ، وإني لست أعرف كاتباً
معاصراً يحمل القارى على محبته ومشاركته عواطفه بقوة كما يفعل ذلك الذي
أرسل كتابي هذا إليه ، ولست أخشي سوى أن يصنع بك يوماً خبث الحياة ،
وما يحيط بنا من صمم وعمي ما صنع بأكثرنا فيقتل الهمة التي لا يقوم كاتب
يدونها ، أو على الأقل كاتب مما تحتاج روسيا إليهم » .

وأثبت تولستوى في يومياته ما لا ينم عن غضب عظيم كما كان يُتوقع أن يحدث ، فقد قال إنه يظن أنه تحت رقابة السلطة بعد هاتين المقاتلتين وذكر أن روسيا في حاجة أبداً إلى كتاب الفضيلة وأنه لا يستطيع أن يكون كاتباً يتملق المجتمع ، ولا أن يكتب شيئاً ~~يفيد~~ فكرة معينة أو بغير غرض مقصود ؛ إلى أن قال « وعلى الرغم من لحظة الغضب الأولى ؛ تلك اللحظة التي أقسمت فيها ألا أشرع من بعد قلماً ؛ فإني أحس أن النشاط الأدبي ينبغي أن يكون المسيطر على جميع نزعاتي وأعمالي » .

وأولع تولستوى من ذلك الحين بالصدق في الأدب ولوعاً عظيماً ، وسوف يكون ذلك فيما بعد أبرز جوانب فنه ، وسوف يبلغ فيه القمة فيما يأتي من آثاره ولعل في هذا أعظم سحره وأقوى قوته ، فإنك لا تكاد تطالع صفحة من قصصه إلا وجدت نفسك مسحوراً تملأ نفسك لذة قوية ، وما ذلك إلا لأنك ترى الحياة أمامك واضحة كأنك تعيشها لا تقرأها في كتاب ، وتحسب ذلك هيناً وهو ما لا يتعلق به إلا كل جبار طويل الباع في التخيل والتصوير ، راسخ القدم في الخلق والابتكار ... ولن تجد في وصف ولوعه بالصدق في فنه خيراً مما اختتم به « سباستبول في مايو » إذ يقول : « إن بطل أقصصتى ذلك الذى أحبه بكل ما فى روحى من قوة . والذى حاولت أن أصوره فى أكمل جمال ... ذلك الذى كان جميلاً والذى أراه جميلاً والذى سوف يبقى جميلاً .. إنما هو الصدق » .

ولم يغض تولستوى ذوى السلطان فى الجيش بوصفه سباستبول فى مايو فحسب وإنما غاظهم بأنشودة نظمها وتهكم فيها وسخر سخريه مرة من القواد فى معركة شيرنايا وكان ذلك فى شهر أغسطس ، وسرعان ما ذهب لهذه الأنشودة صيت عظيم فى الجيش كله حتى صارت على كل لسان ...

وغاظهم كذلك بأقصوصته الأخيرة عن الحرب وهى « سباستبول فى أغسطس » وقد وصف فيها الهجوم الأخير للعدو وسقوط المدينة على أثر ذلك ، وقد جاء فيها أنه ذرف الدمع حين « رأى المدينة يلتهمها اللهب ، والأعلام الفرنسية تحنق على معاقل الروس » .

وبعد ذلك بشهرين أرسل تولستوى إلى بطرسبرج يحمل بعض التقارير من القيادة ، وكانت الحرب قد قربت من نهايتها فاختم حياته جندياً وعاد إلى الحياة المدنية وهو في نحو السابعة والعشرين .

ولم تكن الجنديّة في الواقع متصلة بطبعه وإنما أراد أن يرى ناحية من الحياة لم يكن ليراها لولا دخول الجيش ، وصفه أحد أقرانه بقوله « إن الكونت تولستوى يقود فرقتين من مدفعية الجبل ولكنه يتجول حيث يشاء ... إن تولستوى ليشتاق إلى أن يشم بارود الحرب ولكن طوع حالاته النفسية فحسب كما يفعل كل من لا يسير على وتيرة واحدة فيجتنب ما تأتى به الحرب من مصاعب ومشاق ؛ وإنه ليسافر إلى جهات مختلفة كما عسى أن يفعل سائح من السائحين ، ولكنه لا يكاد يسمع صوت المدافع حتى يخف إلى ساحة القتال ، فإذا انتهت المعركة عاد إلى حيث تتجه به نوازع نفسه » .





تولستوی الجندی

obeykandl.com

في بطرسبرج

ذهب تولستوى إلى بطرسبرج وقد سبقه إليها من الصيت ما لا يتفق في مثل سنه إلا للقلائل الأفاذا ؛ وقد كان لما كتب عن سباستبول أجل وقع في دوائر الأدباء وفي جمهور القارئين بوجه عام . وكذلك كانت قصصه حديث أهل الفن كلما اتجه الحديث إلى الأدب ..

وحسبه من ذهاب صيته أن دستويفسكى قال لأحد أصحابه إنه شديد الإعجاب بالكاتب « ل . ت » وأن بانيف يروى عن ترجميف أن أشخاصا كثيرين كانوا يسمعونهم يتلوفقرات كامله من « عهد الطفولة » عن ظهر الغيب ، وأن بسمسكى أحد نابهي فن القصة وكان يكتب يومئذ قصته الطويلة « ألف من الأنفس » قال لأحد أصدقائه فيما يشبه الكمد ، إنه لخير لنا أن ندع الكتابة فإن هذا الكاتب الشاب سوف يلتقى علينا الخسوف ذات يوم .

ولقد سلف بنا كيف أن القيصر قد أعجب بفنه حتى لقد أمر أن تترجم إلى الفرنسية « سباستبول في ديسمبر » ، وتزيد على ذلك أن الأمبراطورة قد ذرفت الدمع وهي تقرأها ؛ وفعل ذلك ترجميف نفسه فيما روى الرواة ، ومهما يكن مبلغ هذه الرواية من الصحة فإن من المؤكد أن ترجميف قد كتب إلى أكساكوف ينبئه أنه لم يكتب بقراءة الأقصوصة بل لقد صاح قائلا : مرحى ! مرحى ! وشرب كأساً من أجل المؤلف ...

ووجد تولستوى نفسه مرموق المسكاة ، يشار إليه ويتهامس باسمه فيما أكثر من غشيانه من المراقص والمنتديات ودور اللهو والمطاعم مع فريق من أصحابه ، حيث كان ينفق عن سعة ويستمتع بالحياة ماوسعه الاستمتاع ، كما كان يفعل قبل رحيله إلى القوقاز .. وأولم له أصحابه الولائم وأحاطوه بمخاواتهم وإعجابهم أينما التقوا به ،

وما كانوا ينصرفون إلا وقد تواعدوا على اللقاء ، وما أخلفوا قط موعداً ..
وكان تولستوى أول الأمر شديد الانجذاب نحو الأدباء الكاتبين في مجلة
المعاصر ، وكان حبيباً إلى نفسه أن يشعر أنه بات في زمرةهم ، ولقد أحب بطرسبرج
عندما جاءها هذه المرة من أجلهم ومن أجل المجلة التي يكتبون آثارهم فيها ..
وكانت المعاصر مجلة شهرية أنشأها بوشكين وبلتنيف سنة ١٨٣٦ ؛ وقد
آلت ملكيتها إلى بانتيف والشاعر نكراسوف سنة ١٨٤٨ ؛ وكانت تعد عندما
بدأ تولستوى الكتابة أقوى المجلات وأكثرها ذيوياً .

وألفت المجلة بين جماعة من الكتاب ، كانوا في الأكثر لا ينشرون آراءهم
إلا فيها ، وكان من بينهم ترجميف وجريجور وقش وجونشاروف والشاعر فت
وغير هؤلاء ممن كانوا دونهم منزلة وقدرة ، وكانوا ممن يؤيدون حركة أخذت
تنمو يومئذ وهي حركة تحرير رقيق الأرض ، كما كانوا يعدون أنفسهم من دعاة
الإصلاح العام على أساس الديمقراطية والتقدم الاجتماعي .. وكان الأمل يملأ
نفوسهم أن عهد القيصر الجديد عهد إصلاح ونهوض كما كانوا يوقنون أنهم
يشهدون فجر الإصلاح في روسيا .

وأظهرت هذه الجماعة للضابط الشاب القادم من القرم كل حفاوة ، وكانوا
يقدمونه إلى من لا يعرفه لا على أنه كاتب ذو موهبة فنية مرموقة فحسب ، ولكن
على أنه كذلك من أبطال سياستبول ..

وإن المرء ليظن بادئ الرأي أن تولستوى قد وجد هذه الجماعة خير من
يصاحب ، ووجد في بيتهم أصلح بقعة لئمانه وامتداد جذوره .. ولقد تلقته هذه
الجماعة وفي نفوسهم أنه سوف يغدو واحداً منهم يشعر شعورهم ويميل ميلهم ،
ولكن ما لبثوا أن كشفت لهم الأيام أنهم كانوا مخطئين ! ..

أولموا له ذات يوم وليمة حضرها أكثرهم وكان يتقدمهم ترجميف ، ودار
الحديث حول المائدة وتشقق وتناول كثيراً من شؤون السياسية والاجتماع ،
وتولستوى صامت وفي وجهه ما يشعر أنه لا يذهب مذهبهم ، حتى مال الكلام

إلى « جورج ساند » وكانت بينها وبين ترجميف مودة وإعجاب متبادلين ، وأخذ ترجميف يثنى عليها وعلى آرائها ما وسعه الثناء ، وشاركه في هذا الثناء أصحابه جميعاً إلا تولستوى فقد ظل صامتاً عابساً وبدا عليه أنه ضائق بهذا الكلام ؛ وما كان أعظم دهشة رفقته إذ تكلم آخر الأمر ولم يعد يطيق صبراً ، قائلاً في حماسة وحدة إنه يرى أن امرأة تذيع مثل هذه الآراء خليقة بأن تعلق إلى عربة الجلاد وتسحب في الشوارع نكالا لها وعبرة لغيرها ! وتبادل الرفاق النظرات وفي وجوههم مع الدهشة شعور الخيبة والحجل ، وقد كانت بين الحاضرين زوجة بانيف وكانت جد معجبة بما تقول جورج ساند !

والتقوا بعد ذلك في بيت نكراسوف ، وطلب إلى تولستوى لسوء الحظ أن يتلو على الجماعة كتاباً جاءهم من أحد الأغنياء من مالكي الضياع وكان يعشق الأدب ، ولم يكن يعلم أحد ما جاء بهذا الكتاب ، وقرأ تولستوى فإذا بالرجل يشير في أكثر من موضع إلى أن تولستوى لا يعطف على الاتجاه السياسي الحر وأبدى عجبه من هذا . . . وكتب تولستوى غيظه حتى خرج فكتب إلى هذا الرجل يدعوه إلي مبارزته ، الأمر الذي ساء وقعه في نفوس الجماعة حتى كادوا يضيقون بهذا الرفيق الجديد . . . وأصر تولستوى على المبارزة على الرغم من سعي أصحابه لیسحب تحديه ، ولكنهم نشطوا ليقنعوا ذلك الفتى بأن يتغافل عن هذا التحدي فكان لهم ما أرادوا .

وازداد الخلاف بينه وبين أصحابه في كثير من أوجه الرأي مما كان يشغلهم يومئذ من شئون السياسة والأدب والاجتماع ، حتى أوشك أن ينقلب هذا الخلاف جفوة فإنه ما يلقي أحداً منهم إلا شعر هذا حياله بشيء من الانقباض وبرغبة في التحفظ مخافة أن يجبهه تولستوى فيؤذيه ..

ويمكن أن نرد مسلك تولستوى نحو أصحابه إلى بواعث مختلفة وإن كنا لا نستطيع أن نجزم أي هذه البواعث كان أشدها سيطرة عليه . . . كان تولستوى أرسوقراطي المزاج بحكم نشأته ولذلك كان ينقصه التحمس

لما يحلم به أصحابه من الديمقراطية وبخاصة لأنه لم يتبين حقيقة ما يريدون ..
لهذا وقف تولستوى موقفاً بين الرجعية والتقدم فهو وإن لم يكن رجعياً
إلا أنه لا يستطيع أن يشايح ما يحس حوله من نزعة تقدمية ليس يدرك أصحابها
أنفسهم على أى صورة يكون ما يطلبونه من التقدم ، وقصارى ما أقره يومئذ
ورغب فى تنفيذه هو تحرير رقيق الأرض .. وقد كان أنصار الإصلاح يريدون
أن يأتى الإصلاح على يد الحكومة ، فى حين كان تولستوى من أول الأمر من
لا يؤمنون بالحكومات فى صورة تكاد تجعله من أنصار الفوضى .

وكان يكره تولستوى أن يربط نفسه بجماعة أيا كانت هذه الجماعة لأن
ذلك يقتضيه شيئاً من المسيرة والمصانعة حتى يعايشها وهذا مما لا يتصل بطبعه فى
كثير ولا قليل ، لأنه لا يحب أن يخضع رأيه لرأى غيره ..

وكان تولستوى سريع الغضب كما قدمنا ، لا يلبث أن يحتد إذا رأى من
من الكلام ما لا يعجبه ، ومن الآراء ما لا يتفق وما يرى كما حدث منه حين
سمع الثناء على جورج ساند ..

ويتصل بذلك فى أخلاقه ولوعه الشديد بالمعارضة لذاتها ، فما أن يسمع رأياً
من متحدث إلا وثب عليه برأى يعارضه ويسفهه ، وسرعان ما تبين ذلك فيه
أصحابه فكرهوه وكان من أسباب نفورهم منه وازورارهم عنه ، ولقد أجمعوا فيما
بينهم على أن تولستوى يجب أن يسخر من محدثه وأن يغالبه وأنه يشتد فى ذلك
كلما أحس من المتحدث أنه يجعل من نفسه مصدراً وثيقاً أو يعتقد بمثانة منطقته
وشدة عارضته وقوة مراسه فى المطاولة والمصاولة ، فتراه عند ذلك يتحمس فى
مغالته ابتغاء أن يظهر عليه .

وقد كان تولستوى يفتن إلى هذه النزعة فى سلوكه فقد أثبت فى يومياته
ذات يوم يقول « غداء لترجينيف حيث أدت بي حماقتى إلى الغضب من أنشودة
لنكراسوف . . . لقد قلت كلاماً كريهاً لكل امرئ هناك . غادر المكان
ترجينيف مغضباً .. إن ذلك ليحزننى وبخاصة لأنى لا أكتب الآن شيئاً »

وذكر الشاعر الشاب فت أنه لم يكذب يرى تولستوى حتى لاحظ اندفاعه الغريزي إلى مدافعة الآراء المسلمة جميعاً ؛ ولما رآه عند نكراسوف هو وترجيف لأول مرة شاهد مبلغ ما بعثه من الحق في نفس ترجيف من فرط مخالفته إياه ومعارضته وتسفيه آرائه ..

وثمة أمر آخر باعد بين تولستوى وأصحابه وذلك أنه كان قليل الثقة في إخلاص المخلصين وتحمس المتحمسين ، يحقنه أن يرى الفرق عظيمًا بين ما يقولون وما يفعلون .. قال ترجيف « إن تولستوى لم يصدق قط ما يبدو من إخلاص الناس فكل حركة مردها إلى الروح تبدو عنده زائفة ؛ وإنه ليثبت عينيه الناقدتين فيمن يقع عليهم تشككه فكأنه يخزّم بهما »

والحق أن قدرًا كبيرًا من حماسة المتحمسين يومئذ كان متكافئًا ، فقد انساق أكبر الكتاب في الدعوة إلى الإصلاح كما ينساق الناس وراء ما يستهوهم من أساليب الزى مثلا أو ضروب اللهو والزينة وغيرها مما يبتدعه العصر .. قال تولستوى يشكو من ذلك إلى نكراسوف « إن من الآراء الجارية في هذه الأيام أنه ما يستحسن في النقد والأدب والاجتماع أن يبدي المرء تملله وتضجره وترفعه وعندى أن ذلك أمر كريه »

ولقد زاد أصحابه نفورًا منه وضييقًا به أنه كان يفعل ذلك الذي ينكره منهم فكثيرًا ما كان بين آرائه وأعماله اختلاف كبير ؛ وكثيرًا ما اعتزم إصلاح أمره وصم أن يسير وفق قواعد هداه إليها طول النظر ثم يلبث أن يعود إلى ما كان يعله على نفسه من العيب !

ولئن كان يكره من دعاة الأخلاق من أقرانه عدم صدقهم لبعدهما بين أقوالهم وأفعالهم فلقد كان وقوعه في نفس هذا الخطأ ثم أخذه أقرانه مع هذا باللوم الشديد مما يملأ نفوسهم حنقًا عليه وعجبًا من تناقضه المزدوج !

ولم يكن تولستوى يخفي عن أصحابه ما يفعل أو يبالي بما عسى أن يقولوا ؛ دخل الشاعر فت بيت ترجيف قبل معرفته بتولستوى فرأى سيفًا معلقًا على

الجدار فسأل الخادم لمن هذا السيف؟ فأجابه إنه سيف الكونت تولستوى وأنه نائم في حجرة الاستقبال؛ ودخل الشاعر فكان يكلمه ترجنيف في صوت خافت مخافة أن يوقظا تولستوى، وأشار ترجنيف إليه قائلاً « هكذا تراه أبداً... الخمر والعجريات ولعب الورق طول الليل، ثم ينام هكذا كأنه جثة هامدة حتى الساعة الثانية بعد الظهر؛ ولقد حاولت أول الأمر أن أصده عن وجهه، ولكنى الآن نفضت يدي وتركته يفعل ما يجب »

ولعلنا نجد في اضطراب تولستوى وفي اختلاف ما يعمل عما يطمح إليه من كمال، بعض السبب في حب المعارضة، فلقد يعترض على رأى مرة ويعترض على تقيضه مرة أخرى بدافع ما في وعيه الباطن من قلق وحيرة... ولقد كان اضطرابه هذا وعدم استمراره في اتجاه واحد في الأمر الواحد مما يثير غضب محدثه، وما يحمله على مجافاته والإعراض عن مجادلته..

ولقد اشتد النفور بينه وبين ترجنيف بوجه خاص حتى أوشك أن يستحيل النفور في أكثر من موقف عداوة شديدة... في اليوم الذي بلغ فيه تولستوى بطرسبرج قادماً من سباستبول في شهر نوفمبر سنة ١٨٥٥، قصد من فوره إلى بيت ترجنيف، وكان قد تلقى دعوة منه وهو في طريقه إليها ليقم عنده، وتلقاه ترجنيف مرحباً به وقدمه إلى دوائر المدينة الأدبية والفنية متحمساً في الثناء عليه.

وكان يعد ترجنيف زعيم الكتاب بعد موت جوجول ومنذ أن أخرج للناس كتابه « مذكرات رجل من رجال الصيد » ولقد أعجب كما قدمنا بكتاب تولستوى « عهد الطفولة » وقراه على أخت تولستوى في خمس ظاهراً قبل أن يعرف أن مؤلفه « ل. ت » هو ليو تولستوى..

وكتبت أخت تولستوى إلى أخيها تنبئه بما كان من إعجاب ترجنيف بكتابه، ووقع كلامها في نفس أخيها موقماً عظيماً زاده كما قال قدراً لنفسه، وبث في قلبه الإقبال على العمل..

وتبادل الكاتبان الرسائل وتوثقت بينهما المودة ، وجعل تولستوى إهداء قصته « قطع الغابة » إلى مؤلف « مذكرات رجل من رجال الصيد » .
وسرعان ما دب الخلاف بين الرجلين حتى أوشكا أن يتقاطعا ؛ ويرد الكتاب أسباب هذا التنافر إلى ما بين الرجلين من اختلاف في مزاجيهما وفي أسلوبهما في الحياة وكيفية استجابة كل منهما إلى مؤثرات العصر الذي عاشا فيه .
وأحسب أن خلافها إنما يرد إلي نوع من التنافس أوشك أن يكون حقدًا بينهما ، فكل منهما يحس في أطواء نفسه شيئًا من الخوف أن يطفىء الآخر نوره ، ولا عبرة في هذا بما كان من إعجاب كل منهما بآثار صاحبه ، بل لعل هذا الأعجاب كان الطلاء الذي يخفي الحسد والقلق ..

هذا تولستوى تحدثه نفسه بما سوف يكون له من خطر في أدب قومه ، ويجد الثناء عليه عظيمًا وهو لم يزل بعد حدثًا ، ولكنه يخشى أن يكون ما ذهب لترجينيف من الصيت وما انعقد له من الزعامة وهو يكبره بعشر سنوات ، هو العقبة في سبيله إلى التفوق وذيوع الصيت .

وهذا ترجينيف يوقن مما أوتى تولستوى من مواهب فنية ، ويرى أن هذه المواهب ولم تزل بعد براعم وليدة قد لفتت الأنظار إلى صاحبها فكيف إذا مدت أقصى مداها ؟

أحسب أن هذا هو سر الخلاف بين الرجلين فإن هذا التحاسد الخفي بين نابهي عصر في فن من الفنون يكاد لا يخلو منه عصر من عصور الأدب .
ولولا هذا الذي أزعج أنه سر الخلاف لكان من أيسر الأمور أن يفضي كل منهما عما ينكر من صاحبه ، فما أحسب أن الأمر كان يصل بينهما إلى ما وصل لو أن أحدهما كان شاعرا أو كاتب مقالة مثلا وكان الآخر كاتب قصة ...

وما هذا الذي أنكره كل منهما من صديقه ؟ يقول الرواة إن تولستوى كان يكره من ترجينيف إخفاءه في نفسه ما لا يتفق وما يقول وما يتظاهر به ، فهو يشامخ النزعة الديمقراطية الحرة ولكن عين صاحبه النافذة كانت تستشف من وراء

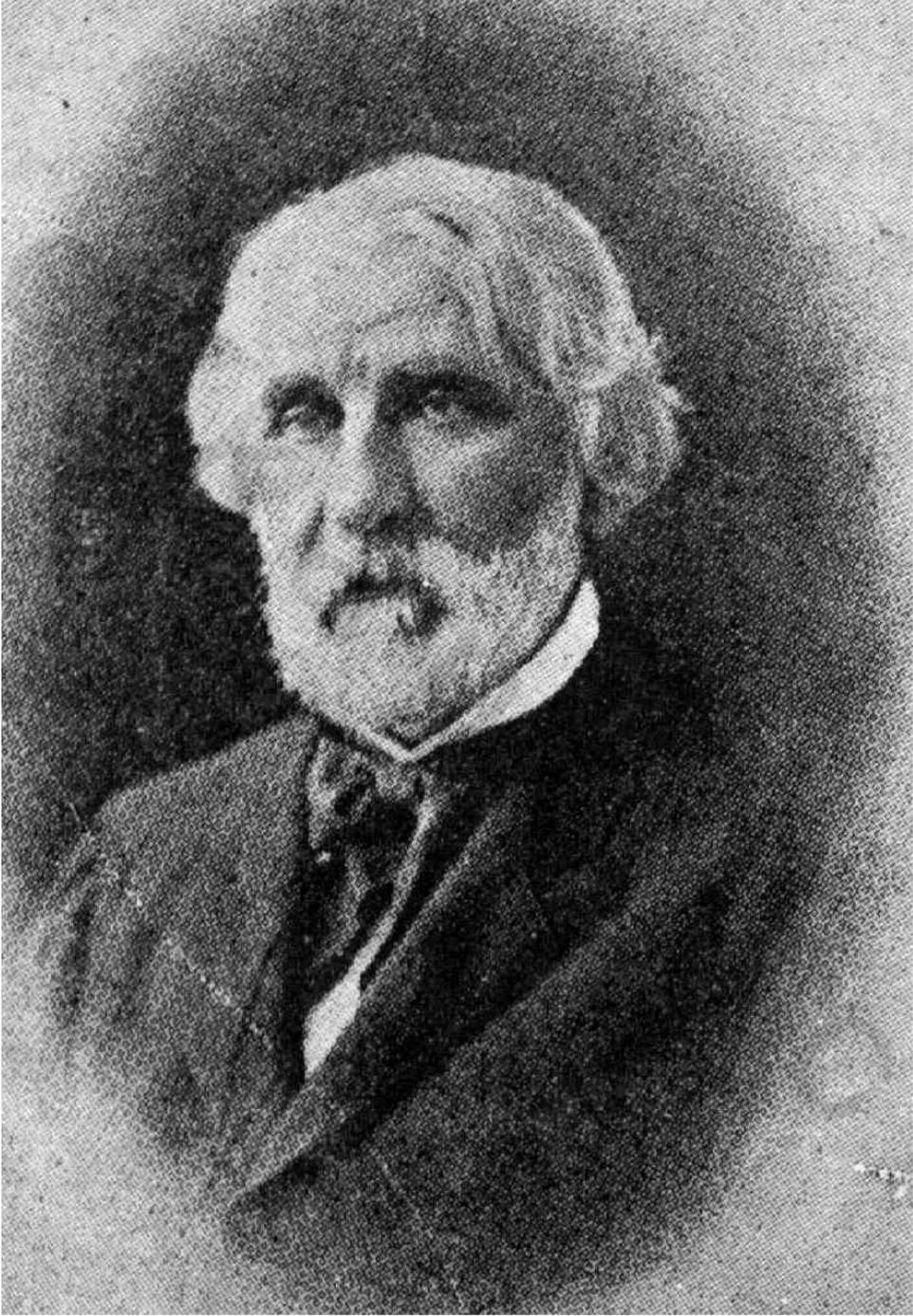
ذلك أنه لا يستجيب حقاً لهذه النزعة فهو يتأبه ويحرص على أرسطوقراطيته ولا يفتأ يفخر بضياعه وبالألفين من رقيقه ...

ويقول الرواة إن تولستوى كان صريحاً لا يلتوى ، ويعد من الشرف أن يبدى كل مافي نفسه من أوجه الرأي وأن يجعل كلامه واضحاً كل الوضوح في كل مسألة مما يطرح للمناقشة ، بينما كان ترجنيف يتحفظ ويتحرج ويجمال . وكانت في تولستوى حدة تكاد تصل به إلى الحماقة ، وكان كذلك ترجنيف يعصف بالكلام إذا غضب عصفاً شديداً حتى ما يبالي كيف يكون وقع كلامه . وكان تولستوى يكره من صاحبه ما لا يفتأ يشعره به من رعايته ومن زعامته لأن ذلك يظهره بمظهر الناشئ الذي يحتاج إلى من يرشده ويعينه على أمره ، وهو يرى أنه لم يعد بعد صغيراً وأنه كسب لنفسه من الصيت ما لم يعتمد فيه إلا على موهبته ...

وكان ترجنيف يكره من تولستوى إشارته إلى لقبه وإلى نشأته الأرسطوقراطية ولقد شكاً من ذلك إلى أصحابه قائلاً إنه ليعجب كيف يتعلق رجل كتولستوى له مثل هذا الذكاء تعلقاً مضحكاً بذكر لقبه أو الإشارة إليه في أكثر أحاديثه . وكان يضيق ترجنيف بحب تولستوى للمعارضة ، ووثوبه على كل متكلم بآرائه في عنف وفي لهجة تم عن التهمك والزراية والاستهزاء بمحدثه .

كل أولئك يذكره الرواة وكل أولئك كان التفاضي عنه ميسوراً فيما أحسب لو لم يكن بين الرجلين ما يكون بين نابهين في فن واحد من تنافس . ولقد يغار المرء من شخص يحسب أنه قاهره في أمر ، فيصور كل ما يصدر عنه بما في نفسه من اضطغان أو تجن عليه ، ولو لم يكن في نفسه هذا التجنى لرأى من صاحبه غير ما يرى ... وهكذا تختلف النظرة والفعل واحد لم يختلف .

وإننا لنحس صحة ما نذهب إليه في تعليل الخلاف بين الرجلين فيما كتبه ترجنيف إلى صاحبه من باريس بعد ذلك بنحوسنة قال « أشعر أنى أحبك رجلاً فإن حبي لك كاتبلاً يحتاج إلي بيان ، ولكن فيك كثيراً من الصفات لا تحتملها أعصابى ، وقد تبينيت آخر الأمر أنه خير لى أن أبتعد عنك ؛ وإئن قدر لنا أن



ترجيف في أواخر حياته

obeykandl.com

تلتقي فلنحاول أن نكون أكثر صبراً ، وعندئذ نجرى الأمور بيننا على ما نحب .
لبن شعورى نحوك إذا ابتعدت عنك هو شعور العطف الأخوى ، مع ما قد يبدو
في هذا القول من غرابة » ... وقال في كتاب آخر « لعلك وجدت في كتبي
شيئاً من المتعة ، ولعلها أثرت فيك بعض الأثر ، وكان ذلك حتى فطنت إلى نفسك
فوعيتها ، ولست في حاجة بعد إلى أن تدرسنى فإنك لن تعود من هذا إلا بما
تجد من اختلاف في سلوكي وماترى من أخطائي وما يشهد بقصوري عما أرمى
إليه من مدى ؛ إنما ينبغي أن تدرس نفسك اليوم أيها الرجل وأن تدرس من
يعدون من عظماء الكاتب حقاً » .

قضى تولستوى أشهر الصيف في ياسنايا بوليانا ، فقد غادر بطرسبرج في
منتصف شهر مايو سنة ١٨٥٦ .

وما عاد من زيارته بطرسبرج إلا بنفوره كما بينا ممن عرف من رجال القلم
وبضيقه بما كان يرى من سلوكهم ومم كان ينفر طبعه الصريح مما يسمونه صداقة
بينهم وما هو إلا تقارض التناء ولو في غير موجب للتناء ، وبما يزعمونه تسامحا
واعتدالا وما هو إلا قلة الكثرات بما تفرض قواعد الخلق ؛ وبما يدعونه أنه تحرر
عقلي وما هو إلا نقص في معرفتهم بالدين وقصور عن التفقه في عقائده ... كتب
في نوفمبر يقول في يومياته « إنى لضائق بهم جميعاً فأنى أطلب المودة والصداقة
وهم غير خليقين بها ... إن الجو الأدبي يضايقنى أكثر مما يفعل أى شيء آخر »
وسرعان ما أرسل تولستوى ما يكتب إلى مجلات أخرى غير المعاصر وأخذ
يقطع صلته بهذه الصحيفة ...

على أن الصداقة الصحيحة قد ربطت بين تولستوى وبين عدد من رجال
القلم والفكر ، ومن هؤلاء ناييتشوف الشاعر الذي أحب تولستوى وأكبره وزاره
منذ وصل إلى بطرسبرج ودعاه إلى بيته ، ومنهم بوتكن وهو كاتب ملحوظ
المكانة في النقد ودروشنين مترجم شكسبير إلى الروسية والشاعر فت الذى أحس
تولستوى نحوه من الحب بقدر ما لمس من محبته له ، والذي سوف يشتري ضيعة
في مكان غير بعيد من ياسنايا ليكون على مقربة من تولستوى ...

روسيا بين الغسق والفلق

ولى الاسكندر الثانى عرش روسيا سنة ١٨٥٥ ، وما تزال حرب القرم دائرة الرعى ، وبولاية الاسكندر نظر الناس فأذا على الألق بشائر الفلق ... لم يكن القيصر الجديد كسلفه « عسكرى تدرىب متوجا » كما اعتاد الناس أن يسموا نقولا ، ولكنه بدا من أول الأمر رجلا تحالجه نزعة إنسانية ورغبة صادقة فى الإصلاح ...

كان الاسكندر فى الواقع محافظاً بطبعه ، ولكن ذلك لم يمنعه كما كان عسياً أن يمنع غيره ، من أن يحس أن فى البلاد تطلعا إلى نوع من الإصلاح وإن لم يدره على وجه التحديد ، وأنه إن لم يجارها إلى شىء مما تتطلع إليه انقلب تطلعا تمردا وولد تمردا. ثورة ...

استهل هذا القيصر عهده بالعفو عن لم يزل على قيد الحياة من «الديسمبريين» فعادوا إلى وطنهم بعد ثلاثين سنة من الغربة فى المنفى ، كما شمل عفوه غيرهم من السياسيين .

وسمح الاسكندر بشيء من حرية النشر إذ خفف وطأة الرقابة ، كما تفضل على الجامعات بقدر من الحرية ، وقضى على ما وضعه نقولا من عوائق كانت تعتاق السفر إلى خارج البلاد .

وانتشي الناس بهذه الأنسام ، وطربت أنفسهم لنور الفجر يمحو غسق الليل ، وأيقنوا أن الصباح عما قريب منهل وأن روسيا بعده سوف تنعم بنور الضحى .

وذهب الناس كل مذهب بآمالهم لا يقفون عند حد ، ولا يتصورون أن عقبة تعترض لهم بعد اليوم فى سبيلهم إلى غايتهم من النهوض والحرية .

وقال الناس فيما قالوا « لنشكر الحرب التي وجهت أبصارنا إلى الجانب الأقم من حياتنا السياسية ومن وضعنا الاجتماعي وإن واجبنا الآن أن نفيد من هذا الدرس » وقالت إحدى الصحف الكبرى « إن روسيا سوف تحقق بالسلم في غير عناء من الإصلاح ما اقتضى تحقيقه دول أوروبا قرونا طويلة من الكفاح وبذل الدماء . . ولن يقف جهد روسيا عند هذا فلسوف تبلغ مالم تبلغه بعد أوروبا بسبب ما تخلف فيها من تقاليد الإقطاع ومن اتباع الهوى في نظرة طبقة إلى طبقة » .

ولم يخالج الناس يومئذ نفور من الملكية ، بل لقد كانوا يرجون الخير علي يد هذا القيصر المصلح ، الذي يبدو أنه يسير أهواءهم ، والذي أوحى إليهم بهذا كيف يزدادون تعلقا به .

ولكن الذي خفي عن الاسكندر هو أن الخطر الحقيقي كان يكمن في هذا التحمس له ، إذ أن أي انحراف عن هذا النهج الذي انتهجه خليف بأن يفعل في إثارة النفوس وإزعاج الخواطر مالم يفعله استبداد نقولا نفسه ، فما أفضح ما يتحرق جوف الظلمآن حيل بينه وبين الماء وقد أصاب قليلا منه لم يطنىء غلته ...

كان أجل عمل عمله الاسكندر هو تحرير رقيق الأرض ، والقضاء على هذا الوضع الشائن ، الذي أجمع دعاة الإصلاح على وجوب القضاء عليه إذا أريد بناء الأمة على أساس جديد ..

كان المصلحون يردون إلى هذا النوع من الاسترقاق كل ما يحسون من ركود علمي أو معنوي أو اقتصادي في حياة روسيا ، لأنه في جوهره إنكار للكرامة الإنسانية ، ولن يرجي لشعب يسترق أن يطمح للنهوض إلا كما يرجي النماء في جامد الصخر ...

وكان يفطن القيصر إلى أن هذا الرق ينذر بشر مستطير ، فما هذا السكون الذي يبدو في مواطن الرقيق إلا تجمع اللحم في جوف البركان ليضطرب فإذا به زلزال قد ترجف بعده الراجفة .

ولقد شهد تقولا تجمع هذا اللحم في أكثر من موطن بل لقد أحس زلزلة هنا وزلزلة هناك ؛ فلما أبرم عقد الصلح سنة ١٨٥٦ عقد الاسكندر عزمه وجمع رأيه على أن يحو هذا الرق ، قال ذات يوم لبعض النبلاء ينذر بالثورة على الرق « إننا نعيش في عصر كل شيء فيه ينذر بأنها واقعة لا محالة إذا جاء وقتها وأظنكم تقروننى على ما أذهب إليه ، ولأن تأتى من أعلا والحال ما ترون ، خير من أن تأتى من أسفل » ...

ولقى الاسكندر معارضة شديدة من ما لى الأرض أخرت بعض الوقت ما جمع له عزمه ، ولكنها لم تزعزع قط ذلك العزم ، فلما كانت سنة ١٨٦١ أصدر القيصر فى التاسع عشر من فبراير مرسوم التحرير ، قضى على هذا العيب القديم بحجة قلم ، وأضاف إلى السجل الإنسانى صفحة من الصحف الخوالد فى تاريخ الحرية ... فقد منح بمرسومه هذا ما يزيد عن أربعين مليوناً من البشر ما كانوا يتوقون إليه من حرية ، وافتتح بذلك فصلاً جديداً فى تاريخ بلاده ...

ولننظر ماذا كان من أثر لهذا المرسوم فى حياة الفلاحين . قضى هذا المرسوم بأمور ثلاثة للفلاح : أولها أنه منحه بعض الحقوق المدنية وأزال عنه ما كان من سيادة لملك الأرض عليه توبق روحه وترهق بالسخرة والقسوة بدنه ، وتخلص الفلاحون من تدخل النبلاء فى صميم شؤونهم الخاصة ذلك التدخل الذى يصل إلى حد النظر فى أمر الزواج مثلا ؛ ولم يعد الفلاح كدواب الأرض يباع ويشترى وينقل من موطن إلى موطن ، ويجعل من خدم المنازل أو يترك فى المزرعة حسب مشيئة سيده ... وثانيها أنه جعل له حق امتلاك الأرض على ألا يكون ذلك على أساس شخصى فردى ولكن على أساس أنه عضو فى طائفة مشتركة متضامنة فى دفع الضرائب هي الكومون الزراعى أو الشعبة القروية ، فقد قسمت الأرض بين النبلاء فى كل جهة وبين فلاحها مجتمعين ، وذلك لى يحول المرسوم دون الإخلال بالتوازن فى توزيع الأرض ودون ظهور طبقة محرومة كل الحرمان من الملك . وثالثها أنه قضى بأن تمد الحكومة كل « كومون » زراعى فى القرى بقرض

يتناسب مع قيمة ما يمتلك هذا الكومون من أرض بربح قدرة ستة جنيهات في كل مائة جنيهه ، ويسدد في مدى تسعة وأربعين عاما ؛ والغرض منه إعانة الفلاحين الذين يتكون منهم الكومون على دفع ما فرض عليهم من تعويض نقدي أو عيني للنبلاء عما تنازلوا عنه مما كانوا يمتلكونه من أرض .

من هذا نرى أن ماعاد علي الفلاحين من مرسوم التحرير كان أمراً معنوياً فحسب ، أما جانب الاقتصاد فقد نظروا فإذا هم بما يطلب منهم من ضرائب ومن تعويض ومن ربح للقرض لا يزالون يحسون العبودية ولن يزالوا يحسونها طالما تنقض هذه الأوزار ظهورهم ... ولذلك لم يتحمس الفلاحون لقرار التحرير كما كان ينتظر منهم بل إنهم في كثير من الجهات كرهوه وودوا لو لم يكن !

كره الفلاحون هذا التعويض الذي يتقاضاه النبلاء ورأوا فيه نوعاً من الظلم ، وبخاصة لأن النبلاء في رأيهم لم يعد لهم حق في ادعاء ملكية الأرض جميعاً بعد أن أعفهم الحكومة من الخدمات العسكرية الجبرية ؛ فما أخذ منهم من الأرض إنما رد إلى الدولة ، وقضت الدولة بأن يمتلكه في كل قرية كومون أو طائفة مشتركة ...

والواقع أن الفلاحين لم تتحسن حالهم الاقتصادية إن لم تزد سوءاً ، وإن كانت ارتفعت درجاتهم الاجتماعية ... على أنهم لم يأبهوا كثيراً لهذا المعنى ، وستظل أوزارهم التي ينوءون بها موضع شكواهم حتى تكون في أوائل القرن العشرين العامل الأول في ثورتهم الكبرى . . .

ومهما يكن من مغزى هذا التحرير ، فإنه لم يصل إلى حد المساواة بين الفلاحين والنبلاء كما صنع إعلان حقوق الإنسان في فرنسا مثلاً ، فلا تزال بعض القيود تنقص من حرية الفلاحين ومن ذلك نظام الشعب أو الطوائف المشتركة قد جعلت الحكومة لهذه الشعب سلطة تجبر أعضائها على البقاء في نطاقها ، ومعنى ذلك أن هؤلاء الأعضاء محرومون من حرية الانتقال ومن حرية العمل ، ولا يمكن القول مع هذا بأن الروس جميعاً أمام القانون سواء .

وثمة شيء آخر جعل الفلاحين في مواطن كثيرة يحسون غل العبودية في أعناقهم وإن قيل لهم إن القيصر قد حطمه بمرسومه ، وذلك أنه نظراً لقلّة الأرض في بعض الجهات وكثرة السكان ، كان النبلاء يأجرون هؤلاء أجراً زهيداً على أعمالهم ، وليس في هذا كبير اختلاف عن الاسترقاق ، كما أنهم كانوا يؤجرون لهم أرضهم فيغالون في الأيجار وبذلك يسخرون هؤلاء المساكين كما تسخر الدواب .

وتناول الاسكندر القضاء بشيء من الإصلاح ، فأدخل في سنة ١٠٦٤ على نظام التقاضي تعديلات اقتبسها من فرنسا وإنجلترا ، فقد فصل بين السلطة القضائية والسلطة الإدارية ، ووضع أساس استقلال هيئة القضاء وأدخل قاعدة المحاكمة العلنية ونظام المحلفين . . ، وأعاد تقسيم المحاكم درجات على قاعدة تمكن المحكوم عليهم من استئناف الأحكام . .

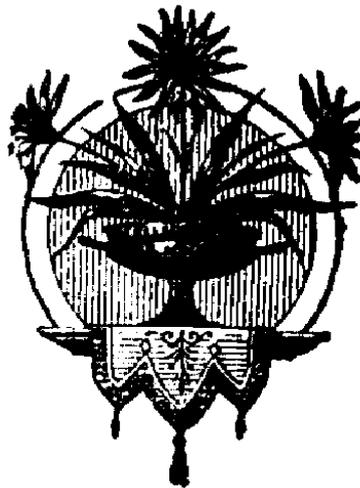
وامتد إصلاح الاسكندر إلى النظام الإداري ؛ فقد كان يوجد قبل عهده ثلاثة أنواع من المجالس الإدارية : مجالس النبلاء في الجهات المختلفة ترفع للحكومة ما يعرض لها مما يتطلب النظر ؛ ومجالس القرى ويسمى الواحد منها « مير » ؛ ومجالس أكبر من هذه يسمى واحداً « القلست » وهي لناحية من النواحي تشمل ، بعض القرى .

وأضاف الاسكندر إلى هذه مجلسين قضائي هما على سلطة النبلاء في المقاطعات أحدهما يمثل إقليمياً يضم عدداً من النواحي ، وينتخب أعضائه الناس من النبلاء وغير النبلاء على سواء ويسمى « زمستف » ، وثانيهما يمثل المقاطعة كلها ويسمى « جورنيا » ويختار المجلس الأول أعضائه ؛ وللمجلس المقاطعة حق اختيار صغار القضاة والنظر في إصلاح الطرق والجسور والإشراف على التعليم الأولى والشؤون الصحية والعمل على تجنب المجاعات .

ولكن هذه المجالس كانت خاضعة لحكومة المقاطعة إذ كان من حق هذه الحكومة إلغاء قراراتها كما أنه كان ينقصها المال اللازم للإصلاح .

وكان هذا قصارى ما فعل الاسكندر إذ أنه لم يشأ أن يخطو خطوة حقيقية نحو الشورى ولذلك فهو لم ينشئ مجلساً عاماً لروسيا يمثل الشعب فيه نواب منه ، وبقيت السلطة كلها في يده ؛ ولكنه على أى حال هياً الأفكار لما بعد هذه الخطوة الصورية من صحيح الخطوات .

واطمان الاسكندر إلى أن هذا الذى صنع من ضروب الإصلاح مؤد إلى السلام والأمن ولكن الظمان لن ينقع غلته سراب والجائع لن يشبع جوفه الوعد بالطعام ، وسوف يستأنف اللحم تجمه وتياهب البركان للثوران ولئن لم يشهد هذا القيصر السنة اللهب فى عهده فلسوف يرى ما يسبقها من دخان . .



شواغل ونوازع

أخذ تولستوى يتفكر فى علاقته برقيق أرضه ولم يمض طويل وقت على عودته من القرم ؛ وما لبث أن وجد هذا الأمر يشغل باله حتى « ليسبب له قلقا عظيما » على حد قوله ؛ ولقد بلغ من نفسه مبلغا عظيما قول الاسكندر إن القضاء على الرق واقع لا محالة ولأن يأتى من أعلا خير من أن يأتى من أسفل ؛ وتأثر تولستوى كذلك بما شاع يومئذ فى البلاد كلها من رغبة فى التقدم ، وبما كان يملأ الآفاق من حديث الحرية قبل تنويع القيصر الجديد وبعده ، وبما أحس من ميل أصحابه وما سمع من أحاديثهم عن الاتجاه القومى الجديد وإن كان لم يؤمن بصدقهم فيما يزعمون كما أسلفنا ...

ورغب تولستوى فى أن يطلق رقيقه من قيد العبودية وأن يراهم فضلا عن تمتعهم بالحرية يتمتعون بامتلاك جانب من الأرض . . .

واعترز تولستوى أن يمنح كل أسرة فدانان ونصف فدان من الأرض بالجنان ، وأن يبيعهما أحد عشر فداناً يسدد ثمنها فى نحو ثلاثين سنة فى صورة إيجار شكلى بحيث يستغرق فى هذا الثمن ما كان عليه من دين ؛ وكان منه هذا العزم بعد أن زار الباحثين فى هذا الأمر من طلاب الإصلاح ومن رجال الحكومة .

ولشد ما دهش تولستوى أن يجد من الفلاحين تراخيا وفتورا حين جمع ذوى المكاثة منهم وعرض عليهم ما عقد عليه عزمه ...

ومرد هذا التراخي إلى أن الفلاحين كانوا فى كل جهة يظنون بسادتهم الظنون وقد شاع فيهم أن القيصر الجديد سوف يقضى على الرق وسوف يمنحهم الأرض دون أن يتقاضاهم شيئا ، وما يعرض السادة اليوم من اقتراحاتهم إن هو إلا مكر سيء ...

ولقد ظن الفلاحون بتولستوى هذا الظن ؛ كتب في يومياته في اليوم العاشر من يونيو سنة ١٨٥٦ يقول « لقد عقدنا اجتماعا في المساء ، ولقد رفضوا رفضاً باتاً أن يوقعوا ... سوف أذهب بنفسى في الصباح إلى الفلاحين في كل ناحية فأتبين رغباتهم وأحاول أن أفنعمهم بالتوقيع فرادى » .

ولكن محاولته هذه ذهبت كذلك عبثاً ، الأمر الذي ضايقه أشد الضيق ولقد وصف ذلك تولستوى في قصته « صباح أحد المالكين » ثم عاد إلى وصفه بعد ذلك بأعوام طويلة وهو في نحو الثانية والسبعين من عمره وذلك في قصته العظيمة « البعث » .

لم يكن أمر علاقته بفلاحيه فحسب ما يشغله ويقلق نفسه ، وإنما كانت هناك أمور أشار إليها تولستوى في قوله « إن تيارات أربعة من تيارات الشعور تملك نفسى ، الحب ، ووخزات التأثم مع ما فيها من لذة ، والرغبة في الزواج لا تخلص به من هذه الوخزات ، والطبيعة » .

هذه نوازع نفسه ، ولقد كانت الرغبة في الزواج أشد هذه النوازع إلحاحاً عليه وأعضها استشاراً بتفكيره وقلبه ؛ ولا بد من نظرة نبين بها سبب تلك الوخزات التي يشير إليها قبل أن نسردها ما كان من أمر رغبته في الزواج ..

لعل مرده هذه الوخزات إلى ما كان من إطاعته شيطانه أكثر من مرة إذ يستجيب إلى رغبات جسده ، واقد ذكرنا من قبل أنه كان ذا شهوة عارمة ، وطالما استعان الرياضة والقراءة ليصرف بهما خياله عن مهاوى الفتنة ، ولكن جسده كان يلح عليه إلحاحاً قوياً لا يلبث معه أن ينقاد لشيطانه ؛ ثم يستسلم بعد ذلك للندم ليغريه الندم أو لتغرية تلك الوخزات اللذيذة بالإثم فيقع فيه ثانية ، ثم لا يزال يسلمه الإثم إلى الندم ويغريه الندم بالإثم كما رأينا من حاله في لعب الميسر والعزم مرات في غير جدوى على التخلص منه ...

ولقد ظل هذا التأثم في نفسه إلى نهاية عمره الطويل ؛ زاره أحد النقدة وهو

بيروكوف قبل موته بثلاثة أشهر فقال له تولستوى « إنك تكتب عنى دائماً ما هو خير وهذا عمل مذل كما أنه ناقص ، إذ يجب أن يذكر كذلك جانب الشر من حياتى لقد عشت عيشة خبيثة فى حدائتى ، وثمة حادثتان على وجه خاص لا تزالان حتى اليوم تثيران فى نفسى الألم ، وإنى إذ أطلعك عليهما أطلب إليك أن تذكرهما فى فى ترجمتى ، أما الحادثتان فهما . فعلة فعلتها بأمرأة من قريتنا قبل زواجى وقد أشرت إليها فى قصتى « الشيطان » ، ثم جريمة أخرى اقترقتها قبل ذلك بزمن طويل إذ أغويت خادماً كانت عذراء فى بيت عماتى تدعى ماشا فاستلبتها أعز ما تملك وقد ترتب على ذلك طردها فأوردت موارد الهلاك حتى هلكت » .

ولقد كان لتولستوى غير هاتين الحادثتين ، حوادث أخرى كثيرة ، لم يتألم منها كما تألم من هاتين وإنما كان يحس أنها تخزّه وخزات لا تخلو من لذة ، وكان ذلك منه مع نساء وفتيات لم يعد لديهن ما يستلب ، وظل بدنه يلح عليه ويقهر عزمه وهو فى سن الحدأة والعرامة ؛ جاء فى يومياته فى اليوم الثامن من مايو سنة ١٨٥٣ « كتبت اليوم قدراً كبيراً . لا بد لى من امرأة ، إن الشبق لا يدع لى لحظة من الراحة » وجاء فى التاسع من يوليو « لقد انجذبت بالأمس إلى عجزية حسناء ولكن الله نجانى . . . تجنب مجتمعات النساء التى تصل إليها فى يسر وحاول أن ترهق نفسك بالعمل الجثمانى إذا ما اشتدت بك الرغبة » .

على أن تولستوى قد تفتح قلبه للهوى العذرى مرات على الرغم من استجابته لنوازع جسده ؛ ولقد كانت هذه العاطفة مبكرة فيه على صورة غير مألوفة كما سبق القول ، فأحس فى طفولته أنه يحب إسلييف تلك البنت الصغيرة التى كانت تعيش فى كنف أسرته والتى كان يغار عليها أشد الغيرة والتى سوف تغدو فيما بعد أم زوجته ! وأحب بنتاً أخرى تسمى سونيا أو سونشكا ، وكانت عاطفته نحوها عميقة صادقة على الرغم من حدائته .

وأحب فى شبابه ألكسندرا دياكوف أخت صديق من أصدقائه فى الجامعة ؛ وفى قازان ملكت قلبه زياندا مولستفوف حتى تغنى بحبها ، ولقد لقيها كما أسلفت

بعد ذلك بنحو خمسة أعوام وهو في صحة أخيه في طريقهما إلى القوقاز فعاد ينبض بحبها قلبه ، ثم فرقت الأيام بينهما إلى غير عودة .

وفي القوقاز أحب الفتى قوقازية جميلة تصورنا لنا شخصية ماريانا في قصة « القوزاق » فما كان حب أوليين بطل القصة ، فتاة ماريانا إلا حب تولستوى تلك القوزاقية ..

ولقد كان تولستوى كما أسلفنا يحلم في القوقاز أحلام الحب والزواج والأسرة ويمني نفسه باليوم الذي يكون له فيه زوجة يسكن إليها وبنون ينعم بزيابهم حوله . وكان الذي يساور خياله من الفتاة التي يتزوجها عقلها وقوة بدنها وصدق طويتها ، ونظرها إلى الحياة نظر زوجها كأنها ترى بعينه ، وكان يريد أن تستخلصه لنفسها فلا تجعل للمجتمعات والمجالس هما ، وإن كانت لتتحلى من الصفات بما يجعلها لتلك المجتمعات أهلاً . . .

ولعله كان يخشي العاطفة القوية التي تخيل إليه أنه وقع على طلبته وإن لم يكن فيها ما يندش من صفات . . .

وهكذا جعل تولستوى من المرأة فصيلتين ، فامرأة يستجيب لها جسده وما هي إلا متعة ساعة ثم لا يكون فيها شيء ، وامرأة ينشدها قلبه هي متعة الدهر كله وله فيها كل شيء ..

عرج تولستوى على موسكو وهو في طريقه إلى قرينته ، فقضى فيها عشرة أيام ؛ وهناك زار من ساكنيها قوما عرفهم منذ حدائته ، وكان قلبه يفيض بعاطفته القديمة ، عاطفة الطفولة البريئة التي جعلته يحب الناس جميعاً ، وقد انبعث فيه وهو يولى بطرسبرج ظهره ...

زار بيت سونشكا ولكنه لم يجدها ، فغارد البيت ثقيل القلب ؛ ثم زار إسلييف وهي يومذاك زوجة طيب يدعى بيرز وكانت هي بعينها تلك البنت الصغيرة التي كان يغار أشد الغيرة عليها وهو غلام ، والذي دفعها ذات يوم فألحق بساقها الأذى في لحظة غيرة ؛ واستبقته إسلييف فتغذى معها ، ولعب بعد الطعام

مع بناتها الصغيرات الثلاث في مرح وسرور عظيمين ... وقد جاء في يومياته
« لقد كان البنات يقمن على خدمتنا اثناء الطعام ... ما أعز هؤلاء البنات
الصغيرات وأكثر مرحهن » ... ولم يكن يدري تولستوى أن وسطى هؤلاء
البنيات المرحات وهي يومذاك في الثانية عشرة من عمرها سوف تكون بعد سنوات
ست زوجته الكونتس تولستوى ! ...

وزار تولستوى ألكسندرا ديا كوفى وكانت يومذاك البرنس أبو لنسكي
زوجة البرنس أبو لنسكي وأحس تولستوى شيئاً كأنه الحب حيال هذه السيدة...
قال في يومياته « ٢٢ مايو ... لم أعرف مدام أبو لنسكي أول الأمر ...
شد ما تغيرت ... يشملني حب قوى ... أجل ، إنه ليؤذيني ، ويؤذيني الآن أن
أفكر فيما كنت أنال من سعادة هي اليوم نصيب أبو لنسكي » ... وقال بعد
ذلك بيومين وقد علم أنها في بيت أحد الأصدقاء فذهب إلى هناك « لم تتكلم
كثيراً .. ولكنها أصاحت إلى وأقبلت بكليتها على حين تحدثت مرة أو مرتين ؛
كلا إنني لا أغلو إذ أقول إنها أحلى امرأة عرفتها مدى عمري ؛ إنها أعظم النساء
أناقة وأكثرهن فنا . يضاف إلى هذا في نفس الوقت طبع مهذب » .

ورآها تولستوى بعد ذلك في ضيافة أسرة ديا كوفى فكتب ، يقول « بنت
ألكسندرا مريضة . لقد قالت لسرجى سخوتين وأنا حاضر أنها لم يكن لها عشاق
أيام كانت مخطوبة ؛ لم يكن زوجها حاضراً ... هل كانت تريد بذلك أن تقول لي
إنها ليس يربطها به حب ؟ وحين ودعتني بعد ذلك مدت إلي يدها فجأة وكانت
الدموع في عينيها إذ كانت تبكي لمرض ابنتها . ولكنني شعرت بفيض عظيم
من العبطة . ثم إنها بعد ذلك خطت تشييعني إلى الباب على غير توقع مني ...
حقاً إنني منذ أيام سونشكا لم أذق مثل هذا الشعور القوي الطيب ، وأقول الطيب
لأن تمثله يثبت في نفس السرور وإن كان لا أمل من ورائه . انني أرغب رغبة
قوية في أن أعمل لأنام كتابي « عهد الشباب » وأظن أن مرد هذه الرغبة إلى أن
مثل هذا الشعور يتجدد فيه »

ولما عول تولستوى على السفر دعاه سخوتين وأبولنسكي ليوافيهما فى بيت ديا كوف . يقول فى ذلك « ذهبت وتحرّيت مع ألكسندرا ثلاث ساعات أحياناً وحدنا ، وأحياناً وزوجها حاضر وإنى لأعتقد أنها تعرف شعورى وأنها لذلك معتبطة . لقد أحسست بالغبطة إحساساً قوياً عميقاً » .

نم مالبث أن اتقضى هذا الحلم الجميل بسفر تولستوى إلى قرىته ياسنايا بوليانا

ازدادت فى نفس تولستوى رغبته فى الزواج ، فما تبارح فكره وخياله ، وقد أوقدت جذوتها فى نفسه ما رأى من هناة إسلييف وألكسندرا وهناة زوجيهما . وحدث أنه سافر صحبة الأناسة الفرنسية فرجاني ، وكانت مربية فاليريا ، تلك الفتاة اليتيمة التى كان له الولاية عليها ، فخرج تولستوى على سودا كوفو تلك الضيعة التى لا تبعد سوى خمسة أميال عن ياسنايا والتى كانت تقيم فيها فاليريا أرسنيف وأخاها وأختها فى رعاية عمّة لها ...

ورأى تولستوى فاليريا ، فإذا بهذه الفتاة التى عرفها طفلة ساذجة ، تبدوا اليوم لعينيه كالزهرة أخذت تتفتح عنها أكامها ، فهى فى أول عهدا بالشباب . وأقام فى ياسنايا أياماً فما بارح قلبه سحر فاليريا ، وكانت نفسه تحدّثه أنها الفتاة التى طالما تعلق بها خياله .

وكان كل ما حوله فى هذا الصيف يوحى إليه أنه ينقصه الزوجة الحبيبة ليحس جمال الكون ويستمتع بالحياة ...

وأجال بصره فى ملاعب طفولته ومسارح لهوه ، فاستوحش بجانب القصر الذى هدم منذ أن باعه ، وكأنما زادت هذه الرحشة معنى الوحدة فى نفسه إلى الزوجة ... وعاد يحزن نفسه موت أخيه ديمتري الذى قضى نحبه بذات الصدر أول هذا العام فى مدينة أوريل ، وكأنما كان يستحبه على الزواج خروج أخيه من الدنيا ولم يتزوج .

ولم يصرف خياله شيء عن فاليريا وقد توسم فيها النبل والطهر ؛ فلما عاد

ذات يوم من زيارة ترجنيف وكان قد ذهب إليه فقضى أياما معه في ضيعته ،
أحس أن قد مس قلبه الحب ... وخيل إليه أنه وقع أخيراً على الفتاة التي يرتضيها
زوجة له ..

وعملت فرجاني في مهارة ولباقة على أن تربط بينهما ، فهدت أكثر من
أمرة للقائهما منفردين ؛ وأوحى إليه صديقه ديا كوف أن قاليربا خير من يصلح له
وأثنى على صفاتها وامتدح جمالها .. وقد كان ديا كوف على علم بما يعتلج في
أطواء نفسه .

وأصبح الفتى وليس يشغله إلا قاليريا ، فأذا جلس إلى مكتبه ليتم كتابه
« عهد الشباب » كتب ساعة ثم إذا بخياله يطير به كل مطير فيما يتصل بقاليريا
والزواج من قاليريا ، وإذا تفكر لحظة في علاقته برقيق أرضه قطع عليه
تيار فكره خيال قاليريا .

وكان أول الأمر كلما لقيها أحس كأنه يرى من محاسنها شيئاً لم يره من قبل ،
وحدثته ذات مرة حديثاً طويلاً عن الملابس وعن الاحتفال القريب بتتويج
القيصر الجديد ، فأعجب بحديثها على تشققه وتشعبه في غير نظام ورآها ذات يوم
في ثوب جديد أبيض فأحس من سحرها ما لم يحس من قبل ، وكتب أنه قضي
يوماً من أبهج أيام حياته .

على أنه يسأل نفسه أيحبها حقاً كما يكون الحب ؟ ثم أمحبه هي وتظن إلى
شعوره حيالها ؟ ذلك ما يريد أن يستوثق منه ..

وتضله الأوهام وتذهب به كل مذهب ، فها هو ذا وقد كثر ذهابه إلى سودا كوفو
يكتب عن قاليريا « أنها فتاة ساء تعليمها إلى أبعد مدى ، وأنها جاهلة إن لم تكن
غبية » ثم يذهب إلى أبعد من ذلك فيقول إنها ينقصها دماعة القول وذلك أن
لسانها جرى أمامه مرة بلفظة أحزنته وكادت تذهب من نفسه كل سحر .

وكأنما انجابت عن بصره قوة ساحرة كانت تربه صفاتها جميعاً محاسن ،
فهاها ذراياها تبدوان وقد تعرتا غير متسقتين ؛ وإنه لينظر إليها وفي عينيه قسوة

النقد ، وإنما لتحس ذلك فما تكاد تتم ابتسامتها لديه ؛ وإن عينها لتتنديان غيظاً ،
وإنها لتتصنع الجمود نحوه وعدم الاكتراث له ؛ ثم إنها لتطلعه على كتاب إلى
أختها ترميه فيه بالأثرة وبما هو أفسى من الأثرة ؛ ويفضب الفتى فيعنف عليها ،
ولكنه يراها « حلوة بالغة الحلاوة » إذ تطلب إليه والدمع في مقلتيها أن ينسى
كل شيء وأن يدع الأمور لتعود كما كانت قبل أن تكون بينهما صلة .

وظلت هذه حاله أياما يراها مرة جميلة ساحرة لطيفة الحديث ، ويراها مرة
سخيفة لا تتعلق بالجد من الأمور ، متكلفة أشد التكلف ، غبية لا شك
في غباؤها ..

ولما قرب رحيلها إلى موسكو لتشهد حفلة التتويج اشتد حنينه إليها ووجده بها
وذهب فزارها مودعا قبيل سفرها فوجدها « جميلة ظريفة ترسل نفسها على
سجيتها » ... وكتب يقول : « أود أن أعرف أنا أحبها حقاً ؟ »
وضايقه ألا تكتب إليه من موسكو ، وألهبه ذلك تطلعا إلى أنبائها ، وملاًه
حنقا عليها بقدر ما زاده تعلقا بها !

والحق إن من يتعمق النظر فيما كان من صلة بين تولستوي وفاليريا ليجد أن
الأمر من جانب تولستوي كان رغبة منه في أن يثير فيها الحب وقلقا خفيا
يساوره علي مبلغ نجاحه في ذلك أكثر منه حبا صحيحا تستشعره نفسه ولقد عرفناه
منذ نشأته شديد الشعور بذاته ، يجعل ذاته وإن لم يشعر أساس كل تفكير له
ومبعث كل عمل .

وأثرت حيرته في صحته فتمشى في بذرته السقم ، وحاول أن ينسي آلامه
النفسية والبدنية في إتمام كتابه « عهد الشباب » ولكن أنى له ما يقتضيه هذا
العمل من هدوء البال وصفاء الذهن وبهجة الخاطر ؟

وأخيراً كتبت فاليريا ، ولكن إلى العمة تاتيانا ! ولعلها فعلت ذلك بوحى
من فرجاني ، وراحت تصف في كتابها ما أبهج نفسها من حفلة التتويج ومبلغ

ما كان من نجاحها في المجتمعات ، وكيف أنقذها وأنقذ ثوبها الحريري الأبيض من الزحام ذات يوم ضابط وجيه ...

وقرأت تانيا نا الكتاب على ابن أخيها فأثار في قلبه الغيرة والحقد ، ونهض لتوه فكتب بدوره « إلى آناست سودا كوفو بموسكو » وفي هذا الكتاب قسا على فاليريا كل القسوة وراح يوجه الكلام إليها ، وأخذ يسخر من تطلعها إلى درجة العلية وليست منها بسبب ، كما راح يشير إلى مبلغ ما يكون من الأمانة في حب المجتمعات دون حب الرجل ، ونال بالتهكم والقذح هذا النمط من الضباط الذين أشارت فاليريا في كتابها إلى واحد منهم ...

وأفاض في السخرية مما زعمت من خطر تعرضت له أو تعرض له ثوبها الحريري قائلا « إن بكوك وحده وما قرأت قصته هو الذي كاد يذهب به خطر الزحام » وهو يشير بذلك إلى تلك الشخصية المعروفة التي ابتدعتها عبقرية القصصي الإنجليزي شارلز دكنز ، ثم أخذ القتي يصف ما يستمتع به من لهو في قرينه بالصيد من مطلع الشمس إلى مغربها ، وكيف يجد في ذلك من البهجة مالا يظفر به من صحبة أية غانية ترتدى غالى الحرير ...

ولم ترد فاليريا فرادته حنقا على حنق حتى ليكاد المسكين يتميز من الغيظ ولما عادت وأهلها من موسكو ذهب تولستوى فزارهم في سودا كوفو ، وكتب في يومياته يقول في الخامس والعشرين من سبتمبر « إن فاليريا حلوة ولكنها وأسفاه غبية » وفي التاسع والعشرين دب ديب الغيرة في قلبه فقد تطرق الحديث إلى موسيقى عظيم هو مورتيير وأثنت عليه فاليريا أعظم الثناء حتى إنها لتحس نحوه الحب ؛ وكتب تولستوى « لقد أداروا الحديث إلى مورتيير وقد ذكرت أنها تحبه . يا عجبا ! إن ذلك يؤلنى ... لقد أحسست بالخجل لى ولها ولكنى للمرة الأولى استشعرت شيئا كأنه الميل إليها » .

وفي مستهل أكتوبر كتب يقول « إنها ضحلة جدا لا مبدأ لها وإنها باردة كالثلج ، وإنها كثيرة الذهاب بنفسها » .

وجاءت فاليريا صحبة فرجاني تزوران يا سنايا وقضت أياما مع تولستوى يتحدثان في أمسيات الخريف الهادئة وفي أصباحه الندية ويمشيان جنبا إلى جنب في ممرات الحديقة كما يفعل خاطب وخطيبته ، وتوقعت عمته كما توقعت فرجاني قرب إعلانه خطبتها ...

وكان يقرب أكتوبر من نهايته ، وتزداد فاليريا قربا إلى قلب تولستوى ؛ كتب في الرابع والعشرين يقول « ذهبت معها إلى المرقص ، لقد كانت فاتنة . أكاد أحسب أني أحبها » .

وبعد ذلك بثلاثة أيام أطلعها في لحظة من لحظات العاطفة المشبوبة على ما كتبه أخيراً في يومياته فإذا بها تقرأ وقلبها يخفق وفي وجنتها مثل اللهب ، « إنى أحبها » ...

ورآها في اليوم التالي فكتب في يومياته « ٢٨ أكتوبر ... ذهبت إلى فاليريا ... لقد صفت شعرها وفقاً لبدعة مرعبة وارتدت رداء قرمزيا من أجلى ... لقد شعرت بالألم والحجل وقضيت يوما حزينا ... ومع ذلك فقد كنت منها ، غير مخير ، في موضع خاطب لها على صورة ما ، وهذا ما يثيرني » .

وبعد ذلك بثلاثة أيام ذهب إلى سودا كوفو وصحب فاليريا إلى المرقص وكتب يقول إن فاليريا بدت ساحرة وإن الناس كانوا ينظرون إلينا نظرتهم إلى فتى وخطيبته ...

وما كاد يعود إلى ياسنايا ، حتى اشتد ضيق نفسه أنه اندفع فوق فيما كان يخشى ، وأنه يجد نفسه منذ اليوم في قيد أبدى يربطه بفتاة جميلة تافهة ليس فيها مما يرجو لنفسه إلا ما عسى أن يجده من الراحة مما تلح به عليه نوازع جسده وفي اليوم الثاني من نوفمبر أفضى إلى عمته لا بعزمه على الزواج كما توقعت أن يقول ، ولكنه بعزمه على الرحيل إلى موسكو ، معتلا بأنه يريد أن يتبين حقيقة شعوره بعيدا عن فاليريا ؛ ولكنه كان في الواقع يريد أن يتبين هناك كيف يفلت من قيده ... ودهشت عمته وقالت لمن معها « إنه بدل أن يذهب

إلى الكنيسة قد ذهب إلى موسكو»

وكتب إلى فاليريا من موسكو مرة يقول إنه أحب فيها جاهلها فعلاً، ولكنه أخذ في حب ما هو أتمن من الجمال فيها وأخذ ألا وهو قلبها وروحها ... ومعنى ذلك أنه لا يزال في موقف من لم يقطع برأى بعد؛ وكتب إليها مرة أخرى ينصح إليها أن تغنى بالرياضة وأن تعد كل ليلة برنامج اليوم التالى فى ورقة فتمحو منها فى المساء ما أنجزته فتجد بذلك مسرة عظيمة حين تحدث نفسها أنها خير من ذى قبل ...

وسافر من موسكو إلى بطرسبرج ، وعكف على الكتابة على ينسى حيرة نفسه ، ولكن أمرين عادا به إلى تلك الحيرة ، فقد آلمه وحرك كبريائه أن فاليريا لم ترد عليه ، ثم إنه قد أثار غيرته ما علم من أنبائها أثناء حفلة التتويج وذلك أنها سمحت لمورتيير أن يغازلها فى غير خفاء عن الناس ...

وكتب إليها تولستوى غيران مفضباً يقول لها « إن ما كان لن يعود أبدا كما قال بوشكين ... لن أشعر قط بعد اليوم ما كنت أشعره من تلك الصلة الهادئة بك ، ولا من ذلك الاحترام والثقة فيك قبل رحيلك إلى حفلة التتويج ... يومذاك أسلمت نفسي فى سرور إلى مشاعري ، ولكننى اليوم أجفل منها ... إن أم سؤال هو هل يمكن أن نكون أصدقاء وأن يحب كلانا صاحبه ، ومن أجل ذلك فمن الضرورى أن نظهر الجانب السيئ من أنفسنا لنحاول أن نصلح أنفسنا عليه ، وألا نخفيه ، وإلا باغتننا الخيبة فيما بعد »

الحق أنه لم يكن منها فى موضع الحب العاشق ، وإنما كان يغلب على نفسه أحياناً تخيله أنها الفتاة التى تليق أن تكون زوجا له ، ويضعف هذا الخيال أحياناً فيرتاب ، وقد يؤدى به الحال إلى أن يظن أنه يكرها ؛ ولعل ميله إلى أن يراها تحبه ، وتطلعه إلى معرفة أى مدى بلغ حبها إياه هو العامل اللاشعورى الأول الذى كان يلد عواطفه وخيالاته .

كتب إليها بعد كتابه السالف يقول إن فى الناس من لا يعرفون الفرح

ولا الألم من الناحية العنوية طيلة حياتهم وأنه يخيل إليه دائماً أنها من هذا القبيل الأمر الذى كثيراً ما يؤلمه ، ويطلب إليها أن تدله أمى حقاً من هذا الصنف ؟ ثم يقول إنه وإن كان يفكر فيها الآن أقل مما كان يفعل وهو بقرىها ، وإن كان تفكيره أكثر هدوءاً من ذى قبل ، إلا أنه لا يزال يفكر فيها أكثر مما فكر فى أى امرأة قط . ويتوسل إليها أن تكتب إليه كل يوم فى غير تكلف ودون أن تراجع كتبها ليتبين حقيقة إحساسها نحوه إلى أن يقول «إنى أعرف نساء كثيرات هن أكثر ذكاء منك ولكنى لم أعرف قط امرأة أكثر أمانة . إنى أرغب رغبة قوية فى أن أحبك حتى إننى لأعلمك كيف تجعلينى أهواك والحق إن أعمق شعور أشعره نحوك ليس هو الحب بعد ، وإنما هو رغبة حادة فى أن أحبك بكل قوتى »

وكان تولستوى يتم كتابه « عهد الشباب » وقصة « صباح أحد المالكين » ، ولكن ذكر فاليريا كان لا يبرح خياله ، ثم إنه حين رجع البريد وليس فيه كتاب منها قد عظم ألمه فكتب إليها يقول إنه يحس أن من السخف أن يكتب إليها ولم ترد على كتبه ، ولكنه لم يتمالك نفسه وساق لها قصة صغيرة ابتكرها لم تكن فى الواقع قصة وإنما اختار اسم فتى ما واسم فتاة ما وقال إن من صفات الفتى كيت وكيت وهو يقصد صفاته هو ، وإن من صفات الفتاة كيت وكيت وسرد صفاتها هي ؛ « وهذان الاثنان على ما فى نزعاتهما من تعارض وقعا على ما يظهر فى شرك الحب . ربما كنت أكذب نفسي ولكننى فى هذه اللحظة أحبك حباً مريعاً . والآن ماذا يعمل الحبيبان كى يعيشا معا ؟ إن عليهما أول الأمر أن يتنازلا كلاهما عن شىء كى يرضي الآخر ، ثم إنه يجب على ذلك الذى ترى نزعاته أبعد من نزعات صاحبه عن الخلق أن يكون تنازله أوسع مدى »

ورجع البريد مرة ثانية وليس فيه رد منها فجن جنونه وكتب إليها يقول ، إنه لن يكون من علاقتهما الحالية إلا الشقاء لكليهما ، وخير لها أن يقفا عند هذا الحد قبل أن يصبحا وليس فى الأمر حيلة .

وبعد ذلك بيضعة أيام حمل إليه البريد كتابين منها ، فسرعان مانسى آلامه ونسى حنقه عليها ، وعادت محبة إلى نفسه ، حلوة فائنة ؛ وكتب إليها يعتذر عما جاء في كتابه الأخير إليها ويسألها الصصح والمغفرة ، بل إنه ليبدأ هو فيتنازل بعض الشيء كي يرضيها ، فإنه يقول لها في كتابه أن لا ضرر يلحقها من ذهابها إلى المرقص ، فهناك سوف تجد فرصة لاختبار شعورها ، وإنه ليرجو منها أن تكتب إليه بما تحس ، أما هو فإنه يؤكد لها أنه لم تسترع انتباهه امرأة واحدة في الأسابيع الثلاثة الأخيرة ...

وجاءه كتاب آخر بعد أيام فتحمس في الرد عليه وصار يخاطبها بقوله : حبيبتي ، ويسألها ألا تغضب من هذا فإن الكامة تصور حقيقة شعوره إلى أن يقول « إني يخيل إلى من كتابك أنك بدأت تحينني وأنت أخذت تنظرين إلى الحياة نظرة فيها من الجد أكثر مما سلف ، وأنتك تحين الخير وتجدين السرور في مراقبة نفسك إذ تتقدمين في سبيلك إلى الكمال ... أعانك الله يا حبيبتي ... تقدمي ... عليك بالحب ، عليك بالحب ، ولا تقصرى حبك على ، بل أحبي دنيا الله كلها ، الناس والطبيعة والموسيقى والشعر وكل ما هو جميل فيها » .

وزاده ثناء على قاليريا ما جاء في كتاب لها بعد ذلك من أنها تحب أن تقضى حياتها بين أهلها وأصدقائها في الريف ، وهي تريد بذلك أن توحى إليه أنها تتنازل كذلك بعض الشيء كي ترضيه ...

بعد ذلك أخذت تخبو جذوته ، وليس هذا بعجيب ، فقد أرضي كبرياء نفسه بحملها على الكتابة إليه ، وقد شفى نفسه أنها تحبه وأنه جدير منها بالحب وأنها تتنازل عن نزعاتها بعض الشيء لترضيه ، وذلك فيما أعتقد شأن كل فتى وفتاة يلعبان لعبة الحب ولا يرتبطان حقاً بوثاقه ، فإنه متى تغلب الفتى بدأ فتوره أما الفتاة فكثيراً ما يكون تغلبها بدء حرصها على أن تمتلك ، وهي ماتدل وتعبث وتتصنع الفتور والنفور والزهد إلا لتستوثق ، وما ذلك جميعاً إلا حباثل شركها تمدها في مهارة هي في أصل طبيعتها ...

وأحست في كتيبه إليها بعض الفتور فعادت تذكر مورتيير للموسيقى تظن أنها شير بذلك غيرته ، ولم تدر أنها أثارت سأمه ؛ ولو أنها فعلت ذلك قبل أن تكشف له عما في نفسها لبلغت ما تريد ، أما الآن فما يقع في نفسه من ذكرها إياه إلا أن ذلك منها جهد اليأس ؛ كتب إليها في أحد كتبه في شهر نوفمبر يقول « إن كتبك إلى لا تثير في نفسي من طيب الأثر ما كانت تفعل من قبل ؛ ولست أدري هل يرد ذلك إلى أنها ليست كما كانت من الظرف ، أم إلى أنني بدأت أتغير ، أم إلى أنك أشرت مرة إلى مورتيير » .

ثم إنه يؤنبها في عنف أن لم تقطع صلتها به في صورة يعلمها الناس ويقول لها « لو أنه حدث أن مورتيير كتب رسالة غرام إلى زوجتي أو قبل يدها - وماذا يمنع من ذلك الآن؟ - وأخفت ذلك عني ، فأني إن كنت أحب زوجتي أقتل نفسي برصاصة ، وإن لم أك أحبها فأني أطلقها على الفور وأهاجر إلى أقصى الأرض احتراماً لها ومحافظه على اسمي وفراراً من خيبة آمالي في أحلام المستقبل ليست هذه كلمات فارغة فأني أقسم لك بالله أنني أعرفها كما أعرف نفسي ، وذلك هو ما يخوفني من الزواج لأنني أنظر إليه نظرة بالغة الخطورة في غير أدنى التواء إنني أجازف بكل شيء دفعة واحدة ، فإذا لم أجد السعادة التامة فأني أخرب كل شيء بما في ذلك مقدرتي العقلية وقلبي ، وسوف أغدو سكيراً مقامراً ، وإذا لم تكن لدى الشجاعة لأذبح نفسي فسوف أسرق » .

وازداد تعلقه بعمله بقدر ما ازداد فتوراً في صلته بفاليريا ، وكان يجب أن ينفذ يده من المجالات ليتفرغ إلى ما يراه أسمي وأجدى من ضروب الكتابة ، وما جاء آخر نوفمبر حتى كتب في يومياته يقول « لا أفكر في فاليريا إلا قليلاً ، وعلى صورة غير سارة » .

وعاد تولستوى في أوائل ديسمبر إلى موسكو ، وكتب يرد على عمته تاتيانا التي كانت لا تزال تنتظر كلمة منه فذكر عن صلته بفاليريا أنه يتمنى لو استطاع أن يقول إنه يحبها فإنه لا يشعر نحوها إلا بعرفان الجميل لما أولته من محبتها ،

وكتب إلى فاليريا يرد على معاتبته إياه لفتور كتبه إليها يقول « صدقيني أنى كنت مخلصاً ما وسعنى الإخلاص فى جميع صلاتى بك ، وأنى حفظت لك الود ولا زلت أحفظه ، ولقد أحببتك ولا زلت أحبك أكثر مما أحببت أى امرأة عرفتها حتى اليوم ولكن ذلك كله ليس بكاف بعد » .

وصم تولستوى على أن يغادر روسيا كلها بضعة أشهر ليضع حداً لما خلفه صلته بفاليريا من خجل وحيرة فى نفسه ، وليقضى على أحاديث الناس عنهما فى مدينة تولا ، وليخلص من تأنيب عمته وأخته فقد رأتانى مسلكه ما بعد به عن الخلق القويم ، ولينجو من حملة فرجانى عليه فقد كتبت إليه تعفنه على ما كان من مسلكه البهيمى .

وعاد تولستوى إلى بطرسبرج يلهو بما كان يلهو به من عبثه الأول وينسى فاليريا بين كثيرات غيرها من الغانيات .

وانقلب الوضع فباتت فاليريا هى التى تبحث عنه وتتألم من سكوته عن الكتابة إليها ، فبعثت إليه رسالة مطولة حارة حاولت بها أن تغير ما بنفسه فتجذبه إليها ، ولكن رده عليها بلغ من البرود حداً جعلها ترسل إليه تنبئه فى صراحة أنها لن تسمح له بعد اليوم أن يكتب إليها ؛ ولعلها أرادت بذلك أن تجرب سياستها الأولى نحوه ، سياسة اجتذابه إليها بنفورها منه ، ولكن فاتها أن قد بطل السحر منذ أظهرته على دخيلة نفسها .

ولم يمنعها ما أرادت من منع ، فكتب إليها لا ليندم ويصفح كما كان يفعل من قبل ولكن ليسمعها عبارة الوداع فى غير موارد أو التواء قال « ليس ثمة من شك فى أنى أجرمت فى حقك وفى حق نفسى إجراماً شديداً ، ولكن ما ذا عسى أن أصنع ولست أستطيع أن أجابوك بمثل ذلك الشعور الذى يفيضه قلبك الطيب على ؟ وداعاً يا عزيزتى فاليريا فلاديمورقنا ، إنى أشكرك ألف مرة على ما كان من صداقتك وأطلب منك الصفح والمغفرة عما عسى أن أكون قد سببت لك من ألم بصداقتى » وسألها ألا تبخل بكلمة تودعه بها فى سفره إلى باريس ، ثم اختتم

كتابه بقوله « إني على يقين أنك سوف تجعلين شخصاً ما من ذوى الطيبة والظرف سعيداً ، أما أنا فلهما بلغ ما يصل إليه قلبي فلست أستحق قلامة من ظفرك ، ومثلي من يجعلك شقية تعسة » .

وكتب إلى عمته يعتذر عما قد يكون في سلوكه من عوج تجاه فاليريا وينبئها أنه حصل على رخصة للسفر إلى باريس ؛ وأنه قد نفض يديه من فاليريا وأنه لا يستطيع بعد اليوم أن يخدعها أو يخدع نفسه ..

وكتبت إليه عمته وهو في باريس فلم تزل عنيفة عليه ، ورد عليها يدافع عن نفسه ويتساءل لم تكون العلاقة بين فتي وفتاة قاصرة على الحب والزواج ؟ وكيف لا يكون للصدقة الخالصة موضع ؟ ثم إنه يشير في كتابه إلى قسوة فرجاني عليه في كتبها إليه ويحملها كثيراً من اللوم فهي التي دفعته دفعاً إلى أبعد مما أراد ، ومهما يكن من أمره فليس يحق لها أن تنعته بأنه حيوان وأن تجعل كل امرئ يظن ظنها ..

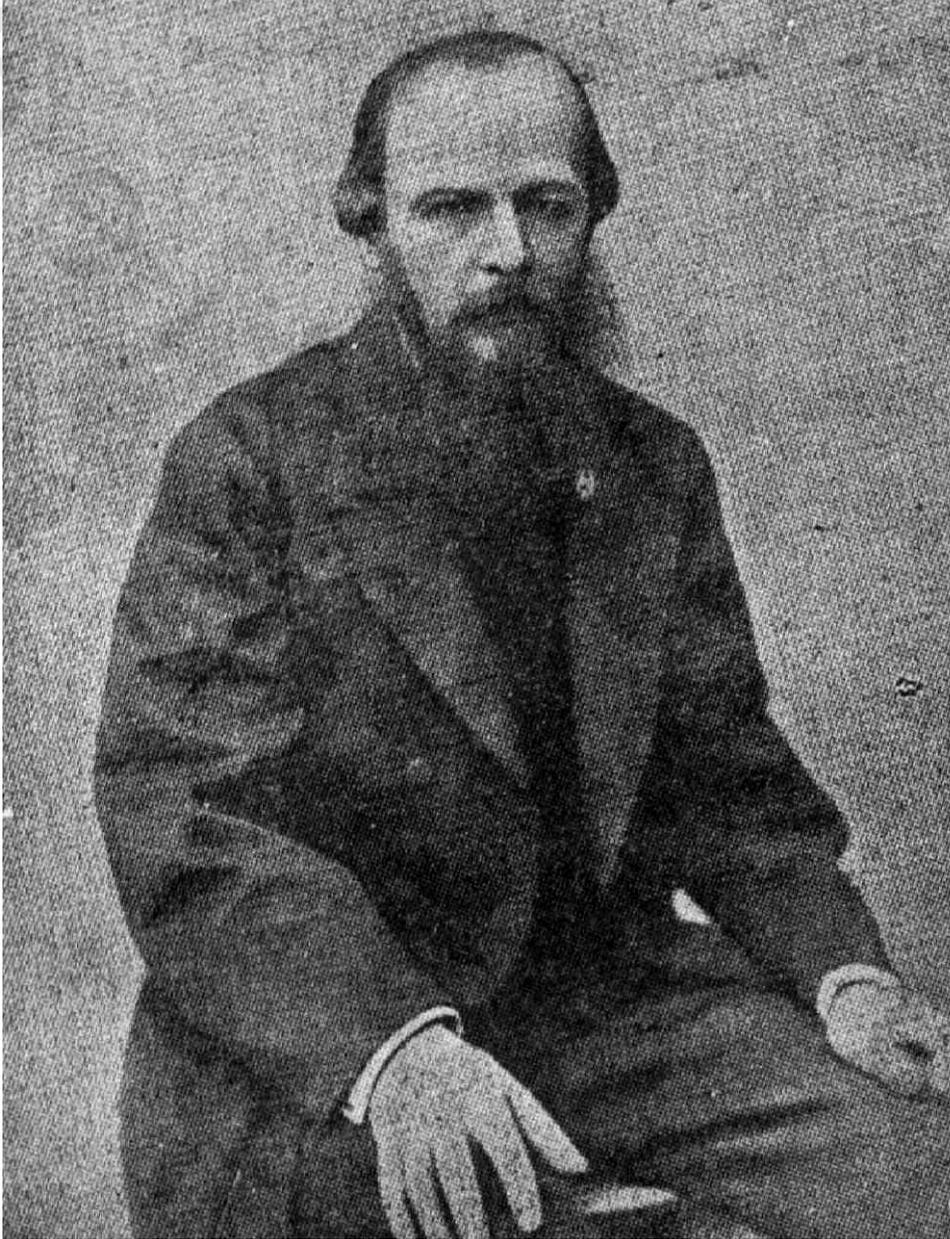
وكتب آخر كتبه إلى فاليريا وهو في باريس ، وكان ذلك رداً على الكلمة التي طلبها منها والتي لم تبخل بها عليه قال « لقد أفاض على السعادة كتابك الذي تسلمته اليوم يا عزيزتي فاليريا فلاديمورثنا ؛ وبرهن على أنك لا ترين في شقياً أو وحشاً ، ولست عندك إلا رجلاً أو شكت أن تصلى في علاقتك به إلى أبعد مما ينبغي من مدى ، ولكنه لا يزال خليقاً منك بالصدقة والاحترام ؛ وإني أقولها لك كلمة أقسم على صدقها بشرفي أنه لم يكن ثمة سبب لم ترين الآن من تغيري ، بل إنه إذا أردت الصواب لم يكن تغير ما ؛ لقد كنت أذكر لك دائماً ؛ أنني لا أتبين أى نوع من أنواع الشعور ذلك الذى شعرته نحوك ، وكان يخيل إلي دائماً أن ثمة فى الأمر خطأ ما ؛ وقبل أن أترك القرية ، كان لعزلى وللقائى إياك غالباً ، وأهم من ذلك كان لمراك الجليل ولأخلاقك بوجه خاص ، كان لهذا جميعاً من عميق الأثر فى نفسى ما جعلنى أعتقد أنى أحبك . . . ولقد عشت فى بطرسبرج عيشة العزلة ، ولكن هذه الحقيقة وحدها على الرغم من

ذلك وهي أنى لا أراك برهنت لى أنى لم أكن قط ولا ينبغى أن أكون مرتبطاً
وإياك برباط الحب .. وإن جهلنا بهذه الحقيقة معناه مأساة لى ولك » .

هذا ما كان من أمر علاقته بقاليريا ، وما نراه كما قدمنا إلا حبه أن يتبين
ما يستطيع أن يثير فى نفسها من محبة له ، وكان مبعث ذلك فرط شعوره بذاته ،
ولو أنه كان يحبها حقاً لقضى الأمر بينها وبينه بالزواج ، ولقد رأينا ما كان من
تشوقه إليها وتوجده وضيقة حين أبطأت كتبها إليه ، فلما كشفت له أنه غلبها
على أمرها هانت عنده ، فقد أحس أنه أشبع فى نفسه رغبته فى حمله إياها على محبته

ويجدد بنا قبل أن نتبع ما كان من أمر رحلته إلى أوروبا أن ننظر فيما
كان من قراءاته وكتاباته فى هذه الحقبة من حياته منذ رحل عن القرم .
قرأ تولستوى من آثار جوتيه آلام فرتر وهرمن ودروتيه ، وقرأ لفكتور
هوجو ، نوتر دام دى پارى ، ولهورم الأليادة والأوديسة ولدكنز دورت الصغيرة
وبكوك ، واثكرى نيوكز ، ولمولير بعض مسرحياته ، ولشكسبير الملك لير ..
كما قرأ بعض كتب أفلاطون من الأقدمين ..
وقرأ من الأدب الروسى بعض أشعار بوشكين وبعض قصصه الثرية ، كما
قرأ جونشاروف وأستروفسكى وكان هذا الأخير أشهر كتاب الدراما الروسين ..
وتايشوف ، وقت .

وكان يثبت فى دفتره ما تركته بعض الكتب من أثر فى نفسه فمن ذلك
ما أثبتته عن آلام فرتر وهو قوله إنها ساحرة ، وعن الأليادة والأوديسة وهو
قوله إنهما تركتا فى نفسه أثراً عميقاً ؛ وقال عن بكوك إنها طيبة جداً وله رأى فى
دكنز يضمنه قوله فى هذا الصدد « إن أول شرط فى شهرة كاتب ما ، هو
الحب الذى يتناول به شخصياته . ذلك هو السبب فى أن أشخاص دكنز هم
أصدقاء البشر جميعاً .. فإن هؤلاء الأشخاص هم نوع من الرابطة بين الرجل فى
أمريكا والرجل فى بطرسبرج ؛ ومما يحمد أن يتخذ المؤلف موقفه خارج موضعه ،



دستوفسكي

obeykandl.com

وعلى ذلك يدع المرء في حيرة أبداً هل يعد ما يقرأ ذاتياً أم يعده موضوعياً .
وقد أعجب بموليير إعجاباً عظيماً ، ورفع آثاره مكاناً علياً ، ولكنه لم يجب
شكبير ، وسوف يكون له رأى عن شكبير فيما ينشره تحت عنوان شكبير
والدراما فيخالف به جبهة المتقنين .

أما عن الكتاب من بنى قومه فقد أثنى ثناء عظيماً على بوشكين ، وكأنه
ما قرأه قبل اليوم وكلما عاد إلى قراءته ازداد به معرفة وله قدراً ، وكذلك أثنى على
أستروفسكي ونوه بجدده وإخلاصه وطابعه الروسي في فنه واعتماده على نفسه وأصالته
وكان لا يزال دستيوفسكي في منفاه بسيريا ولذلك لم يقابله تولستوى ،
أما عن ترجنيف فقد توثقت بينهما المعرفة خلال ستة أشهر منذ بدأ تعارفاً وإن
لم تتوثق المحبة ؛ زاره في الحادى والثلاثين من مايو سنة ١٨٥٦ وكان على
مقربة من إحدى ضياعه إذ كان يزور أخته في ضيعة لها قال « لم يكن ترجنيف
في منزله ؛ ثم عاد فتغذيت ومشيت معه وكان بيننا حديث بهيج جداً ثم أويت
أريد النوم .. أحب أن أكتب قصة موضوعها حصان »

وكان قد وقع بصره وصاحبه عل حصان كبير يرعى فنظر إليه تولستوى
ثم أخذ يصف لصاحبه ما عسى أن يكون شعور الحصان ساعتئذ ، وفعل ذلك
في صورة جعلت ترجنيف يقول له متعجباً « إنى لعلى يقين يا ليونيكولا فتش أنك
نفسك لا بد كنت حصاناً ذات يوم » . .

أما عما كتبه هوفنى يناير سنة ١٨٥٦ نشر سياستبول فى أغسطس ،
وفى مارس نشر أقصوصة بعنوان « العاصفة الثلجية » وفى مايو نشر قصة فكاهية
كانت له الأولى كما كانت الأخيرة من هذا النوع ، ونشر فى أواخر السنة قبيل
رحيله إلى أوروبا قصتين وصف فى إحداها وهى « صباح أحد المالكين » وقد
سلفت الإشارة إليها ، ما كان من أمر علاقته بفلاحيه وماذا أراد لهم من اصلاح لم
يتقبلوه كما كان يرجو قبولاً حسناً ، وترينا هذه القصة بوجه خاص كيف كان
يستمد تولستوى مادة فنه من الحياة حتى لتعد آثاره الفنية جميعاً كما قال جوتية
عن آثار نفسه ، اعترافات مبعثرة اذا أضيفت بعضها الى بعض تألفت منها حياته . .

رحلته إلى أوروبا

رحل تولستوى في اليوم العاشر من شهر فبراير سنة ١٨٥٧ فبلغ باريس في الحادى والعشرين من الشهر وقد ركب إليها القطار من وارسو .
والتقى في باريس بنكراسوف وترجنيف ، وسرعان مادب الخلاف بينه وبين ترجنيف حتى ائقد بلغ الأمر بتولستوى أن دعا صاحبه إلى مبارزته ، ولكن نكراسوف مالبت أن أصلح بينهما فقسيا ما كان من غضب .
وقضى تولستوى ستة أسابيع في باريس يتمتع نفسه بكل ما يستطيع أن يستمتع به شاب اجتمع له المال والشباب والبطالة ، فغشى أمكنة اللهو وانزلق أكثر من مرة في مزالق الفتنة ، وتعرف إلى طائفة من أشهر المغنيات والممثلات ، وزار المسارح ودار الأوبرا ومتحف اللوفر ووقف على قبر نابليون ، وشاهد الكنائس القديمة ، وركب إلى فرساي وفتنبلو ، وشهد بعض المحاضرات في الكوليج دى فرانس وفي السوربون ، وكان يتلقى دروسا على معلمين أحدهما للانجليزية والآخر للطلليانية . .

وكان يحرص بين الروسيين في باريس على أرستوقراطيته فينفق عن سعة ويولم الولائم لأصحابه ، وممن كان يزورهم في باريس البرنيس لفوف وابنتها ، وسرعان ما أحس ميلا شديدا نحو الابنة فأثبت في يومياته يقول « إني أميل إليها ميلا شديدا وأظن أنى أكون أحق إن لم أحاول أن أتزوجها ، ولئن قدر لها أن تزوج من رجل خير جدا وكانا سعيدين معا فإن ذلك يدفعنى إلى اليأس » . .
وذهب في شهر مارس صحبة ترجنيف إلى ديحون فقضا هناك بضعة أيام ، وأخذ تولستوى يكتب أقصوصته « ألبرت » وكان بطلها شابا يجيد الضرب على القيثارة عرفه في بطرسبرج .

وكتب إلى أحد أصحابه وهو بوتكن في الخامس من أبريل يصف مبلغ استمئاعه بحياة باريس ، ويشير إلى أنه أحس بجهله إحساساً شديداً ولكنه يشعر أن جهله هناك لا يستعصى على العلاج؛ ويذكر « فوق ذلك كله هذه الحرية الاجتماعية التي لا نعرف شيئاً عنها في روسيا » ...

وذهب في اليوم التالي ، بدافع الحرص على ألا يفوته شيء ، إلى حيث رأى رجلاً حكم عليه بالموت تقطع المقصلة عنقه ، ولقد كان هذا المنظر بعيد الأثر في نفسه وفي فكره ، أثبت في يومياته قوله « ذهبت لأشهد تنفيذ حكم الموت .. عنق وصدر غليظان أبيضان : ثم الأنجيل ثم بعد ذلك ... الموت . ما أفرغ ذلك من المعنى! لست رجل سياسة .. الفن والآداب هما ما أعرف وكذلك الحب) .. لقد حالت الجيلوتين بيني وبين النوم وجعلتني أتفكر »

وإن الذي أجدني على يقين منه هو ألا أخدم بعد اليوم حكومة أبداً ، فكل الحكومات في هذه الدنيا متكاثرة في مبلغ ما تأتيه من خير أو شر وإن المثل الأعلى الذي لا مثل غيره هو الفوضى »

وفي اليوم التالي كتب في دفتره « نهضت من نومي متأخراً غير مستريح .. قرأت قليلاً ، ثم طرأت على فكرة بسيطة ، معقولة هي أن أغادر باريس » وكتب إلى بوتكن يقول « لقد شهدت كثيراً من المفزعات أثناء الحرب وأثناء مقامي بالقوقاز ، ولكن لأن يمزق أمام عيني رجل ألف قطعة أخف هولاً عندي من تلك الصورة التي بها يورد رجل قوي نشط بادي الصحة مورد الحتف في ثانية ، بهذه الآلة اللعينة »

ولقد ظل هذا الحادث عالقاً بخياله عميق الأثر في نفسه إلى بعد ذلك بسنوات طويلة ، كتب بعد عشرين عاماً يصف وقعه في كتابه « اعترافات » فقال « عندما رأيت الرأس وقد فصل عن الجسد وسمعتهما يقعان أحدهما بعد الآخر في الصندوق أدركت لا بعقلي وحده بل بكيانى كله أنه ما من نظرية من تلك التي يدافع بها عن التقدم تبرر هذا العمل ؛ وإنه علي الرغم من أن كل امرئ منذ بدء الخليقة

يقول بضرورته ، ولا عبرة في ذلك بما عسى أن تكون النظرية ، فإني أقرر أنه شر وأنه لا ضرورة له ... وعلى ذلك فإن معيار الخير والشر ليس ما يفعل الناس وما يقولون ، وليس هو التقدم ، وإنما هو قلبي وذاني »

عكر هذا الحادث صفو أيامه في باريس ونغص عليه المقام بها ، فما وسعه إلا الرحيل ، وفي الثامن من أبريل فاجأ ترجميف بعزمه وكان في عينيه الدمع إذ يستأذنه ، وركب قطار الصباح من باريس متجهاً صوب جنيف فبلغها في اليوم التالي

* * *

والتقى تولستوى في جنيف بإحدى قريباته وهي الكونتس الكسندرا تولستوى ، ولعل وجودها بجنيف كان بعض ما دعاه إلى مغادرة باريس ... كانت الكسندرا ذكية ذات ثقافة واسعة ، وكانت رقيقة القلب متقدمة العاطفة في غير نزع ، وكانت رشيقة المظهر والحركة في غير تكلف ، كما كان لها دماثة واحتشام جاء من طبعها أولاً ثم مما تقلبت فيه من مقامات عالية ، إذ كانت وصيفة شرف لابنة الاسكندر الثاني وكانت يومذاك تصحبها في سويسرا ... وكانت الكسندرا ذات عقل ودين تمسك بأهداب الفضيلة وتغار على دينها وتخلص له ، كما كانت ذات ملاحظة وصوت بلغ حداً عظيماً من الجمال ؛ وكانت حسنة الذوق فيما تختار من ثيابها وزينتها وفيما تدير من أحاديثها ... وكانت تعرف الكسندرا كثيراً من العلية من رجال الدولة ومن رجال الأدب ، فأضافت بذلك إلى صفاتها خبرتها بالمصر وما فيه من آراء وميول . ومقدرتها على تعرف مواهب من تلقاهم من الرجال .

وإن أنثى هذه صفاتها الخليقة بأن تملأ قلب تولستوى وعقله ، ولكنها كانت تكبره بإحدى عشرة سنة ؛ ولقد سبق أن رآها بحكم القرابة إذ أنها ابنة عم والده : وكان ليوي يقول لها مازحاً إنها أصغر سنّاً من أن يدعوها عمته وعلى ذلك فهو يسميها جدته ! وقضى تولستوى معها وأختها أياماً في جنيف كانت عنده من أسعد أيام حياته ، وكثيراً ما جلسوا على شاطئ البحيرة أو صعدوا الجبال القريبة ، فعرف

تولستوي لحنا وغنت الكسندرا .

وكان يحس معها أنه في أحسن حالاته فكرا ووجدانا وهدوء بال ، وكل ما أثبتته في مذكراته ينم عن إعجاب شديد بقربنته ، وكثيراً ما ردد قوله « آه لو كانت ألكسندرا أصغر مما هي بعشر سنوات » وتوثقت بينه وبينها الألفة . وازداد إعجابه بها ازديادا ترك في قلبه عاطفة أليمة ، فهي أكبر من أن يحبها ، وهي أئمن وأعظم قدراً من أن يدعها كما يدع غيرها من النساء ، وإن قلبه ليحدثه إذ تثني على مقدرته ومواهبه أنه ليس وحده الذي يصرخ من أعماق قلبه « آه لو كانت ألكسندرا أصغر مما هي بعشر سنوات » .

ولقد ظل تولستوي على إعجابه بها طيلة حياته على الرغم من اختلافهما فيما بعد اختلافاً كبيراً فيما يتصل بالدين من رأى ؛ قال لبعض أصحابه قبيل وفاته وقد نظر نظرة فيما كان بينه وبينها من رسائل « ان ذكرياتي عن ألكسندرا ظلت في حياتي المظلمة الطويلة بقعة وضيئة تشبه الضوء الذي يلتصق من تحت الباب في نهاية غرفة مظلمة » .

وقضي تولستوي نحو شهرين في سويسرا ، حيث كان أكثر وقته مع قربنته علي بحيرة لوسيرن ، وجمال جولات قصيرة في بعض المدن القريبة وذهب مرة إلى شمالي إيطاليا ليقابل بعض أصحابه .

ونفيض كتبه إلى عمته تاتيانا بإعجابه بما كانت تقع عليه عيناه في الكون أينما أتجه من جمال وسحر ، وتشعرتك الكتب بأنه كان رضي البال ، يغمره الجذل ، ويشيع في جوانب نفسه اشراق صوفي عجيب كان مرده لاريب فضلا عن جمال الطبيعة وطلاقة الربيع وصفوه ، إلى صحبته ألكسندرة وتذوقه السعادة حق السعادة إلى جانبها .

وقضي تولستوي في تلك الأيام أرب مشاعره من الجمال ، وتزود من ألوان الخبرة بالحياة والناس بما سوف يكون مادة غزيرة لفنه ، ففي دفتره كثير من

ملاحظاته عما يتصل بالناس والحوادث وكان الناس أنماطاً في تلك الجهة .
ولم تخل تلك الأيام السعيدة من عبثه ، فقد أوماً إليه الناس ذات يوم وتهامسوا
بما كان منه حيال إحدى الخدم من اقتحام مرذول مستهجن .
واتخذ مسكناً له في شهر يوليو على بحيرة لوسيرن ، ولقد كتب إلى صديقه
بوتكن يصف روعة الماء والسماء والجبال ، وما يشمل المكان كله من هدوء تستغرق
فيه النفس وينتشي الخاطر .

ووقعه هناك ما أخذه مادة لتلك القطعة الوصفية التي كتبها وسماها «لوسيرن»
فقد انفق أثناء عودته ذات ليلة والقمر يشق السحب أن كان يغني رجل نحيف على
قيثارة غناء أخذ بمجامع قلبه ، فأعطاه شيئاً من المال ودعاه ليفنى حيث كان النزلاء
يسمرون في ناحية من البحيرة ؛ وغنى الرجل والناس منصتون في سرور حتى فرغ
ومد لهم قبعته فلم يعطه أحد شيئاً ؛ فانطلق راجعاً من حيث أتى والنجبل في وجهه
وإنه ليتمتم في غيظ والقوم يضحكون منه ؛ ولكنه لم يمض غير بعيد حتى
أدركه تولستوى ودعاه ليعود إلى المنزل ليأكل ويشرب معه شيئاً من الخمر ؛
وعاد معه فدخلا حجرة وكان الرجل رث الهيئة ولكنه كان طيب القلب ؛
وجلسا يشربان ويطعمان على مائدة واحدة ؛ وضحك بعض النادل والخدم فثارت
ثائرة تولستوى وغنهم وصرفهم متهدداً وقد بلغ به الحنق كل مبلغ ...؛ وقد أراد
تولستوى بأكرامه الرجل هكذا أن يؤنب أولئك السادة على شحهم وغلظ
قلوبهم وتعاليمهم .

وأحدث جمال الليل وسحر الغناء وما كان من عطفه على ذلك الفقير ،
في قلبه الشاعر أثراً بعيداً حتى إنه ليسمو وجدانه فينزع إلى آفاق عليا أشار إلى
ذلك في دفتره فقال « كانت الليلة رائعة ولم أدرك ماذا كنت أريد ولا ماذا
كنت أتطلع إليه في لهفة ، ولكنه لم يكن شيئاً ينتمى إلى نعيم هذه الأرض
وكيف يسع المرء ألا يؤمن بخلود الروح إذ يرى لروحه هذا الامتداد الذي لا يحد .
نظرت نظرة من النافذة ... ظلام وسحاب شتيت وضوء ، مرحباً بالموت يا إلهي !

أي شيء أنا وإلى أين أذهب وأين مقامي الآن ؟ »
وخطر على ذهنه خاطر سوف يكون له أثر بعيد في نفسه وذلك أن لا معنى
للحياة إلا أن يعمل الإنسان في دأب ونشاط في سبيل إسعاد غيره ...
وفي الثالث والعشرين من يوليو أثبت في دفتره وهو في طريقه إلى بادن عائداً
إلى وطنه ، أن ثمة فكرة واضحة قد طرأت على باله وهي أن يفتح مدرسة في
قريته يعلم فيها أبناء الفلاحين في الجهة كلها ...

وبلغ بادن في اليوم التالي وهناك أقبل على مائدة الميسر إقبال المنهوم على
شهية الطعام ، فخر ما كان معه من المال جميعاً ، واقترض مالا من رجل فرنسي
فخره كله ، واتفق أن مر ترجميف ببادن فأقرضه كذلك مالا فخره لم يبق
منه شيئاً ...

وأحزنه ذلك وكدره ، وثقل على نفسه لولا أن التقى بالكسندرا في
فرنكفورت فنتسي بلقائها كل هم ...

وبلغ درسدن في الخامس من أغسطس فاستمتع بشرب البيرة في مقاهيها
وزيارة مسارحها وشراء الكتب وأدوات الموسيقى من دكا كينها ... وعلم في
درسدن أن آل لفوف علي مقربة منه فزارهم ثم إنه قابل البرنسس لفوف في
الطريق ذات يوم ، فكتب إلى ابنة عمه الكسندرا يقول إنه كان عند لقاءها
في تلك الحال التي يصلح فيها المرء للوقوع في شرك الحب ، فقد خسر ماله في
الميسر وكان ساخطاً على نفسه « وإن لي رأياً في الحب وهو أنه يولد حيث يريد
المرء أن ينسى نفسه ، وعلى ذلك فهو كالنوم يأتي حين لا ترضى عن نفسك أو
حين تحس أنك غير سعيد ^{كبير} إن البرنسس وجبهة ذكية ذات أمانة وعطف ،
ولقد حاولت جهدي أن أحبها فما عدت من ذلك بطائل »

وبعد ذلك بأسبوعين كان في ياسنايا بعد أن قضى بضعة أيام في بطر سبرج

بين ياسنايا والمدينتين

عاد تولستوى إلى قريته وقد عقد العزم على ثلاثة أمور : ما يقتضيه واجبه نحو أسرته ، وعمله الأدبي ، والنظر في شئون ضياعه ...

ولكن القلق كان ملء نفسه ! يتبين ذلك مما أثبتته في دفتره غداة بلوغه القرية فقد شكوا من إلحاح جسده عليه من جديد ، وشكا من الضيق والسأم والحزن وخيبة الآمال ، وتساءل ما جدوى العمل وذبوع الصيت والمال ، وما جدوى مسرات الحياة إذا كان عقبي ذلك كله ليلا أبديا ؟

ورحل إلى موسكو صحبة أخيه نيقولا وأخته ماريا في شهر أكتوبر ؛ ثم سافر بعد أيام إلى بطرسبرج ف قضى بعض الوقت ، وشد ما آلمه أنه كاد يُنسى ، فالتاس في شغل بالإصلاح الاجتماعى عن كل شيء ... وأحس أن عليه أن يعمل ليستعيد ما كان له من صيت وليزيد هذا الصيت وإلا فقد ضاع كل ما سلف له من جهد .

ورجع إلى موسكو وأقام مع نيقولا وماريا وكانت قد هجرت زوجها ؛ وكان أكثر أصحابه صلة به يومئذ الشاعر فت ..

وعاد تولستوى إلى لهوه ومجونه بدل أن يعود إلى جده ودأبه ، فالملابس الأنيقة والقبعات اللامعة وصالات الرقص والسهرات الممتعة ، والطعام فى أكبر المطاعم ، كل أولئك متاع ليله .

وكان يقضى نهاره فى الاستمتاع بالموسيقى ، وباللعب والوثب والرياضة الخشنة القوية فى أندية أعدت لذلك ، ولقد كانت قوة بدنه ومهارته فى فنون اللعب مما يتحدث الناس به ...

وراح الفتى بهذه الحياة وهو يومئذ يقرب من الثلاثين يدرأ عن نفسه السأم ، وينفض عن ذهنه الخواطر السود ، ولكن قلبه كان لا يفتأ يحدثه أن شيئاً ينقصه

ومهما يكن ما يملأ به وقته فإن روحه ما تزال قلقة حائرة ...
ودأب على زيارة من عرف من الأمر ليرى من أوانسها من سبق أن خفق
لهن قلبه ، فزار آل أرسنيف ولفوف وديا كوف والشاعر تيتشيف وكان لابنته
منزلة في نفسه كما زار ابنة عمه الكسندرا ، وكانت لا يزال لها عنده أثر عظيم وقد
تحدث إليها عن الزواج والحب وأطلعها على ما كان يهجس في نفسه ؛ ولكن
سحره بها أخذ يتناقص .

وأحس أن لأخت ديا كوف ينهن جميعاً أعظم السيطرة عليه حتى إنه ليحمد
لها أنها لا تزال تمسكه بخيط ولقد بلغ به الحال ذات ليلة أن كاد يعتقد أنه يحبها ،
ولولا أنها غادرت موسكو لتبعد عنه حين أحست حرج موقفهما لتعقدت الأمور
بينهما من جديد .

ولم يبق أمامه إلا كاترينا ابنة تيتشيف الشاعر والبرنس لفوف وإن كان
لا يدري أيتهما أقرب إلى قلبه ، وإنه ليسأل نفسه هل يحس حقاً نحوها شيئاً
من الحب ؟

هكذا انصرف تولستوى عن الجد ، وأسرف في اللهو ؛ على أن أيامه تلك
لم تخل خلوا تاماً مما يعد من مظاهر جده ، فإنه بمعونة صديقة بوتكن وصديق
آخره يدعى برفيليف ومنافسه السابق في حب فاليريا وهو مور تيير ، قد أسس
جمعية موسكو للموسيقى ؛ ثم إنه انضم إلى جمعية أدبيه في موسكو هي جمعية المعجبين
بالأدب الروسى .

أما عن عمله الأدبي فإنه أخذ يكتب قصة « أهل القوقاز » ؛ ثم إنه أثناء إقامته
ضيفاً بضعة أيام في مستهل عام ١٨٥٨ عند ابنة عم لأمه هي البرنس فولكنسكى
قد كتب أقصوصة عنوانها « المونات الثلاثة » وقد نشرها في مستهل العام التالى
وأخذ كذلك يكتب « سعادة الأسرة » وهى قصة تدور على ما كان بينه وبين
فاليريا ، وقد جعلها تنتهى بالزواج ، ولكنه زواج يقضى إلي تناكر وتنافر بين
الزوجين ، ولقد أراد أن يشير بذلك إلى ما كان عسياً أن يحدث بينه وبين فاليريا
لو أنه تزوجها ..

ولم يرض تولستوى عن القصة بعد أن أتمها وكان لا يفتأ ينفرد منها ويتلون وجهه كلما جاء ذكرها ...

* * *

عاد تولستوى إلى القرية في شهر أبريل سنة ١٨٥٨ وقد أغراه الربيع بهذه العودة ، وكان قد جاءها في فبراير ثم مالبت أن رحل عنها إلى موسكو ، وسافر في مارس إلى بطرسبرج ف قضى هناك أياماً ...

وركن إلى عمته الحبيبة تاتيانا وسكن إليها ، حتى ليحس بينه وبين نفسه أنه سوف لا يغادر القرية بعد ، وأقبل على الفلاحة كأنه فلاح لم يخرج من القرية قط ، فهو يحكي الفلاحين في لهجتهم ويشهد بنفسه عملهم ، بل إنه ليعجب بقوة أحدهم في الحرثة فيأخذ منه الحراث ويقف وقفته ويحاول أن يدفعه في الأرض كما يدفعه كأنه زميل له ، ويمضى خلف الحراث حتى ينال منه التعب .
ولأنه لينظر في أخلاق الفلاحين وصفاتهم ويحاول أن يلم بأحوالهم جميعاً ، ويبلغ من ذلك مبلغاً عظيماً سوف يظهر أثره فيما بعد في وصفه حياة القرية في قصته العظيمة « أنا كارنينا » فيدهش القارئ بما في وصفه من دقة وإحاطة تجعله يحس كأنه يعيش هذه المعيشة لا يقرؤها في سطور كتاب .

ونجد هذا الأستوقراطي الذي عاش عيشة الترف في موسكو و بطرسبرج يحب فلاحة كما لو كان فلاحاً مثلها ويقول « إنه لم يستغرق في الحب مثل هذا الاستغراق من قبل » وتلد له هذه الفلاحة ابناً سفيحاً هو ثمرة هذا الحب الذي استغرق فيه .. والذي ما كان في الواقع إلا مظهراً من عرامة جسده .

وكان يخيل لمن يعرفونه في هذه الأيام أنه سوف يعيش في القرية ويموت فيها كما سوف يفعل أخوه سيرجى وكما يفعل الكثيرون من الأثرياء في روسيا حين يسأمون حياة المدينة ...

ولكنه أخذ يحس السأم من حياة القرية في نوفمبر وكتب في دفتره « إنَّ الفلاحة عمل نخس لا طاقة لى به » ؛ وقد شكاً منذ يونيو من أنه لا يكتب ولا يقرأ ولا يفكر ..

وكان يعنف أحياناً على الفلاحين ثم لا يلبث أن يندم حتى ليطلب إليهم الصفح ، ومن أمثلة ذلك ما أثبتته في دفتره في السابع والعشرين من نوفمبر إذ يقول « كذب على اليوم ريزون فغضبت وأمرت به وفقاً لعادة بغیضة أن يضرب ... ثم بدا لي فأرسلت من يمنع هذا الضرب ولكن الرسول وصل متأخراً . سوف أطلب منه الصفح .. ولن أعود إلى ضرب الناس ثانية دون أن أفكر في الأمر ساعتين .. سألته الصفح وأعطيته روبلتين ، ولكن العمل لا يزال يؤلني » .

ووقع لتولستوى في ديسمبر حادث كاد يودي بحياته ، فقد خرج مع رفقته لصيد الدب في الغابة وكان فيهم أوستاسكوف أحد مهرة الصيادين ! وأشار أصحابه عليه والبنديقية في يده أن يمهد الثلج من حوله ليتحرك في يسر ، ولكنه لم يعبأ بما أشاروا به قائلاً وهو يضحك إنهم إنما جاءوا ليقتلوا الدب لا ليصارعوه بالملاكمة .. وجاء دب فأطلق عليه الرصاص فأخطأ أول مرة ثم أصابه بجرح خفيف في المرة الثانية ، ولم يكده يصوب إليه البنديقية مرة ثالثة حتى وثب عليه فضربه ضربة أكبته على وجهه في الثلج ، وحاول جهده أن يخفي عنقه بين كتفيه كي لا يعضه الدب إلا في غطاء رأسه الصوفي السميك ؛ قال يصف الحادث فيما بعد « لم أشعر بألم وأنا طريح تحت الدب أنظر إلي فيه الدافئ ذى الأسنان البيضاء المنداة ، وتنفس فوق رأسي ، ورأيت كيف أدار رأسه ليصبح في وضع يعرض منه عاتقي في سرعة ، ورأيت في سرعته أوفى نهمه يعض عضه في الهواء فوق رأسي مباشرة ثم فتح فيه ثانية ، ذلك الفم الأحمر المبلل الجائع الذي يتحلب لعابه ، وأحسست أن بيني وبين الموت لحظة ونظرت في أعماق ذلك الفم كما ينظر المحكوم عليه بالموت في القبر الذي احتفر له ... نظرت وأذكر أنني لم أحس خوفاً ولا هلعاً ، ورأيت بأحد عيني من وراء هذا الفم قطعة من زرقة السماء تلمح بين السحب الحمراء قد توشجت في صورة شوهاء ، وخطرت على فكري «ووعة هذه الزرقة هناك في عليائها»

أما الدب فقد عضه عضه قوية مزقت خده تحت عينه اليسرى والجانب الأيمن

من جهته ، وما كاد يعضه ثانية حتى قدم أوستاسكوف فأفرعه فهرب ... ثم إن أصحابه حملوه فأسفوه ، وقد ظل هذا الحادث في قرارة نفسه حتى استغله وهو الفنان الذى جعل الصدق غاية فنه ، إذ وصف كيف واجه الموت البرنس أندرو أحد أبطال قصته الكبرى « الحرب والسلام » حين سقط جريحاً في ساحة الوغى ...

* * *

قضى تولستوى الأشهر الأولى من سنة ١٨٦٩ في موسكو ، وهناك لبي دعوة جماعة محبي الأدب الروسى وألقى لأول مرة في حياته خطاباً عاماً على شدة كرهه لهذا العمل ، وكان موضوع خطابه أن العنصر الفنى في الأدب مقدم على غيره وهو رأى سوف يخالفه تولستوى حين يكتب عن الفن بعد ذلك بنحو أر بعين سنة . ورد عليه أحد أنصار الجماعة السلافية يدافع عن العنصر الإصلاحي في الأدب ، فليست وظيفة الأدب مقصورة على ناحية الفنية ، وليست هذه الناحية الفنية هي المقدمة دائماً على غيرها ، فالأديب يحس ويفكر وهو يحب أشياء ويكره أشياء ، ولا مندوحة له عن أن يتهم ويلوم ويستنكر ويدعو إلى الإصلاح .

وفي أبريل من هذه السنة سافر إلى بطرسبرج قضى مع ابنة عمه ألكسندرا « عشرة أيام من أسعد أيامه » ؛ ولكنه سافر دون أن يخبرها ثم كتب إليها يعتذر بأن كل شيء حوله كان جميلاً وأنه كان يزداد كل يوم جمالاً بحيث أنه لو لم يفادر المدينة حين غادرها ما وجد بعد ذلك أبداً ما يدعوه إلى مغادرتها ...

وردت ألكسندرا على هذه الإشارة اللطيفة إلى ما كان يخفق به قلبه ، تقول إن علمها بسفره كان كما لو أنها رأت الصقيع في الربيع ، وكان حالها حال من أرسل في أمر أثناء ولية حافلة ولم يشبع أويروغلتته وما يخزنها حقاً بالآ أنه سوف لا يجدها هي نفسها في مثل ما كان عليه قلبها من استجابة المؤثرات وتهيؤة للإخلاص أتم ما يكون الإخلاص ...

أما هو فلم يكن قلبه يومئذ يستجيب لشيء كأنما كان قطعة جامدة من الصخر . « إن قلبي في هذه السنة صامت حيال كل شيء حتى الحزن نفسه . ولم يعد ثمة

الأرغبة واحدة هي أن أعمل وأنسى ، ولكن أى شيء أنسى؟ ليس هناك شيء كى أنساه ... إلا أن يكون أن أنسى أنى أعيش» هذا ما أثبتته ذات يوم فى كراسته . ذلك أنه كان فى تلك الأيام يعصف الشك بنفسه ويحتم على قلبه ، ومازادته نصائح ألكسندرا إلا نفوراً ؛ ورد عليها يقول إنه لا يجحد بالدين ولا بما للدين من عظيم الأثر فى إسعاد النفس ، ولكنه يكافح بكل ما فى عقله وقلبه من قوة فى سبيل الإيمان ؛ ويعتب على ألكسندرا لسخريتها من ركونه إلى الطبيعة ومباهجها وإن ذلك ليؤدى به إلى سبيل الإيمان فلكل نفس سبيلها الخاصة بها « وفى أواخر مايو يذكر القتي فى دفتره مبلغ ما يحس من ضجر ، ويسخط على نفسه ، ويرى أن خير ما يلوذ به أن يشرع من فوره فى كتابة قصة « أهل القوقاز » ...

ولكن ضيقه يأخذ بخناقة وتشككه يكاد يزهد روحه ، ويظل على هذه الحال الأليمة حتى ربيع سنة ١٨٦٠ ؛ فيخطر له خاطر وذلك أن فى العمل البدنى خير ما ينسيه ما هو فيه ، فليعمل بيديه بين العاملين من الفلاحين ... وينهض ذات يوم مبكراً فيعمل فى تسميد الأرض بنفسه فى زمرة الفلاحين وما يزال فى نصبه حتى يفرق العرق بدنه ويحس بالانتعاش يدب فى هيكله ولا يجد فى المساء ما كان يجده من غضب وضيق ، بل إنه ليجد كل شيء حسناً ويفرم بكل إنسان «

وفكر فى أن ينشئ فى القرية تلك المدرسة التى خطرت له وهو فى سويسرة ثم أنشأ هذه المدرسة فعلا فى حديقة بيته وفى بعض حجراته وأخذ يعد العدة لأقامة بناء خاص بهذه المدرسة ؛ ودعا إليها أول الأمر عدداً صغيراً من أبناء الفلاحين أخذ يعلمهم بنفسه ريثما يختار لهم من يريد من المعلمين ولكن مرض أخيه نيقولا وسفره إلى أوروبا طلباً للعلاج ، واعتزام أخته السفر لتغنى بأمره ، وضيقه مما يهجمس فى نفسه ، كل أولئك جعله يطلب السفر عل فيه راحة لنفسه ، ثم لعله يطمئن قلبه فما أشد ما يزعمه مرض أخيه .

رحلة ثانية

في الثالث من شهر يوليو سنة ١٨٦٠ ، خرج تولستوى في رحلته الثانية إلى أوروبا ، وكانت هذه آخر رحلة له فلن يبرح وطنه بعدها أبداً ...

وكان يريد أن يقف على نظم التعليم في ألمانيا كما كان يريد أن يرى أخاه كما ذكرنا ؛ وقضى تولستوى نحو شهرين يزور المدارس في برلين وفي غيرها من المدن ، بينما ذهبت أخته ماري إلى حيث كان يقيم أخوها في سودن ..

وحضر تولستوى بعض المحاضرات في جامعة برلين بعد أن قضى بضعة أيام يعاني آلاماً شديدة في أسنانه ، وشهد الدراسات الليلية للعمال ، وزار بعض السجون حيث أدخل نظام الحبس الانفرادى .

وزار بعض المدارس في ليزج فكانت في رأيه « شيئاً مخيفاً ، حيث الدعاء للقيصر والضرب بالسياط وحفظ كل شيء عن ظهر قلب ، وحيث يخوف التلاميذ وتشنت أذهانهم »

وفي درس دن زار القصصي أورباخ ، ودهش أورباخ إذ قدم تولستوى نفسه باسم أحد شخصيات قصصه ، وأوجس المؤلف خوفاً أول الأمر ثم ما لبث أن فطن إلى ما في ذلك من مزاح .

وتوجه إلى كسنجن وكانت على سفر خمسة أيام من سودن ، وكان أثناء سفره يقرأ كتباً في التربية ، فهو إذا اهتم بأمر جعل له كل تفكيره ، وكتب إلى عمته من كسنجن ، يطلب إليها أن تكتب إليه عن أبناء ضياعه وعن حال مدرسته وكيف يسير العمل بها ، وينبئها أنه سوف يعنى بهذه المدرسة كل العناية متى عاد إلى ياسنايا . .

وقرأ أثناء مقامه بكسنجن بعض كتب بيكون ولوثر ، وتعرف إلى جولياس فروبيل ، أحد المشتغلين بشئون التربية على غرار عمه مبتكر رياض الأطفال



تولستوى سنة ١٨٦٠

obeykandl.com

وكان جولياس خير من يشرح نظريات عمه لتولستوى وقد تعجب من تمسك تولستوى بأرائه أثناء مناقشاتهما ؛ وكان يرى تولستوى أن التعليم العام أجدى في روسيا حيث لم تفسدها التجارب ، منه في ألمانيا ، كما كان يرى ألا يكون إجبارياً كي يطلبه الناس كما يطلب الجائع الطعام ...

وزار تولستوى الجهات القريبة من كسنجن ومنها ورتبرج حيث سجن لوثر وشهد الحجره التي بدأ فيها لوثر يترجم الإنجيل وأثبت في دفتره قوله « حقاً لقد كان لوثر عظيماً »

وكان لا يفتأ تولستوى يزور أخاه في سودن ثم يعود إلى كسنجن حيث يستغرق في القراءة والتأمل ، وفي أواخر شهر أغسطس ساءت حال أخيه فأشار الأطباء بنقله إلى الجنوب ، واختاروا له هيرس على شاطئ البحر المتوسط غير بعيد من طولون ...

ورحلوا جميعاً إلى هيرس ، ماري وليو ونيقولا المريض ؛ واستراحوا بعض الوقت في فرنكفورت حيث كانت تقيم حينذاك ابنة عمه الكسندرا تولستوى . وفاجأ ليو ابنة عمه بزيارة فدخل عليها في «هيئة الأسباني في ظهر بطاقة البريد» كما وصفته ، وكان معها أمير هس وزوجته ؛ وسرعان ما انصرف تولستوى وقد رأى في وجهها شيئاً من الخجل لمرآه وأحس في نفسه نفوراً من الأمير وزوجته ؛ ولما خرج سألا عنه فما كان أشد دهشتها إذ علما أنه ليو تولستوى ! وقال لابنة عمه « هلا أخبرتنا ... لقد ظالما تشوقنا لرؤيته منذ أن قرأنا له » وأثنيا عليه بما طابت به نفسه حين أفضت به الكسندرا إليه ...

وفي هيرس اشتدت وطأة المرض على نيقولا وفي الثامن والعشرين من سبتمبر قصي نحيبه بين ذراعي أخيه ؛ ويحس المرء مما كتبه تولستوى عظم وقع المصاب في نفسه ، فقد كان لأخيه عنده منزلة عظيمة ، وقد ازداد حبه له منذ حدثه عن النصن الأخضر وعن أخوة النمل ، وكثيراً ما ذكر ليو أنه لا يطيق الحياة إذا خلت منه أو من العمه تاتيانا ... كتب إلى فت عقب وفاة أخيه فقال « لم يؤثر

قبل في حياتي شيء كما أثر هذا الحادث . لقد قال حقاً إذ تعود أن يذكر أنه ليس أسوأ من الموت ، وإن المرء إذ يتبين أنه النهاية يجد أنه ليس أسوأ من الحياة ... وفيه يكدر المرء ويسعي إذا رأينا أن من كان من قبل نيقولا تولستوى لم يبق منه شيء . إنه لم يقل مرة إنه أحس باقترابه من الموت ، ولكنني أعلم أنه سار نحوه خطوة خطوة وأنه كان على يقين كم بلغ من القلة ما بقي له في الحياة ، ولقد أخذته غفوة قبل موته بدقائق ، ثم أفاق بغتة وهو يتمم في رعب : ولكن ما هذا ؟ لقد رأى كيف يفنى المرء وكيف يذوب حتى يصبح فإذا هولاً شيء ... وأن لم يجد هو ما يتعلق به ، فإذا أنا واجد ؟ إنى لأقل حيلة ... وأي فائدة لشيء ما إذا كانت آلام الموت وما يصحبها من كره شديد لباطل الحياة وغرور النفس ، تبدأ غداً ، وإذا ما بدأت انتهى كل شيء إلى العدم ، إلى النسيان المطلق ؟ إنه لوضع مضحك حقاً ! كن نافعاً ، وتمسك بالفضيلة وعش سعيداً ما دمت حياً ، هكذا يقول الناس بعضهم لبعض ، ولكنك أنت نفسك وسعادتك وفضيلتك ونفعك كل ذلك ينتهي إلى هذه الحقيقة فحسب ، هذه الحقيقة التي عرقها اثنتان وثلاثين سنة من العمر ألا وهي أن الوضع الذي نحن فيه وضع نحيف ... خذ الحياة كما هي عليه ، هكذا يأخذ الناس في القول ، إنك أنت الذي وضعت نفسك هذا الوضع ، وهذا حق لا ريب ، وإنى لأخذ الحياة كما هي عليه ، ولكن الإنسان إذا بلغ أقصى ما يبلغ بحياته ينظر فإذا هي شيء فارغ وإذا هي خدعة ، ويرى أن الحق الذي لا يزال عنده أسمى من كل شيء إنما هو أمر يملأه رعباً ، وإنك إذا نظرت إليه نظرة صائبة وتبينته ، أفقت في رعب قائلاً كما قال أخي : ولكن ما هذا ؟ . على أنه بالضرورة طالما يرغب الإنسان في أن يعرف الحق وأن يفصح عنه فإنه يحاول أن يفعل ذلك ، وذلك كل ما بقي لي من دنيا الفضيلة ولست أستطيع أبعد من ذلك . وسوف أفعله وحده ، ولكن ليس في صورة الفن ، إن الفن أ كذوبة ولن أحب بعد اليوم أ كذوبة جميلة ... سوف أقضي الشتاء هنا وما ذلك إلا لأنني لم أعد أبالي أي مكان أعيش فيه ... أرجو منك أن تكتب إلي فإني أحبك كما كان أخي يحبك ، ولقد ظل يذكرك حتى آخر لحظة .

ولم يكن مرد هذا التشاؤم إلى موت أخيه ، وإنما كان حزنه على أخية ،
مثيراً لما كان كامناً في نفسه ، مؤيداً له ؛ أما ماجاء في كتابه هذا عن الفن فمجيب
ذلك منه ولم يمض إلا نحو ثمانية عشر شهراً على محاضراته التي دافع فيها عن الفن
في ذاته وأنكر مبدأ القائلين بالإفادة من الفن في الإصلاح الاجتماعي ... ويبدولى
أن نفوره من الفن لم يكن كذلك إلا رغبة في تلبية نداء خفي في نفسه للاشتغال
بالدين ، وقد أثار موت أخيه هذه الرغبة فقد أثبت في دفتره في منتصف أكتوبر
يقول « حدث في وقت الجنائز ذاته أن خالجتني تلك الفكرة وهي أن أكتب
الإنجيل من ناحية مادية أعني حياة المسيح كرجل من رجال المذهب المادي » .

وفي منتصف أكتوبر كانت قد ذهبت عنه غاشية الحزن الشديد ، والحق أن
تشاؤمه كما ذكرنا كان نوعاً من الفلسفة أكثر منه حزناً ، فإنه كان يكتب فصولاً
من قصته « أهل القوقاز » ، وهي قصة مليئة بمباهج الحياة وروعة الفن ، مشرقة
بالحيوانية المرححة القوية ، ومثل هذا لا يصدر عن كاتب مستغرق في الهم ...

ولقد كان تولستوى ممتلاً بالحياة والنشاط فما يقعه حزن أو يظلم جوانب نفسه
تشاؤم ، ولقد كان في هيرس كما كان في القوقاز والقلم مبعث المرح والبهجة في كل
حلقة من الرفاق يتوسطها ، بل لقد عاد في هيرس إلى نوع من الحب علي طريقته ؛
ثم بدا له فسافر إلى إيطاليا وطوف في فلورنسا وروما ونابلي ، وفي شهر يناير سنة ١٨٦١
عاد إلى فرنسا وقصد إلى باريس حيث قضى أياماً في مقاهيها يقرب بصره في الناس ؛
وهناك التقى بترجنيف ثم سافرا معاً إلى لندن .

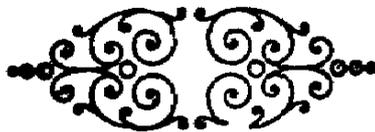
وفي لندن استمع تولستوي إلى بعض المحاضرات وشهد بالمرستون يخطب
في مجلس العموم ، ثم زار وترجنيف الكاتب الروسي الحر هيرزن وكانت لندن
منفاه ؛ وعجبت ابنة هيرزن أن رأت مؤلف « عهد الطفولة » رجلاً يلبس ملابس
ثمينة وفق آخر طراز وينفق المال عن سعة ...

وقاسى في لندن الألم الشديد في أسنانه مدة ستة أسابيع وهو يرفض أن يزور
طبيباً لأنه يحب أن يرد الأمر في الصحة والمرض إلى الطبيعة ، فكما أصابته الطبيعة
بالمرض فعلى انتي تذهب الألم عنه ...

وفي شهر فبراير سمع وهو في لندن عن قرار التحرير الذي أصدره القيصر وعلم أنه اختير حكماً في إقليمه فاعتزم العودة إلى وطنه .

وأقام تولستوى أياماً في برسل وهو في طريقه إلى وطنه ؛ وزار في هذه المدينة بعض مشاهير رجالها من الكتاب والمؤرخين ، وكتب في برسل أقصوصته « بوليكوشكا » وهي مأساة تدور حول الرق وما يعاني رقيق الأرض في أغلالهم ولعلها أقوى ما كتب في الأدب الروسي كله عن هذا الموضوع ، وسوف تنشر سنة ١٨٦٣ ، ولقد أعجب بها ترجميف إعجاباً شديداً في كتاب أرسله إلى فت عقب قراءته إياها ومما جاء فيه عن هذه الأقصاصة قوله « إنها ترسل رعشة باردة حتى في ظهري أنا ، الذي أصبح ظهري سميكاً غليظاً ... ألا إنه إمام ... ألا إنه إمام » .
ونزل ضيفاً في ويمر على السفير الروسي فحصل له على إذن لزيارة منزل جوتيه ، وكانت زيارته ممنوعة عن عامة الناس .

وبلغ تولستوى موطنه في أواخر شهر أبريل ، بعد أن قضى في رحلته هذه نحو عشرة أشهر بعيداً عنه ، ولسوف يكون هذا آخر عهده بأوروبا فلن يبرح روسيا بعد ذلك مدى حياته كما أسلفنا .



معلم وحكم

عاد تولستوى إلى وطنه ومل نفسه الاهتمام بمدرسته ، يريد أن يجعلها كما استخرج لنفسه من قراءاته ومن مشاهداته في أوروبا ... ولم يشغل تولستوى نفسه بما كان يشغل به الناس أنفسهم من شؤون ترتب على قرار التحرير ، ولا غيرها مما يتصل بأمور السياسة والمجتمع ؛ ونحب قبل أن نذكر أنباء مدرسته وعمله حكما وأسباب تجنبه ما كان يشغل الناس ، أن نقص نبأ خلاف جديد شجر بينه وبين ترجنيف .

كتب تولستوى حين عاد إلى روسيا إلى فت يشكره « على كتابه وعلى صداقته وعلى أنه هوفت » ويقول « أما عن ترجنيف فإني أحب أن أراه ولكن حبي أن أراك يزيد عن ذلك عشر مرات »

ومن ذلك نرى أنه لم يكن بين تولستوى وترجنيف من خالص الود ما كان بينه وبين فت ، ومرد هذا كما أسلفت إلى هذا التباغض الخفي بين متنافسين يحاولان أن يخلقا بينهما الألفة فيفسد التناقض ألفتها .

وذهب تولستوى في آخر شهر مايو لزيارة ترجنيف في ضيعته تلبية لدعوة منه وهناك أحضر له ترجنيف قصة حديثة له لم تطبع بعد وهي قصته المسماة آباء وأبناء ليقرأها وليبدى رأيه فيها ؛ وجلس تولستوى يقرأها وحده ودخل عليه ترجنيف بعد حين فإذا به يفظ في النوم ؛ وتسلسل ترجنيف من الحجرة على أطراف أصابعه وفي محياه الأسف ، ولكنه لم يكذب يغادرها حتى كان صاحبه قد فتح عينيه فوق بصره على ظهره ؛ وساء ترجنيف نوم صاحبه فما يفسره إلا بأنه لم يجد في القصة ما يعجبه ، ولقد كان من الجائز أن يرد ترجنيف سبب ذلك النوم إلى تعب صاحبه ، لولا أن صاحبه أمسك بعد ذلك عن ذكر القصة وعن قراءتها فتأكد

له الرأي الأول فألمه ذلك وكدره .

وذهبا بعد ذلك بيومين فزارا صديقتها ، وحدث أثناء تحلقهم للطعام في الصباح وبينهم زوجة فت ، أن أخذ يتحدث ترجميف عن تعليم ابنته ويثني على مربيها الإنجليزية ، وكيف جعلتها تصلح بيديها ملابس الفقراء ؛ ونظر تولستوى نظرة من ينكر هذا وسأل صاحبه في شيء من الحسرة « وهل تظن ذلك صواباً ؟ » وأجابه ترجميف أنه يراه صواباً فإن ذلك مما يجعل المحسن يقف بنفسه على حقيقة بؤس البائسين ؛ ورد تولستوى محتداً فقال « إني أرى أن فتاة ترتدى نظيف الملابس إنما تأتي باطلا من العمل وتلعب لعبة مسرحية إذ تضع في حجرها وبين يديها ملابس قذرة عفنة » وصاح به ترجميف قائلاً « أرجو منك أن تمسك عن هذا الكلام » وأجاب تولستوى « ولم لا أقول ما أعتقد ؟ » فرد عليه ترجميف بقوله « إنك إذن ترى أني لا أربي ابنتي كما ينبغي أن أفعل » ، وأجاب تولستوى أنه لا يجب أن يصل الأمر إلى أبعد من ذلك ، وان كان يعتقد أن كلماته تطابق فكره ومشت صفرة شديدة في محيا ترجميف ، ووجه الكلام إلى تولستوى في عنف قائلاً « إن عدت إلى مثل هذا فسأدق رأسك » ونهض فخرج من الحجرة غضبان يمسك رأسه بيديه ، ومالبث أن عاد يعتذر لربة الدار عما قد يعد منه سوء أدب ، وتجاهل تولستوى تجاهلاً تاماً وانطلق عائداً إلى ضيعته ...

وما أظن ترجميف كان يبلغ غضبه ما بلغ لو أن صاحبه قد امتدح قصته ، وهو إنما أراد بدفعها إليه ليقراها أن يشعره بمودته ..

وكتب تولستوى يطلب إليه وهو في طريقه أن يرسل إليه اعتذاراً يطلع فت وزوجته عليه قائلاً إنه ينتظر هذا الكتاب في بوجاسلوف ؛ وأرسل ترجميف هذا الاعتذار ولكنه تأخر فلم يبلغ تولستوى في المكان الذي حدده ، فكتب إليه تولستوى يدعوهُ إلى مبارزته !

وغضب تولستوى على فت لأنه حاول أن يصلح بينهما ؛ وبعد أربعة أشهر غادر ترجميف روسيا إلى أوروبا فساور تولستوى الندم على ما كان منه في وقت

غضبه ، وكتب إلى ترجميف يطلب منه الصفح . .
وضل هذا الكتاب عن طريقه إلى ترجميف ؛ وعلم ترجميف في غربته أن
تولستوى يطلق فيه لسانه بالطعن في كل ناد فاشتد به الغضب حتى لقد كتب إلى
تولستوى يتحداه بدعوة إلى المبارزة !

ولكن تولستوى رد عليه أنه لا يرغب في مبارزته علي الرغم مما لحقه منه من
إهانة ورجو منه أن يذمى ما عسى أن يكون في نفسه من ضغن عليه ؛ ثم تلقى
ترجميف ذلك الكتاب الذي ضل عن طريقه من قبل فطابت نفسه ، وكتب
إلى فت يرجو منه أن يبلغ تولستوى أنه يقدره وأنه يحبه كلما كان بعيداً عنه ، وأن
الخير في أن يعيشا كما لو كان كل منهما ينتمى إلى كوكب أو إلى عصر غير كوكب
صاحبه وعصره ... ولم يلتق الرجلان إلا بعد عشرين سنة أو دون ذلك قليلا ...

* * *

سرف تولستوى هم إلى مدرسته ، وكان شديد التعلق بأفكاره في التربية
مولماً أشد الولع بتحقيقها حتى لقد كتب إلى عمته ذات مرة يقول « إنها اليوم
المتعة الوحيدة التي تربطني بالحياة » .

بنى تولستوى مدرسته فجعلها ثلاث حجرات كبيرة ، وجعل إحداها متحفاً
للنبات والحيوان وأنواع الصخر وأدوات العلوم الطبيعية ! وكان بها ثلاثة معلمين
هو أحدهم ، وقسيس كان يزورها مرتين في الأسبوع .

وكان أكثر ما يتلقى التلاميذ دروسهم في الحديقة حيث يتحلقون أمام معلمهم
بين شجرات التفاح ، وكان يتعلم التلاميذ اللغة والدين والرسم والعلوم الطبيعية
والرياضة والنبات والحيوان والموسيقى والأناشيد ...

وجعل أساس خطته أن يشعر التلاميذ باللذة في كسب المعرفة ، فأحاطهم بكثير
من الحرية فهم يجلسون حيث يشاءون ، وهم يستمرون في الدرس إذا أعجبهم دون التقيد
بزمان حتى ينصرفوا عنه من تلقاء أنفسهم ، وهم يظهرون معلمهم على ما يعجبهم
وما لا يعجبهم ، ولن يؤنب تلميذ على تأخره عن الميعاد ، وقليلاً ما كان يتأخر

أحد إلا الكبار الذين يضطرون إلى معاونة آبائهم في بعض أعمالهم ثم يأتون سراعاً إلى المدرسة ؛ ولا يكلف التلاميذ بأعمال في منازلهم أو يطلب إليهم إحضار دفاتر أو كتب معينة معهم ، وإذا جاءوا قبل المعلم تركوا في زياطهم ولعبهم لا يلزمون بشيء ، مما تسميه المدارس بالنظام ، فما يطلب منهم إلا النظافة والانتباه والصدق في القول ؛ وكان يوجه كل غلام الوجهة التي يميل إليها لتمد موهبته أقصى مداها ، ولا يحمل أحد قط على غير ما يجب ...

وأحب التلاميذ معلمهم حباً قوياً وبخاصة تولستوى ، فقد كان في غير أوقات الدروس يلاعبهم ويضاحكهم ، يصحبهم إلى الغابة ويسابقهم في العدو ، وإنه ليرى أثناء ذلك كيف تشكل عواطفهم وكيف تتفتح نفوسهم للحياة .

واستطاع تولستوى أن يحدث أثراً عميقاً في نفوس تلاميذه ، فإذا أخذوا في حديث معه أو إذا ألقى عليهم درساً لم يحبوا أن ينصرفوا ، بل إنهم ليريدون أن يبقى بينهم مهما استطال الزمن ؛ ولقد نهام أن ينادوه بألقاب التعظيم قائلاً لهم « إن اسمي هو ليو نيقولا قتش » .

وكان أحب شيء إلى قلبه ما يراه من نجاح خطته في جعل التلاميذ يتطلعون إلى المعرفة في شوق ولذة ويحاولون الوصول إلى ما يريدون ؛ ولم يكن يبهرج نفسه أن يرى محاولتهم وأن يمد لهم يده ببعض العون ثم يكلمهم إلى جدم وإرادتهم .. وكان يبدأ معهم قصة ثم يطلب إليهم المشاركة في إتمامها ويستمتع لآرائهم ويستشف ميولهم ومواهبهم ، فهذا الغلام شاعر وهذا متوقد الخيال وذاك فيلسوف صغير ؛ فإذا تمت القصة ناقشهم في بنائها ومبلغ ما فيها من ابتكار ، وعلمهم بذلك من حيث لا يشعرون درساً في النقد يأتي بعد ذلك الدرس في الإنشاء ...

وفي تعليمهم القراءة كان لا يحملهم على قراءة شيء بعينه ، وإنما كان يدعهم يختارون ما يحلو لأنفسهم فإذا آنس في أحدهم ميلاً إلى ناحية زاده منها ودفعه إليها خطوات ثم تركه يسلك سبيله ...

وكان المعلمون يدونون ما يلاحظونه ثم يتبادلون هذه الملاحظات أيام الأحاد

وكان يعنى تولستوى بكل صغيرة وكبيرة مما يذكرون ...
ونشر تولستوى مجلة سماها « ياسنايا بوليانا » ، أراد بها أن تكون متممة
لمشروعه فى التربية فكان يكتب فيها آراءه فى التربية والتعليم ويستعرض آراء
فحول التربية فى الغرب ؛ ولم يصدر من هذه الصحيفة إلا اثنا عشر عدداً وقد
خسر تولستوى ثلاثة آلاف من الروبلات فى هذه الأعداد .
وقد قابل الناس مدرسته أول الأمر بشيء من التشكك ولكن فى غير سوء
فلما رأوا مبلغ ما أصاب تلاميذه من تقدم ، أحسنوا بها الظن حتى لقد أرسل
إليها بعض الأغنياء بنهم على ما كان بينهم وبينها من بعد الشقة .
وكان غرضه من هذه المدرسة أن يتبين مبلغ ما فى آرائه فى التربية من نجاح
ليصل إلى منهاج للتعليم تأخذ به روسيا كلها ..
ذلك أن تولستوى كان يعتقد أن روسيا تتعثر فى خطوات تقدمها ، وما ذلك
إلا لأنها لا تتبين طريقها ، فإذا اتضح أمامها الطريق وأصلح المنهاج ظفرت
بالتقدم الصحيح وبلغت هدفها من أقرب السبل إليه ..
ولقد كان سروره عظيماً إذ علم أن ثلاث عشرة مدرسة على نمط مدرسته
قد افتتحت فى الجهات المجاورة ، وقد كان أصحاب هذه المدارس يرجعون إليه
فى اختيار المعلمين ...

على أنه لم ينج من سوء الظن من جانب بعض المشتغلين فى روسيا بشئون
التعليم ، ومن جانب وزير الداخلية ، الذى بلغ به الاهتمام أن أرسل إلى وزير
المعارف ينهيه إلى ما فى آراء تولستوى من سفسطة وشدوذ لا يخفى ما لهما من خطر
فى الإخلال بنظم التعليم المقررة ، وإن لم ير فيها نزعة إجرامية أو دعوة إلى الفوضى
ولكن وزير المعارف رد عليه بأن عمل الكونت تولستوى فى التعليم جدير
بالاحترام كله ، وأن وزارة المعارف تميل إلى إعانته وتعظيمه ولو أنها لاتسلم بآرائه كلها
على أن تولستوى ما لبث أن فترت حماسته لمدرسته ، بسبب ما تفتحت له
نفسه واتجه إليه ذهنه من جديد الأمور ؛ ولقد كان من أبرز خصائصه أنه لا يستقر

على حال فهو يتطلع أبداً إلى جديد من الحياة يلتبس فيه المتعة ويأمل أن يحقق به رغبة نفسه ، وما أكثر ما كانت تهجس الرغائب في هذه النفس المتوثبة المتطلعة . وكان الزواج أقوى رغباته يومئذ وأشدّها إلحاحاً على نفسه ، ومتى أتجه تولستوى إلى شيء فقد استغرق تفكيره كله حتى كأنه لم يفكر قبل في غيره ، ولندعه يقص علينا حديث مدرسته وانصرافه عنها قال « أقمت في القرية عقب عودتي من الخارج لأشغل نفسي بالمدارس القروية ، وكان هذا العمل ملاءماً لي لأنني لن أجد فيه ذلك الباطل الذي اتضح لي والذي كان يواجهني حينما أردت أن أعلم الناس وأرشدهم متخذاً الأدب وسيلتي ؛ وقد عملت هنا كذلك في سبيل التقدم المنشود ولكنني نظرت في التقدم نظرة الناقد وقلت لنفسي : لقد سار التقدم في بعض خطواته سيراً خاطئاً ، وعلى المرء أن يسلك مع السذج من بنى الفلاحين طريق الحرية التامة فيدعهم يختارون لأنفسهم ما يشاءون من سبل التقدم ؛ على أنني كنت في الواقع أدور حول معضلة تستعصى على الحل ، مؤداها : كيف أعلم دون أن أدري ماذا أعلم ؟ لقد تبينت في مسالك الأدب العليا أنه لا يستطيع الإنسان أن يعلم شيئاً ما لم يدر ما يريد ، وذلك لأنني رأيت الناس قد علّموا وفق صور مختلفة ، وأنهم باختلافهم فيما بينهم إنما نجحوا في أمر واحد وذلك هو إخفاء جهالاتهم بعضهم عن بعض . ولكنني هنا وسط الأطفال القرويين فكرت أن أتجنب هذا الصعوبة وذلك بأن أدعهم يختارون من العلم ما يحبون ؛ وإني لأجد نوعاً من التسلية الآن كلما تذكرت كيف كانت تأخذني الحيرة إذ كنت أحاول أن أحقق رغبتى في التعليم في حين كنت أشعر في أعماق نفسي أنني لا يمكنني أن أعلم شيئاً مطلوباً لأنني لم أكن أعلم ما ذلك الذي يطلب ...

« وبعد أن قضيت سنة في عملي المدرسي سافرت إلى الخارج مرة ثانية لأكتشف كيف أعلم غيري في حين أنني لا أعلم شيئاً ... ويظهر لي أنني تعلمت ذلك في الخارج ، ثم إني عدت إلى روسيا سنة التحرير مسلحاً بكل هذه الحكمة ، وأخذت وقد عينت حكماً أعلم الجهلاء في مدرستي والمتعلمين في صفحات مجلتي ؛

ونارت الأمور سيراً مريضاً أول الأمر ولكن ما لبثت أن أحسست أن عقلي ليس من السلامة كما أحب وأن الأمور لا يمكن أن تستمر في هذا الاتجاه ...
وكنت خليقاً يومئذ أن أبلغ من اليأس ما بلغت بعد ذلك بخمسة عشر عاماً ،
لو لم يكن أمامي جانب من الحياة لم أكتشفه بعد ، جانب يعدني بالسعادة ،
ألا وهو الزواج ...

« وشغلت نفسي سنة بعملى حكماً وبالمدارس وبالجملة ، ولقد أجهدتني ذلك وبخاصة ما كان من اضطرابي العقلي ... وكان عملي في شؤون التحكيم شاقاً ، وكانت نتائج عملي في التربية تحجبها الظلمات ؛ وكانت جهودي في المجلة تبعث على السأم حيث أنني كنت أرغب أن أرشد الناس جميعاً وأن أخفي عنهم هذه الحقيقة ، ألا وهي أنني لا أدري ماذا أعلمهم ... كل أولئك أدبي بي إلى المرض وأحسست بالعلقة في عقلي أكثر مما أحسستها في بدني ، فنفضت يدي من كل شيء ورحلت إلى باشكيرز في السهول لأنشق الهواء النقي ولأشرب الكوميس^(١) ، ولأعيش عيشة حيوانية .

وقد أتعبه عمله في التحكيم لأن الأمراء تقموا منه عطفه على الفلاحين كلما حكموه فيما ينجم بينهم وبين السادة من خلاف ، ولقد اشتكى الأمراء منه إلى الحكومة أكثر من مرة ، وهددوه وأنذروه بسوء العواقب ولكنه لم يحفل لهم نذراً ...

وطمع الفلاحون في عطفه ، فطلبوا إليه أكثر مما تطيقه النصفة ، فلما لم يجبههم إلى ما أحبوا ، غضبوا منه وأطلقوا فيه ألسنتهم بالسوء من القول ، وكدره ذلك وعظم وقعه عليه ...

وكان لا يفتأ يتحين الفرص ليخلص من هذا العمل وبخاصة لأنه لم يجد فيه إلا قليلاً مما عسى أن يفيد من الملاحظات ؛ ولكنه آثر أن ينتظر حتى تهدأ

(١) شراب يتخذ من لبن الخيل على طريقة خاصة وكان الروس يعالجون به أمراض الصدر .

عاصفة الأمراء كيلا يفسر تركه العمل بأنه هروب الخائف ... فلما سكنت من حوله ريجهم كتب إلى أولى الأمر يستقيل من عمله معتلا بأن أكثر ما يقضى به لا ينفذ ، وتم له ما أراد فأطلق من هذا العمل ، وما كان ليستطيع وقد سم من مدرسته التي أحبها أن يطبق صبراً على التحكيم حتى ولو لم يكن فيه ما ذكرنا من المتاعب ، فإن روحه القلقة كانت يومئذ في أقصى حالات سأمها ...

ومما يعجب له المرء أن تولستوى كان يبدو يومئذ وكأنه بمنأى عن ذلك التحمس الروحي العقلي العام ، الذي كان في روسيا أشبه بما كان في غربى أوروبا إبان الثورة الفرنسية ، فكان ينظر إلى تلك الحركة التي كان تحرير الرقيق أحد مظاهرها نظرة من لا يكثر لها ، ولعله كان يميل إلى معارضتها ، ولعل مرد ذلك كان إلى ميله للمعارضة في ذاتها ، ولعله كذلك كان لقرط شعوره بذاتيته مما لا يسهل معه أن يلقي بنفسه في تيار عام ؛ ولقد أخذ فيما بعد بأكثر تلك المبادئ التي كان ينفر منها في ذلك الوقت ، وزعمها لنفسه .

كان يسخر تولستوى ممن يطلبون الإصلاح على نمط أهل الغرب وبخاصة طلاب الحكم الدستوري لأنه في زعمه لم يكن يلائم مزاج روسيا ؛ وكذلك رغب تولستوى عن دعوة الداعين إلى العلم الحديث والتقدم المادى قائلاً إن هذا النوع من التقدم إن هو إلا سراب خادع ...

ومن كان هذا شأنه كان خليقاً أن يميل إلى أصحاب المدرسة السلافية ، ولكنه عارض هؤلاء كما عارض طلاب المدنية الغربية ، ولعله كان أشد صرامة على السلافيين ، الأمر الذي لا ينقضى منه العجب ، والذي يحمل المرء على أن يأخذ ذلك منه إما على أنه معارضة من أجل المعارضة فحسب ، وإما على أنه اضطراب عقلي جعله في حيرة لا يدري ماذا يأخذ وماذا يدع ؛ ولقد كان صديقه بوتكن يميل إلى ثانى الاحتمالين ، فعنده أن « عقل تولستوى كان لا يزال يومئذ في عماء ، فلم يكن وصل بعد إلى نظرة محددة في الحياة وأمور الدنيا ، وهذا سبب

تغييره نظراته دائماً وتذبذبه من الشيء إلى نقيضه ؛ وإن روحه لتتحرق في ظمأ لا يطفأ ... وترى ما أرضاه بالأمس يذهب ببدداً إذا أخذ في تحليله اليوم «
أنكرتولستوى على السلافيين ما آمنوا به من مقدرة « روسيا المسيحية » أن
تشق لنفسها سبيل خلاصها على هدى من تقاليدھا وتاريخھا وذاتيتها ، وأنكر
عليهم كذلك إيمانهم برسالة مؤداھا أنهم قادرون على أن يغيروا عالماً مادياً منهاراً
بمثلهم الروحية .

وكان يضحك منهم لأنهم في رأيه يثيرون حرباً في غير عدو ، ولأن نظرتهم
إلى الحياة كانت في زعمه ضيقة مبهمة ؛ ولكنه بينه وبين نفسه كان يميل
ميلهم صوب حكومة أبوية يكون حاكمها الأوتوقراطي أشبه بأب الأسرة من أسرته
له عليها حق الطاعة ولها عليه حق الرعاية ... ويدرك الأب ما تحتاج إليه أسرته
دون أن ينبه أحد إلى ذلك فيؤديه لها في غير من عليها ، فلا حاجة به إلى ممثلين
لها يطلبون إليه كيت وكيت ويسألونه أو بالأحرى يسألون وزراءه عن كيت وكيت

* * *

رحل تولستوى إلى سمبول سممارا شرق القلجا في شهر مايو سنة ١٨٦٢
يصحبه خادمه أليكسي وتلميذان من نابهي تلاميذه ... وقد مر في طريقه
بموسكو ، وهناك عاوده ميله إلى الميسر فلعب لعبة صينية مع شخص يجمله وخسر
في ذلك ألف روبل ، مع أنه قبل ذلك بنصف ساعة كان يبدي دهشته كما ذكر
بعض أصدقائه إذ علم أن أحد الأشخاص قد خسر في اللعب سبعة آلاف روبل
قائلاً : « لست أدري كيف يقدم الناس على مثل هذا العمل ؟ » .

وقد اضطرتة خسارته إلى أن يبيع قصته « أهل القوقاز » ، ولم يكن أتمها
بعند ، إلى أحد الناشرين بألف روبل وهو المبلغ الذي فقده في الميسر ، ولكم
آله ذلك وكدره ...

وعلم وهو في إقليم سممارا بحادث وقع في ياسنايا أثار نغمته على حكومة روسيا
وعلى الحكومات جميعاً ؛ وذلك أن فريقاً من الشرطة يقودهم رئيس لهم قد اقتحموا

بيته ومدرسته على أعين الناس ، ففتشوها وقلبوا كل شيء فيهما رأساً على عقب ،
ونقبوا الأرض بالفؤوس في حظائر الخيل ، ولم يدعوا صواناً أو قطراً أو صندوقاً
إلا فتحوه وفتشوه ؛ ولم يتورع رئيس الشرطة أن يقرأ علانية مذكرات سرية
خاصة لتولستوى على مسمع من أخته واثنين من رجال القوة كما قرأ جميع ما وقعت
عليه يده من رسائل ؛ وقصد الشرطة إلى المدارس الأخرى ففتشوها كذلك
وقبضوا على بعض المعلمين ...

ولم يعثر الشرطة على شيء سوى آلة تصوير وكانت يومذاك من الأشياء
النادرة في روسيا ، الأمر الذي أثار ظنونهم حول الغرض من وجودها وإن كانوا
ليعلمون أنها آلة تصوير لا شيء أكثر من ذلك ...

وربما كان هذا التفتيش بعض ما كاد له به كارهوه من مالكي الأرض لما
كان منه في التحكيم ، وربما كان بعض تجسس الشرطة لاضطغان وزير الداخلية
عليه وعلى أسلوبه في التعليم .

وذكر كذلك من أسباب هذا التفتيش ، أن الحكومة كانت توجس خيفة
مما كان بين تولستوي وهيرزن من صلة أثناء وجود تولستوي في إنجلترا ، ولقد
عادت بعض مقالات هيرزن إلى الظهور ، فظن أن تولستوي هو الذي يعيد نشرها ...
ومهما يكن من سبب فقد آلمه هذا العمل إيلاً ما شديداً ، وبخاصة إذ علم أن
عمته وأخته قد روعتا حتى ليقبل الأمل في براء أولاهما مما انتابها نتيجة للخوف ...
وساء تولستوي أن يشمت به الأعيان وأن يظن الفلاحون بأمانته الظنون ،
فضلاً عما في هذا العمل من جرح لكبرياء نفس كنفسه ، لما يتضمنه من عدم
الأكتراث له .

وكتب يطلب إلى عمته أن تتصل بذوى النفوذ من أقربائه ، ويذكر أنه
لو كان حاضراً لكان اليوم يحاكم على ما ارتكب من قتل ثم اختتم كتابه بقوله
« لن أسكن حتى أتلقى ترضية عامة كما كانت إهانتى عامة ، وسوف لا ألحق

بهيرزن فى منفاه فله طريقته ولى طريقتي ؛ وكذلك لن أختفى ولكنى سأعلن
للأناى أبيع ضياعى وأغادر روسيا حيث لا يدري المرء بين حين وحين ماذا
ينجأ له .

وكتب تولستوى إلى القيصر يطلب الترضية عما لحقه ، وحمل أحد حرس
القيصر هذا الكتاب إليه ؛ وما لبث تولستوى أن ظفر بفضل شجاعته الأدبية
بأول انتصار له على الحكومة سوف تعقبه انتصارات ، فقد أرسل الأسكند
الثانى إلى حاكم تولا أن يذهب إلى تولستوى فيعلن إليه أن القيصر يعبر له عن
أسفه عما وقع له ... وطابت نفس الكاتب النابه بما فعل القيصر وذهب عنه
شديد غضبه ..

زواج

اشتدت رغبة تولستوى في الزواج وقد بلغ الرابعة والثلاثين من عمره ،
والحق أنه كان قوى الرغبة في أن يتزوج منذ علاقته بتلك القروية التي فتنته
وكان اسمها أكسينا ، والتي ولدت له ولداً كان يؤلمه ويكدر خاطره مرآه ، وكان
يذكره بما فعل أبوه إذ كان لأبيه ولد سفيح هو أخ لتولستوى جاء قوى الشبه
به ؛ وكان كلما رآه تولسنوى يعمل سائقاً لإحدى عرباته اشمأزت نفسه من فعلة
أبيه ومن فعلته هو مع أكسينا ، تلك التي ما فتئت تغريه بالأثم وتثير ببدنها
القوى وبوجهها البرنزي ، على حد تعبيره ، شهوة بدنه ...

ولقد ظل تولستوى حائراً لا يدري منذ أن انقضى ما كان بينه وبين
فاليريا من يتخذها ممن يعرف من الأوانس زوجة له ؛ وكثيراً ما كانت كلمة
الخطبة على أثلة لسانه منذ سنة ١٨٥٩ ، بيد أنه كان يتراجع كل مرة على الرغم
من تحرقه إلى الزواج ، ولقد جاء في دفتره في تلك السنة قوله « إما أن أتزوج هذه
السنة وإلا فلا زواج قط »

ولقد تقدم فعلاً في السنة المشار إليها يطلب يد البرنسس لفوف ولكنه لم
يظفر بقبولها فعاد إلى ما كان فيه من حيرة ...

على أن القدر يخرج من حيرته في صيف سنة ١٨٦٢ عقب عودته من سيارا

كان الطبيب بيرز يعيش وأسرته عيشة راضية في موسكو منذ أن تزوج
سنة ١٨٤٢ وهو في الرابعة والثلاثين من عمره بالآنسة ليوبوف إسلافين وكانت
فتاة في السادسة عشرة ...

كان هذا الطبيب الألماني الأصل موفور الرزق بما كان يكسب من حرفته
ومن وظيفته في بلاط القيصر ، وإن لم يك من ذوى الثراء الواسع ؛ وكان له

ولأسرته مكانة اجتماعية مردها إلى منصبه الرسمي الذي حصل فيه على لقب النبيل جزاءً على خدماته في القصر الإمبراطوري ...

وقد أنجبت الزوجة الفتية لبعلمها حتى سنة ١٨٦٢ ثلاث عشرة عاش منهم ثمانية ، ومن هؤلاء ثلاث بنات كانت كبراهن واسمها إليزابث في التاسعة عشرة ، تليها سوفيا وهي دونها بسنة ، ثم تاتيانا وهي دون سوفيا بسنتين ... ولم تكن زوجة الطيب بيرز إلا تلك البنت التي أحبها تولستوى وهو طفل ، والتي أدت به الغيرة ذات يوم إلى أن يدفعها من شرفة فأصابها بالمرج زمناً غير قصير : لم تكن إلا إسلييف الصغيرة التي عاشت في كنف أبيه ، وقد ولدتها أمها لرجل يدعى الاسكندر إسلييف عاشت معه بعد أن هجرت زوجها ولم تستطع أن تحصل منه على الطلاق ...

وقد تعلم البنات في البيت على أيدي معلمين ومعلمات ألمان وفرنسيين ؛ وكان أبوهن يعدهن ليكسبن قوتهن بعملهن ، ولذلك كن يتعلمن ليكن معلمات .. وقرأ البنات وبخاصة سوفيا كثيراً من الكتب ، وكان لقصة ترجميف الآباء والأبناء أثر عظيم في نفوسهن وقد اشتد عطفهن على بطل القصة بازاروف ... وفي ربيع سنة ١٨٦١ نجحت إليزابث وصوفيا في امتحان يتيح لهما الالتحاق بجامعة موسكو ...

وكان البنات في غير أوقات الدروس يخطن ويطرزن وينظفن المنزل ويقمن على مختلف شؤونهن ويعلمن إخوتهن الصغار ؛ ولم يكن يكدر عليهن صفو حياتهن إلا ما يكون أحياناً من غضب أبيهن ، ولكنهن كن يرين أمهن الصبور الهادئة كيف تحتال بكل حيلة لتفثاً غضبه فأثر ذلك فيهن أثراً حميداً ..

كانت إليزابث كبرى البنات فتاة طويلة القامة ، جميلة الحيا ، ساحرة العينين ، في ملاحظها كثير من الجد والسكون ؛ وكانت هادئة باردة الطبع قليلة النشاط نوعاً ما ؛ وكانت أعمال البيت تضايقها وشير في نفسها الاشمزاز ، ولعل مرد ذلك إلى كسلها وإلى رغبتها في القراءة ، فكثيراً ما كان يرى في يدها كتاب

لا تكاد تفرغ من عمل حتى تعود إليه ...

وكانت تانيا صفراهن على تقيض إليزابث ، فتاة لعوبا مرحة لانفتاً تثب هنا وهناك حتى لتمام البيت كله بضحكها وصوتها الساحر الجميل ، وكانت تسمى في البيت « الشيطانة الصغيرة » وكان لها ولع بالموسيقى ، وكانت متقدة العاطفة ، تملأ قلبها حرارة الشباب ، تحب صاحباتها فتستغرق في الحب ، ولاتنى تظهر لكل من يراها إعجابها بنفسها وفرط إحساسها بذاتها .

وكانت وسطاهن صوفيا أو سونيا كما كانت تسمى في البيت وسطا بين أختيها ؛ تميل إلى تاتيانا وتحب مرحها وتنكر من إليزابث سكوتها وانطواءها على نفسها... وكانت سونيا موفورة العافية ، نشطة متوردة الوجنتين ، براقة العينين ، وكانت ذات جمال وفتنة وبخاصة عيناها الواسعتان الرماديتان ...

ولئن كانت تحب صوفيا مرح أختها تاتيانا ، إلا أنها كانت تحس أبدأ أن هاجساً خفياً لا تدريه ولا تنكره يوحى إليها شيئاً من الحزن المبهم الذي يشوب مرحها دائماً ، فلا تحس سروراً إلا أحست معه شيئاً من الحزن ؛ كتبت لتاتيانا ذات مرة تقول « إن تلك الموهبة التي تحمدين عليها وهي الاستمتاع بكل شيء وبكل شخص بارزة فيك كل البروز ، أما أنا فعلي عكس ذلك ، إذ أجد ثمة شيئاً حزيناً في كل مرح وكل سعادة »

وكانت سونيا رحيمة بأخوتها ، تؤدي عمل البيت في غير ضجر أو كلال ؛ وكانت مولعة بالأدب والتصوير والموسيقى ؛ وقد احتفظت منذ الحادية عشرة بدفتر تثبت فيه ملاحظاتها ؛ وقد جاء فيه عن قراءتها قولها « لقد أحدث كل من « عهد الطفولة » لتولستوى و « دافيد كوبر فيلد » لدكنز في نفسي أعظم الأثر ، ولقد بكيت حين فرغت من قراءة كوبر فيلد لأنى سوف أفترق عن أولئك الأشخاص الذين باتوا أعزاء إلى قلبي »

وكان يفشى بيت يبرز كثير من الأضياف ، وبخاصة في يومي السبت والأحد وكانت بنات الطيب زينة الدار ، وكانت أمهن شديدة الرقابة عليهن تحدجن



صوفيا بيرز قبيل زواجها

obeykandl.com

حذج الملامة أمام الضيوف أو تنصح لمن بكلماتها إذا خلت إليهن ...
وأخذ البنات يغشين المجتمعات ويشهدن حفلات الرقص ويشاركن فيها ،
وقد ذهب لمن صيت في الجمال والظرف والرشاقة وحسن الذوق .
وكان أول من أعجب بسونيا معلمها الشاب ، ولكنها كانت لا تكترث له
ولا تعباً بتنهداته ، وبينما كان يعينها على نقل مقعد إذ أمسك بيدها وقبلها ،
فصاحت به كيف تجرؤ على ذلك ؟ ثم أرادت أن تريحه مدى احتقارها إياه
فمسحت بمنديلها موضع شفثيه من يدها ؛ ثم إنها أخبرت أمها بما فعل فلم تعفها من
اللوم قائلة « لم لا تسلكين مسلك أختك إليزابث من الجد والاحتشام ؟ »
وأبعد المعلم المسكين عن البيت ...

وأعجب بها بعده ضابط شاب وكان ينتمى إلى أسرة غنية يدعى پوليفانوف ،
وأحست سونيا انجذاباً نحوه ، ولما قبل يديها ذات مرة لم تغضب ولم تمشئز ،
ولسكنها أحست النشوة تشيع في هيكلها كله وبانت تتوقع وتحلم ...
ولما هم بالرحيل صارحها برغبته في أن يتزوجها ، وجعل لها الخيار أن تعدل
عن رضاها إذا رغبت ، وذلك إذا اضطرت ظروف الحياة أن يغيب عنها ...
وأخذ أهلها هذا على أنه بعض عبث الشباب .

كانت أول زيارة ذات بال من جانب تولستوى لأسرة بيرز سنة ١٨٥٦
وقد أشرنا إلى هذه الزيارة من قبل ، وقد أعدت المائدة له ولمن كان معه من
الضيوف إليزابث أوليزا كما كانت تدعى وأختها سونيا ، وكانتا طفلتين يومئذ
فلاعبهما تولستوى وضاحكهما ، وجلس بعد الطعام يقص عليهما القمص عن
سباستبول وما كان من أبناء الحرب ، وكانتا قد قرأنا « عهد الطفولة » و « عهد
الشباب » وسرهما ما جاء في الكتابين عن جدتها لأمهما وقد كان كما ذكرنا
صديقاً لأبيه ... وأحست البنتان سروراً عظيماً لجلوسهما بين يدي الكاتب النابه
وداخل تولستوى السرور مما أحس في الأسرة كلها من هناءة ، وأعجب بالبنتين

وأختها الصغيرة وما أشعنه حولهن من مسرة ... ولقد أسرعت سونيا بعد رحيله إلى الكرسي الذي كان يجلس عليه فربطت في رجله شريطاً لتعرفه به .
وفي سنة ١٨٦١ بعد عودته من رحلته الثانية إلى أوروبا ، زار تولستوى أسرة بيرز ، فأعجبه ما رأى من تغير البنات فقد غدون آنسات يغشين المجتمعات ويأخذن زيتهن في كل مجتمع ، وتهفو إليهن أفئدة الشباب ...
وتحدث إلى ليزا حديثاً في الأدب والدين وأفاض في الكلام عن مدرسته ، وأوحى إليها أن تكتب شيئاً عن محمد النبي العربي وعن مارتن لوثر ؛ وجلس مع سونيا إلى البيان ، ولعب معها الشطرنج ؛ وعابت تانيا وضاحكها وقص عليها من قصصه ...

ولم يصرفه اهتمامه بمدرسته عن أسرة بيرز فأكثر من زيارتها ، ورفعت الكلفة بينه وبينهم فكان يأتي إليهم في أى وقت وكأنه واحد منهم ، وألفه البنات وألفهن ، وكن يشرن إليه بقولهن « الكونت » وألفه كذلك خدم الدار وبات يحبه ويأنس ببقائه كل من يراه ..

وتحدث الناس أنه عما قريب سوف يخاطب ليزا إلى أهلها ، فقد قيل إنه ذكر لأخته مرة أنه إذا تزوج يوماً ما فستكون عروسه من آل بيرز ...
وبلغ حديث الناس آل بيرز فسرهم ذلك أبلغ السرور ، ففي زعمهم أن ليزا خير من تصلح زوجة للكونت ، وبات الأبوان يرتقبان الخطبة ، وسمعت بذلك ليزا فزادت من عنايتها بمظهرها ، وباتت تحلم أحلام الحب والسعادة وفي نفسها عن « الكونت » أنها قد شغفته حباً ..

ولكن تولستوى كان لا يحس في نفسه أنه يحبها ، فقد جاء في مذكراته في شهر مايو سنة ١٨٦١ قوله « قضيت يوماً بهيجاً عند آل بيرز ، يجب ألا أقدم على زواج ليزا » وقال في سبتمبر « إليزابيث بيرز تقريني ، ولكنى لن أدع ذلك يحدث ، فإن مجرد الإغراء الذي لا يصحبه أى شعور ما غير مجد »
وأحسن أن سونيا تزداد كل يوم قرباً إلى قلبه ، كما كانت تزداد حسناً ؛

وأحست الفتاة زيادة اهتمامه بها ؛ وكان صاحبها بوليفانوف قد غاب عنها غيبة تشبه القطيعة ، وكانت تتوجد أحياناً حتى لتجهش إذا خلت إلى نفسها ؛ ولما رأت إقبال تولستوي عليها أحست مع حسرتها على صاحبها حيرتها من مسلك الكونت وباتت تسأل نفسها أهو حقاً يحبها ، ثم لا تلبث أن ترى أنها واهمة فتذكر بوليفانوف ، ولكنها لا تكاد تلتقي تولستوي حتى تملأ نفسها الحيرة ...

وعرج تولستوي على موسكو في صيف سنة ١٨٦٣ وهو في طريقه إلى سمارة ، فزار آل بيرز ؛ وكانت سونيا يومئذ تميل بخيالها إلى تولستوي ، ولا تكاد تذكر بوليفانوف ، وكان يحس الكونت نحوها أن قد أخذ يمس قلبه الحب .

ولما قص تولستوي علي الأسرة اضطراره إلي بيع قصته قبل أن يتمها أو يهذبا ليؤدي بثمانها دينه بعد خسارته في الميسر ، لم تقو سونيا على حبس دموعها رثاء له وتألماً من مسلكه ؛ ولما رحل عنهم كانت سونيا حزينة تطيل صلواتها فدنت منها « الشيطانة الصغيرة » تاتيانا وسألها في خبث « آتجيبن الكونت ياسونيا ؟ » فأجابت أختها في دهشة « لست أدري ... »

ولما عاد تولستوي من سمارة إلى قريته والغضب ملء نفسه مما فعل الشرطة بداره ومدرسته ، أنساه غضبه زيارة من زوجة بيرز ومعها بناتها في أجمل ملابسهن الصيفية لأخته ماري في يا ستايا بوليانا ...

وشاع في نفسه السرور بهذه الزيارة ، وكانت تراه عمته تاتيانا وأخته ماري وكأنه من فرط مرحه قد عاد إلى سن العشرين ، وباتتا ترتقبان أن يطلب يد ليزا ...

وبلغ من حفاوة تولستوي بالفتيات أن عمل مع الخدم في إعداد سرر نومهن بنفسه ، وكن في الحجرة التي جعلت لمن يؤدين بعض ما يتطلبه هذا الإعداد وكن ضحكن في مرح وغبطة ؛ والتقت عينا تولستوي بعيني سونيا ، وكانت بينهما نظرة طويلة ، وكأنه لم يرها إلا في هذه اللحظة فإن شيئاً يحسه ولا يدري كنهه يسرى في هيكله كله ، وإن عينيها لتحدثانه حديثاً يفهمه حتى كأنه الهمس وإن

عينيه كذلك لتحدثانها بكل ما في نفسه . وصرجت الحجرة وجهها فاستردت نظرتها ولكن بعد أن نفذت إلى قلبه .

وزاره في اليوم التالي صديقه فت وبعض أصحابه فخرجوا مع البنات إلى الغابة وقضوا نهارهم في مسرح كان البنات مبعثة كما كن مبعث ما شاع حولهن من جمال وفتنة

ولما رحلن إلى إفتسى حيث أرادت أمهن أن تزور أباهما في ضيعته التي ورثها من أمها في هذه القرية التي كانت تبعد نحو أربعين ميلا عن ياسنايا ، لم يطق تولستوى الوحشة بعدهن ، فلحق بهن على جواد أبيض ونظرن فإذا به بينهن . وكان القصر في إفتسى حافلا بالضيوف ، وكان عدد من السيدات والآنسات بينهن بنات بيرز يتهيأن للرقص ، ولكن تولستوى كان في شغل بما توسوس به نفسه عما يدور حوله ، وجلس يحدث رب الدار حديثاً كانت تكدره خلجات وجدانه ، فإن كل شيء من مراح الشباب وزياطه يدكره بشبابه الذي ينطوى وروحه التي تحمد ، وإنه ليحس وهو بعد في الرابعة والثلاثين كأن بينه وبين الشباب أمداً بعيداً ...

وجلس غير بعيد يترقب ويغالب ما في نفسه من حسرة ، وجاءته سونيا تمشي على استحياء وقد حان وقت الرقص فقالت : ألا ترقص الآن ؟ فأجابها وهو يخفى همه بابتسامة : إنى اليوم أكبر سنّاً من أن أفعل ذلك . وقد جعل باله في تلك الليلة إلى سونيا ، يدور بعينه إلى حيث تكون ، وكانت سونيا تقابل نظراته بنظراتها وكأنما تقول له إنها تدرك ما في نفسه ، وكان يحمر وجهها في صررة ملحوظة كلما دنت منه .

ولحظت ذلك عينا ليزا فأقلت منها زمام أعصابها وقالت لأختها الصغرى بعد الحفلة وهي تجهش . إن سونيا لتحاول أن تأخذ مني الكونت ... ألم ترى ذلك ؟ إن مسلكها وإن عينها وإن رغبتها في أن تنفرد به ، كل أولئك يبدو الآن جلياً ...

وجلس تولستوى يحدث رب الدار وابنته في إحدى الحجرات ويستعيد ذكريات الماضى ، وانضم البنات إلى أمهن وجدهن ولبنن يستمعن وكانت أمهن تصيح بهن الفينة بعد الفينة ليأوين إلي مضاجعهن ولكن حديث الكونت كان يسحرهن ، حتى تبين الجد في لهجة أمهن قمن مثاقلات لينمن .

وتبعهن تولستوى إلى باب الحجرة ، ثم استوقف سونيا قائلاً إنه يريد أن يفضى إليها بحديث وخفق قلب الفتاة ، ومشت معه إلى منضدة للعب الورق في إحدى الحجرات ، ولندع تاتيانا تقص علينا ما كان بينهما من حديث : قالت « الشيطانة الصغيرة » فى مذكراتها « لقد طلب إلي أن أغنى ولما كان ذلك آخر ما كنت أرغب فيه وقتئذ ، فقد هربت إلى الثوى واختفيت تحت البيان . وبعد دقائق دخل الحجرة تولستوى وسونيا ، وكان يبدو عليهما الاضطراب فى صورة غير عادية ، وجلسا إلى منضدة اللعب . وقالت سونيا : هكذا ترحل غداً ! ولماذا تعجل على هذا النحو؟ إننا سوف نفتقدك ؛ وأجاب تولستوى : إن مارى وحدها وهى تتأهب للسفر إلى الخارج . وسألته سونيا أتسافر معها ؟ وقال الكونت : كلا لقد كنت أرغب فى ذلك ولكنى الآن لا أستطيع . وتراجعت سونيا فلم تسأله لم لا يستطيع فإنها تدرك ما إذا يكون الجواب ، ورأيت فى وجهها ما يشعر أن شيئاً خطيراً يوشك أن يحدث ، ووددت أن أخرج من محببى ولكنى خجلت من ذلك فبقيت ساكنة ... وقالت سونيا : هيا بنا إلى الفناء فإنهم لا بد يبحثون عنا ؛ وقال الكونت : لا .. أرجو منك أن تظلى لحظة ... وكان يكتب شيئاً ما على المنضدة بقطعة من الطباشير ، ثم قال فى صوت متهدج من أثر اضطرابه : أتستطيعين أن تقرأى ما أكتب لك إذا استعملت الحرف الأول من كل كلمة فحسب ؟ وأثبتت فى وجهه نظرة وقالت : أظن أنى أستطيع .. وكتب تولستوى الحروف ، وكأنما أوجى إلى أختى فقرأت : إن شبابك وتطلعك للسعادة يذكرانى تذكيراً قوياً بشيخوختى وباستحالة السعادة على ... وكان يعينها تولستوى بعض العون فى قليل من هذه الكلمات ، وكتب حروفاً غيرها ، وقال لها حاولى مرة ثانية فقرأت : إن فى أسرتك خطأ حول أختك

وحولى ، وينبغي أن تعينيني أنت وتاتيانا »

هذا ما ذكرته تاتيانا ، ونضيف إليه أنها ما كادت تجيب حتى صاحت بها أمها : سونيا إذهبي إلى سريرك . . هل تفعلين ؟ . . وأسرت سونيا إلى مخدعها وبعد بضعة أيام زارت زوجة بيرز وبناتها ياسنايا ثانية لتوديع ماري قبل سفرها ، وكان تولستوى ساكناً يطيل التفكير أثناء هذه الزيارة ، ولما تأهبن للرحيل قال لمن : سوف أذهب معكم إلى موسكو إذ كيف أستطيع أن أبقى هنا دونكم . . إن مقامي هنا يكون من الكآبة والوحشة بحيث لا أطيعه . . ثم سافرن فكان معهن حتى بلغن موسكو . .

وذهب آل بيرز من موسكو إلى بيتن الريفي في قريتهم بوكر وفسكوى ، ووعدهم تولستوى أن يوافيهم إليها بعد قليل .

وعادت إليه في وحدته هواجس نفسه ، كما كانت حاله مع فاليريا وأخذ يسأل نفسه عما يشعر به أهو الحب حقاً أم أنها الرغبة في الحب ؟

وذهب إلى بوكر وفسكوى كما وعد ، وكانت لا تزال تعتقد ليزا أنه يجبها وأنه سوف يخطبها إلى نفسه ، وكانت تتنازع الأحلام والخاوف قلب سونيا . ووجد تولستوى في بوكر وفسكوى معلماً شاباً يدعى پوپوف في الخامسة والثلاثين من عمره يخفي في نفسه نحو سونيا ما يبديه تودده إليها وما يشبه الغزل من حديثه ونظراته ؛ وكانت تحس سونيا ميله إليها فأغرته بعض الإغراء ، ولكن بالها وقلبها كانا إلى الكونت وإن غاب

وفعلت الغيرة فعلها في قلب تولستوى ، فكان كثيراً ما يأتى إلى القرية وكانت على نحو اثني عشر ميلاً من موسكو وكان يؤثر أن يذهب إلى هناك ماشياً في أكثر الأحيان ...

وبات موقفه من الأسرة غريباً فهو لا يتقدم بالخطبة إلى ليزا ، وإنه في الوقت نفسه ليكثر من غشيان بيتهم أينما كانوا كما لو كان واحداً منهم ؛ ولذلك لم يكن عجبا أن يظن الطيب أن جمال امرأته هو الذى يجذب إلى بيته هذا الكونت الغامض ..

وكان لا يفتأ يسأل تولستوى نفسه أما آن له أن يستبطن دخيلة سونيا وأن يدرك حقيقة عقلها ووجدانها ، فإن اختياره زوجة لا تصلح له يعد عنده كارثة لا يكون معها رجاء ...

وسألها هل تكتب مذكرات ، فقالت : لا ولكنني عبرت عن حقيقة شعورى في قصة كتبتها . وألح عليها الكونت أن يقرأها فأبت أول الأمر ثم تظاهرت أمام إصراره أنها تعطيها إياه على كره ... ترى هل كتبت سونيا هذه القصة ليقرأها تولستوى ؟ ذلك ما يكاد يؤدي إلى الجزم به موضوعها ...

كان في القصة رجلان : أولهما البرنس دو بلتسكى ، وهو في منتصف العمر نشط ذكى ، قليل الآراء ، ليس علي قدر كبير من الواجهة ؛ وثانيهما في الثالثة والعشرين ، هادى ساكن يتمسك بكثير من المثل العليا واسمه سميرنوف وكانت بطلة القصة تدعى هيلين وهى فتاة جميلة ذات عينين دجاجوين ساحرتين ؛ وهيلين أختان واحدة أكبر منها تدعى زنايدا وهى فتاة باردة الطبع ، والأخرى أصغر منها وتدعى نتاشا وهى بنت فى الخامسة عشرة ، لعوب مرحة ... وكان يغشى دو بلتسكى بيت الأسرة دون أن تخالجه أفكار الحب ؛ وكان سميرنوف يحب هيلين وكانت تحس ميلانحوه ، وقد اقترح عليها الزواج ولكنها لم تستطع أن تقطع برأى واعترض أهلها على اقتراح كهذا من شاب فى مثل سنه وعدوه بعض عبث الشباب ثم اضطرت ظروف العيش إلى السفر فغاب غيبة طويلة ...

وكانت زنايدا تميل إلى دو بلتسكى ، وكان يكثر غشيان البيت ولكنها ظلت فى حيرة من أمره كما كانت هيلين فى حيرة من أمر شعورها لا تدري ماذا تريد ، ولا تستطيع أن تقول حتى لنفسها إنها أوشكت أن تحب دو بلتسكى ؛ وكان يؤلمها أنها ربما كانت تخدعه وتخدع أختها ؛ وطالما حاولت أن تغالب عواطفها ولكن تلك العواطف كانت تغلبها ؛ وظهر من دو بلتسكى أنه

يحبها أكثر مما يحب أختها وذلك ما جعله يبدو في نظرها أكثر مما كان جذاباً لها ؛ ولكنها لم تفهم حقيقة شعوره وكان يتبعها ويضايقها غموضه وانطواؤه على نفسه ...

وعاد سميرنوف ، ولم تطق هيلين أن ترى ما يظهر من تألم إذ شعر أنها تحب دوبلتسكي ، فاعتزمت أن تدخل الدير ؛ ثم إنها احتالت حتى قربت بين دوبلتسكي وأختها زنايدا ، وزفت هي بعد ذلك إلى سميرنوف ...

سهر تولستوي حتى قرأ القصة ولقد وقف عند أشياء فيها ومن أهمها ما وصف به دوبلتسكي من بعد عن الوجهة ومن غموض في الفكر ... أهذه صورته في نفس سوفيا ؟ لقد طالما كانت هيئته مبعث ألم لنفسه وهو صغير فهل يتجدد اليوم ألمه وهو في الرابعة والثلاثين ؟ .. ذلك ما تحدثه به نفسه وإنه ليسمى نفسه بعد قراءة القصة دوبلتسكي !

وما هذه الخاتمة التي اختارتها لقصتها ؟ أتصرف عن دوبلتسكي فتزوج سميرنوف ؟ أتريد بذلك إغراءه وإخراجه من تردده ، أم أنها تؤثر عليه سميرنوف ؟ ومن يكون سميرنوف هذا ؟ أهو بويوف الذي تطارحه الحديث وتظهر له الود ، أم هو ذلك الضابط الشاب بوليفانوف ؟ وهل تعمل سوفيا على التقريب بينه وبين أختها ليزا ؟

ألا تحب سوفيا هيئته فهي لذلك غير واثقة من أنها تحبه ؟ يا لها من حيرة ! لقد كتب في مذكراته في الثامن والعشرين من أغسطس سنة ١٨٦٢ بعد قراءة القصة بيومين يقول « أيها الوجه القبيح ! لا تحلم بالزواج ... إنك لست أهلاً لهذا وإن أهليتك لمن نوع آخر ، وإنه لكثير ما منحته منها » .

وعلى الرغم من ذلك ذهب إلى الضيعة في اليوم التالي ، ولما رجع أثبت في مذكراته قوله « لا شيء من حب كما سلف ولا من غيرة حتى ولا من ندم ، ولكنني لا أجد مثلاً لحالتي وذلك ما يجعلها حلوة ... كانت ليلة لذيذة وكانت العواطف رقيقة سارة ... إن بويوف في غاية الذكاء وفي غاية الرقة » .



تولستوی قبیل زواجه

obeykandl.com

وكتب في مساء اليوم التالي يقول « لست أغار قط من يوفوف إذ يتحدث إلى سونيا ، ولا أستطيع أن أصدق أن يكون ذلك حقيقة حالي ... إنها كذلك تتكلم في حزن وهدوء ... أيها الأحق إنك غير أهل لها ... لقد قضيت الليلة معهم ... لم أنم ... إنها هي أبداً ... »

وعادت الأسرة إلى موسكو فكان يزورها كل يوم ، وما زال أهل الدار ماعدا صوفيا وتاتيانا يعتقدون أن الكونت يتجه بقلبه إلى ليزا ...

وظل على هذه الحال أسبوعين بعد ذلك لا يقطع زيارته ولا يجمع عزمه على رأي ؛ ولقد جاء في مذكراته في السابع من سبتمبر قوله « لقد بقيت يومين بالبيت أفكر على انفراد في أمري ... لا تدفع نفسك يا دوبلتسكي حيث الشباب والجمال والشعر والحب ، فإن لهذه أيها الشيخ من هم أصغر منك ؛ إن موضعك في صومعة من صوامع العمل حيث تطلع من عزلتك في سرور وهدوء على سعادة الآخرين وحبهم ... لقد عشت في هذه الصومعة وسأعود إليها » وأثبت بعد ذلك بيومين قوله « أي دوبلتسكي لا تحلم .. لقد كتبت لها كتاباً لن أرسله . لم أستطع أن أنام لمدة ثلاث ساعات ؛ لقد حملت وعذبت نفسي كما يفعل غلام في السادسة عشرة » وقال في اليوم التالي « إنني أشعر بالحب أكثر من أي يوم سلف ... وإن الأمل لا يزال في أعماق نفسي ، يجب أن أحل هذه المعضلة ... لقد بدأت أكره ليزا وإن كنت أرثي لها .. أعني يا إلهي وأرشدني .. إن أمامي ليلة طويلة فارغة أفضيها ، ذلك يؤلمني أنا الذي طالما ضحكت من آلام المحبين ! كم ذارسمت من خطة كي أصرح لها ولتانيا ولكل امرئ ولكن عبثاً حاولت .. لقد أخذت أزدري ليزا من كل قلبي »

كان مرد هذه الحيرة الشديدة إلى أنه يخشى ألا يكون ما يحسه نحوها حباً كما يكون الحب ؛ كان يخاف من نفسه على حد تعبيره ، ويزيده خوفاً أنه كلما تدسس إلى شعورها ليتبين ما إذا كانت بها عيوب وجد نفسه منجذباً إليها ...

وفي الثاني عشر من سبتمبر كتب في مذكراته « إننى أحب اليوم على صورة لم أكن أصدقها من قبل .. لقد بلغ بي الجنون أنى أخشى أن أقتل نفسي إذا لبثت على هذه الحال ... لقد قضيت المساء عندهم ؛ لقد بدت لى بهيجة ، ولكننى دو بلتسكى القبيح .. يجب أن آخذ أهبتى وشيكاً . لا أستطيع النكوص الآن ، ولوأنى دو بلتسكى إلا أن الحب غيرنى .. لقد سنحت لى فرص ولكنى لم أغتمها .. معنى الخوف ، ولكن كان على أن أتكلم فى بساطة .. إني أحب أن أعود إليهم فأذكر كل شيء أمامهم جميعاً »

وفي اليوم التالى كتب يقول « لقد سطرت كتاباً سوف أرسله إليها فى غد .. قونى يا إلهي .. ما أشد خوفى من أن أموت ، فإن مثل هذه السعادة تبدو لى مستحيلة .. رب أعنى وأرشدنى »

وقال بعد ذلك بيوم « لم أنم إلا ساعة ونصف ساعة ، ولكنى على الرغم من ذلك منتعش ، جد مهتاج » وفى اليوم التالى كتب يقول « أخفقت فلم أحدثها ولكنى قلت لها إن لدى شيئاً أحب أن أحدثها عنه »

وذهب تولستوى فى مساء السادس عشر إلى آل بيرز وفى جيبه الكتاب الذى أعده والذى لبث فى جيبه ثلاثة أيام ، وألنى سوفيا جالسة إلى البيان ، فجلس إلى جانبها ، والانفعال ملء نفسه وبدنه ، وأحست انفعاله فسرى إليها قدر عظيم منه فتشاغلت بدور كانت تلعبه قبل مجيئه . ودخلت تانيا فطلبت إليها أختها أن تقضى تريد بذلك أن تخفى ما فى الموقف من اضطراب .. وغنت تانيا تانيا فى صوتها الرائق الحلو ، وناداهما تولستوى باسم مغنية كبيرة هى مدام فياردو إعجاباً بها ، ثم قال لنفسه إذا ختمت تانيا لحنها خاتمة جيدة فسوف يعطى سوفيا ذلك الكتاب ؛ وكانت تانيا موقفة كل التوفيق إذ ختمت لحنها ، وانسحبت «الشيطانة الصغيرة» فى لباقة وقد أحست أنها اللحظة الحاسمة ، وما كادت تغادر الحجره حتى مد تولستوى يده بالكتاب إلى سونيا قائلاً إنه ينتظر ردها ، وتناولته سوفيا بيد مرتجفة ، وخرجت به فأسرعت إلى حجرتها وأرصدت الباب وراءها وجلست

تقرأ .. « أنى سوفيا .. أصبح الأمر لا يطاق ؛ لقد ظلت أقول لنفسي طيلة ثلاثة أسابيع سأبوح لها الآن ، ومع ذلك كنت أخرج كل مرة وفي نفسي مزيج من الحزن والأسف والرعب والسعادة ! وكنت أنظر كل ليلة نظرة إلى الماضي فأسخط على نفسي أن لم أبح لك وأسأل نفسي ماذا عساي كنت أقول لو أنى تكلمت .. لقد طننت أنى أستطيع أن أحبكم جميعاً كما أحب الأطفال ، وكنت في إقتسى لا زلت أستطيع أن أقطع ما بينى وبينكم وأعود إلى خلوتى ، إلى عملى الذى يشغل وقتى كله .. ولكنى الآن لا أستطيع شيئاً . أشعر أنى أحدثت فى بيتكم شيئاً من الاضطراب وأن صداقتكم لى كما تصادقون رجلاً شريفاً قد لحقتها بعض الشوائب ، ولذلك لا أستطيع البقاء كما لا أستطيع الانطلاق .. وإنى أحمل هذا الكتاب معى وسوف أقدمه إليك إذا لم أجد فى نفسى من الشجاعة ما أبوح لك معه بكل شىء .. وإنى أعتقد أن أسرتك تنظر إلى نظرة خاطئه إذ تحسب أنى أحب أختك إليزابث وليس هذا بحق ، فإن قصتك لا تبرح عقلى قط ، وذلك لأنى بعد أن قرأتها أصبحت أعتقد أنه غير خليق بى ، أنا دو بلتسكى ، أن أحلم بالسعادة ؛ لقد كتبت لك ونحن فى اقتسى أقول إن شبابك ومرحك يذكراى فى صورة قوية بتقدمى فى السن وباستحالة السعادة على ... ولكنى حينذاك كنت أكذب على نفسي ولا زال هذا حالى ؛ إنك فتاة أمينة صريحة ، فدلبنى ويدك على قلبك دون أن تتعجلى — وإنى أناشدك الله ألا تتعجلى — ماذا عسى أن أفعل ؟ لو أنى علمت منذ شهر أنى سوف ألقى مثل هذا الألم السار الذى عانته طيلة هذا الشهر لضحككت حتى يقتلنى الضحك . نبئينى بكل ما فى نفسك من إخلاص : أتكونين زوجة لى ؟ إذا كنت تستطيعين أن تقولى : نعم ... وأن تقولبها من أعماق نفسك ، فقوليها ، ولكن إذا كنت تحسبن أذنى شك فقولى : لا .. نشدتك الله أن تفكرى مليا فى الأمر ، وإنى لأمتلىء رعباً كلما فكرت فى قولك لا ، ولكنى أوطن النفس على تحمل ذلك وسوف أقوى على تحمله ؛ بيد أنه من الأمور المفجعة ألا تحببى من تكون لى زوجة بقدر ما أحبها »

وسمعت سونيا دقات عنيفة على الباب ، وصوتا هو صوت أختها ليزا يناديها في إلحاح أن تفتح ففتحت فقالت أختها : ماذا كتب لك الكونت ؟ ... نبئيني ... ووقفت سونيا جامدة والكتاب في يدها فقالت ليزا صائحة : أخبريني الساعة ماذا كتب لك الكونت فقالت سونيا في عبارة فرنسية : إنه طلب يدي فأجهشت أختها قائلة : أرفضه .. أرفضه من فورك !! ..

ودخلت أمها فعملت في لباقة على أن تبعد بين الأختين فتخرج بهما من هذا الموقف الكريه وكان الكونت إذ ذاك في الثوى ينتظر ، والقلق ملء نفسه ، ويداه خلف ظهره وقد استند إلى الموقد وفي وجهه صفرة لم يعرف مثلها من قبل ، وأرهف سمعه إلى وقع أقدام خفيفة وإن قلبه ليثب بين ضلوعه ودخلت سونيا فنظرت إليه قائلة : نعم ... ثم ولت مدبرة ...

وتقدمت ليزا فهنأت أختها ، ثم مشت إلى الكونت فهنأته وقبلته في كثير من الكرم والنبيل ؛ وجاءت الأم فهنأت سوفيا وفي نفسها من السرور بقدر ما فيها من الشفقة على ليزا .

وكان رب الدار قد مسته وعكة من قبل فتذرع بها وتردد فلم يهنئ الكونت ولم يبد ارتياحه لأنه كان يحسبه يجب ليزا ، وأظهر الطيب الشيخ كثيراً من الرثاء لابنته ، ولكن ليزا نفسها ما زالت به تستحلفه والدموع في عينيها ألا يغضب أختها ، حتى اطمأن فؤاده فذهب إلى تولستوى وصاحفه مهنتاً

وتصادف أن كان اليوم التالي يوم ميلاد الأم ، وكانت دار الطيب يبرز ملائ بالضيوف فأعلنت الخطبة وأقبل الضيوف على العروسين مهئين .. وغابت ليزا عن الموائد متوارية من القوم ، الأمر الذي تألم له قلب تولستوى على الرغم مما كان يفيض به من فرح ، ولقد تحدث بهذا إلى عروسه ، وهو الذي لا يحب منذ طفولته أن يؤلم أحداً ..

تولستوى الزوج

كان تولستوى يستعجل يوم الزفاف ، لا يرضى بتأجيلهما كانت، المعاذير ، ولا يكاد من فرط سروره يصدق ما هو فيه من سعادة .

ولكن نفسه لا تفتأ تحدته في خلوتها أحاديث ما أعجبها وما أبعدها عما كان فيه ؛ إن ما ضيه يؤذيه فهو ليس نقي الصفحة كعروسه ، وإنه لا يستطيع أن يمحو ذلك الماضي ، وإذا لم يكن ذلك في وسعه بالضرورة فلا أقل من يطلع زوجته على ذلك التاريخ كيلا يكون إخفاؤه عنها نوعا من التدليس عليها ، ودفع إليها مذكراته لتقرأها ...

وأكبت الفتاة عليها ليلة فقرأتها ، وكم عظمت دهشتها لما رأت ، وكم كان الفرق عظيما بين صورة تولستوى في نفسها وحسها وبين تلك الصورة التي ترسمها مذكراته ؛ وكم تأثرت الفتاة وبكت وأحست كأنما يوشك أن يطغى على حبا إياه ما تشعر به مما يشبه الخيبة ...

وجاءها تولستوى في الصباح فسألها الصبح والمغفرة ، فسرعان ما أجابته إلى طلبه ، وفي عينيها الدمع ، فنظر إليها لا يدرى ماذا يقول ، ثم إنه بكى من فرط تأثره كما بكت ...

وعادت نفسه توسوس إليه ، وما أعجب حاله يومئذ ! أهى تحبه حقاً أم أنها أسرعت فقبلت يده وهي تخاذع نفسها ؟ وماذا يكون الحال لو كان الأمر كله خطأ ؟ وكتب في مذكراته ما يشعر به « من غيرة فيما يتصل بعلاقاتها الماضية ، ومن شك في محبتها إياه ، ومن خوف من أنها ربما كانت قد خدعت نفسها » ولقد بلغ به الأمر أنه بكر في صباح يوم الزفاف فلقينها مخالفاً بذلك ما جرى به العرف وما زال يسمعها من هواجسه حتى أبكاه ، وحتى دخلت أملا عليها فألحت عليه في حدة أن يتعد عنها !

أراد تولستوى أن يقضى وعروسه شهر العسل فى ياسنايا ، فركبا عربة نعمة إلى هناك كانت تجرها ستة من الجياد ، ولقيتهما العمّة تاتيانا فرحة مرحبة وفى يدها تيممة هى تمثال العذراء ، كما لقيها سيرجى مستبشراً وفى يده الخبز والملح .

ونزل تولستوى وعروسه بأحد الجناحين الباقين من القصر الكبير بعد بيع جانبه الأكبر الذى ولد فيه ... وكانت تشغل الجناح الثانى مدرسته .

وكانت زوجته قد صورت لنفسها ما عسى أن تجد فى قصره من غالى الأثاث ، فلما رأت متاعه عجبت لبساطته بالقياس إلى ما تخلّيت ، وأدهشها أن وجدت حجرات النوم بغير بسط وأن رأت زوجها يتوسد وسادة من الجلد الروسى الأحمر أخلق بها أن توضع على مقعد ، ولا يريد أن يتخذ غيرها ؛ وأن وجدت الحديقة مهملة لازهر فيها ، وإنما تنمو فيها الحشائش الطويلة التى يلقى الخدم وراءها القمامة .

ولست الكونتس بساطته فى كل شيء ، وعزوفه عن الترف وعن أهبة المظهر ولقد يكره الفرش الوثير أحياناً فينام على دكة من الجلد ؛ وإنه لياً كل من الطعام ما يفتق له ، لا يطلب شيئاً ولا تشتهى نفسه ألواناً مختلفات ؛ وإنه ليلبس فى القرية كما يلبس أهلها كأنه واحد منهم ، وقلما ارتدى هناك حلة من حله التى يرتديها فى المدينة .

والتخذت الكونتس سمرة ربة الدار فى لباقة وجدارة أعجب بهما زوجها ؛ وأخذت تعنى بكل شيء وتعين زوجها فى شؤونه جميعاً ، حتى مدرسته ، فكانت تزورها وتساعد التلاميذ على فهم دروسهم ، وحتى حظائره فكانت تراقب حلب الأبقار فيها وترى ما إذا كان يعنى الخدم بإطعامها وسقايتها ...

وكتبت إلى أختها تاتيانا تنبئها بما هى فيه من سعادة ، وتثنى على كل من فى القصر ، وتقول عن زوجها إنه يحبها حباً بلغ من القوة حداً تخجل وتفزع منه لأنها لا تقبين له سبباً !

ولكم عبر زوجها عن مبلغ حبه إياها فى مذكراته وفى كتبه إلى ابنة عمه الكونتس الكسندرا تولستوى .

كانت أول كلمة أثبتها تولستوى في مذكراته بعد مجيئه وعروسه إلى ياسنايا
قوله « حظ من السعادة لا يصدق ... لست أستطيع أن أصدق أن مثل هذه
السعادة تبقى ما بقيت الحياة » .

والحق أن سماءها لم تخل مما يكدر صفوها من أول الأمر ، فلقد كان بينهما
على الرغم من توفد حبهما غير قليل من بواعث الخلاف والشقاق .

كان كل من الزوجين شديد الغيرة بطبعه ، فهو يفسر كل حركة منها وكل
سكون بما تمليه عليه غيرته ، وهي لا تنظر إلى عمل من أعماله أو كلمة من كلماته
أو حال من حالته النفسية إلا وقد وسوست إليها نفسها وساوس الغيرة .

ولقد رأينا كيف فاجأها صباح يوم الزفاف بهواجسه ، الأمر الذى يعد عجباً
لولا أن مرده إلى غيرته ؛ ولم يخل قلبها من هواجس ذلك الصباح نفسه ، فقد
حدث أن نسي الخادم أن يعد له قيصاً جديداً فتأخر عن الموعد المحدد ، ريثما
ذهب الخادم ففتح حقايبه في بيت العروس وعاد إليه بالقميص المطلوب ؛ فظنت
عروسه أنه فر إلى غير عودة وضاعت بها الدنيا !..

كتبت في مذكراتها بعد ثمانية عشر يوماً من زفافهما تقول « إن ماضي
زوجي كله محيف حتى إننى لا أعتقد أنى سوف أقبله ... وإنه لما يدعو إلى اليأس
أن أحاول أن أثبت حبي لرجل يظهر منه أنه يظن أنه تزوجنى على الرغم من نفسه
دون أن تحبه زوجته ... إنه لا يدعنى أقرب منه وهذا محزن ... إن المسائل الجثمانية
تؤدى به إلى الاشمئزاز ؛ لم يكن يقدر أحد غيرى أن يفهم أنه انجذب إلى دون أن
يحبى ، ولم لم أدرك وقتئذ أنه سوف يدفع ثمناً يفدحه ؟ ... لماذا حطمت شخصاً
كل امرء يحبه ؟ إنى أرغب أن أحبه ولكنى لا أستطيع ، وإذا غاب عنى
أو انشغل بعمله فكرت فيه دائماً واستمعت إلى وقع خطاه ، فإذا جاء لبثت أنظر
فى وجهه ... وإنه ليغضب كلما أخبرته أنى لا أحب أن أترك وحدي » .

وقالت فى موضع آخر : « إن زوجى مريض ، معتل المزاج وليس يحبى ..
إنه يفتر يوماً بعد يوم فى حين أنى أزداد له حباً وإنه يعتقد أنى لا أحبه » .

وأرادها زوجها مرة على أن تكتب لابنة عمه ألكسندرا فرفضت ، ولكنه ما زال بها حتى كتبت إليها فكان كتابها فاتراً مقتضباً ، الأمر الذي كدره وأغضبه ...

ولما زار موسكو في شهر ديسمبر ، كانت تكره أن تزور من كانت بينه وبينه مودة وبخاصة ألكسندرا أو بلنسكي ؛ ولقد تأخر ذات ليلة عن الموعد الذي حدده للعودة إلى زوجته فأحزنها ذلك ، ولقيته بفيض من الدمع وبعاصفة من القول ، وكلفه ذلك عناء شديداً ليقنعها أنه كان في بيت صديق له حيث التقى بأحد الديسمبريين فأخذ يجمع منه المعلومات لقصة يريد أن يكتبها عن ذلك العهد .. وكان يؤلمها في القرية انشغاله بمجلته ومدرسته ومن فيها ، وكانت تدعو المدرسين والتلاميذ قومه ، كتبت عن ذلك تقول « إني أشمئز من قومه وإني أشعر أن عليه أن يختار بيني وبين قومه المحبوبين » .

وكانت لا تفتأ تنظر في مذكراته ، ولا زالت علاقته القديمة بأكسنيا ، تلك المرأة القروية ، تلهبها غيرة ، ولقد بلغ من غيرتها أنها كانت ترتدي ملابس القرويات أحياناً ، وتمشي في طرقات القرية لترى ما إذا كان زوجها يغازلها على أنها أكسنيا أو غيرها من القرويات ؛ ولقد كتبت ذات مرة بعد قراءتها صفحات من مذكراته « إني سوف أقتل نفسي يوماً ما بدافع الغيرة » وكانت لا تبرح ذهنها قط تلك الكلمة التي قالها تولستوى عن أكسنيا « إنه لم يستغرق في الحب مثل هذا الاستغراق من قبل » .

وكانت كذلك تغار من قصصه وما جاء فيها عن الحب ؛ كتبت تصف شعورها « لقد قرأت أوائل بعض كتبه ، وكنت أشمئز وأضيق كلما قرأت له شيئاً عن الحب وعن النساء ، حتى لأرغب أن أحرق جميع ما كتب ، ولن أحس مبالاة بكتبه فإن الغيرة تجعلني أنانية مخيفة » .

ولم يكن زوجها أقل غيرة منها ؛ كتب في أوائل سنة ١٧٦٣ يقول « إن مجيء بوليفانوف أمر يكدرني ؛ يجب أن أوطن نفسي على تحمل ذلك بقدر ما أستطيع ...

لقد أخذت تضيق بي؛ أكاد أقطع بذلك؛ وإن الشيء الذى فيه نجاتي هو ألا تتجه إلى محبة شخص غيرى... إنها تقول عن الغيرة: يجب أن يكون لدى المرء احترام.. يجب أن يكون لدى المرء ثقة، إلى مثل ذلك - كلمات لا غير، إن ذلك يخيفنى». وذكرت الكونتس لأختها ذات مرة أنها بينما كانت تتحدث إلى أحد المعلمين، إذ تكره لها زوجها وتهكم عليهما من فرط غيبرته ثم عقبته بقولها «يفار من ذلك المعلم؟ سبحان الله!... إني لم أكن أتوقع ذلك قط فإن هؤلاء المعلمين ذوو احتشام».

وثمة أسباب خلاف الغيرة، كانت تعكر صفوها على شدة محبة كل منهما وزوجه، ومن ذلك بعد ما بين عقله وعقلها، فهو أحد ذوي العبقرية، يتعلق قلبه بالمثل العليا، ويمد خياله الشاعر غاية مده، ويتسع أفق ثقافته يوماً بعد يوم؛ وهى وإن كانت امرأة ذات فطنة إلا أنها لا تعد شيئاً بالقياس إليه...

وهناك الفرق بينهما فى السن والتجارب فهو فى الرابعة والثلاثين وهى فى الثامنة عشرة، ولا عجب مع ذلك أن تختلف نظراتهما حتى إلى الأمور العادية. هذا إلى ما يفرضه عليه سنه من وقار واحتشام، بينما يميل بها سنها إلى المرح واللعب. قالت فى صدد ذلك «إنه يبدو شيخاً هادئاً جاداً، وأنا أميل إلى أن أفعل شيئاً يظهر فيه ولوعى وتحمسى... ولكن مع من أفعل ذلك؟».

وفى طبيعة الكونتس إلى جانب الغيرة ميل إلى التملك والسيطرة، تشاركها فيه كل أنثى ولكنه كان فيها شديداً لا يقف عند حد، كتبت بعد زواجها بأربعة أشهر تقول «تعتزىنى بعض الأحيان رغبة سخيفة لاشعورية فى أن أقبس مبلغ قوتى حياله ومدى سيطرتى عليه، وإنها فى الواقع مجرد رغبتى فى أن أراه يطيعنى، ولكنى أجده دائماً أقوى منى، وعلى ذلك تذهب رغبتى فى أن أفرض نفسى عليه...».

وكانت تحب الكونتس أن يكون وقت زوجها فى البيت كله لها، ولكنه بحكم عمله ينصرف إلى كتبه ودفاته.

وكانت تكدر نفسها حياة القرية وخلوها مما ألفتها من مباحج المدينة وزينتها ومجتمعاتها وصالواتها ، كما كانت وحشة البيت الذي تقيم فيه تملأ نفسها ضيقاً ، فليست تجد فيه إلا العمة تاتيانا وهي عجوز في السادسة والسبعين ، وتاليا بتروفنا وهي إحدى رفيقاتها ، واسم يذكرها ذلك بصحبة أختها وإخوتها وأما وأبيها ، وما كان في بيت أبيها من حياة ...

ولما حملت أول حمل ازدادت عواطفها اضطراباً ، وازدادت وساوس نفسها من الغيرة والشك . ومن عجب الأمور أنه كذلك كانت تطوف برأسه أوهاام لا تقل غرابة عن أوهاامها إن لم تزد ؛ تجد مثلاً لذلك في قوله « إني أحس في حضورها عاطفة من اللذلة لم أذق مثلها منذ أمد بعيد ، فقد بلغت من الطهر والعفة حدا لا يعبر عنه كلام ، وفي مثل تلك اللحظات أشعر أني لا أملكها ، لا ولا أجرؤ على ذلك لأنني لا أستحقها ، وذلك يثير مخاوفي ، بل هو ما ينتص سعادتي ... إن شيئاً ما يعذبني وإني لأغار من ذلك الذي لو خلق كان يستحقها كل الاستحقاق » وكان يضايقه أنه لا يستطيع أن يكتب في مذكراته كل ما يريد أن يقول كما كان يفعل من قبل خشية أن تقع عينها على ما لا يجب أن تقرأ ... وكان يتذكر أحياناً ما كان فيه وهو أعزب من انطلاق وشعر وتأمل وتنقل بين الناس ، واستمتاع بالحياة كما يشاء هواه ، فتكتئب نفسه ، وأكثر ما كان يذكر ذلك إذا وجد زوجته غاضبة أو شاكية .

ولكن ليس معنى ذلك كله أنهما لم يكونا حبيبين ولم يكونا سعيدين ، فإن في مذكرتهما ما ينطق بأقوى الحب بينهما ، وما كانت هذه الغيرة الشديدة منهما إلا وليدة ذلك الحب ، وإن كتبه إلى ابنة عمه الكسندرا وإلى صاحبه فت لتفيض بوصف ما كان يتعم به من سعادة الحب ؛ وما كانت تلك السحب في سمائهما إلا سحب صيف لا تلبث أن تبددها حرارة ما بينهما من حب ، وإنما ساء منظر هاتيك السحب ، لأنه ليس أكدر ولا أبيض من السحاب يشوب سماء صافية في غير زمن السحب ...

كان يقيم تولستوي وزوجته في ياسنايا كأن لم تكن لهما بحياة المدن صلة ؛ وقد جعل كثيراً من همهم إلى ضيعته يتمهدها بالإصلاح ، فعنى بتربية الدواب من خيل وأبقار وضأن وخنازير ، كما عنى بتربية النحل في خلايا أعدها له ؛ وأخذ يزرع الحدائق وينشيء الغابات ؛ وهو في أعماله هذه شديد الدأب ، جم النشاط ، يظن من يراه أنه رجل خلق للقرية وأعمال القرية فليس له بغير الفلاحة صلة ما . ولكن أعماله تلك على كثرتها لم تصرفه عن مهنته الحقيقية ، فهو كاتب قبل كل شيء وفوق كل شيء ، وإنه لعبقري فنان ، كان الفن أصل طبيعته وجوهر نفسه ، حتى لو حاول بكل ما في وسعه أن ينصرف عنه ما استطاع ، فكان لا بد إذا لهذه الطاقة الفنية من متنفس ، فهي قوام وعيه الباطن ، وهي مبعث تفكيره وفلسفته جميعا ...

نشرت في يناير سنة ١٨٦٣ قصته « أهل القوقاز » ونشرت في فبراير أقصوصته « بوليكوشكا » وسرعان ما أحييت القصتان صديته في دنيا الأدب والفن ، وذكر الناس بهما قصصه الأولى ؛ وتلقى المؤلف رسائل الإعجاب من أصحابه ، ومن مئات غيرهم ممن لا يعرف من الناس ، وامتلات المجلات بالحديث عنه وعن قصتيه ؛ ولقد أعجب النقد بهما في غير تحفظ ، وقد أشرنا فيما سلف إلى ما ذكره ترجميف بعد قراءته « بوليكوشكا » تلك القصة التي تصف حال رقيق الأرض ، فلقد « بعثت الرعشة في ظهره علي الرغم مما فعلت الأيام بظهره من سمك وغلظ » ولم يقل تحمسه للقصة الأخرى « أهل القوقاز » فقد كان كلما قرأها رأى أنها ليست آية تولستوي فحسب بل آية الأدب القصصي الروسي كله كما ذكر في فرنسا بعد نشرها بعشر سنوات ؛ والحق أن هذه القصة التي ظل تولستوي يعيد النظر فيها سنوات عشر ، تعد خيرا ما كتب في فترة إنتاجه الأولى ، أي الفترة السابقة لقصتيه العظيمتين « الحرب والسلام » و « أنا كارينينا » .

وكان أول ما كتبه تولستوي بعد زواجه أقصوصة سماها « قصة حصان » ، ولكنها لم تنشر إلا في سنة ١٨٨٨ ثم اتجه إلى التأليف المسرحي فكتب

مسرحية تدعى « نهلست » وقد مثلت في ياسنايا وأعقبها بأخرى سماها « الأسرة التي مستها العدوى » ؛ ولكن المسرح في موسكو لم يقبلها إذ قال له أوستروفسكي إن موضوعها أسى من الذوق العام ، ولقد أدى ذلك إلى فتور حماسه وقتئذ للمسرحيات ...

* * *

وأهل تولستوى مدرسته وانقطعت مجلته فلم تعد تظهر ؛ وفي شهر يونيو سنة ١٨٦٣ رزق بسلام هو أول أبنائه وقد سماه سيرجي ؛ وأحسن تولستوى السعادة بغير جوانب نفسه ، والأنس يملأ بيته ، وكان هذا الصيف بهيجاً كثرت فيه زيارة الأصدقاء وذوى القربى ، لياسنايا ، وكانت تانيا تونس أختها بأحاديثها ومرحها ؛ واحتفل تولستوى احتفالاً رائعاً بيوم ميلاد زوجته فأولم وليمة كبرى في شرفة البيت ودعا إليها الصحاب والأهل فسرت بذلك زوجته الشابة سرورا عظيما وزادت عناية تولستوى بضيعته ، وكانت تعينه زوجته في تدير شؤونه المالية ، وفي غيرها مما تسعها طاقتها .

وقد حدث أن امتنع الفلاحون في الضيعة لأمر ما عن العمل ، وخيف على العلف أن يتلفه تغير الفصل إذا ترك فلم يجفف ، فشر الكونت وزوجته ومن زارهم من الصحاب وانضم إليهم معلمو إحدى عشرة مدرسة قريبة ، وأدوا هذا العمل بأيديهم في نشاط وغبطة !

وفي هذا الصيف اعتزم تولستوى أن يكتب قصته الكبرى « الحرب والسلام » ولموضوع هذه القصة وكيف أتجه إليها حديث سوف نأتي به على سرده ...
وقد كتب تولستوى إلى ابنة عمه ألكسندرا ، يصف لها هناءته واستقراره ويقول « واليوم فأني مؤلف بكل ما في روحي من عاطفة وقوة ، فأني أكتب وأتأمل علي نحو لم أعرف مثله من قبل » .

وقضى تولستوى نحو ست سنوات في كتابة قصته الكبرى ؛ وكانت زوجته تعينه أحسن العون في نقل ما يكتب ومراجعته ، وذلك على الرغم من انشغالها

بأطفالها وتعليمهم ومراقبة نفاقتهم والسهر عليهم ؛ وكانت تجد لذة عظيمة في معاونة زوجها ، وتستشعر كثيراً من الغبطة إذ تجد نفسها زوجة مؤلف ذهب له صيت عظيم لا في روسيا فحسب بل في أوروبا كذلك ، وإذ تجد أنها تعين هذا المؤلف العظيم في عمله العظيم .

وحدث أنه سقط من فوق حصانه أثناء الصيد سنة ١٨٦٤ فكسرت إحدى ذراعيه وأجريت له جراحة في موسكو حيث أقام عند آل بيرز ، وكانت تانيا تعنى به ؛ وقد طالما افتخرت بعد ذلك أنه أملى عليها بعض صفحات من قصته العظيمة ...

ولقد ارتاعت زوجته للحادث وأثار هواجسها ، وصارت تتخيل حالها وحال أطفالها لو أنه مات فتمتليء رعباً وجزعاً ...

وكان يبذل تولستوى جهداً كبيراً في هذا العمل الفني العظيم ، فقد أربت قصته على الألف صفحة وكان يكتب أحياناً في يسر وسرعة ، وكانت تشق عليه الكتابة أحياناً حتى لقد شبهها ذات يوم بالحمل والوضع من فرط ما كان يعانيه ... وكان إذا كتب فصلاً أعجبه ، في بيته أو في كوخه الصيفي الذي أقامه في مدخل غابة قريبة ، بدى عليه السرور ، ولاحظت عليه زوجته أمارات الرضاء والغبطة ؛ أما إذا التوت عليه سبل الفكر أو شعر أنه لم يرض عما كتب ، فإنه إذا كان يبدو غضوباً عنيفاً ، ولقد يسرف في ذلك فلا يملك زمام نفسه ... دخلت عليه زوجته ذات مرة وهو في إحدى هذه الحالات ، فأغلظ لها في القول ثم تناول صينية بما عليها من الأقداح وقذفها على الأرض صارخاً مهتاجاً ...

ولكنه على الرغم من ذلك كان يذوق طعم السعادة حقاً ... كتب إلى ابنة عمه يقول « أتذكرين إذ كتبت إليك مرة أن من الخطأ أن يأمل الناس في سعادة تامة لا يشوبها ألم أو خداع ؟ إنى لم أكن مصيباً فيما قلت فإن هذه السعادة ممكنة ، وليس الأمر أمر إمكانها فحسب بل إنى أتمتع بها في سنتي الثالثة وكلما مرت الأيام جعلتها أعمق وأقوى » .

وكتبت زوجته في نوفمبر سنة ١٨٦٦ تقول « إني أقضى وقتاً طويلاً في نقل قصة ليو ... وفي هذا العمل سرور عظيم لنفسي ، وإني إذ أنقلها أعيش في دنيا من الآراء والمؤثرات ، وليس من شيء يؤثر في كما تؤثر آراؤه وعقريته » .

وكتبت بعد شهرين « لقد ظل ليو يكتب طول الشتاء وإنه لمحتاج منفعل تمتلىء عيناه أحياناً بالدموع وإني أعتقد أن قصته سوف تكون أعجوبة ، وإن الذي يتلوه على منها ليملاً بالدمع مقلتي ... » .

علي أن زوجته ظلت طوال هذه السنوات الست تعذب الغيرة نفسها ، وتكدر عليها صفو عيشتها زوجة لهذا الكاتب العظيم ؛ كتبت في مذكراتها سنة ١٨٦٥ تقول « إني لا زلت أغار من تلك المرأة القروية وإني لأرتاب في أمره كلما غاب عني » .

وبلغ بها الحال أن كانت تغار من أختها تانيا ، قالت « إني لأغضب من تانيا كلما دست أنفها دساً في شؤون زوجي ... لقد تحركت غيرتي بالأمس في صورة شديدة يحزنني الآن أن أذكرها ... » .

وظلت على حالها نحو ألكسندرا ، تغار من ذكر اسمها ولا تحب كتبها إليه ولا كتبه إليها . كتبت ذات مرة تقول « لقد وجدت كتاباً منها في قنطرة ، وظلت أعجب ما إذا عسى أن تكون صلتها به » .

وكانت هذه الغيرة في أصل طبيعتها كامرأة كما أسلفنا ، ويمكن أن نردها في بعض حالاتها إلى ما يشوب سرورها دائماً من إحساس مبهم بالحزن ... ولقد رأينا كيف عبرت عن هذه العاطفة قبل زواجها فيما كتبت ذات مرة إلى أختها . وفي سنة ١٨٦٦ ، اشتدت بها الغيرة حتى كادت تزهد روحها ، وكانت هذه المرة من زوجة أحد خدم البيت وهو القائم على شؤون الطعام ، وكانت امرأته ذات جمال وثقافة وظرف ، وكانت علي حظ غير قليل من الذكاء ؛ وكان يتحدث إليها تولستوى في الأدب والسياسة ؛ قالت زوجته ذات مرة « إني أحبس نفسي في حجرتي بينما تكون هي في البثوى مع الأطفال ... وذلك أني لا أطيق

أن أراها ، فإن ذلك لما يثير تأثيري كلما وقعت على جمالها وحيويتها ومخاصة إذا كان ليو معها .

وكان ذلك الشعور المبهم الذي تحسه ولا تدريه ، شعور الحزن في غير باعث له ، بل شعور الحزن في أعقاب كل سرور ، يوحى إليها أحياناً بخواطر سود تكاد تصل بها إلى اليأس ومن أمثال ذلك قولها « لست أطلب شيئاً سوى حبه وعطفه وهو يرضن بهما على ... وأجد كبريأى كلها تمرغ في الطين ... لست سوى دودة مسكينة محطمة ، لا يأبه بها أحد ولا يحبها أحد ... ذات مزاج سيء وذات شعور بالكرامة منهار ، وذات حب لا يحتاج إليه أحد ، حب كاد يؤدي بي إلى الجنون .

كان مرد هذا الكلام لا ريب إلى هواجسها التي لا تقوم على شيء ، فقد كتبت بعد ذلك بستين أي سنة ١٨٦٨ تقول « إنني أضحك كلما عدت إلى قراءة مذكراتي فإنها ملأى بالمناقضات ، يظن من يقرأها أني امرأة غير سعيدة ، وهل هناك من هي أكثر مني سعادة ؟ .. إن من الصعب الوقوع على زواج أسعد من زواجنا أو أكثر منه مودة . »

كان أكثر وقته للكتابة منذ بدأ يكتب قصته ، وكانت إقامته إلا فترات قصيرة ، في قريته ، حيث يقبل على العمل بكل ما في روحه من تحمس وكل ما في نفسه من أمل .. وعلى هذا النحو قضي السنوات الست حتى أتم كتابه العظيم . وكان يحب تولستوى أن يتفرغ للكتابة كل التفرغ ، ولهذا كان يضيق بكل ما عساه أن يشغل باله أو يعوقه عن العمل ؛ ولم يعقه في الواقع عائق حتى ولا حادث ذراعه سنة ١٩٦٤ ، فقد كان يملئ على تاتيانا وهو يعالجه في موسكو كما ذكرنا . وفي هذه السنة ولدت زوجته بنتاً سماها تانيا ؛ وزاد بمولدها على زوجته عمل الأم ، وقد كان سيرجى يعاني ألم الجدري ، الأمر الذي كان يؤلمها كثيراً ويؤلم أباه .

وزار تولستوى في خريف سنة ١٨٦٥ مكان موقعه بورودينو ، ودرس

كيف دارت المعركة ، وتحدث إلى من بقى على قيد الحياة منذ تلك الحرب التي وقعت في سنة ١٨١٢ ...

وكان يختلف إلى المتاحف والمكتبات في موسكو يقرأ كل ما يقع عليه من كتب أو مخطوطات ذات صلة بعهد الاسكندر الأول وما كان فيه من نزعات سياسية أو فكرية أو اجتماعية ، وبخاصة تلك الجماعات الماسونية التي تألفت يومذاك ثم ما لبثت أن قضى عليها لما أحاط بها من شكوك .. وكان في قرينه يدرأ عن نفسه السأم وكلال الذهن بالصيد أو المشي الطويل ، وغلب على نفسه حب القرية حتى كاد ينسيه سالف لهوه في موسكو و بطرسبرج ؛ وكان يرد ذلك إلى الطبيعة وسحرها ، وإلى ما بات يهجس في نفسه من عزوف عن الترف وميل إلى العيشة المتواضعة ؛ ولقد كان يعجب من يراه في القرية من أهل المدينة في ملابسه الريفية الشعبية الفضفاضة ، تتخذ من الصوف شتاء ومن التيل صيفاً .

وفي صيف سنة ١٨٦٦ ولدت له زوجته ولداً سماه إيليا ؛ وأسلم أطفاله إلى مربية إنجليزية ..

ووقع في تلك السنة حادث أثار سخطه من جديد على الحكومات وعلى الطغيان عامة ، فقد حدث أن لكم أحد الجند ضابطه في فرقة كانت تقيم على مقربة من ياسنايا ، وسيق هذا الجندي إلى محكمة عسكرية ، وجاء إلى تولستوى من طلبوا إليه أن يدافع عن هذا الجندي ..

وعرف تولستوى أن الجندي كان يعمل عمل الكاتب لهذا الضابط البولندي الجنس ، وكان الضابط يشعره أكثر الأحيان باحتقاره إياه ، ويحرص علي أن يقع على خطأ في عمله ليرده إليه ويأمره بإعادته .

وكتيراً ما كان ذلك الجندي يعب من الخمر ما يذهب بعقله ، فلما كان ذات يوم يعرض أوراقاً على رئيسه الضابط إذ عنفه هذا الرئيس متجبراً عليه فما كان من الجندي السكران إلا أن لكمه في وجهه .

وكان يقضى القانون بقتل من يفعل مثل هذا ، واستأذن تولستوى فأذن له بالدفاع عنه كما جرى به العرف ، وإن لم يك محامياً فتقدم بدفاع مكتوب ، استند فيه إلى أن الجندى وقد ذهبت الخمر بعقله ، واشتد مله من عمله ، لا يعد مسؤولاً عما فعل ، وإذا كان القانون نفسه يجيز تعديل الحكم على من لا يملك من المذنبين عقله ، فإنه يطلب الرأفة به فلا يساق إلى الموت .

ولكن المحكمة لم تأخذ بدفاعه وحكمت على الجندى بالقتل رمياً بالرصاص ؛ وعول تولستوى على رفع التماس إلى القيصر ، وأرسل إلى ابنة عمه ألكسندرا لتسعى سعيها في هذا السبيل ، ورفع الملتمس إلى وزير الحرب فتعمل بعدم ذكر اسم الفرقة في الملتمس ، ولم يرفعه للقيصر حتى قتل الجندى ...

واشمازت نفس تولستوى ، واشتد حنقه على هذا الجور ؛ وازداد نفوره من الحكومات ، وذكره ذلك بما رآه في باريس تحت سكين الجيولتين .. وبث هذا الحادث كما بث تفتيش بيته من قبل في نفسه ثورة سوف تستقر فيها حتى تعمل عملها فيما بعد في تفكيره ...

أما الفلاحون ، فقد أظهروا عطفهم على الجندى المسكين أثناء محاكمته ، وكانوا يحملون إليه البيض واللبن والخبز ؛ ولما سيق إلى الموت ، احتشد عدد منهم رجالاً ونساء على مقربة من العمود الذى شد إليه ، وبكى بعض النسوة ، وأخذ بعضهم الإنعاء ، ثم إن أهل القرى مشوا إلى قبره وأحضروا قسيساً يقيم عنده الصلوات ؛ وفعلوا مثل هذا في اليوم التالى ، حتى تدخل الشرطة فمنعوا هذا ، ثم سوا الأرض فوق قبره كيلا يستمر الناس في زيارته .

وقارن تولستوى بين ما فعل الفلاحون فازداد إيماناً بفكرته وهى أن الحكومات وتنفيذ القوانين على مثل هذه الصورة ، كل أولئك شر في شر ...

* * *

وعاد تولستوى إلى قصته وقد شغله هذا الحادث عنها أياماً ؛ وظل في قرية

المحبوبة يكتب ويراجع ، وزوجته تعينه ما وسمها العمون ...

ووجهت زوجته عنايتها إلى البيت ، فأصلحت مظهره ، وأحدثت بعض التغيير في جوانبه ، وكان زوجها يتأفف ويكظم غيظه لأنه لا يرى لذلك التغيير موجبا ، وإنه ليكره قلبه الشاعر أن يتغير من حوله ما ألف من الحياة ...

ولما جاءت زوجته بوسادة حشوها ناعم الريش وغطاؤها الحرير لتحل محل وسادته الجلدية ، نظر إليها نظرة تشبه الاستخفاف قائلا : ما حاجتي إلى هذا ؟ ولم يجد بدا تلقاء إلحاحها من أن يأمر الخدم بإصلاح الحديقة وممراتها ، واقتلاع الحشائش والأشواك من حول البيت ، وذلك على الرغم من رغبته في أن يبقى كل شيء كما ألفه وأحبه حتى ولو لم يرق منظره ...

وأحس اعتلالا في صحته في صيف سنة ١٨٦٧ ، إذ كان يشكو اضطرابا في معدته وأمعانه ؛ وكان يشايح روسو في عدم الثقة بالأطباء ، فالطبيعة عنده هي الطبيب ؛ ولكنه أجاب زوجته إلى رجائها فزار أشهر طبيب في موسكو وهو الأستاذ زهارين فنصح له بشرب المياه المعدنية زمنا .

وأقام تولستوى وأسرته بموسكو في شتاء هذه السنة ، وكان يزوره صديقه فت ؛ وقد حصل منه فت على فصل لم ينشر بعد من قصته فقرأه أحد أصدقائه في حفلة خيرية فقبل باستحسان عظيم ، الأمر الذي سر صاحبه وزاده حماسة في عمله ... وفي شهر مايو سنة ١٨٦٩ وهي السنة التي أتم فيها قصته ، ولد له غلام سماه ليو ؛ وإذ فرغ المؤلف العظيم من قصته تنفس الصعداء بعد هذا الجهد المتصل في تلك السنوات الست .

ولما تم طبع قصته في كتاب وكان من قبل ينشرها فصولا في إحدى الصحف ، أقبل الناس على شرائها ليعيدوا قراءتها ، إقبالا لم يعرف له مثيل في كتاب من قبل ؛ وطابت نفس تولستوى أن يقدر الناس فنه على هذا النحو ، وطابت نفس زوجته بما جلبته القصة من مال ، وبما ذهب بها لزوجها من صيت وما بات له من مكانة في دنيا الأدب والفن ، هي مكانة الأستاذ الذي حق لروسيا أن تفتخر به الدنيا .

الحرب والسلام

هذا العمل الفنى القذأجل وأوسع مدى من أن يعد قصة فحسب ، فهو حياة بكل ما فى الحياة من معان وصور وحركة ... هو صورة كاملة حية للشعب الروسى أثناء حروب نابليون من سنة ١٨٠٥ إلى سنة ١٨١٥ ...
وعلام يقوم هذا العمل الفنى ؟ ألا إن المسرح هائل فهو يشمل روسيا كلها وورقة كبيرة من أوروبا ؛ أما الممثلون فى مقدمتهم ثلاثة أباطرة ومع كل منهم وزراءه وحاشيته وكبار قواده وضباطه وجيشه ... ثم يأتى بعد ذلك الشعب الروسى كله نبلاؤه وفلاحوه .

على هذا المسرح الهائل تتابع الصور وتختلف ، فمن صالونات بطرسبرج إلى ميادين القتال ، ومن موسكو إلى أنحاء القرى ...
وفى هذه القصة ، إن جاز أن نسميها قصة ؛ أشخاص حقيقيون هم الاسكندر الأول ونابليون بونابرت ، وكوتوزوف ، واسبرانسكى ؛ وأشخاص خياليون صور المؤلف كلا منهم وفق مثال ممن عرف فى محيط حياته ؛ أما البطل فهو الشعب الروسى مجتمعا فى كفاحه المجيد فى وجه العدو الفأح ...

وفى هذا العمل الفنى روح الملحمة ، فهى فى مجموعها قصيدة كبرى ... هى إلياذة حديثة ، وذلك من حيث بنائها ووقعها فى النفس ؛ وإنك لتستشعر روح هوميروس إذ ينتقل بك الكاتب فى غير جابة ولا صخب من مشهد إلى مشهد فيريك ما يفعل القدر بالأفراد مرة ، وما يفعل بالجيش مرة ؛ ولما كانت تصور ذلك الكفاح الوطنى الذى نهض له الشعب الروسى فى وجه نابليون ، فقد أبرز ذلك فيها روح الملحمة ، وإن أكثر فصولها لتترك فى النفس نعمة عامة أشبه بنعمة النشيد ؛ ولا يسمع المرء فى أكثر الأحيان إلا أن يقول عن كاتبها ، هذا شاعر وإن لم يصطنع

الشعر، وكثيراً ما يذكر المرء نظرة جيته حين يلمس بعقريته المشاهد المألوفة فكان القارىء يرى فيها ما لم يره من قبل .

* * *

في صيف سنة ١٨٦٣، نزع تولستوى كما أسلفنا ، وقد استقرت حياته بالزواج إلى كتابة قصة كبيرة وكان أول ما اتجه إليه خياله موضوعاً لقصته المنشودة مؤامرة الديسمبريين من أجل الدستور والحرية سنة ١٨٢٥ في عهد الاسكندر الأول ...

وأخذ تولستوى يقرأ تاريخ هذه الحقبة من حياة روسيا ، فأدت به دراسته إلى أن يرجع القهقري إلى حروب نابليون سنة ١٨١٢ أثناء حملته على روسيا ، ليرى كيف كان يعيش في شبابهم أولئك الأشخاص الذين أراد أن يصور على شا كلتهم ما يخلق من شخصيات خيالية لعهد الديسمبريين ...

ورأى تولستوى الفرق عظيماً بين كفاح روسيا في وجه الفاتح ، وبين جهلها لإفئدة قليلة بالدستور والحكم الدستوري أيام الديسمبريين ، فاختر عهد ذلك الكفاح المجيد ، ونبذ مؤامرة الديسمبريين ...

ولما كان يعتقد تولستوى أن نجاح روسيا في رد نابليون على أعقابها لم يكن وليد المصادفة وإنما كان مرده إلى روح الشعب الروسي والجيش الروسي ، ولما كان كذلك يؤمن أن هذا الكفاح لم يخل من أخطاء ومأس ، فقد حمله ذلك على أن يبدأ تاريخه قبل سنة الغزو ليعرض صورة صادقة لروسيا المجاهدة ، فجعل سنة ١٨٠٥ : بدءاً لذلك التاريخ أو لهذه القصة .

ودرس تولستوى تاريخ هذه الفترة دراسة مفصلة ، ولقى في ذلك رهقاً شديداً ، كان يخففه عنه فرط تحمسه لقصته وصدق إخلاصه لفنه ، وتصوره السار ما عسى أن تكون حين تم ؛ وعندى أنه ما من كاتب عظيم يكتب كتاباً عظيماً إلا وفي نفسه القدرة على أن يتصور هذا الكتاب جملة قبل أن يبدأ في تفصيله ، وعلى أساس هذه الصورة المجلة الكبرى التي تخلفها عقريته في لحظة ، يجيء ذلك التفصيل

الذى يرد إلى قريحته الفنية ... وما أظن أكثر الآيات الفنية إلا خلقت على هذا النحو ، وهذا موضع من مواضع امتياز العباقرة عن بقية الناس ...
هذه الصورة الجملة هي التي تحب العمل إلى رجل الفن وهي التي توحى إليه كيف يجمع الأشتات ليتم له ذلك الصرح وفق ما تخيل ، وفي سبيل ذلك يهون كل جهد ، بل ويستحب كل عناء ...

كان يكتب، تولستوى قصته ، وكانت تتلون الحياة كما أسافنا حسبما يستشعره في نفسه من رضاء أو سخط علي ما يكتب ؛ وكان يقول مازحا إذا ألقى القلم إلى غد « لقد تركت كعادتي قطعة من لحمي في الحجرة » ...

كتب إلى صديقه فت سنة ١٨٦٤ يقول « أنا غارق إلى ذقني ولست أكتب شيئا ... إنك لا تستطيع أن تتصور مشقة ما أنا فيه من عمل ؛ ذلك العمل الإعدادى الذى يقتضىنى أن أحرق حرثا عميقا قبل أن ألقى البذور ... ومن أصعب الأمور أن أفكر وأن أعيد التفكير فيما عسى أن يكون فى المستقبل حظ الشخصيات جميعا فى ذلك العمل الواسع الذى أضطلع به ، وأن أوزان بين الآلاف مما يمكن من صور الاشتباك والتداخل لأختار منها جزءا من ألف ... وهذا ما أعمله الآن » ...

وكان يذهب تولستوى إلى موسكو لينظر فى السجلات ، وكان يقرأ من السكتب والمخطوطات كل ما عسى أن يكون فيه وصف لحياة تلك الفترة من تاريخ روسيا ومعيشة أهلها على اختلاف طبقاتهم ، وصور ملابسهم وعاداتهم وأسلوب حديثهم وميوهم وألوان ترفهم ولهوهم وأغانيتهم ؛ وكان يشخص بنفسه إلى الأماكن التى كانت ميادين للقتال وكان يكتب للأخصائين يسألهم فى كل مسألة يستعصي عليه فهمها ، وكان يستشير أصحابه ويستعينهم فى كثير من المسائل كما كان يستنبيء عما عسى أن يكون من الأسر محتفظا بسجلات أو وثائق أو صور تاريخية أو أى شئ يزيد علماء وفهماء حياة ذلك العصر ...

وقد كان للكاتب العظيم خير عون من زوجته كما ذكرنا ، وكان ثناؤها على

ما يكتب وإعجابها بفنه خير حافظ له على المضي في عمله ، كما كان يتبين وقع حوادث القصة في نفسها متخذاً من ذلك مقياساً لقارئها في الجملة حين تم .
ودأب على عمله سنوات ست ، يقضي فيه كل يوم نحو ثمان ساعات ؛ وهو في كل آثاره كاتب لا يجري قلمه حيناً اتفق له ، وإنما هو يطيل النظر فيما يكتب ويتناوله بالحذف ، فيضع كلمة مكان كلمة ، ويستبعد من هنا فقرة ويضيف هناك فقرة ، ولا يعجبه هذا الفصل أو ذلك فيعيد كتابته كله ؛ ويقع بعد حين على شيء كان يصح إضافته الى ما سلف من وصف فيعود إليه فيضيفه ، أو يخطر له خاطر فيتبته حيث كان يجب أن يثبت ؛ ويقرأ بعض أوصافه جهراً فيحس في الصورة غموضاً أو في اللفظ تعثراً فما يزال بالصورة حتى تشرق وباللفظ حتى يسلس ... وعلي هذا النحو كتب هذا الكتاب كله ، ولا عجب بعد ذلك أن يشبه الكتابة بالوضع وأن يقول إنه كان يترك كل مرة قطعة من لحمه في الحبرة ؛ وإن الذين يعانون البيان من أئمة البلغاء الذين يتفطنون إلى مواقع الكلام لهم وحدهم الذين يدركون مبلغ ما كان في عمل هذا الفنان العظيم من مشقة .

ولم تم القصة إلا في سنة ١٨٦٩ ، وقد نشر القسم الأول منها تحت عنوان « سنة ١٨٠٥ » ثم ظهرت أخيراً في مجلدات ستة باسم « الحرب والسلام » ؛ وسرعان ما ظفرت بنجاح هائل لم يظفر بمثله في روسيا كتاب قبلها ، لافي الأوساط الأدبية والفنية فحسب ، ولكن في جمهور القراء جميعاً ، وأصبح بها ليو تولستوى عند بني قومه أستاذاً عظيماً ، وبات في سماء الفن والأدب أعظم الكواكب تألقاً .

يجدر بنا قبل أن نتحدث عن القيمة الفنية لهذا الكتاب وعن آراء النقدة فيه ، أن نلقى نظرة فيما عبر عنه مؤلفه من آراء كان يمتليء بها رأسه ، وخواطر كانت تجيش بها نفسه ؛ ولما كان سبيله في مثل هذا العمل الفني أن يجري آراءه على السنة ما خلق من أشخاص ، وأن يلصق إلى خواطره فيما يأتون من عمل أو يسلكون من مسلك ، كان خليقاً بنا أن نلم إلمامة بقدر ما يتسع هذا المجال بأهم شخصياته ،

وهي إلمامة إن لم تكن تغني شيئاً عن قراءة هذا الأثر الفني الفذ والاستمتاع به ،
إلا أنها على أية حال تتصل بما نحن في صدد من دراسة هذا المؤلف العظيم ...
خلق تولستوى أكثر شخصياته وسواها على مثال من عرفهم في حياته ؛
فأسرته وأسرة زوجته يمثلهما في القصة أسرتا رستوف و بولكنسكي ؛ وعمته تاتيانا
تمثلها سونيا في القصة ، كما تخيلها وهي شابة ، وليزا إيرز تظهر واضحة في فيرا ، و بولقانووف
هو بعينه دينسوف في القصة ، وتانيا تلك الشيطانة الصغيرة تظهر ظهوراً لا ينقصه
إلا الاسم في تاشا ؛ وأخوه سيرجي هو البرنس أندرو .

أما شخصه هو فقد استطاع في براعة فنية عجيبة أن يبرزه في عدد من
شخصيات قصته ، فناحية منه تظهر في جانب من شخصية البرنس أندرو الذي
يمثل أخاه ، وناحية أخرى في جانب من شخصية پير بزخوف ، ونواح أخرى
في غير هاتين من الشخصيات ؛ ولقد بلغ من دقة تفتنه إلى نفسه أنك حين تصاحب
هذه الشخصيات على شدة ما بينها من اختلاف ، لا يسمك في كل شخصية إذا
أخذتها على حدة إلا أن تقول هذا هو تولستوى نفسه ، وإن كانت هذه الشخصيات
ذاتها في مواقف أخرى تمثل أشخاصاً آخرين ... ولن يدخل مثل هذا العمل
إلا في طوق فنان عظيم ، وما الإنسان ؟ أليس هو مجموعة شخصيات تألفت فيه
على صورة ما ، تبعد أو تقرب من صورة تألفها في غيره ؟ ذلك ما قصد إليه تولستوى
حين صور جوانب شخصه في أشخاص كثيرين ... وإنك لتجد صورة له في كل
كتاب غير هذا من كتبه العديدة ...

أبرز تولستوى في پير صفاته الطيبة من أصالة ورجاحة عقل ، وطيبة قلب ،
ورغبة في السمو بالنفس ، ونزوع قوى نحو التفكير العقلي المجرد ؛ وأبرز في البرنس
أندرو جوانب ضعفة كالتردد ، والكبرياء ، والغرور ، وسرعة الغضب ، واللجاج
في الجدل وما إليها .

أما الأشخاص الحقيقيون فقد أرانا تولستوى كيف كانوا يعملون ويفكرون
مستنداً إلى ما ألم به من تفاصيل عن تلك الحقبة من حياة روسيا التي هي
موضوع القصة .

وأضاف تولستوى إلى القواد المعروفين شخصيات من خلقه تمثل روح الشعب الروسي وتبرز أهم خصائصه ، ومن أهم هذه الشخصيات كارتايف الجندى الساذج الصابر المؤمن . وكوتوزوف القائد الذى يذعن للقدر ، فلا يحاول أن يقف فى سبيله وإنما يجعل سلوكه جميعاً وفقاً لأحكامه ، وذلك فى صبر وإيمان ومصابرة طويلة للعدو .

أجرى تولستوى على لسانى پير وأندرو آراءه الخلقية وفلسفته القائمة على جهاده المتصل فى سبيل مسألة حيرته كثيراً واستغرقت تفكيره طويلاً ، هى فهم الغاية من الحياة ...

وقد أتاح له هذا العمل الفنى الواسع مواقف كثيرة للحياة والموت ، والميلاد والمرض والصحة والحب والسكدح وغيرها مما يتقلب فيه بنو الدنيا من ألوان العيش وما يعترض لهم من ألباز الوجود ، وهو إنما خلق أكثر هذه المواقف خلقاً ليقول عندها ما يريد أن يقول ...

وتتيح هذه القصة بطبيعة موضوعها الأسمى فضلاً عن ذلك دراسة كثير من المسائل الكبرى فيما يتصل بالحرب والتاريخ والإنسانية بوجه عام ... وفى هاتيك الآراء جميعاً وفى طريقة أدائها الجانب الأهم من عظمة القصة ، تلك العظمة التى يكملها ما سوف نعقد له فصلاً خاصاً من براعته الفنية فى خلق الحوار وحسن سوقه وروعة التصوير وتفصيله ، وانسياب ذلك كله هادئاً طبيعياً فى قصصه جميعاً فى تناسب وتوافق ، انسياباً يشعرك أنك تنظر فعلاً إلى مشاهد وأشخاص من الحياة لا تقرأ لكاتب على صفحات كتاب ...

وأما عن المرأة وما يتصل بحياتها من آراء وما يمثل سلوكها وعواطفها وضعفها وقوتها ونظرتها إلى الحياة ، فقد خلق المؤلف لذلك فئة من الشخصيات من أهمها تاشا والبرنسس ماري .

حارب البرنس أندرو في معركة أوسترلتز الهائلة حيث وقف امبراطور النمسا
وقيصر الروسيا في جانب ووقف نابليون في جانب آخر ، وجرح البرنس في
المعركة ، وعاد أثناء مرضه يتفكر في الغرض من هذه الحياة ، وقد أرتته الحرب
كثيراً من غرور هذه الدنيا وأكاذيبها ، وكان يكبر نابليون وهو عدوه إلى حد
العبادة ، فتبين له سخف عبادته . ولما شفى من جراحه أراد أن يجد معنى للحياة في
تحرير رقيقه وإصلاح حاله ، ولكنه ما لبث أن رأى في ذلك ضرباً من
العيب ؛ وعاد إلى القتال فعاد إلى ما لا طائل منه من تأملاته ... وأخيراً حين
كان يلقي الموت في طريقه من موسكو ، أضاعت في نفسه فكرة الحب في أعظم
صوره ، وتبين في هذه الفكرة مغزى الحياة « أجل ... الحب ! ولكنه ليس
ذلك الحب الذي يقوم في النفس من أجل شيء ، أو صفة ما ، أو غرض ،
أو سبب ، ولكنه ذلك الحب الذي استشعرته وأنا بين برائن الموت حين رأيت
عدوى ومع ذلك أحببته .. لقد جربت هذا الضرب من الحب الذي هو خلاصة
النفس والذي لا يحتاج إلى موضوع معين ؛ وإني لأستشعر الآن هذا الإشراق ..
هذا الحب الذي تشعر به نحو جارك ونحو عدوك ونحو كل شيء ؛ حب الله في
كل مظاهر وجوده ؛ إن من الممكن أن تحب أى شخص قريب منك وهذا
هو الحب الإنساني ، ولكن أن تحب عدوك فهذا ما لا تستطيعه إلا بالحب
الإلهي . . وإذا أحب المرء حباً إنسانياً جاز أن يتغير حبه إلى كره ، ولكن
الحب الإلهي لن يتغير . . لا فلا الموت ولا أى شيء آخر بقادر على أن يقضى
عليه .. إنه خلاصة النفس وجوهرها »

تلك هي فلسفة أندرو في القصة أو فلسفة تولستوى في الحياة ؛ وليس من
فرق بينهما إلا أن البرنس أندرو قد اطمان قلبه ، ولن يزال تولستوى يتأمل
ويتفكر حتى ليكاد يقتله اليأس فيما هو مقبل من أيامه .

أما بير فما برح كذلك يشقيه البحث عن الغرض من الحياة وهو لا يفتأ
يسأل نفسه « ما الخير وما الشر ؟ ماذا ينبغى على المرء أن يحب ؟ وماذا ينبغى عليه

أن يكره ؟ ومن أجل أى شيء يعيش المرء ؟ وما عسى أن أكون أنا ؟
وما الحياة وما الموت ؟ وأية قوة تسيطر على ذلك كله ؟ »

ويرتاح بيير إلى الماسونية ، ويفهمها على أنها إعداد للنفس لتلقي الحكمة
فلن تأتي الحكمة عن دراسة العلوم مهما أحاط بها المرء ، ولا بد أن يطهر المرء
نفسه ويسمو بها سموً روحياً ، ثم لا بد من الإيمان ، وسبيل النفس إلى بلوغ هذا
الكمال هو الضمير أى ذلك النور الذى ألقاه الله فيها . . .

ويعمل بيير على تطهير نفسه والسمو بها صوب الكمال المنشود ؛ ويفهم من
الماسونية معنى آخر يزيد تهمساً لها وهو أن يعيش الناس إخوة بعضهم لبعض
يتعاونون فى طريق الفضيلة . . .

ولكنه لا يخالط الماسونيين حتى يشك فيما يقولون ، وذلك لأنهم يقولون
ما لا يفعلون ، ثم لا يلبث أن يكفر بهم ويرى أن بضاعتهم زخرف ولغو ، وأن
أكثرهم يسعى وراء المطامع ويرى فى الانضمام إلى جماعاتهم سبيلاً إلى قضاء
المآرب وجلب المنافع ، بالزنى إلى ذوى الجاه منهم باسم التعاون على البر .

ويعظم يأسه وتسود فى وجهه الدنيا ، ويلوذ بالقراءة والدرس فلا يجد شفاء ،
فيلوذ بالخرليندي ، ويكاد يسلم نفسه إلى الانحلال إذ يطلب معنى للحياة فى
شهوات بدنه منطلقاً من كل قيد ، ولكنه لا يلبث حتى يسأم ذلك .

ويزحف نابليون على موسكو فتتجه نفسه إلى معنى للحياة هو البطولة فى
مداومة هذا العدو ويخيل إليه أن القدر اختاره ليقضى على « قوة هذا
الوحش » ، ويتمكن منه هذا الخيال فيعود إلى نفسه الأمل ؛ ولكنه يقع
أسيراً وينجو بأعجوبة من القتل بتهمة التجسس ؛ ويرى ذات مرة فرقة من
الجيش تطلق النار كارهة مكرهة على فرقة من عدوها لتنفيذ حكم الموت فى
هؤلاء وهم ليسوا أقل منهم براءة وسمو غرض ، فتتفر نفسه من الحرب والبطولة
ويعود إليه يأسه من فهم معنى الحياة . . .

ولكنه فى أسره يخالط جندياً قروياً من بنى قومه هو كارتايف ، فتضىء

في نفسه فكرة الحب كما أضاءت من قبل في نفس أندرو ؛ وقد أوحى بها إليه كارتايف الذي يتمثل فيه هذا الحب البريء ويعجب ببيير كيف يعجز من قبل عن وجود معنى للحياة مستعيناً بالماسونية والدراسة والإباحية والبطولة وبجبه نتاشا قبل ذلك ، ثم لا يجد آخر الأمر شفاء لنفسه إلا فيما يري من هذا القروي الذي تنطوى نفسه على الفضيلة والنبيل ..

ويحلم بيير في أسره بالحرية ؛ ولما أطلق سراحه وجد أن السجن علمه ما لم تعلمه من قبل الحياة ، فقد تعلم « أنه لما لم تكن هناك حال يكون فيها المرء سعيداً كل السعادة ، حراً كل الحرية ، فكذلك لا توجد حال تقتضيه أن يكون غير سعيد وغير حر . . . إن لكل من العذاب والحرية حدوده وتكاد تتلاقى حدود هاتين الحالين . وليس في الحياة مواقف أصعب من أن يواجهها المرء »

وتعلم من كارتايف شيئاً آخر هو الإيمان بالله الحي الباقي ، وما كان يبحثه عن معنى الحياة إلا بحثاً عن الله ، وقد هداه إيمان كارتايف إلى ربه هدى عجز عن مثله كل شيء من قبل ..

هذا هو تولستوى في بيير ، ولكن بيير اهتدى في القصة ، ولن يزال تولستوى حائراً يبحث عن الله ولشدهما سوف يلقاه من حيرته . .

ومن أحب الشخصيات في القصة وأقواها بروزاً شخصية نتاشا ، وقد خلقها الكاتب مزيجاً من تانيا ومن أختها سوفيا زوجته ، فهي تانيا قبل زواجها في القصة وهي تشبه سوفيا بعد أن تزوجت بيير

كانت تانيا بيرز توحى ، كلما زارت أختها في ياسنايا ، إلى تولستوى شيئاً مما هو بسبيله من بناء قصته ؛ وكان ينظر إليها أبداً نظرة رجل الفن الذي يستخرج من الحياة مادة فنه .. قال لها ذات مرة « أتظنين أنك تقيمين هنا في غير جدوى؟ كلا إني أراقب كل شيء فيك وأثبتته » وكان تولستوي شديد الإعجاب بروحها ؛ كتب إليها ذات مرة يقول « حقاً إن من الصعب وجود تانيا أخرى لا وليس

من يقدرها كما أقدر» ونصح إليها مرة أخرى بقوله « تانيا ، يا صديقتي العزيزة ، إنك صغيرة ظريفة ، موهوبة ، حلوة ، فاحذري على نفسك وعلى قلبك فإن القلب إذ منح مرة لا يمكن استرجاعه ، والقلب المعذب يحمل إلى الأبد أثر الجراح » .

أحبت تانيا وهي في الرابعة عشرة حبها الأول ، وكان الذي أحبته ابن عم لها ربه أسرته كما لو كان أخا وهو ألكسندر كوزمنسكي ، ثم فتنت بعد ذلك فتى جميلا حسن الهيئة يدعى أنا تول شوستاك ؛ وكان تولستوى يراقبها ويحذرهما كما لو كان له الولاية عليها ؛ ولقد صرف أنا تول ذات ليلة في عنف من بيته لأنه ذهب في مغازله تانيا إلى أبعده مما يبيحه الذوق والعرف .

وفي سنة ١٨٦٣ ربط الحب بين تانيا وسيرجى ، ولكن سيرجى كان يعيش سراً في ضيعة مع غجرية جميلة الصوت منذ خمس عشرة سنة وقد ولدت له أولاداً ؛ ولما علمت الغجرية بحبه تانيا برّح الألم والحزن بها حتى ما يطيق سيرجى أن يرى عذابها ؛ وأطلع سيرجى أخته علي ذلك ، وأنبأت به أخاها ، واعتزم أخوها أن يظهر عليه تانيا في كياسة يتطلبها دقة الموقف ، ولما علمت تانيا بالأمر أطلقت سيرجى من كلته على الرغم من أنها كانت لا تزال تحبه حباً شديداً ..

ونال ذلك من نفسها ومن بدنها حتى لتذوى كما تذوى الزهرة يلفحها الهجير ، فقد تهامس الناس أنها خدعت وأن سيرجى فضل عليها الغجرية ؛ وعلى الرغم من تغييرها المكان عملاً بنصيحة تولستوى ، فقد ألح عليها السقم حتى لتخرج بعض الدم في سعالها ؛ ووضعت في موسكو بين أيدي ثلاثة من الأطباء

وكانت تواسيها زوجة ديا كوف صديق تولستوى، ودعتها لقضاء الشتاء عندها ولما مرضت هذه السيدة الرحيمة ، سهرت تانيا ليلالي إلى جانب سريرها ؛ فلما دنا منها الموت طلبت إلى زوجها أن يتزوج تانيا بعدها فهي خير من تصلح له

وقال دياكوف إنه كان يعد نفسه سعيداً بها لولا بعد ما بينها وبينه في العمر .
وعادت تانيا إلى ياستايا بوليانا ، وعمل تولستوى في مهارة حتى قرب بينها
وبين ابن عمها ألكسندر حتى كان ذات يوم فسأله ألكسندر عما إذا كانت
تقبل يده إذا تقدم بالخطبة فقال تولستوى « عجل فإني أظنها تعود الآن إلى حبا
الأول » .. وتقدم ألكسندر فقبلته تانيا وأصبح لها زوجا ..

ظهرت تانيا في شخصية نتاشا رستوف التي أحبت وهي صغيرة فتى يدعى
بورس ، ثم خطبها البرنس أندرو ولكنها وقعت في حب فتى جميل يدعى
أناتول كوراجين وكادت تفر معه ؛ وتسامع الناس بذلك فنال منها وأثر في صحتها
وقال لها پير ذات مرة أنه كان يسعد بها زوجة له لولا بعد ما بينها وبينه في
العمر ؛ ولما مات أندرو ، تقدم پير بخطبتها وصارت له زوجة . .

وغدت نتاشا بعد زواجها أمماً أحسن ما تكون الأم ، ونسيت لهوها وعبثها
وصرحها ؛ ولكنها تريد من زوجها أن يجعل لها فراغه كله ، وطلبت إليه ذلك
فأدهشه ، ولكنه قبله لأن فيه ملقاً لعواطفه ، وفي هذه الحياة الزوجية صور
تولستوى كثيراً مما كان بينه وبين زوجته ..

وصف تولستوى حياة نتاشا وصفاً دقيقاً وأظهرها في مواقف كثيرة من
مواقف لهوها وحبا ، وانقيادها لعاطفتها ، وتقلب ظروف الزمن عليها ، وبلغ
من ذلك ما لا يبلغه إلا فنان موهوب ، فأنت تأنس إلى هذه الصورة وتألفها
وتعرفها أكثر مما لورأيتها حقاً في الحياة ، وينقضى زمن طويل بعد قراءتك القصة
ولا تزال نتاشا حية في حسك ونفسك ..

أما البرنس ماري فهي صورة على تقيض نتاشا ، وهي فتاة دينية نقيية
تبذل قصارى جهدها لإرضاء أبها الشيخ في أواخر أيامه ؛ وقد رفضت يد أناتول
لأنه طلبها من أجل ثروتها ، وهو الذي افتنتت به نتاشا بعد ذلك ، وتحب ماري
بعد ذلك نيقولا رستوف ، وإذا تراه يفتر في تودده إليها بعد وهن ثروة أسرته ،
مخافة أن تحسبه يطلب مالها ، تحب ذلك منه فتفضي إليه بحبا وينتهي الأمر
بزواجها منه ...

وعلى الرغم من أنها زوجة سالحة ، فهي لا تجد السعادة في هذه الدنيا ،
ولا تزال تعنى نفسها بالمجهول وتفكر في اللانهاية وفي الأبدية فلا تكاد تحس الهدوء
وفي نيقولارستوف جانب من شخصية أبيه كما تخيلها ، وفي البرنسس ماري
كذلك جانب مما تخيله عن أمه ...

وفي القصة غير هذه الشخصيات حشد عظيم خلقهم الفنان الكبير خلق المتمكن
القادر ، فليس أكثر منهم فيمن خالطت من الأحياء ألفة إلى نفسك ولا وضوحاً
في ذهنك ...

* * *

كان أكثر ما عني تولستوى بإبرازه من فلسفته في حياة من ذكرنا من
شخصياته هو الغرض من هذه الحياة ومغزاها وكيف يعيشها الإنسان ؟
ولكن في القصة غير حياة الأفراد والأسر ، معارك حربية اشترك فيها
بعض هؤلاء الأفراد وشغلت أذهان الشعب الرومى كله ؛ ولقد كان لتولستوى
في هذا الجانب الحربى من القصة عملاق : عمل الفنان الذى يصور وعمل
الفيلسوف الذى يفكر ...

أما عن عمله المتصل بالفن ، فلهذه الموهبة ولديه التجربة ؛ فقد شهد المعارك
في القوقاز وفي القرم ، وجاء الوقت الذى يفيد فيه من حياة الجندي ، ولذلك جاء
وصفه ما وصف من حياة الجند ومن المعارك وعليه طابع الخبير الذى يجعل الفن
أداة فحسب للتعبير عن خبرته ، لا طابع التخيل الذى يحتال بالصنعة لتقليد الحياة
لذلك يصف تولستوى الجيش كأنك تعيش معه ، فيطلمك على نزعات
الجند وميولهم وأفكارهم ، وكيف يأكلون وينامون ، وكيف يزحفون للقتال ،
وما نظرتهم إلى ضباطهم وقوادم ؛ وهؤلاء الضباط والقواد ما خطبهم وما تفكيرهم
وما دسائسهم وما أطاعهم وما حظ كل منهم من روح البطولة وما حظهم من
الأنانية ، إلى غير هذه من الأمور التى لن يحدثك عنها إلا من خبرها ، وبقدر
ما يتوافق له من الفن يكون وقع حديثه في نفسك وخيالك ... ثم تأتي بعد ذلك

أوصاف القتال وما يحدث فيه ، وهذه في طوق كل ذى خيال على قدر ما أوتى .
من قوة التخيل ...

وأما عن عمله المتصل بالفكر فما يعنى عنه إيجاز ولا إسهاب ، فإن المجال
كله مجال فن وإن رجل الفن هنا يخفى الفيلسوف ويبرز بالفن فلسفته ، ولا
يعمل عمل الملحن الذى يباغت النظارة فيظهر بين ممثليه فوق المسرح ويحطم
التمثيل بذلك تحطياً ...

يعرض رجل الفن عليك الحياة ، ويخلق من الحوادث ما يسير ما يريد أن
يقول ، وأنت تستخرج لنفسك معانيه ، فإن كان لا بد من تفسير فعلى السنة
أشخاصه لا على لسانه هو ، وهذا هو الفن وشتان بين هذا وبين مؤرخ يكتب
أو صاحب مقال يحلل ويشرح ...

وماذا يستخرجه المرء من فلسفة التاريخ في القصة مجرداً من لباسه الفنى ؟
في هذه الملحمة الكبرى التى سماها بعض النقدة إلياذة تولستوى معان في
فلسفة التاريخ يرد إليها جانب كبير مما لهذا العمل الفنى من عظيم الخطر ...
تدور فلسفة تولستوى التاريخية حول فكرة سماها « قانون ما ليس منه بد »
فقد لاحظ تولستوى في حياة الأفراد ، أن أموراً لا دخل فيها لإرادتهم تتحكم
في مصائرهم لأنها تؤثر في اتجاهاتهم من حيث لا يشعرون ولا يريدون .

وليس الأمر قاصراً على الأفراد ، فهذا القانون يعمل عمله في الحوادث العامة
فيأتى بها على صورة لم تكن وليدة إرادة سابقة ، بل كثيراً ما تأتى على عكس
ما دُبر وقُدِّر ؛ وأوضح ما يكون ذلك في ميادين القتال حيث يقع من الحادثات
ما ليس له صلة قط بما أحكم من خطة قبل .

وكم شاهد تولستوى فيما شهد من حروب قوادماً يحسبون أنهم مسيطرون
على اتجاه الحوادث إذ هم في الواقع يجرفهم التيار ، وكثيراً ما يرجعون نتيجة ما ،
إلى كيت وكيت من الأسباب ، إذ مردها في الواقع إلى مصادفات لم تكن في الحسبان
أو إلى الإهمال أو الخطأ أو النقص في تنفيذ ما أمروا من أمر ، بحيث لو نفذ كما شاءوا

لحماة النتيجة على غير ما يحبون ...

ويأتى تولستوى بأمثلة لهذا من أوسترلنز فيعرض طائفة من المصادفات أتت بعضها في إثر بعض فجعلت أحد الضباط يؤمن بأنه « مثل الحصان ربط إلى عربة ثقيلة وهو يجرى في منحدر ، فليس يدرى أهو يجرها أم أنها هي التي تدفعه ، ولكنه يجرى قدماً في سرعة وليس لديه وقت لينظر إلى أية غاية تمضى به حركته » من هذا القانون « قانون ما ليس منه بد » أو قانون الضرورة كما يصح أن يسمي ، يستخرج تولستوى طائفة من الآراء ؛ فعنده أن في التاريخ كثيراً من الأباطيل وهي مع ذلك تسمى علماً ؛ وفي زعمه أن ما يذكره المؤرخون من أسباب للحروب بوجه عام إن هو إلا وهم من الوهم ، إذ لا يمكن وفق ذلك القانون أن تعين أسباباً بذاتها تجزم أنها هي لا غيرها التي أحدثت ما حدث لأن هذه الأسباب المزعومة إن هي في ذاتها إلا وليدة حوادث ماضية مشتبكة متداخلة لولاها ما كان لها مغزى .

ويستخرج تولستوى كذلك أنه ما من شخصية كبيرة من شخصيات التاريخ تمثل إرادتها الإرادات الفردية لآحاد الشعب الذي ترى في قته تلك الشخصية ، وما يتحرك التاريخ ويتشكل إلا بتحرك هذه المشيئات الفردية التي يتألف منها التيار العام .

وإذا كان الأمر كذلك ، مضافاً إليه ما تفرضه طبيعة الأشياء في بعض المواقف وما يقضي به منطق الحوادث في بعض ، مثل إحراق موسكو المبنية من الخشب وقد هجرها أهلها ، ومثل تراجع نابليون ذلك التراجع الذي لم يكن منه بد ، فمن الباطل أن نجعل الأحداث الكبرى من عمل فرد أياً كانت قدرة هذا الفرد ، وبناء على هذا فما أسخف ما يسميه المؤرخون « العظمة الشخصية » فما هذه إلا ضرب كذلك من الوهم ...

وما تكون أسماء هؤلاء « العظماء » مقرونة بالحوادث الكبرى التي يتخيلون ويتخيل معهم المؤرخون أنها من صنعهم إلا كالطابع أو « الماركة »

التي تكتب على السلعة ، وليس لهذه الأسماء العظيمة من أثر في خلق الحوادث إلا بقدر ما يكون لتلك « الماركات » التجارية من أثر في خلق البضاعة ... ونحن إذا نظرنا في الحوادث التاريخية التي يعزوها القائلون بالعظمة الشخصية إلى العبقرية وحسن الحظ ، فإننا نجد أنفسنا من هذه الحوادث تلقاء أحد احتمالين : فإما أنها حوادث مفهومة الغرض والمغزى ، وفي هذه الحالة يمكن ردها إلى قانون الضرورة أعني أن جملة حوادث مشتبكة أفضت إليها ، وعدة أشخاص وظروف عملوا فيها ، ولا فضل هنا لفرد واحد ؛ وإما أنها حوادث غير مفهومة الغرض والمغزى وفي هذه الحال لا يمكن ردها لا إلى عبقرية ولا إلى حظ حسن ... - وليس ينكر تولستوى المواهب والقوى الذاتية وإنما ينكر أنها هي التي تخلق الحوادث وتشكلها وتسوقها في مجراها ، وما هذا الذي نسميه عظيمًا إلا رجل هيأه القدر على هذه الصورة دون إرادة له ليقترن اسمه بالحوادث ، وما يكون تأثيره فيها إلا جزءاً من كثير من المؤثرات وإنما يعزى إليه كل شيء ... وكذلك كان نابليون ...

ولقد أدى الإيمان بالعظمة الفردية إلى خطأ بل إنهم يقترفه المؤرخون وهو عدم اكتراثهم للقيم الخلقية والأدبية ، فما يعزى إلى العظيم من عمل فهو فوق الخطأ والصواب ، ولو جاء علي تقيض ما تسلم به الإنسانية من أصول العدالة والحق ، فنزوا نابليون أوروبا وروسيا مع ما صحبه من جرائم يوصف بأنه عمل رجل فذ من ذوي العظمة والمجد ، ويؤخذ على أنه مظهر من مظاهر العبقرية ...

ولا يقل خطأ المؤرخين في تصور أثر السلطة أو القوة في خلق الحوادث ، عن خطأهم في تصور أثر « العظمة الفردية » ، فهم يزعمون أن السلطة هي إرادة الأفراد مجتمعة قد نقلت إما بالموافقة المعلنة أو بالقبول الضمني إلى يد فرد أو أفراد ارتضتهم الأمة لحكمها ، وهؤلاء الأفراد بما لهم من قوة الأمر يوجهون الحوادث بأوامرهم فيخلقون التاريخ ...

ويرى تولستوى أنه ما من حادثة تاريخية إلا وقد نجمت من حادثة أو جملة حوادث قبلها وهي في ذاتها حلقة تصل ما بعدها ؛ وإذا كان نابليون قد أصدر

أمره بغزو روسيا ، فهذا ما أفضت إليه جملة اعتبارات من قبل ، وليس معنى أنه أمر بهذا ، أن الغزو كان نتيجة لهذا الأمر وحده ، فما فعل نابليون أكثر من أنه دفع إلى الحركة جملة أوامر سارت بعضها تحت بعض حسب درجات القواد والضباط الذين يصدر كل منهم أوامره من أجل غرض محدود ، وعلى قدر ما يتم من تنفيذ هذه الأوامر المشبكية يكون مصير الغزو من النجاح أو الفشل ولا بد من جملة شروط وظروف تجعل تنفيذ أى أمر من الأمور ممكناً ... وما يأمر أمر إلا وهو يعتقد أن أمره سوف ينفذ حسب صدوره ، ولكن غالباً ما يأتى الحال بخلاف ذلك ؛ إذ أنه لكي يضمن أمر تنفيذ أمره يجب أن يعلم سلفاً أن من الممكن تنفيذه ، وهذا العلم المطلوب فى الأكثر غير مستطاع ... ذلك أنه بجانب الأمر الذى ينفذ حسب الخطة المقررة أوامر أخرى تنفذ تنفيذاً ناقصاً أولاً تنفذ ألبتة ؛ وإن الأمر الذى لا يسير ما فرضه منطق الحوادث وما حتمه من اتجاه لا يرجح له تنفيذ ، وما ينفذ فى الأكثر من الأوامر إلا تلك التى تطابق ما عساه كان يحدث حتى ولو لم تصدر ...

وعلى هذا الأساس كانت جيوش نابليون ظافرة طالما أدت جملة حوادث مشبكية متداخلة إلى ظفرها ، فلما تغير وضع تلك الحوادث وتغيرت وجهتها ، صار موقف نابليون من مجراها موقف من يطلب إلى موج البحر أن يرتد ، وظلت أوامره تترى ولكن فى غير جدوى .

ويجهل المؤرخون جهلاً شديداً حين يعزون الحوادث إلى إرادة الشخصيات التاريخية كما تبدو فى أوامره ، إذ الواقع أن هؤلاء وأوامرهم إنما يخضعون للحوادث . وخلاصة ما يذهب إليه تولستوى ومرده إلى قانون الضرورة ، هو أن حركات الأمم لا تسببها القوة ولا النشاط العقلى ولا اجتماعهما كما يظن المؤرخون ، وإنما يسببها نشاط الأمة كلها مجتمعها فى صورة يكون فيها أولئك الذين يتصلون بالحوادث بأكبر قسط صلة مباشرة أقل الناس فى الواقع نصيباً من تحمل المسؤولية أو أبعدهم عن إسنادها إليهم ...

وماذا يسبب اجتماع هذا النشاط ؟ ذلك ما لا نستطيع أن نعرفه ؛ ومن هنا لا نستطيع أن نعرف أسباب الحروب ولا الثورات ، ومهما فكرنا قلن نستطيع أن نذهب إلى أبعد من قولنا إن ذلك الاجتماع إذا حدث فهو ضرورة أو هو أمر لم يكن منه بد ، وعلى ذلك فهو قانون .

وما كانت قصته التاريخية الكبرى إلا معرضاً لهذا الرأي ، فليس فيها كما أسلفنا من بطل قط إلا الشعب الروسي مجتمعاً في نضاله ليتخلص من الغزاة . ويرى تولستوى أن تكون وظيفة التاريخ النظر في الحوادث على أساس قانون الضرورة وإلا كان عمل المؤرخين مجرد البحث عن مبررات لما يحدث ، فيثني على فلان وهو في الواقع لا يستحق ثناء ، ويعاب على فلان وهو برىء من العيب . وبقدر ما يكون نقص الإنسان في الثقافة والمعرفة بوجه عام ، يكون اعتقاده بحريته في العمل أعنى الاختيار ، فإذا اتسع أفقه وعمقت نظره واستطاع أن ينظر في نفسه وفي الحوادث استطاع أن يرى ما فيها من الضرورة ، وهنا تتناقص عقيدته في الاختيار ، وكلما ازداد معرفة بالبواعث والظروف ازداد نبذاً للاختيار وإقبالاً على التسليم بالضرورة ...

ولن يكون التاريخ علماً إلا إذا درست الحوادث على أساس ذلك القانون الذي يرد إليه تولستوى كل فلسفته التاريخية ، فإنا بذلك نستطيع أن نصور أحكامنا على الحوادث عن بينة بقدر ما يتسع له علمنا بما أحاط بها ، وفي هذه الحال لا يكون عمل التاريخ البحث عن أسباب الحوادث وإنما يكون عمله استخراج القوانين على أساس علمي والتكهن بما يحدث على أساس قياسي ، إذ أن مرد الحوادث جميعاً إلى ما ليس منه بد ، إلى ذلك القانون الذي لا نعرف كيف يحدث.

* * *

تلك هي خلاصة فلسفة تولستوى التاريخية عرضناها في إيجاز كما عرضنا من قبل ما جاء في قصته من نظراته في الحياة والفرص منها ، وشتان بين هذه المعاني المجردة نعرضها على هذه الصورة ، وبينها في القصة حيث يعرض عليك تولستوى

بأستاذيته وعبقريته الحياة نفسها فتستخرج منها هذه المعاني وكثيراً غيرها ،
وكأنك تعيش تلك الحقبة مع أهلها تحس إحساسهم وتفكر تفكيرهم ، فهذا
الكتاب العظيم لا يقول لك باللفظ وحده ما يريد أن يقوله عن الحياة ، وإنما
عماده الفن فهو يوحى إليك ويهرك ويحبب إليك عمله ويملأك إيماناً ، وقد
يسحرك عن نفسك فتسلم معه بما لا تعتقد ، ولا يسعك في كل حالة إلا أن تقول
لنفسك : ما أصدق هذا ، إن هو إلا حياة كما تكون الحياة ..

أما عن قوام فنه فسوف نعقد فصلاً خاصاً نبين فيه خصائص هذا الفن
ومبلغ ما توافى له فيه من الابتداع والروعة .

وإن المرء يشعر بالسرور والأسف معاً إذ يفرغ من قراءة هذا الكتاب
العظيم الضخم ؛ أما سروره فلما تركه من عظيم الأثر في نفسه ، وأما أسفه فعلى
مفارقتة تلك المشاهد التي أستمع بها زمناً طويلاً وأولئك الأشخاص الذين
أحبهم وعرفهم ولمس دخائل نفوسهم وأحس إحساسهم ، وهم يشعر المرء بالرغبة
في الرجوع إلى قراءته مرة ومرة ، والعودة إلى تلك الصالونات الحافلة بالحياة
والبهجة والزينة ، والناس من كل نبط ، وإلى ميادين القتال في أستراليا
وفريدلند وبورودينو ، وما تزخر به من مشاهد وحركة ؛ وإلى قلوب أولئك
الأشخاص من رجال ونساء ، وإلى أطواء نفوسهم وما يعتلج فيها من عواطف
وانفعالات .

بقي أن نشير إلى قيمة هذا العمل الفني الفذ . . . وأما اكتسب الكتاب من
منزلة بين آثار القلم عامة . والرأى الشائع بين نقدة الأدب ، أن هذه القصة تمثل
أسمى ما وصل إليه الفن القصصي في روسيا في القرن التاسع عشر ، عصر نبوغ
هذا الفن ، وهي إحدى آيات هذا الفن في العالم كله ، وأية تولستوى الكبرى
وإن كان بعض النقدة يفضل عليها قصته « أنا كارينينا » ؛ ويكاد يتفق النقدة
علي أنها أعظم قصة أخرجها القرن التاسع عشر ، وذهب جولزوردي إلى أنها
أعظم قصة ظهرت في أدب الدنيا قاطبة ..

والحق أنها كآثر من آثار تولستوى قد اشتملت على أكثر مميزاته ،
ففيها تجارب شبابه ، وفيها مظاهر وجدانه وسمو عاطفته وحدة ذكائه ونفاذ
بصيرته ، و يقظة حواسه ، ودقة خياله ، واستقلال رأيه ، وشاعرية روحه ، وحرارة
قلبه ؛ وفيها خبرته بحياة الجندي وصدق علمه بالحياة المدنية في صالونات الأرسوقراط
وأكواخ الفلاحين ، وفيها ما ذاقه من اللهو والعبث أيام عرامته ، وفيها عواطفه
رباً لأسرته ، وفيها أثر تأملاته ودراسته ؛ وفي الجملة تجد فيها شخصيته بما تحويه
تلك الشخصية العجيبة من تقلب وتناقض .

وهي كعمل فني في ذاته ، فضلاً عما فيها من مقومات الفن وأصوله ، فيها
صورة كاملة للحياة الإنسانية ، وفيها صورة كاملة لروسيا في ذلك العهد ، وفيها
فلسفة الموت والحياة والسعادة والشقاء ، والحب والأمل ، وفيها خصائص شعب
ومشاعره وروحه العامة ، وكل أولئك ومضات ذهن عبقرى وصنعة فنان موهوب ،
ولم يجرها تولستوى على غرار القصص بقصرها على حادث رئيسى واحد وإنما بناها
كما تبنى الملاحم فهي إياذته أو إياذة الشعب الروسي في جهاده ؛ قال يشير إلى ذلك
« أبطال؟ إن هذا لأ كذوبة ، وإنه لا اختراع... ليس في قصتي إلا ناس فحسب...
ناس لا شيء أكثر من ذلك » ... وقد برع تولستوى في تصوير مشاعر هؤلاء
الناس فيما أجراه من أحاديثهم ، العلية منهم والعامة ...

ولما نشرت هذه القصة لم تلق أول الأمر ما لقيته بعد ذلك من إجماع على
إمتداحها ، بل لقد هاجمتها بعض الصحف هجوماً شديداً ، ولم يدافع عنها في
تحمس إلا ستراخوف أحد كبار النقاد ، ولقد عقد لدراستها جملة فصول ..

وتلقي فت من ترجميف كتاباً أرسله من باريس يقول فيه « إن القصة كلها
مشكفة وأن قسمها الثانى ضعيف » وكتب بعد ذلك بسنة يقول « إنها قصة
ردیئة » .

أما دستويفسكى فقد أرسل إلي صديق له يقول « قرأت نقداً لقصة الحرب
والسلام ، وكم ذا أحب أن أقرأها كلها ؛ لقد قرأت نصفها فقط ، لا بد أنها شيء

معجب ولو أن مما يؤسف له أنه ليس فيها قدر كاف من التفصيلات السيكولوجية ،
ومع هذا فإنه بسبب ما فيها من التفصيلات كم يقع المرء فيها على ما هو جيد .
وغير ترجيف رأيه في نفس السنة فكتب إلي فت يقول « لقد فرغت
لساعتي من قراءة المجلد الرابع من القصة .. إن فيها أشياء لا تطاق ، وفيها أشياء
هائلة ؛ وقد بلغت تلك الأشياء الهائلة فيها من الروعة بحيث لم يسبق أن كتب
أي كاتب عندنا خيراً منها ، وأشك في أنه قد كُتب نظير لها » .

وامتدح فلوير القصة بعد ظهورها بعشر سنوات بقوله « هي قصة في ثلاثة
مجلدات بقلم ليوتولستوى الذي أعده أعظم كاتب في عصرنا . . إنها من الطراز
الأول . . أي أستاذ هذا وأي فنان وأي تحليل سيكولوجي ! ؛ إن الإنسان يرى
فيها الطبيعة ويرى الإنسانية ؛ ويخيل إلى أن فيها أحياناً أشياء تشبه شكسبير ؛
لقد كنت أصبح صيحات الإعجاب أثناء قراءتها ، وإنها لقصة طويلة .. أجل .
أجل إنها جميلة .. جد جميلة » .

ورد ترجيف عليه بقوله « إنك لا تستطيع أن تتصور مبلغ ما بعثه من
سرور في نفسي ثناؤك على قصة تولستوى وإن رأيك هذا يقوى رأبي فيه . حقاً
إنه رجل جد عظيم » .

وبينما كان يقرأ تشيكوف القصة بعد نشرها بأكثر من عشرين سنة كتب
إلى أحد أصدقائه يقول « إني أسهر كل ليلة في قراءة قصة الحرب والسلام وفي
نفسي شعور صادق هو شعور العجب من جانب رجل لم يقرأها من قبل .. إنها
جيدة إلى درجة تدعو إلى الدهشة » .

وأخذ الناس يعرفون قيمة القصة ويقدرونها حق قدرها كلما مرت الأيام
حتى غدت في دنيا القصص كصاحبها بين الأدباء قمة من القمم ، فما يذكر فن
القصة إلا ذكرت « الحرب والسلام » على أنها ركن من أركانه .

بعد الحرب والسلام

أنهك الجد المتصل في ست سنوات بدّن تولستوى القوى فبدا عليه السقم كما لحق بذهنه الكلال ، فكان لا بد له أن يستجم ؛ ولكنه أقبل على الرغم من ذلك يقرأ الفلسفة ويستغرق في ذلك استغراقاً عجيباً فقرأ كانت وشوبنهاور خاصة وأعجب بهما إعجاباً شديداً . . . ولقد كان تحمسه لشوبنهاور عظيماً ، كتب إلى فت في الثالث من أغسطس سنة ١٨٦٩ يقول « حقاً إنه مامن تلميذ في منهجه تعلم بقدر ما تعلمت أو كشف بقدر ما كشفت في هذا الصيف ؛ لست أدري ما إذا كنت أغير رأيي في المستقبل ، ولكنى الآن أعتقد أن شوبنهاور أعظم عبقرى بين الناس ... لقد أخذت أترجمه ، ألا تعمل معي في هذا العمل فنشره سوياً ؟ . لست أستطيع أن أتصور بعد قراءته كيف يبقى اسمه مجهولاً ... إني أفسر ذلك بما اعتاد أن يكرره من قول ، وذلك أنه قلما يوجد في الدنيا غير الحقى » . وأخذ تولستوى يتعلم الإغريقية ، واشتد إعجابه بهومر وهيرودوت وزينوفون وتقدم في هذا المضمار تقدماً عجيباً في بضعة أشهر ، حتى إنه ليجادل أحد أساتذة الإغريقية في موسكو ويراجعه في ترجمة بعض الفقرات ...

وقرأ كذلك بعض الروايات المسرحية لشكسبير وجيته ومولير ، وكان يجد في هذه القراءة بعض الهدوء لنفسه من عناء الفلسفة ومن عناء تأملاته ...

ولكن الكتابة كانت عنده العمل الجدى الذى يصغر حياله كل عمل غيره وعلى الرغم من قراءته ، ونشاطه سنة ١٨٧٠ في الإشراف على أعمال ضيعته ، كان لا يفتأ يشكو الخمول والكسل في تلك السنة ، وطالما فكر فيما عساه أن يصلح موضوعاً لقصة كبيرة أخرى ؛ قالت زوجته « كان يعتقد في بعض الأحيان أن الوحي عاد إليه فيطيب نفساً بذلك ؛ وكان يخيل إليه أحياناً أنه سوف يفقد

عقله ، ولقد اشتد به الخوف من الجنون حتى إنى لأمتلى ، رعباً كلما أتجه حديثه إلى ذلك »

* * *

كان تأمل تولستوى فى بعض المسائل الفلسفية يلتقى على نفسه كثيراً من الهموم ، وكان أكثر ما حجب إليه شو بنهور تشاؤمه ؛ وظالما أسلمه تأمله إلى حالات كان يخشى فيها على نفسه وعقله ؛ والحق أن هذا التأمل كان يكرب نفسه فى أوقات كثيرة طيلة تلك السنوات الست التى كتب فيها قصته الكبرى ... وعاودته هذه الهموم بعد فراغه من قصته ، ولم تغن عنه قراءته المسرحيات ولا تعلمه الإغريقية ؛ وساءت صحته وضار لآبده من من الراحة ؛ وأشارت عليه زوجته أن يسافر إلى سمارا ليعالج مرضه بالكوميس كما فعل قبل زواجه ... ورحل تولستوى إلى سمارا فى صيف سنة ١٨٧١ وقد ركب القطار على رغبته لأنه كان يكره كل المظاهر الحديثة وينكر أنها من المدنية ، ثم ركب قارباً بخاريّاً فى نهر الفلجا حتى وصل إلى الجهة التى زارها سنة ١٨٦٢ ؛ وركب تولستوى فى الدرجة الثالثة فى القطار وكثيراً ما كان يختار هذه الدرجة إذا اضطر إلى ركوب القطار ، لأنه بات يكره الترف ، وأخذت تسيطر عليه نزعة الاتصال بالفلاحين والفقراء والتدسس إلى عواطفهم وأفكارهم ليرى مبعث إيمانهم وتدينهم ؛ ولقد تحدث إلى الكثيرين منهم فى رحلته هذه واتخذ له منهم أصدقاء ... وفى سمارا أقام تولستوى فى خيمة مع صهره ستيفن بيرز وخادمه إيقان ، وكانت تتألف الخيمة من أربعة أقسام : أولها للنوم ، وثانيها للجلوس والكتابة ، ثم ثالثها وقد جعل مخزناً للمتاع ، ورابعها وبه الحمام وما يلحق به ...

وكان يعرف تولستوى بعض رجال القبائل هناك منذ رحلته السالفة ؛ كما كان يعرف اللغة التترية منذ درسها فى الجامعة ، وسرعان ما تمكنت الألفة بينه وبينهم كما تمكنت من قبل ، وكان يعيش فى إقليمهم كأنه أحدهم ، يلبس ملابسهم ، ويأكل طعامهم وقوامه لحم الضأن كل يوم ، ويزور شيوخ القبائل

في خيامهم حيث كانوا يعيشون عيشة بدوية ؛ يجلسون على البسط التي صنعوها بأيديهم ويأكلون الضأن بأصابعهم في صحاف من الخشب ، وكان تولستوى يعيش في خيمته ورفيقه وخادمه مثل هذه المعيشة ، ويجد في ذلك بهجة لروحه وكتب إلى زوجته ، يصف لها معيشته ، ويسألها عن ابنته التي ولدت له أول هذه السنة والتي سماها ماري ويذكر لها من حياة قبائل الباشكير التي يعيش بينها ما تعجب منه وتكاد تعده ضرباً من الخيال ...

وكان إذا زار تولستوى أحد شيوخ تلك القبائل أسرع كما هو العرف فذبح له كبشاً سميناً ، وقام على خدمته بنفسه ، ثم قدم له الكوميس ، ولا يستطيع الضيف أن ينصرف بغير أكل وإلا كان هذا إساءة منه لمضيفه ... وزار تولستوى كثيراً من الجهات المجاورة ، ووقف على كثير من طباع الناس وأحوال معيشتهم وعاداتهم ولهوهم وأغانيمهم ، وكل ما يعنيه أن يعرفه من حياتهم ووقف تولستوى على العقيدة المسيحية كما يدركها سكان تلك الجهات ، واستمع إلى مناقشاتهم بعضهم بعضاً ، وفكر فيما بينها من فرق وبين ما تدين به الكنيسة الروسية الإغريقية ؛ ثم إنه أصغى في سرور إلى بعض أصدقائه من المسلمين واستفهمهم كثيراً عن أصول دينهم حتى إنه رغب في قراءة القرآن ، ولما عاد إلى قريته أرسل في طلب ترجمة فرنسية له وقرأها في إمعان وتدبر ...

وبلغ به حبه هذه الحياة الفطرية الساذجة أنه اشترى ضيعة هناك كي يأتي وأسرته فيقيموا زمناً في تلك الجهات كلما أحبوا ذلك ...

وعاد تولستوى من رحلته وقد لبث شهرين في تلك السهول الفسيحة يشرب الكوميس ولكن زوجته لا تحس أثراً للكوميس فإنها وإن كانت لا ترى السقم في بدنه ، تعتقد أن المرض لا يزال كامناً فيه ، قالت « إنى لا أستطيع أن أرى المرض ولكنى أحسه فيما أراقبه من سأمه من الحياة ومن كل ما يحيط به ، ذلك السأم الذي بدأ يظهر عليه منذ الشتاء الماضي .. يخيل لى أن ظلة مرت من بيننا ففصلتنا أحدنا عن الآخر وفي ذلك الشتاء حين كنا مريضين ، أحسست

أن شيئاً طرأ على حياتنا ، لقد فقدت إيماني الشديد بالحياة والسعادة .. إن ليو لم يعد ذلك الذي عهدته من قبل .. إنه يقول إنها الشيخوخة ، وأنا أقول إنه المرض ، ولكن هذا الشيء كيفما كان أمره قد وقع بيننا »
وهكذا لا تفتأ زوجته تظن الظنون وتسلم نفسها إلى هواجسها ، ولعلها لم تكن مخطئة هذه المرة ، فقد كان مما يفكر فيه زوجها يومذاك كما جاء بعد سنين في مذكراته أنه فشل في زواجه وأنه يعيش وحده إذا ذكر حياته العقلية والروحية .

* * *

عاد تولستوى من سمارة فأبحه ذهنه في سبتمبر سنة ١٨٧١ إلى عمل ما كان يتوقع منه بعد قصته الكبرى ، وذلك العمل هو وضع كتاب لمطالعة الأطفال جعل عنوانه الحروف الثلاثة الأولى من الأبجدية ، وكان عجباً أن يتجه مؤلف « الحرب والسلام » هذا الاتجاه ، وهو الذي بات جمهور الأدباء والنقاد والقراء يرتقبون حتى يجيئهم بآية أخرى ، والذي قال عنه ترجميف قبل ذلك بنحو شهرين في كتاب إلى فت يسأله فيه عن صحته « إنه الأمل الوحيد الذي بنتنا نرجوه لأدبنا اليتيم ، وإنه لا ينبغي أن يزول من فوق الأرض قبل أوانه كما ذهب أسلافه الثلاثة ، بوشكين وليرمنتوف وجوجل »

لم يشغل بال المؤلف العظيم شيء يتصل بأدب قومه اليتيم ، وإنما شغل باله كيف يطالع أبناء الفلاحين مطالعة أولية توحى إليهم أذواقهم وتنشئ عواطفهم وتصل أذهانهم وتوجه بيانهم .

لهذا شمر تولستوى وأقبل على عمله في حاسة عجيبة ، وقد نشر من كتابه قبل الفراغ منه قصتين تناقلتهما المجلات ، وذلك حين ألح أصحابها عليه بطلب شيء ينشرونه وقد علموا أنه يعد ذلك الكتاب ؛ أما القصتان فهما « سجين في التوقاز » و « الله يرى ولكنه يمهل » ؛ ولقد بلغ من إعجاب تولستوى بكتابه أنه قال فيما كتبه عن الفن فيما بعد « إنه خير ما كتب جيمياً »



الكونتس تولستوى فى سنوات زواجها الأولى

obeykanda.com

كان يتألف هذا الكتاب من قصص بناها على مشاهد حياته ، ومن قصص استمدتها من منابع هندية وعربية ، ومن خرافات إسوب ؛ وراعى فى كتابتها ما يريد للأطفال وفق آرائه فى التربية ومذهبه فى الفن

وأضاف إلى هذا الكتاب قسطاً فى تعليم الحساب والعلوم الطبيعية والفلك كما يرى أن يكون . . كتب حين فرغ من كتابه إلى بعض أصدقائه فكان مما قاله « من الصعب أن أفصح لك عما أردته بهذا الكتاب ، وما موضعه من نفسي . . إن ما يدور حول هذا الكتاب الأوتلى من أحلامى هو أن يكون وحده الكتاب الذى ينشأ عليه جيلان من أطفال روسيا ، وأن هؤلاء يستخرجون منه ما يستقر فى نفوسهم من شعر ، وأن أموت أنا كاتبه مغتبطاً بذلك » .

وأعاد تولستوى مدرسته فى أوائل سنة ١٨٧٢ ليرى كيف يقرأ كتابه ، وكان يعينه ومن معه من المعلمين فى تعليم أبناء الفلاحين المهجاء زوجته وابنه سيرجى وكان فى نحو الثامنة من عمره . . وكان عدد هؤلاء الأبناء خمسة وثلاثين . ولم تقعد زوجته عن معونته إلا حين اضطرها الوضع إلى القعود فقد ولدت له فى مايو من هذه السنة ولداً سماه بيتر .

وذهب تولستوى فى صيف هذه السنة إلى سمارة ، واستصحب من رجاله من عهد إليهم القيام على بناء بيت له هناك ، والنظر فى إعداد الأرض للحرث والزرع . . ولكن طبع كتابه ، وقد عهد به إلى أحد أصدقائه فى بطرسبرج ، كان يقلق باله وهو فى سمارة فعجل بالعودة إلى قريته . .

ولما عاد وجد نفسه تلقاء حادث جديد زاده مقتناً للسلطة وطغيانها فى روسيا ؛ وذلك أن ثوراً من ثيرانه قتل أحد فلاحيه ؛ وكان حاكم تلك الجهة متغطرساً يمثّل طغيان أمثاله من رجال الحكومة ؛ فعد تولستوى مسؤولاً لأنه صاحب الثور وجعل مرد تبعته إلى « سوء قيامه على شؤون قطعانه » ؛ واضطره أن يقدم عهداً

مكتوباً ألا يبرح يا سنايا حتى يبلغ التحقيق نهايته ...
و بلغ الخنق بتولستوي كل مبلغ ، وإنه ليعلم عن ذلك الحاكم أنه ألقى ذات مرة
بأحد الفلاحين في السجن سنة ونصف سنة لمجرد الظن أنه سرق بقرة حتى ظهرت
برأته ... كتب إلى ابنة عمه يقول « إنني الآن في الأسر إذ لا أستطيع أن أبرح
يتى وذلك بأمر من صعلوك حدث هنا يسمونه خطأ قاضي تحقيق .. وعماً قريب
سوف أدعى للدفاع عن نفسي في المحكمة .. وإذا لم أمت كدأ في السجن حيث
أحسب أنهم سوف يلقونني ، فإني قد جمعت غزبي علي أن أعيش في إنجلترا إلى
الأبد ، أو على الأقل حتى يأتي الوقت الذي تحترم فيه هنا حرية الإنسان وكرامته .
واستمر التحقيق نحو شهر ، وعدل عن اتهام تولستوي إلى اتهام المنوط
بشؤون الضيعة من رجاله ، وقد كتبت عدة صحف منددة بما فعل الحاكم ، واستطاع
تولستوي بعد انقضاء هذا الشهر أن يسافر إلى موسكو وكان ذلك في سبتمبر ؛
ثم عدل أمام تنديد الصحف عن الاتهام والتحقيق جميعاً ...

* * *

وفي شهر نوفمبر ثم طبع كتابه أي بعد أربعة عشر شهراً من بدء كتابته ،
وشغل تولستوي عن غضبه ، رده في الصحف على ما وجه من نقد إلى ذلك
الكتاب ، الذي ظل نحو ثلاث سنوات موضع اهتمامه منذ فكر فيه وأخذ
في جمع مادته ...

ودعا تولستوي نحو اثني عشر معلماً من القرى المجاورة فأقاموا ضيوفاً عنده
نحو أسبوع ، ظل يشرح لهم فيه غرضه من هذا الكتاب وكيف يمكن
الإفادة منه .

وجعل تولستوي يتعقب الصحف فيرى ما تكتب عن كتابه ، وكان لا يدع
صحيفة إلا رد عليها وأبان لها مبلغ ما في نقدها من تجن أو صواب .

وكان قد توقع تولستوي عدم ذبوع كتابه أول الأمر ؛ وقد صح ما توقع
فلم يشتر منه عقب صدوره إلا عدد لا يتفق وما علق عليه من رجاء ؛ على أنه ذاع

بعد ذلك وصار يعد خير كتاب لتعليم الأطفال في روسيا .
وانتقدت الصحف آراء تولستوى في التعليم ؛ ولم يتهاون في الرد عليها جميعاً
رد المؤمن بفكرته ، المتحمس لما يرجو من صالح عام ؛ وقد أذاعت هذه الحملة
الصحفية آراءه في التربية ، وبخاصة بعد ما ذهب له من صيت وما توطد من
مكانة بقصة « الحرب والسلام » .

ما الحياة ؟ وما الغرض منها وما نهايتها ! ما الموت ؟ وماذا بعد الموت ؟
أما لهذه الألغاز من حل ؟ أما من سبيل للفكر في هذه الظلمة العاشية ؟ أما من هاد ؟
ذلك ما عاد يكرب رجل الفن بعد أن نفض يديه من كتابه الذى وضعه
لمطالعة الأطفال ؛ ما ذا أفاد من شوپنهاور ؟ لا شىء إلا الإمعان فى الشك
والاستغراق فى التشاؤم ! وماذا أفاد مما قرأ جميعاً ؟ لا شىء ... ألا شد ما تتعذب
نفسه وما أكثر ما يتمنى الموت على شدة تعلقه قبل هذا العذاب بالحياة ...
ألا يبلغ النرقانا ؟ أجل ألا يفلت من قيود هذا الوجود ، وتنطلق روحه من
إسارها ولقد ذاق ما ذاق من ألم ومن عذاب الحيرة ؟ « إن الدين لشىء عجيب
إذ أنه فى جملة عصور قد منى الملايين من البشر وأسعدهم بتلك المنى ، ألا وهى
بلوغ النرقانا ولكن كيف يكون الدين منطقياً بهذا العمل ؟ لك وحدك أسمح
لنفسى بكتابة مثل هذا » ذلك ما أرسله إلى صديقه فت فى أول سنة ١٨٧٢
لو أوشكت أن تنتابه تلك الأزمة النفسية التى سوف تأخذه من أقطاره
بعد بضع سنين وما يخرج منه اليوم إلا حنينه إلى الفن ... إنه يريد أن
يكتب قصة أخرى كبيرة مثل قصته « الحرب والسلام » التى تتحدث بها روسيا
كلها وأساطين الفن فى أوروبا ...

وماذا يتخذ موضوعاً لقصته الجديدة ؟ ذلك ما يحيره اليوم كما تحير من قبل
فى موضوع قصته السالفة

وإنه ليتجه هنا كذلك إلى التاريخ ، ويختار عهد بطرس الأكبر ؛ وإنه

ليدرس ذلك العهد دراسة مفصلة على نحو ما فعل في القصة السالفة ، فلا يدع صغيرة ولا كبيرة من عادات الناس وملابسهم وميولهم وأفكارهم ، ولا يدع صورة أو وثيقة أو كتاب ...

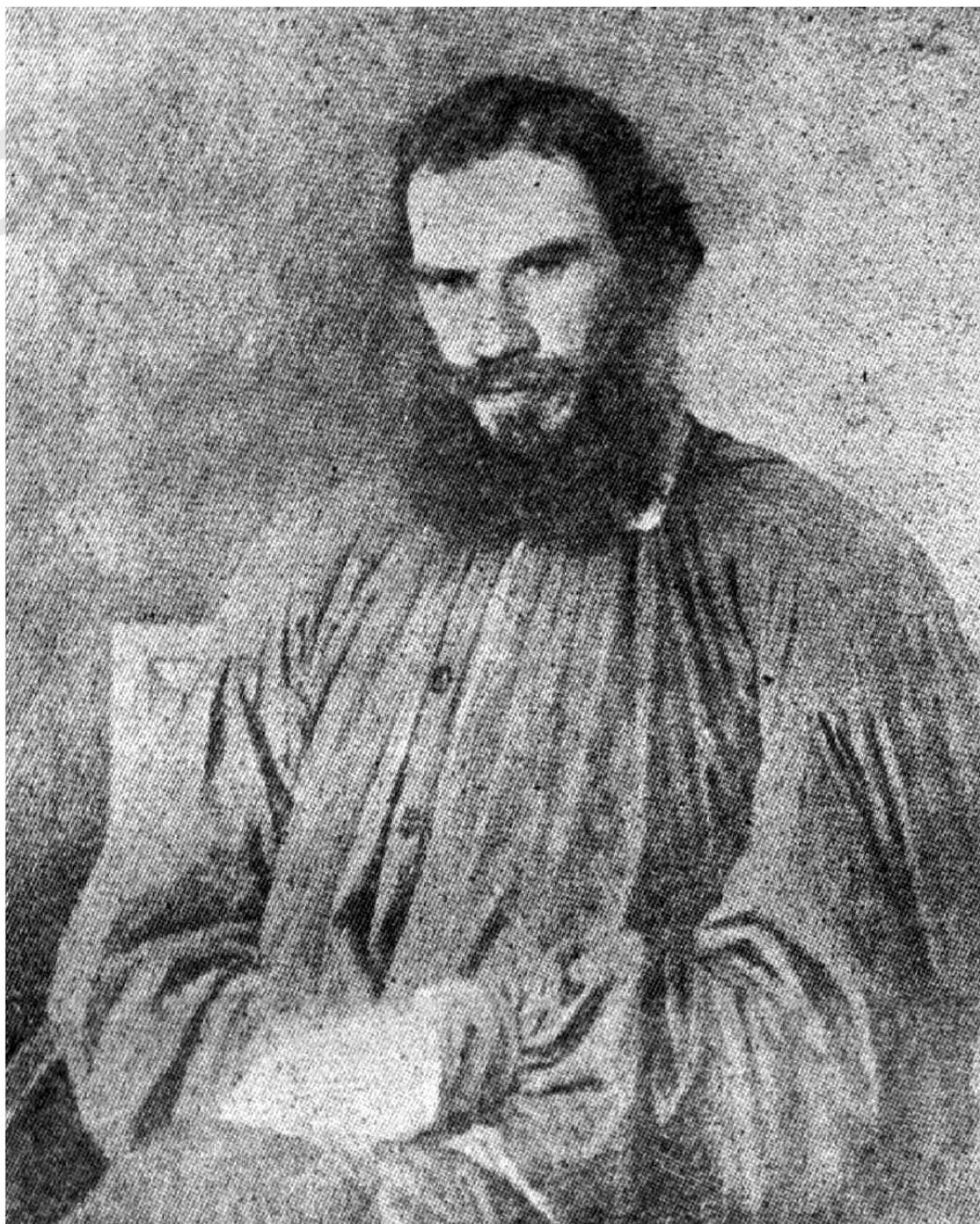
وفي أواخر يناير سنة ١٨٧٣ ينظر فإذا به قد كتب أكثر من عشر افتتاحات لقصته الجديدة ولكنه يعرض عنها جميعاً ، فلم يعجبه منها شيء ، وكان يقول « إن الآلة على أهبة ... وإن الموضوع هو الذي يحركها »

ونفر تولستوى من شخصية بطرس ، ومن شخصية منشكوف أحد المقربين إلى القيصر ، بعد أن كان يرى في منشكوف هذا شخصية روسية قوية نجمت من عنصر الفلاحين وتمثل هذا العنصر خير تمثيل « ...

وفي الثامن عشر من شهر مارس فاجأ تولستوى زوجته بقوله « لقد كتبت صفحة ونصف صفحة وأظنه شيئاً جيداً » وتلي عليها فاتحة قصته الجديدة « أنا كارينينا » ... وهكذا تحركت الآلة ولكن بموضوع ليس من التاريخ ... وسنأتى بحديث هذا الموضوع على سرده ..

أخذ تولستوى يكب قصته ، وكان يومئذ في الرابعة والأربعين من عمره ، وكان يحيط بزوجه عدد من الأطفال أكبرهم في التاسعة .. ولكنها على الرغم من ذلك ترحب مبتهجة بعودة زوجها إلى الكتابة ليكون لها من جديد فخر معونته . ولم يكن عمله متصلاً في هذه القصة كما كان في سالفتها ، فكانت تتخلله فترات انقطاع ، ومن ذلك ما حدث في شهر مايو من هذه السنة إذ ذهب وأسرته جميعاً فقضى نحو ثلاثة أشهر في سمارة ..

واستعان تولستوى في سمارة برجل مسلم يدعى محمد شاه ، وصفه بأنه أمين مواظب ، مهذب الطبع ، حريص على كرامته ، يمتلك عدداً من الأفراس وله زوجة نشطة تحتجب خلف ستار إذا دخل بيته ضيوف ؛ واستأجره تولستوى ليقوم على حراثة أرضه ؛ وكان يزوره في خيمته ، وتوثقت الصداقة بينهما سنوات طويلة ...



تولستوى فى الرابعة والأربعين

obeykandl.com

وكأنما جاء القدر بتولستوى إلى سمارا ليكون في مجيئه مظهر رحمته بعد أن أخذ الناس بنقمته ؛ فقد حلت بتلك الجهات مجاعة لسوء المحصول ولرداءته عامين متتاليين قبل عامهم هذا ؛ وجاءهم القدر بالرجل الذي تستمع لصوته الملايين إذا هتف يطلب الفوت ..

وهال تولستوى ما رأى ، فالجوع يودي بحياة الكثيرين ، والرجال لا يجدون عملاً ، والقطعان هزيلة والمرضى يستشري في القرى ... والناس في منعزلهم هذا عن دنيا المدينة لا يجدون معيناً لهم فيما حاق بهم من بلاء ... وأرسل تولستوى صيحته في إحدى صحف موسكو الكبيرة ، وبدأت زوجته قائمة تبرع بمائة روبل قالت إنها المبلغ الأول ؛ واستعان تولستوى ابنة عمه ألكسندرا ، وسرعان ما لبث القيصرة نفسها فتبرعت بمبلغ كبير ، وما هي إلا أيام ثم بلغ المال المتبرع به من الشعب مليوني روبل ، وأغيث الناس وقد كان يتخطفهم الموت ...

وكان تولستوى أثناء المحنة يزور الأمر بنفسه في القرى المجاورة ويجود بما في يديه من مال وقمح ، الأمر الذي لم ينسه له الناس زمناً طويلاً ... وعاد تولستوى وأسرته إلى ياسنايا في أواخر أغسطس ليستأنف العمل في قصته ، وهناك في ياسنايا سمع أن أحد كبار المصورين قد استأجر مكاناً قريباً ليصور منه تولستوى وهو مار به على قدميه أو على ظهر جواده ، ولما علم تولستوى أنه استأجر المكان لهذا الغرض ، وأنه لفرط حيائه وتواضعه لم يستطع أن يطلب إليه الإذن له بتصويره ، دعاه إلى بيته وأكرمه ، ثم إنه سمح له بما طلب على مضض لأنه كان يكره هيئته ولا يحب أن تنشر في الناس صورته ...

وأصيب تولستوى وزوجته بموت أصغر بنهما بيتر ؛ وكتب تولستوى إلى فت يصف له مبلغ حزنه وحزن زوجته ، ويقول إنه يحاول أن يتأسي لولا القلب وبخاصة قلب الأم . وكان هذا أول ما ابتلي به من نقص في الأنفس منذ زواجه وشغل تولستوى عن قصته في سنة ١٨٧٤ عودته إلى التعليم وشؤونه ،

فقد اهتم تلك السنة بالدفاع عن آرائه في التربية ، وبدأ ذلك بمحاضرة ألقاها في إحدى الجمعيات وإن لم يك يجب التحدث في المجتمعات العامة ورد عليه في الصحف بعض النقد وعقب على كلامهم ؛ ثم كتب مقالا طويلا في إحدى المجلات الكبرى عنوانه « حول تعليم الشعب » ، وأثار مقاله عاصفة من التأييد والمعارضة ...

وأراد أن ينشئ في ياسنانيا مدرسة أعلى مستوى من مدرسته ليدرس فيها الشبان من القرى المجاورة ما يلزم لهم من علم دون أن يضطروا إلى الانقطاع عن أعمالهم ... وتحمس لفكرته هذه أحد أصدقائه في مجلس المقاطعة ، وكان يشير تولستوى إلى هذه المدرسة بقوله « جامعة منتعلى الخشب » وذلك لأن الفلاحين كانوا ينتعلون في الجملة نعالا خشبية ، ومناه صاحبه بمبلغ متوفر لدى المجلس سوف يعمل على أن يرصده للتعليم ، وعمل تولستوى حتى اختير عضواً في ذلك المجلس ، وعضواً في لجنة التعليم ، ولكن كم ساءه ونفره من هذه المجالس جميعاً أن رأى الأعضاء يتبرعون بذلك المبلغ المرموق مساهمة من المجالس فيما يجمع من الشعب لإقامة تمثال لكاترين الثانية !

وكانت تملل زوجته من اهتمامه بمدرسته و « قومه » لأن ذلك يشغله عنها وعن كتابة القصص ، ذلك العمل الذي تراه موهبته الحقيقية والتي تحب أن تشارك فيه ، لأن من دواعي فخرها أن تكون زوجة مؤلف عظيم ، وأن يكون لها ضلع في إنجاز عمله ...

ولكن زوجها لا يعياً بما تقول ، ولا يبرح يزور المدارس في القرى المجاورة ليرى مبلغ تطبيقها آراءه ومبلغ إفادتها من كتابه ، كتب إلى ابنة عمه يقول « لقد بدأت أحب آلاف الأطفال الذين أعنى نفسي بهم كما فعلت منذ أربع عشرة سنة ؛ وكلما دخلت مدرسة ورأيت جماعة من التلاميذ في قذارتهم ونحافتهم وتهدمهم ، ونظرت إلى أعينهم الصافية وإلى ما يبدو أحياناً من سمات ملائكية في معارف وجوههم ، أخذنى الاضطراب والرعب كما لو كنت أطلع على قوم يفرقون »

على أنه لم ينصرف كل الانصراف عن قصته ، فقد كان يكتب صفحات منها بين الحين والحين ، وقد انشغلت عنه زوجته في تلك السنة إذ وضعت في أبريل غلاماً سماه أبوه نيقولا ...

وماتت العمة تاتيانا في يونيو سنة ١٨٧٤ ؛ وحزن تولستوى على فقدها حزناً شديداً ، فقد كان ينزلها من نفسه منزلة عظيمة منذ صغره ؛ ولقد ظلت تحبه حباً شديداً طول حياتها ، وكانت في سكرة الموت لا تتذكر إلا اسمه فتختلج به شفتاها ويضيء وجهها ...

ومات في فبراير سنة ١٨٧٥ طفله الصغير نيقولا ؛ وكأنما تتوالى فجائع الموت حين كان يطيل التأمل في الحياة والموت لتزيده حيرة وخوفاً .
وأراد أن يبتعد عن ياسنايا فرحل وأسرته إلى سمارا في صيف تلك السنة ؛ وهناك أقبل على حرث أرضه وزرعها ، وعاد يعمل بنفسه مع الزراع كأنه أحدهم وبجانبه محمد شاه الذى وكل إليه تولستوى أمر ضياعه ...

ومما ارتاحت له نفسه ما كان يلمسه من التسامح والمودة بين الأورثوذكس من الفلاحين وجيرانهم من المسلمين ؛ ومثله لن يسهو عن هذه المظاهر ، كذلك كان يرى أن من يعيشون هناك من فلاحى الروس يشعرون بقسط كبير من العزة والكرامة ؛ فهل كان مرد ذلك إلى بعدهم عن الرق وعن السلطات وما بثه ذلك في حياتهم من حرية ؟

وظل أهل سمارا يذكرون ما كان من غوثه لهم أيام محنتهم ، ولقد عظمت منذ ذلك الحين مكانته في نفوسهم ؛ وإنهم ليذكرونه بشيء آخر في عامهم هذا ؛ وذلك أنه بمعونة صاحبه محمد شاه قد أعد حلبة للسبق أجرى فيها عدداً من أحسن الجياد ، وازدحم الناس بدعوة منه ليشهدوها ، ومُنح الفائزون الجوائز من ماله ، وكان هذا يوم سرور عظيم لسكان تلك الجهة .

وأراد أن يتفرغ لقصته في سنة ١٨٧٦ ، ولكن مرض أبنائه ومرض زوجته عقب عودتهم من القوقاز كان يكرب نفسه ويزعج خاطره ؛ وليت الأمر

اقتصر على ذلك ، فإنه ليستغرق في تأمله وإن التبرم بالحياة والتشاؤم من كل شيء
ليلح عليه ويحيط به من جميع أقطاره ، وإنه ليبيت في كثير من الأحيان على
حافة الجنون ؛ وإن كتبه إلى صديقه فت لتفيض بما كان يلقاه من عذاب
روحي شديد ...

على أنه يسمع عن إقبال الناس على قراءة ما ينشر من قصته تباعاً في إحدى
المجلات التي اختارها لها ، فيحفزه ذلك إلى الكتابة ؛ ولقد بلغ من إقبال الناس
على قصته أن كثيراً من السيدات من أكبر الأسر في موسكو كن يرسلن
خدمهن إلى مقر الصحيفة ولم يستطعن الصبر حتى يصدر العدد ليسألوا ماذا يكون
من أمر كيت وكيت من الأشخاص والحوادث .

ويقبل على قصته ، وتتعبط زوجته بما ترى من حماسه وانسراح صدره ،
ونغالب المرض والضعف لتعينه ، ولكنها تنظر فإذا به ينصرف عنها أياماً كانت
تراه فيها مكتئب النفس ، في وجهه ما يشبه اليأس ، وإنه ليطيل الإطراق أحياناً
ويتهجم ويقلب كفيه حتى ما تجرؤ أن تسأله ما به ؟

لماذا أعيش ؟ ، وما الغرض من حياتي ؟ وإلى أين أذهب ؟ لا تزال هذه
الأسئلة تلح عليه ، وما يزيد تأمله إلا حيرة ولا يأسه إلا إغراء بالعودة إلى التأمل .
وما باله يحن إلى الموسيقى في هذه السنة ويقبل عليها كما كان يفعل في صدر
شبابه ؟ ما بالها عادت تؤثر في نفسه وحسه كما كانت تفعل وهو غلام ؟ أهو
يلوذ بها من هم ، أم أنه يئس من العقل فهو يريد أن يركن إلى وجدانه وقلبه ؟
ها هو ذا يتعرف في آخر السنة إلى شايكوفسكى أحد مشاهير الموسيقى ؛
ويفتخر الموسيقى بمعرفته تولستوى وهو من أشد المعجبين بقصصه ، وها هو ذا
شايكوفسكى يسمعه لحناً فينظر فإذا به تدمع عيناه !

وإنه ليذرف الدمع في موطن آخر ، وذلك على أثر كتاب جاءه من صديقه
الشاعر فت ، وفيه يذكر الشاعر أنه وقع على حجر وضع على قبر في أحد المدافن
فقرأ على أحد جانبيه « دفن هنا جسد القروية الفتاة ماري » ، وقرأ على الجانب

«الآخر» هذه يا حبيبتي آخر حلية أستطيع أن أقدمها إليك .
ويرد تولستوى علي صاحبه فيقول « هذه يا حبيبتي آخر حلية أستطيع أن
أقدمها إليك ... ما أبدع هذا ! لقد جهرت بالعبارة مرتين وكان البكاء يقطع صوتي
كل مرة » .

أهدى يلتمس في الشعر والموسيقى ؟ أذلك إشراق روجي يغمر نفسه ؟ ولكنه
لا يلبث أن يدع الموسيقى والشعر إلى عالم من أشهر علماء الكيمياء في موسكو ،
لعله يجد عنده من العلم ما يهديه ؛ ويرتد تولستوى عنه ساخراً منه فقد وجده
يشغل بما يعده من الخرافة إذ أنه يستحضر الأرواح ويحاول أن يحرك المناضد
وما إلى ذلك مما يحتقره الفكر الحائر ...

ويتحدث إلى غير هذا ممن يؤمنون بأن داروين جاء من العلم بما يحل لغز
الحياة والموت ، ولكنه ينصرف كذلك عنهم ، وفي نفسه السخط عليهم
والاستهزاء بهم ...

ويعود إلى قصته فلا بد له من إكمالها حتى يتفرغ لهذا الذي يشغل باله والذي
يكاد يذهب بعقله ؛ ويجد في الكتابة منذ أوائل سنة ١٨٧٧ فلا يأتي أبريل
إلا وقد نفذ يديه من هذه القصة وهو يومئذ في التاسعة والأربعين من عمره .

وشتان بينه اليوم وبينه في صدر شبابه ؛ وشتان بين ما تنطوي عليه نفسه
اليوم وبين ما كان يهجس في نفسه أمس من أحلام الشباب وأوهامه ..
لم يبق شيء من لاعب الميسر الذي يتلف ماله ولا من الماغن المتأنق الذي
كان لا يحفل شيئاً ولا يابيه لشيء ؛ وحل محل هذين رجل إن تكن الارستوقراطية
من طبعه ، إلا أنه يعيش عيشة فلاح روسي في ملبسه وأسلوب حياته ، وعيشة
فيلسوف في تأمله وفي عنايته بالقيم الأخلاقية فيما يكتب ، وعيشة شاعر في عزوفه
عن المدينة وركونه إلى القرية ، وعيشة تقي صالح في بحثه عن الله وفي حبه لله ...
وأين هذا الكهل الذي تدور بوجهه حلية كثيفة ، والذي يخطر في ملبسه

القروية الفضفاضة المتواضعة من ذلك الشاب الذي كان حليق الذقن ، أنيق الثوب ، يختار من الألوان أسطعها ومن الحلل أبدعها ؟

ولكن شيئاً من ماضيه لا يزال حياً فيه ؛ ذلك هو إلحاح جسده عليه ، فما زال بدنه القوي عارم الشهوة علي الرغم من أنه اليوم زوج كهل ، ورب أسرة كبيرة العدد ، وعلى الرغم من بذله طاقة عظيمة في العمل العقلي المرهق .. على أنه اليوم يكبح جماح شهوته . فإذا بعد عن بيته وألحت عليه الرغبة دعا إليه من رجاله من يطلب إليه ألا يفارقه حتى يدافع نزوته ويقهر رغبته ...

ولقد ظلت لبدنه حيويته وقوته ، تلك الحيوية التي كانت من أبرز خصائصه ، والتي سوف تظل متوثبة فيه على الرغم مما كان ينتابه أحياناً من المرض ، حتى جاوز الثمانين فلم يطفىء جذوتها إلا الموت ؛ وإلى هذه الحيوية القادرة ترد مثابرتة نحوستين عاماً على الدرس والتفكير والكتابة ؛ لم تقعه الشيخوخة أو تلحق بذهنه الكلال ، وحسبك أنه بدأ يكتب قصته العظيمة « البعث » وهي ثلاثة قصصه الكبيرة وهو في السابعة والستين ، وهي التي قال عنها النقدة أنها وحدها إذا نسبت إلى كاتب عد بها من أفذاذ هذا الفن .

وإن من يراه اليوم في قرينته ، ولم يكن يعرف أنه هو ، لم يدر بخلده إلا أنه تلقاء فلاح عادي من الفلاحين ، فما كان في هيئته شيء ينم عن عبقرية ، أو حتى عن ارتفاع عن مستوى من حوله من الناس ...

كانت ملامح وجهه ملامح روسية بكل ما في تلك الملامح من خصائص ، فهو بين الزراع واحد منهم ، وهو في صفوف الجيش ، لولا شارته ، كأحد الجند في هيئته وسحنته ؛ وليس في رأسه وهو مثوى عبقرية قادرة خالقة ما يشعر بشيء يستدل به على شخصيته ؛ وإذا كان في ملامح الرجل وهيئته ما يتصل بسبب أو أكثر من سبب بعقليته كما يزعم الزاعمون ، فما أعظم ما يقوم من دليل في تولستوى على بطلان ذلك ...

ولقد كان يقول تولستوى كلما جاء ذكر هيئته : « إن وجهي وجه فلاح

عادي » ، وكثيراً ما كانت هيئته في صغره وفي صدر شبابه أيام التأنيق والتظرف مبعث ألم لنفسه وكآبة لوجدانه ...

ولكن السر في عينيه ، فهاتان العينان اللتان أدهشتا ترجنيف بهريقيهما ونظرتيهما حين رآه أول مرة هما موضع السحر والرهبنة في شخصيته ؛ فلم يره إنسان قط ونسي نظرتيه ، أو بالأحرى ومضته . بهذا تحدث كل من رآه وأكثرم حديثاً عنه في هذا مكسيم جوركي ؛ هيهات أن ينسى زائره كيف كانت تتشكل عيناه حسبما يكون في ذهنه ، فتلعان بما يشبه النار عند الغضب ، وتسخران عند التهمك ، وكأنهما تذوبان إذا تحركت في قلبه عاطفة ؛ ويكون فيهما مثل صفاء الربيع إذا ارتاح إلى فكرة أو إذا كتب شيئاً أعجبه ، وتضيئان باليقين والثقة إذا نظرنا إلى متحدث تستشفان ميوله وتتعرفان شخصيته ، وكأنهما تخرقان حجب النفس وتقرآن ما يجول فيها ، فما أخطأنا قط في النفاذ إلى ما تريدان ؛ هذا إلى يقظة فيهما واستيعاب عجيب لكل ما تقعان عليه لا يفوتهما شيء مهما دق أو تشتت أو احتجب ...

هذا هو تولستوى إذ يقرب من الخسین وإذ يدنو من أزمته النفسية الكبرى وإذ يلقي بالفن وراء ظهره بعد أن كتب « أنا كارينينا ... »



أنا كاريفينا

ما كاد ينفض تولستوى يديه من «الحرب والسلام» حتى كان شغله الشاغل
البحث عن موضوع جديد ، وذلك على الرغم مما كان يحسه من لغوب ...
واتجه ذهنه كما أسلفنا إلى عهد بطرس الأكبر ، ولبت نحو عامين يقرأ
ويثبت ملاحظاته ، ويستقصي ويتخيل ، وبين يديه أكداس من الأوراق
والصور والكتب .

ولكنه يحس أن العهد على احتشاده بما يطلب الفنان لا يعجبه موضوعاً
لما يريد من قصة جديدة ؛ ثم يصعب عليه أن يضحي بما بذل من جهد عنيف
في الإعداد والدراسة فيقنع نفسه بصلاحيه عهد بطرس ؛ ويهم بالكتابة فلا يلبث
أن يتبين في قرارة نفسه أنه لا يستشعر تلك النشوة ولا ذلك التحمس اللذين لا بد
منهما لمن يريد أن ينهض بعمل عظيم .

ويوقن آخر الأمر بعد أن تم له كل شيء ، وبعد أن بذل ما بذل من جهد
أنه لن يحب ذلك الموضوع ، ولذلك فهو لا يستطيع البدء أو في الواقع لا يحسنه
كلامه بالكتابة ، أو كلما كتب فأتمه لقصته ...

لم يكن يؤمن تولستوى بعظمة بطرس ، وكان يرى أن الباعث على ما نسب
إليه من إصلاح لم يكن سوى أطماعه الشخصية ، وهو بما أدخل من مظاهر
الحضارة الأوروبية في روسيا قد باعد بينها وبين تقاليد وطباعها الموروثة فكان
عمله طلاء لا خير فيه ؛ هذا إلى أنه كان متغطراً شديداً بالقسوة ، لم يتورع عن
قتل ابنه ، فضلاً عن عشرات غيره من الناس ...

وماذا يكتب ، وهو لا يستطيع أن يدع الكتابة ؟ ذلك ما حيره وسهده ،

ولكن حيرته لم يقدر لها أن تطول ، فقد وثب ذهنه إلى حادث وبع على مقربة من ياسنایا منذ عام أى سنة ١٨٧٢ ، ولم يتجه إليه فى حينه لأنه كان مشغولاً بعهد بطرس الأكبر ...

وخلصة ذلك الحادث أن أحد معارفه الأقربین قد فترت صلته بعشيقته ، والتهبت عشيقته غيرة من تودده لمربية أولاده الفرنسية ، ولما أطلعتة على غيرتها عنفها ولم يحفل بكاءها ، فانطوت نفسها على أمر ... وغابت عنه ثلاثة أيام لم يعلم فيها أين ذهبت ، ثم كتبت رقعة قالت له فيها « أنت قاتلى ، وإذا كان القتلة على مثالك فهنيئاً لك ... تستطيع أن ترى جثتى إذا شئت فوق قضيب سكة الحديد عند ياسنكى » ، وألقت الفتاة بنفسها تحت عجلات القطار فطمها تحطماً ، وشهد تولستوى الجثة مشوهة فى صورة نكراء عند التحقيق .

وثب ذهنه إلى ذلك الحادث ، وأخذ يفكر فى مدى صلاحيته موضوعاً لقصته ، وكان منذ عامين قد فكر فى قصة يكون موضوعها « امرأة متزوجة فقدت توازنها » ، وضم هذا إلى ذاك ، وارتاحت نفسه إلى قصة لا تكون من التاريخ وإنما تكون من حياة العصر القائم ، تصور حال أسرته وتدور فيها المأساة حول امرأة ...

وأحس بذلك السرور الذى يصحب الراحة من عناء الحيرة ، واتفق أن دخل ذات ليلة إحدى حجرات بيته ، وكان ابنه سيرجى يقرأ كتاباً فيه بعض قصص بوشكين ، فتناوله وفتحه حيثما اتفق فوقه بصره على فائحة قصة جاءت كما يأتى « أخذ الضيوف يفدون على المنزل الربيعى » ، فأعجب بهذه الفائحة وأشرقت أسارير وجهه ، وهو الذى كان يقول فى صدر شبابه إن فن بوشكين قد أصبح قديماً ليس هذا وقته ، وقال لزوجته « ما أجل هذا وما أبسطه ! ... هكذا ينبغى أن يكون افتتاح القصة » ... فإن القارىء يجد نفسه تلقاء الحادث مباشرة ، ولقد كان أى كاتب غير بوشكين يبدأ بوصف الضيوف أو الحجرات ، ولكن بوشكين يسير توأ إلى هدفه ... إن بوشكين أبى وهو أستاذى ..

وأومضت في ذهنه في لحظة ، فكرة القصة في جملتها ، وكتب فأتمتها مبتدأ بقوله « تتشابه الأسر السعيدة في سعادتها ، وتشقى كل أسرة شقية على صورة تختص بها ؛ لقد قاب كل شيء في بيت أو بلنسكي رأساً على عقب ... » .

إذا عدت « الحرب والسلام » إليادة تولستوى . فإن « أنا كارينينا » أوديستته . فقد كتب هذه القصة وقد بلغ غاية نضجه الفكرى ، وذاق من حلو الحياة ومرها ما أمده بكنز من التجارب لا ينفد ، وهدأت حماسة شبابه ، وصارت نظرتة إلى الأمور نظرة الفيلسوف المتأمل مضافة إلى نظرة الفنان المبتدع ؛ هذا إلى ما استقر في ذهنه من فلسفة شوپنهور وكانت وغيرها ، ومن خطرات تأمله هو ، وما كاد يزهق روحه من حيرة ، وما عاد منه يائساً كل مرة من التفكير في الموت والحياة ..

أما عن فنه فما برحت أصالته هي الغالبة ، وإن كان أثر هوميروس في بساطته وصدقه غير خاف هنا كما لم يخف في القصة السالفة ، وقد قرأ تولستوى الأغريقية ، وما ذلك الأثر في الواقع إلا لأن فن هوميروس يتصل بفن تولستوى بأقوى سبب ، فأبرز ما فيهما الصدق والبعد عن الصخب والتكلف ...

ليست « أنا كارينينا » في الواقع قصة واحدة وإنما هي ثلاث قصص ، أدخلها تولستوى بعضها في بعض على صورة لا يستطيعها إلا من كان له مثل عبقريته الفنية ، والقصص الثلاث صور ثلاث للزواج مختلفات . أما الأولى وهي القصة الرئيسية التي تتمثل فيها مأساة من أعنف المآسي ، فقصّة زوجة تنصرف عن زوجها فتحب شخصاً غيره ، وينتهي الأمر بأن تلقى بنفسها تحت عجلات قطار .

وأما الثانية ففيها الرجل هو الذى ينصرف عن زوجته إلى غيرها من النساء على الرغم من إخلاص زوجته له ولبيتها ، وقيامها خير قيام على خدمته والعناية

بأبنائهما ... وذلك لأنه يحس أنها فقدت كثيراً من جمالها إذ أكثرت من الأطفال وشغلت بالعناية بهم .

وأما الثالثة ففيها الحب متبادل بين الزوجين ، وقد زادها ارتباطاً ومحبة ما أنجبا من أبناء ...

وتمضي في قراءة الكتاب فإذا كل قصة تتداخل في أختيها على نحو عجيب حقاً ، فقد أراد تولستوى أن يزيد القصة الأولى وضوحاً ويزيد أثرها في النفس عمقاً بان يدع القارى يقارن دون أن يشعر بينها وبين أختيها ؛ بينما لا يفتأ يحس أن القصة الأولى هي وحدها قوام الكتاب لفرط تأثره بها وإعجابه بشخصية أنا واطراد عطفه عليها وتشوقه أبداً لمعرفة ما ذا يكون من أمرها ...

تزوجت أنا منذ تسع سنوات أحد كبار الموظفين وهو كهل يسمى أليكسى كارينين عظيم الثراء والنفوذ ، وأنجبت له ولداً سماه سيرجى ، ولم تجد أنا وهي الغادة الساحرة ، في الزواج أرب مشاعرها من المتعة وحاجة قلبها من الحب ، لأن زوجها كان دائماً في شغل عنها بأطماع منصبه وما يحيط به من منافسة ودسائس ؛ وطالما أحست الفراغ والرغبة ، وطالما ضاقت بها الدنيا لولا ولدها الذى ترعاه وتتعلق به تعلقاً شديداً .

وأول ما نعلمه في القصة عن أنا : أنها قادمة إلى موسكو تلبية لدعوة من أخيها ستيفنا اوبلنسكى لتصلح بينه وبين زوجته دلى فإن زوجته نائرة تكاد تموت غيظاً مذعلت أنه يحب المربية الفرنسية ، وهذا هو موضوع القصة الثانية . ويشعرنا المؤلف شيئاً فشيئاً بسحر أنا وجمال نفسها ، وروعة شخصيتها ؛ فهو يصفها لنا قادمة في القطار من بطرسبرج ، حيث يجمعها السفر بسيدة هي أم لضابط شاب يدعى فرونسكى ؛ وتثنى الأم على ابنها إذ تتحدث عنه ما وسعها الثناء ، وتنصت أنا وقد وقع في نفسها اليتيمة ما سمعت عن ذلك الضابط من ثناء . ونعلم من صفات أنا حسن أدبها وعذوبة ابتسامتها ، ورقة حاشيتها ، ودمايتها وظرفها ؛ ثم يعجبنا من جمالها عيناها الشهباءوان الطويلتا الأهداب ، وشفتاها

الرفافتان كالزهر ، وقوامها الرشيح الطويل وبدنها الذى يجمع بين القوة والنعومة وتلك الحياة التى تشيع فى هيكالها كله ، وتلك الحيوية التى تحبسها محتشمة والتي تريد أن تجرف الحواجز ، ثم هذه الموسيقى وهذا الإشراق ، وهذا التفتح ، وهذا التوافق العجيب بين أعضائها ، ثم هذا السحر الذى يتألف من ذلك كله ...

ومضت إلى بيت أخيها ، وقد وقعت عينها فى المحطة على فرونسكى فوقع من نفسها موقعاً جميلاً ، ورأت منه أريحية كريمة فى حادث أودى بحياة أحد العمال إذ دهمه القطار فقتله .

وأصلحت فى كثير من اللباقة والحذر والكياسة بين أخيها وزوجته على شدة ما كان فى قلب الزوجة من ثورة وحزن ، وهذا الصلح مما يزيد القارىء حياءً لأنا وشخصيتها الساحرة اللطيفة .

وبعد أيام نرى أنا فى صالة رقص ، رشيقة يستوقف الألاحظ وجهها الجميل وشعرها الفاحم ، الذى تبدو حلقات صغيرة منه فوق جبينها ومن وراء عنقها ، وكتفاها اللتان تبدوان كأنهما صنعة مثال ، وذراعاها الرشيقتان البضتان ؛ وهى ترتدى ثوباً من القطيفة السوداء ، ويدور بعنقها عقد من اللؤلؤ الأبيض ، وعلى صدرها باقة صغيرة من الزهر ، وفى شعرها باقة أخرى ...

وترى فرونسكى فى صالة الرقص ويراها ، وتحس أنه سحرها ويحس أنها سحرته ؛ وكانت قد علمت أن كتى مشغوفة به وهى أخت دلى ، وقد صحبتها إلى المرقص لتعينيها ، ولكنها سرعان ما نسيتها وسرعان ما نسيتها فرونسكى ...

ونظرت كتى « وبدا عليها أنها ترى فى أنا أمارات ذلك الانفعال الشديد الذى عرفت مثله هى نفسها بالتجربة وهو انفعال النجاح ؛ وظهرت أنا كأنما أسكرها هذا الظفر ؛ ونظنت كتى إلى أى شىء تعزو تلك النظرة الوضيئة المنتشية ، وتلك الابتسامة الهائثة الظاهرة ، وتينك الشفتين تفتران نصف افترارها وتلك الحركات يشيع فيها الانسجام والرشاقة » .

ولما سافرت أنا إلى بطرسبرج كان فرونسكى مسافراً معها فى نفس

الوقت ، والتقىا في القطار ، ثم كثر بينهما اللقاء بعد ذلك في المجتمعات ...
وتفكر أنا في زوجها فيتمثل لها كل ما تكرهه منه ؛ يتمثل لها برود طبعه ،
وكهولته السكابية وخلو قلبه من العاطفة ، بيد أنها لا تنكر أن له ضميراً ، وأن
شيئاً من الخير يتصل بنفسه ، ولكنه ليس برجل وجدان فهو يقيس كل شيء
بما حفظ وعلم ، ويفكر تفكير الموظف الذي يتمسك بالمواعيد ، ويهتم بالشكل
دون الجوهر ...

وكان حرياً أن يفطن زوجها إلى ما طرأ عليها من تغير ، ولكنه لم يفطن
إلى شيء ، ولم ينتبه منها إلى شيء ؛ ولم يعد عدم انتباهه يؤلمها ، بل إنها اليوم
لا تكترث له فان بالها كله إلى فرونسكي .

ويفطن زوجها إلى اهتمامها بفرونسكي أكثر من مرة ؛ ويقابلها بالازدراء ،
ويزداد بروده ، ولكن هذا البرود لا يؤلمها ؛ ثم يكون بين أنا وفرونسكي ما يكون
بين الزوجة الخائنة وعشيقتها ؛ وهي في حلمها لا تبالي شيئاً ولا تتأثم من شيء ،
فاذا ثابت إلى نفسها حيناً بعد حين حاولت أن تخدع نفسها بأنها على صواب .
فما كانت معاملة زوجها إياها إلا مفضية إلى هذه الحال ، وهي إنما تنتقم لنفسها
الآن وإن لم تبيت هذا الانتقام .

ثم إنها تستنكف أن تعيش وزوجها بعد ذلك تحت سقف واحد ،
ولا تطيق أن تأكل من ماله ؛ فتصارحه في ثورة غضب أنها ليست زوجته بعد
اليوم ، وأنها تحب فرونسكي وأنها له ، وتعظم حفيظة زوجها أول الأمر ، ويبدو
غليظاً فقط كأنما يشمت من زلتها ويعاقبها بعدم مبالاته . ثم يغلب عليه رثاؤه
لخالها فان له ضميراً كما سبق القول ، ويتفكر في الطلاق ، ولكنه يعود فيخشي
الفضيحة ؛ ويطول به التفكير وتتعاقب في ذهنه الاحتمالات والافتراضات ، ثم
ينتهي به الحال إلى أن يهجر زوجته ويدعها تلتقي عشيقها أينما شاءت وكيفما شاءت
وكانه لا يعلم من أمرها شيئاً ...

ويعود إلى بيته مرة فيجد بين يديها طفلاً ولدته لفرونسكي وتبدو كأنما تعالج

سكرات الموت من أثر الحمى فلا يكون منه إلا الرحمة والمغفرة ! ويقف إلى جانب سريرها يسمعها كلمات صفحه وعطفه ، وكأنما ينقلب بما يبدي من نبل شخصا آخر ، ويحظى من رضاء قلبها في هذه اللحظة بقدر ما يفقد عشيقها .

ويدخل فرونسكى ، فيقف إلى جانب كارينين وقد دفن وجهه في كفيه ، وتصبح به أنا في صوت تقطعه الحمى : « أ كشف عن وجهك وانظر إلى هذا الرجل ... إنه من القديسين ... ثم تكرر قولها في غضب أ كشف عن وجهك ... أ كشف عنه ... أليكسي ، أ كشف لي عن وجهه فإني أريد أن أراه » ، ويجذب أليكسي يدي خصمه فيظهر وجهه وقد غير الخجل والألم معارفه . وتصبح أنا بزوجها « أعطه يدك ... أعف عنه » ، ويمد أليكسي يده وإنه ليجش ولا يملك دمه . وتقول أنا « أحمد الله ... أحمد الله ... كل شيء على أهبة الآن » ... ثم تنظر إلى ورق الحائط وتقول في هذيان « ما أقبح هاتيك الأزهار . ليس بينها وبين البنفسج أقل شبه ، يا إلهي ، يا إلهي ... متى ينتهى هذا العذاب ؟ إلى بالمورفين أيها الطبيب .. أريد المورفين .. رباه .. رباه ! » . ويخرج فرونسكى فيطلق على صدره رصاصة تلقيه على ظهره ، والدم يتدفق منه . . .

ولكن القصة لا تنتهى عند هذا ، فقد شفيت أنا وشفى فرونسكى . ثم توهجت جمرات حبهما بعد خمود ، وعادت أنا تنفر من ذلك الذى رأته قديسا وهى على حافة الموت . . وعاد القديس إلى بروده وإلى جموده .

ويسافر العشيقان إلى إيطاليا فيقيان زمنا ثم يعودان إلى روسيا ، وتنظر أنا فى نفسها وتبدأ فى التأثم ، وتتغشاها الخواطر السود ، وأين هى من السعادة إذ تحيا مثل هذه الحياة ؟ .. كلا ... لقد بذت نفسها رخيصة ، وإنها لتشمز من نفسها اليوم . وإنها لمعذبة فى نهارها مؤرقة فى ليلاها ، وإنها لتأكل الأفيون كى تنام ! ...

وينال ذلك كله من بدنها وأعصابها فتظن بصاحبها الظنون . فقد قضى

منها وطره فيما تعتقد ، وهى الآن بين يديه سلعة رخيصة ؛ وتعذبه بغيرتها واضطرابها وبكائها ؛ ويرتاع فرونسكى ؛ ولكنه يصبر صبراً جميلاً ، وما يزداد لها إلا وفاء ومحبة ؛ وإنها لفاتنة برغم ذلك كله ، حلوة تشهى ؛ وإن لها لمكاتها فى نفسه على الرغم مما تظنه بنفسها من ظنون .

ويزداد سأم أنا ، ولا تجد لحياتها طعماً ، ويعذبها أشد العذاب ما يقول الناس عنها وبخاصة النسوة من صاحباتها اللأى يتنكرن لها ؛ وكاد يقتلها شعورها أنها طريدة ، لا يمكن أن يكون مكانها فى المجتمع إلا مكان الساقطات ؛ ويأتى القدر بحادث تافه فإذا فيه نهاية كل شيء ؛ وذلك أن فرونسكى قد سافر ذات يوم بعد حوار عنيف بينه وبينها إلى قريته كيزور أمه ؛ وتبرق إليه أنا ليعود إليها من فوره ، ولكنه يرد عليها بقوله إنه لا يستطيع العودة قبل الساعة العاشرة بالعشى ، فتسافر إليه ، وتسمع من أنبائه فى المحطة وقلبها ممثلىء بالظنون ، ما يوهمها أنه لن يعود إليها أبداً ، ويطالعها ما ينتظرها من شقاء وبؤس ، وتلهب الغيرة قلبها ، ويحزن جنونها ، وتنظر فإذا بقطار بضاعة يدخل المحطة فتقفز المسكينة من فوق الطوار ، ويمر من فوقها القطار فإذا هى كومة من اللحم الممزق ، لم يبق منها دون أن يتحطم إلا رأسها الجميل ...

هذه هى الحكاية ولكنها ليست القصة ؛ فالقصة أعظم وأروع من أن يحيط بها مثل هذا الإيجاز .

فى هذه القصة كما فى سالفها عدد كبير من الشخصيات ؛ خلقها ذلك الفنان العبقرى كما فعل فى « الحرب والسلام » على مثال من عرف من الناس .
ومن أهم تلك الشخصيات من الرجال ستيثا وهو أول من يظهر فى القصة ، ثم ليثن وفرونسكى وأليكسى كارينين ... ومن النساء دلى وكتى وأنا ...
ويظهر ستيثا أو البرنس أو بلنسكى فى القصة رجلاً ، بادية الوجاهة ، هادىء الطبع ، كيساً ، يجارى الناس ويعمل على كسب الأصدقاء ، ماهراً فى اجتذاب

القلوب ، سريعاً إلى معرفة ذوى النفوذ ؛ وهو لا يبخل بمعرفه علي الناس ؛ يحب الاستمتاع بالحياة و يبذل أقصى جهده ليتجنب متاعها ؛ ثم إنه يحب النساء فلا يكاد يدير ظهره لواحدة قضى منها وطره ، حتى يسعى وراء غيرها ؛ علي أنه عطوف برغم ذلك علي زوجته ، ولشد ما آلمه وأحزنه حزنها إذ علمت بما كان بينه وبين المربية الفرنسية ... ولكنه وهو رجل الدنيا لم يعدم الوسيلة لمصالحتها وقد تم له ما أراد علي يد أخته أنا ؛ ولم يتب بعد الصلح وإنما ظل يخفي عن زوجته علاقاته بالنساء . وهذا لون من حياة النبلاء والمتنبلين في موسكو و بطرسبرج في العصر الذي كتب فيه القصة ..

أما ليثن فهو تولستوى نفسه ، ولعله أقرب من خلق من الشخصيات في كتبه جميعاً شهاً به ؛ وفيه حياة تولستوى وحيرته وآلامه منذ بدء يخطب صوفيا بيرز إلى الوقت الذي أتم فيه أنا كارينينا ...

لم يكن ليثن رجل الدنيا ، وإنما كان من العلية بمولده ونسبه وماله ؛ كان رجلاً مفكراً ، كثير القراءة ، ذا ضمير مستيقظ ؛ يعيش في القرية مهتماً بالزراعة والتعليم وغيرها من الشؤون المحلية ، وهو يحب الخير للناس ويتمنى أن يراهم يسرون قدماً نحو الصلاح والنهوض .

وأحب كتي ، ولكنها كانت تميل إلى فرونسكي ؛ وكان ليثن خجولاً ، شديد الإحساس ، يزعجه أقل شيء يشتم فيه الإهانة لشخصه ، ويحس نفسه غريباً في صالات موسكو وفي ضوضائها ؛ وكان يرى من كتي ما يشبه الإعراض عنه فتراجع كاسف البال محققاً ...

ويميل فرونسكى إلى أنا ، وتحزن كتي ويحترم المم جسدها ، وتسافر إلى خارج روسيا فتسترد عافيتها . ثم تتبين أنها تحب ليثن فتجيبه إذ يطلب يدها وتصير له زوجة ...

ولا يفتأ ليثن يعنى نفسه بالتأمل في الحياة والموت ، حتى يحيط به اليأس من كل مكان ، ويريه موت أخيه أن الحياة عبث وغرور مادام كل شيء مصيره

إلى القبر؛ ويقرأ ليثن الكتب ويدرس العلوم الطبيعية ولا يزال في حيرته ويأسه حتى يتحدث إلى فلاح شيخ من الموقنين على مثال كارتايف في «الحرب والسلام» فإذا بفكرة تضيء في ذهنه وذلك أن العقل ليس سبيله إلى ما يطلب وإنما سبيل ذلك القلب؛ وإذا به يرى للحياة معنى هو أن يعيش المرء من أجل غرض أسمى من مطالب الجسد الفاني، ألا وهو ما تتطلبه الروح الخالدة ...

وأما فرونسكى فهو ضابط شاب من النبلاء تخطى الثلاثين، جميل الطلعة، عظيم الثراء، ذكي، واسع الاطلاع؛ أمامه مستقبل نخم، وهو قوى الإرادة، لا يعبأ بما يقول الناس عنه، هادئ الطبع، ولكن فيه شيئاً من الكبرياء؛ وقد رأينا ما كان من وفاته لمشيخته على الرغم مما كانت تعذبه به من غيرتها واضطرابها، وعلى الرغم من تغيرها تغيراً كان كفيلاً بأن يصرفه عنها ... ولقد كان حبه سبباً في تأخره في مضمار الرقي فخطاه غيره ممن هم دونه، وأظلم أمامه المستقبل المشرق ...

وأما كارينين فيمثل في القصة الرجل الأناني الذي لا يعنيه من الحياة إلا منصبه ونفوذه، والذي يحرص على سمعته، حتى ليقبل أي شيء في سبيل أن تبقى هذه السمعة بعيدة عما يشوبها؛ وهو مثال الرجل العملي الذي لا يعرف الخيال، والذي يجعل مرد كل شيء إلى فكره، وليس لعاطفته أي سلطان عليه ... وهو الزوج الفاشل الذي تشغله الدنيا عن بيته وعن زوجته؛ وإلى طبعه ومسلكه يرد ما أصابه في شرفه؛ وإن كان قد راض نفسه بخافة العار على الصبر فلم يفعل ما كان يفعله غيره في مثل حاله ...

وأما من ذكرنا من شخصيات القصة من النساء، فكانت دلي مثال الزوجة العاملة في بيتها، القائمة على شؤون أبنائها؛ ولقد أدى ذلك إلى كبرها قبل الأوان، وإنهالك بدنها، مما كان سبباً لانصراف زوجها عنها؛ وإنها لتضيق أحياناً بحالها حتى لتشك في الفضيلة وتكاد ترى الصواب في مسلك أولئك اللاتي يمتعن أنفسهن بطيبات الحياة ويفتنمون زينتها في صالات الرقص، لا يحمان هما ولا يعنين

أنفسهن بالبيت وواجباته ، ولسكنها لا تلبث أن تثوب إلى نفسها فترضي عن استقامتها وشرفها وتروض على الصبر نفسها وإنها لصبور عاقلة مخلصه أعظم الإخلاص .

وأما أختها كتي فهي قريبة الشبه بصوفيا بيرزوجة تولستوى ، ولقد أبدع تولستوى أيما إبداع في تصويرها وتصوير ليثن ، فهو إنما يصور زوجته ويصور نفسه ؛ وكان من أبرز خصائصه تفضنه إلى نفسه لا يغيب منها عن ذهنه شيء .

وكانت خطبة ليثن لكتي في القصة هي بعينها خطبة تولستوي لصوفيا ؛ فقد كتب ليثن أول الحروف وقرأت كتي ، وقد تردد ليثن قبل أن يطلب يدها وقد نسي القميص صباح يوم الزفاف كما نسي تولستوى .

على أن أهم نساء القصة هي أنا ، وقد ذكرنا شيئاً من صفاتها في تلخيص القصة ، ونضيف إلى ذلك أنها ذات شخصية عجيبة تحمل القارئ على العطف عليها حتى بعد خطيئتها ، بل لقد تؤدي به إلى احترامها ، فما زال لها حتى آخر حياتها ، ذلك السحر الذي يجيبها إلى النفوس ، وما زالت هي أنا على الرغم من كل ما لحقها من شقاء الحياة ، وحسبنا من مواقفها صدقها إذ تطلع زوجها على حبها واستنكافها أن تفعل ما فعلت من وراء ظهره ؛ ثم إياؤها أن تأكل من يده بعد علمه ؛ ثم عرفانها لجليل صفحه عنها حين أوشكت ذات مرة على الموت ، وهكذا نجد امرأة زلت ومع ذلك فلها في زلتها من مواقف النبيل والسمو ما تظل به قوية على الرغم من ضعفها ، عزيزة على الرغم من ذلها ، وما لا يسعنا معه إلا الرثاء لها والصفح عن زلتها كما صفح زوجها ثم التماس أوجه المعاذير لها ... وهذا هو إعجاز الفن وروعته في يد تولستوى ، وهذه هي الأستاذية الحق .

* * *

كانت « أنا كارينينا » كأختها « الحرب والسلام » معرضاً لصورة كما كانت مجالاً لآرائه ، وهي قصة الحياة الاجتماعية في روسيا كما تتبين فيما عرض

من حياة الأمر خاصة وفي حياة المجتمع عامة ؛ وقد صور تولستوى مظاهر هذه الحياة الاجتماعية في صالونات الأرسوقراط وفي أكواخ الفقراء وعرض ذلك كله على طريقته لا يفوت عينه شيء ولا يعزب عن ذهنه شيء ...

وقد أجرى آراءه على السنة أشخاصه من رجال ونساء كما فعل في « الحرب والسلام » وأوضح ما كان ذلك فيما جرى على لسان ليثن ؛ وصور طباع هؤلاء الأشخاص ومسلوكهم في الحياة وفق ما يعتقدون من مبادئ .

وفي هذه القصة فلسفة تولستوى في النفس البشرية وما تنطوي عليه من خير وشر ؛ وفي الزواج والحياة الزوجية ، وما يفضي إليه الزواج الذي لا تجاوب فيه بين قلبي الزوجين ؛ وفي الأسرة وأسباب سعادتها أو شقتها ، وفي الحياة الحديثة ومبلغ ما فيها من المدنية الحق ؛ وفي معيشة الفقراء في المدن والقرى ومبلغ ما في نفوسهم من معان طيبة أو خبيثة ؛ وفي حياة الفلاحين وصلتها بحياة المترفين من السادة ؛ وفي معني الحياة بوجه عام والغاية منها ، وهل تستحق أن يعيشها المرء ؟ إلى غير ذلك من النظرات والآراء .

على أن أبرز ما يبقى في النفس بعد قراءة القصة هو ما جاء فيها عما آلت إليه حياة أنا ، تلك الزوجة الجميلة المهذبة التي لم نجد في زوجها ما يرضى قلبها . ثم فرعها من نفسها بعد زلتها وفرارها من المجتمع ، وقد كانت قبل من فضلياته ، ثم نهايتها على تلك الصورة ، مما جعل هذه القصة من أقوى المآسي فيما كتب عن المرأة في أدب الدنيا كله ، إن لم تكن أقوى مأساة كما يذهب إلى ذلك فريق من أئمة النقد ...

وتشيع في القصة ، إذا استثنينا حب ليثن وكثي ، نغمت حزينه وجوفيه من الرهبة والخوف أكثر مما فيه من ضوضاء الحياة وبهجتها ، حتى ما كان بين فرونسكى وأنا من لقاءات فهي على الرغم من الحب الشديد لم تخل مما يكون في اللقاء الآثم من شعور خفي يثقل النفس ، ومما يمقّب الكأس الحلوة كل مرة

بعد ذهاب النشوة من مرارة التأثم والرغبة من المصير ؛ وحتى ليثن الذي سعد بحبه قد شقى بتأملاته وحيرته في الحياة ...

وهذا الجو الذي يشبه الخريف والذي يندر أبدأ بالشتاء في القصة ، إنما يفسره ما أشرنا إليه مما كان يحيط بتولستوى أثناء كتابتها من متاعب زوجته ، وما كان يزعج خاطره ويكرب نفسه من آلام حيرته ...

* * *

بلغ إقبال الناس على قراءة هذه القصة الطويلة التي تزيد على ثمانمائة صفحة كبيرة ، أثناء نشرها في إحدى الصحف حداً لم يعرف له مثيل حتي في سابقاتها ؛ ولقد ذكرنا كيف كانت السيدات والأوانس يرسلن خدمنهن إلى الصحيفة ليستنبوا ما ذا يكون في الفصل القادم ، وبخاصة عما كان بين أنا وعشيقها من صلات ...

وتعد « أنا كارينينا » من أروع قصص الحب وأقواها في عالم القصة كله ؛ ولقد كانت لها خارج روسيا من المكانة والشهرة ما يفوق مكانة « الحرب والسلام » ، وقد ذاعت في فرنسا وألمانيا وإنجلترا ذيوعاً عظيماً ؛ ولا عجب فهي فضلاً عن أنها إحدى آيتي تولستوى وإحدى الآيات الفنية الكبرى في أدب الدنيا ، تمتاز باحتوائها إلى جانب ألوانها وحوادثها المحلية على معان عالمية تجيش بها كل نفس ، ويهتز لها كل قلب ، في أي بقعة متمدنة من الأرض ، وهذه خاصة من خصائص فن تولستوى ...

والقصة كلها قطعة من الجمال الفني ، يبسد أنها تنطوي على مواقف وصور بلغ فيها المؤلف من الروعة والإعجاز ما يتخاذل دونه أساطين هذا الفن وجبارته وما تنوفيه جباههم لهذا العبقرى الجبار .

ذلك أنها فضلاً عما أشرنا إليه فيها من فلسفة تحرك النفوس من أعماقها ، تحتوى على مواقف خوالد حيث يسحر القارئ عن نفسه اكتمال الفن فينسي أنه يتلو قصة ، ويشعر أنه في صميم الحياة ، ومن أمثلة ذلك ثورة دُلى وشقاؤها وحزنها

واضطراب بيتها ، ونشوة الحب الأولى بين ثرونسكى وأنا ثم خلوتهما صرات بعد ذلك واستنفادها كل ما فى طاقتيهما من قوة وعاطفة ، وارتشافهما الكأس حتى ثمالتها ، وما كان يعقب ذلك من اشمئزاز ومخاوف ؛ وموقف أنا من زوجها إذ تطلعه على الأمر حيث تبلغ المأساة غايتها ، وخطبة ليثن لكتى وما فيها من جمال وهي بعينها خطبة تولستوى لصوفيا كما وصفناها فى موضعها ؛ وهناءة ليثن بزواجه وحيرته فى تأملاته ويأسه حين مات أخوه ، وكيف مات ذلك الأخ ؛ ثم خاتمة أنا تحت عجالات قطار البضاعة ؛ إلى غيرها من روائع المواقف مما لا يستوعبه هذا الحصر ... وفيها إلى جانب ذلك صور رائعة للصالونات الارستوقراطية فى البيوت وصالات الرقص وحفلات الفروسية للضباط ، ومسارح التمثيل ومكاتب رجال الدولة ؛ وحياة الفلاحين ومشاهد عملهم فى الزراعة ، ومعيشة الأرستوقراط هناك مما يخيل معه للمرء أنه يعيش فى روسيا ؛ وكأنه لدقة الوصف ووضوح الصور يألف تلك الحياة ألفته حياته فى وطنه ...

وخير ما توصف به « أنا كارينينا » فى جملة قول ماتيو أرنولد « إنه ينبغي أن نأخذ (أنا كارينينا) لا على أنها قطعة من الفن ولكن على أنها قطعة من الحياة » .

ومن عجب الأمور أن فريقاً من كبار الأدباء والنقدة فى روسيا لم يتلقوها أول الأمر بما هى أهل له من حفاوة ، ومن هؤلاء دستوفسكى وترجينيف . ولا يسع المرء حيال ما ظفرت به القصة من إعجاب القراء ، وما نالته من ثناء على السنة هؤلاء النقاد أنفسهم فيما بعد ، إلا أن يرد فتورهم أول الأمر إلى ما كان فى نفوسهم مما يشبه أن يكون حقداً بعثه الخوف من هذا الذى يلقى على أسمائهم الخسوف ...

قال دستوفسكى « لقد وجدت أنا كارينينا قصة كابية . . . وقد زارنى نكراسوف وقال إن فى قصة ليو تولستوى الأخيرة تكرار لما سبق أن قرأته فى كتبه الأخيرة ، غير أن تلك الكتب كانت خيراً منها » .

وحدث أن تلى في جمعية محب الأدب الروسي ، ذلك الفصل الذي جاء فيه سفر أنا بالقطار ، فهض رئيس الجمعية في تحمس وقال : « لسنا نريد قصصاً مظلمة كثيبة مهما يكن ما فيها من براعة ، وإنما نريد قصصاً جميلة ممتعة مثل قصص الكونت تولستوى » .

وعلق دستويفسكى على ذلك في كتاب إلى زوجته بقوله : « لم تذكر كلمة حول قصتي ... ولم يتحدثوا كثيراً عن قصة تولستوى كذلك . بيد أن ما قالوه عنها كان يدل على تحمس مضحك » .

أما ترجيف فقد قال : « إن لتولستوى مقدرة ملحوظة ولكنه تنكب الطريق السوى في أنا كارينينا » .

هذا ما قابل به دستويفسكى وترجيف القصة أول الأمر، ولكن دستويفسكى نفسه ذكر عنها بعد زمن غير طويل قوله « هذه القصة لم يسبق لها مثيل ، ولا يقارن بها شيء وأين في كتابنا من يقارن بتولستوى ؟ وفي أوربا أين ذلك الذى كتب شيئاً يمكن أن يقرب منها ؟ » .

وقال عنها تشيكوف « إن الشيء الوحيد الذى كنت أراه عزاء لنفسى عما لاقيت من محن هو أن أكون صاحب أنا كارينينا » .



تولستوى الفنان

ما كاد يفرغ تولستوى من «أنا كارينينا» حتى انصرف عن الفن انصرافاً ظن الناس أنه قطيعة ليس بعدها صلة ، وظل تسع سنوات لا هم له إلا ما كان يشغله عن نفسه قبل من لغز الحياة والموت ، فلندعه الآن في حيرته ، لننظر في خصائص فنه في هذه المرحلة الأولى من حياته الفنية ، التي تنتهي بقصة «أنا كارينينا» .

ونحب بادىء الرأى أن نشير إلى أن تولستوى في هذه المرحلة الأولى كان من القائلين بمبدأ الفن في ذاته أو الفن للفن كما يقولون ؛ فلما عاد ثانية إلى الفن بعد اشتغاله بالدين ، أخذ بالرأى القائل : إن الفن وسيلة إلى غاية نبيلة هي السمو بالحياة على أساس من الفضيلة ...

على أن الرأى الثانى أعنى وظيفة الفن في السمو بالنفس قد أخذ يظهر بعض الشيء في «أنا كارينينا» ولذلك عاقب تولستوى أنا بتلك الخاتمة التي انتهت إليها حياتها وإن كانت قد سيقت على رغبتها إلى ما استغرقت فيه من ضلالة ، فقد كان ذلك نتيجة لزواجها من شخص ليس بينها وبينه تجاوب ؛ وعاقب فرونسكى بما آل إليه مستقبله من ضياع ... ثم إن ذلك المعنى الذي اهتدى إليه ليقتن بعد طول حيرته ، والذي ألهمه إياه حديثه مع فلاح مؤمن ، مما يتصل بهذا الغرض الذي يعمل له الفن . فغاية الحياة عند ليقتن أن يكون المرء من الأخيار وأن يبتغي وجه الله ، وأن يعمل للروح الخالدة لا للجسد الفانى .

ولما كان في المرحلة الأولى يأخذ بمبدأ الفن في ذاته فقد كان أساس فنه الصدق ؛ ولقد بالغ تولستوى في الحرص على هذا الصدق الذي يرد إليه كل مميزات فنه ، والذي به أصبح في أصحاب القصص الواقعى زعيمهم حتى اليوم غير مدافع ...

وكان أول ما بهر الناس من تولستوى ولقتهم إلى فنه هو ما أحسوا من صدق الوصف في كتابه الأول « عهد الشباب » ، ثم إنهم رأوا ذلك منه ثانية فيما كتبه عن سباستبول ، ووطنوا إلى أنهم تلقاء كاتب من طراز جديد لكتابته وقع جميل في نفوسهم ليس مرده إلى جمال وصفه فحسب ، ولكن إلى دقة هذا الوصف أو على الأصح إلى صدقه ، فما هو إلا الحياة بجميع ما فيها ...

والواقع أنه ما من عمل فني يبلغ غايته من الروعة إلا إذا كان من ينظر فيه ينسي أنه حيال متخيل يتخيل ، ويحس أنه يرى الحياة ماثلة أمامه ؛ ولقد أوفي تولستوى من ذلك على الغاية ، وما بلغ أحد مبلغه في هذا المضمار أو قرب منه . فإنك لا تكاد تقرأ بضعة أسطر له حتى تشعر أنك تطل على الحياة من نافذة ، ولا تلبث أن تألف شخصياته فتنسى أنهم شخصيات قصة ، ويبقى من أثرهم في نفسك وحسك ما يبقى ممن عرفت في الحياة من أشخاص ، وتظل تذكرم زمناً وكأنك تنظر إليهم في خيالك ، وتسمع إلي أحاديثهم .

وليس ذلك بالعمل المهين ؛ بل إنه لأعسر وأدق ما يستشرف له الفن ، فالفنان التخيل حر يخيّل بما يخلق حسبما أراد ، ولكن الفنان الذي يلتزم الصدق مقيد بما التزم ، فما يملك أن يتصرف في صورته بالنقص أو الزيادة أو بالتهويل والمبالغة ، لأن غايته أن يصور الحياة كما هي ، وما فنه في الواقع إلا مرآة تنعكس فيها الصور ، وبقدر ما يكون من وضوح الصور المنعكسة تكون قيمة مرآته أو على الأصح قيمة فنه ...

ويرينا وعورة هذا المطلب ما كان يعانيه تولستوى في كتابته من رهق شديد ، فلّم ترك من لحمه قطعة في المحبرة على حد قوله ، ولّم تفكر وتدبر ؛ ولّم قضى الساعات الطويلة يقرأ ويستخرج دقيق التفاصيل ليبنى منها صورة لحفلة أو جانب من معركة ؛ ولّم غير وبدل فيما كتب حتى لقد كان يرسل البرقية أحياناً تلو البرقية إلى الناشر ليحذف كيت أو يضيف كيت قبل أن يطبع . وكان أبرز ما تجلى صدق تولستوى في آتيه « الحرب والسلام »

و « أنا كارينينا » ، فإنك لتلمس هذا الصدق فيما جل أو هاب من الصور والوقائع؛ بل لقد يدهشك هذا الصدق، ويروعك هذا الفن الذي ينسبك أنه فن، في الصورة الصغيرة، أكثر مما يدهشك ويروعك في الكبيرة، فتمجّب لهذا الذي لا يفوته شيء، والذي يعمل في يقظة عجيبة وتديير محكم على أن يريك الحياة، وتحسب ذلك جاء عفو الخاطر، لأنك لا ترى في الصورة شيئاً من مبالغة أو تمحس أو خيال يذكرك بالكاتب، وإنما تراها أمامك كما تكون في الحياة، إذ هي في الواقع صنعة فنان أخفى نفسه وراءه، أو في الحق أخفى عنه كله لأنه جاءك بما لا يذكرك إلا بالحياة ...

وإنك لتفتح أية صفحة من قصصه فما يروعك أول ما يروعك منه إلا هذا الصدق . خذ مثلاً لذلك من « أنا كارينينا » وصف فرونسكى في المحطة ينتظر القطار المقل لأمه « واستطاع أن يسمع صفارة رفيعة، ونظر فإذا بالقطار أقبل يزفر ويدفع أمامه البخار الذي كثفه الهواء البارد، وشال الذراع وحط في حركة بطيئة رتيبة حين كانت تدنو القاطرة من الطوار، وصرت أول ما مر عربة البضاعة، وكان ينبعث منها نباح كلب أمكن سماعه، ثم تتابعت عربات المسافرين، ثم رجف القطار رجفة كبيرة وقف بعدها لا حراك به .

ثم انظر إليه كيف قابل أنا وهي تنزل من القطار وقد حدثها أمه عنه، « وكان بسبيل أن يدخل المر حين كانت إحدى السيدات خارجة فأفسح لها كي تمر، وكانت لحظة واحدة منه كافية لأن يرى وهو أحد الخبيرين بالدنيا أن هذه السيدة تنتمى إلى أحسن المجتمعات؛ وقد سألتها المذرة حين تنحى ليفسح لها، ولما هم بالدخول ألت عليه رغبة لا تقهر أن ينظر إليها ثانية، ولم يكن مرد ذلك إلى ما رأى من جمالها ورشاقها وخفة حركتها، ولكن لما طالعه في وجهها الخلو مما ينطق بالرقه والرفق ولطف الشمائل ...

وأدارت رأسها هي أيضاً فأثبتت في وجهها نظرتة، ومنحته بعينيها البراقتين الشهبائين اللتين بدتا سوداوين تحت أهدابهما الطويلة الكثيفة نظرة ود باحثة

كما لو كانت تعرفه . ثم التفتت تبحث عن شخص في الزحام ، وراع فرونسكى في هذه اللامحة القصيرة هذا الذي تفصح عنه ملاحظها من حيوية تحسبها ؛ ثم عيناها اللامعتان ، وهذه الابتسامة التي ما كادت تري حين اختلجت بها شفتاها الورديتان ؛ وتبدت له وضيئة تشع وضائتها على رغبها في نظرتها وفي ابتسامتها ، والتمع ما أرادت أن تخفيه من ضوء عينيها في تلك الابتسامة الرائعة على ثغرها .
وها هي ذى أنا تدخل على دلى زوجة أخيها « وحين دخلت أنا كانت دلى جالسة في الثوى الصغير تصغى إلى صبي بض جميل هو صورة مصغرة من أبيه ، وكان يحفظ درساً من كتاب فرنسى للمطالعة ؛ وكان يجهر الصبي بقراءته ويعبث بأحد أصابعه زرر في معطفه لم يعد يمسه إلا خيط واحد وقد نهته أمه عن ذلك مرات ولكن يده البضة الصغيرة كانت لا تلبث كل مرة أن تتخذ سبيلها إلى الزر حتى قطعت أمه ووضعته في جيبها » .

ولو مضينا نسرد الأمثلة من أى كتاب له لأتينا به كله ، وما اخترنا هذا الذي سقناه منها لخاصة بعينها فيه ، وإنما جئنا به حيثما اتفق ، إذ لا فرق فيما يحرص عليه من صدق بين صورة وصورة مهما عظمت الصور أو هانت ...
ومرد مقدرته في هذا الصدق إلى ما وهب من يقظة الحواس ، وما رزق منذ حداثته من دقة الملاحظة وقوتها والنوص إلى أعماق الأشياء جميعاً من إنسان وحيوان ونبات وجماد ، واستيعاب كل شيء في غير عسر ، وتفتح نفسه لذلك كله تفتحاً عجيباً ، فهو إذ يصور لك شيئاً ما في فصل معين من فصول السنة يضع لك في صورته ما يكون من غيم أو نور أو نقاء أو غبار ، وما ينفح به النسيم من رائحة ذكية أو كريهة ، وما ينجلي للأعين من مشاهد قريبة أو بعيدة ، وبهذه اللمسات الخفيفة تكمل الصورة أو تتمثل الحياة ...

وكأنه لشدة تيقظه ودقة إحساسه يرى بعينه ما لا يراه غيره ؛ ولقد أسلفنا كيف صاح به رجنيف ذات مرة متعجباً « لا بد أنك ياليو نيقولا فقتش كنت حصاناً ذات يوم » .

وإن له لذهناً عجيباً يستحضر كل شيء مما رأى أو سمع كأنه لا يزال ينظر إليه أو يستمع له ؛ وقد رأينا كيف كان يرحب بكل ما عسى أن يكون فيه مما يخترنه مادة لفنه من الأشياء والناس ...

وهو في ملاحظة الأشياء والناس لا يتأثر بما للشيء أو الشخص في ذاته من خطر أو عظمة ، فيجعل همه لما يبهر أو يقع في النفس موقِعاً مثيراً ؛ وإنما ينظر إلى الجبل الأشم نظرتة إلى الحجر ؛ وإلى النهر الدافق نظرتة إلى الجدول ، وإلى نابليون نظرتة إلى الجندي الذي لا يعرفه أحد . لا يهمه إلا الصدق أدق وأعمق ما يكون الصدق ...

ولقد يقول قائل : وأين الفن فيما يصنع ؟ فما هو إلا ناقل كما تنقل آلة التصوير مثلاً . والجواب على ذلك أن الفن أروع الفن في أن هذا الذي يجيئك به إنما جاءك به من خياله ، ولكنه ألبسه لباس الحقيقة ؛ أو هو رسم الصورة وبعث فيها الحياة وهنا موضع القدرة ؛ وإن الذي يرسم بألوانه وأقلامه ما يكون في كماله وظلاله مطابقاً لما عسى أن تلتقطه آلة التصوير من الطبيعة ، هو الفنان ؛ أما الذي يجيئك بصورة فيها براعة تلوينه وتظليله ، ولكن فيها ما لا يمكن أن يكون مثله في الطبيعة ، فليس هو من الفن في كثير ولا قليل ، إلا أن يكون الفن أن يلجأ الفنان إلى الرمز للتعبير عما لا يفهمه سواه ، أو ما لا يفهمه حتى هو نفسه ، أو إلى الاستغراق في الخيال ليدعك تأخذ من معانيه ما تريد أو لا تأخذ شيئاً فترد ذلك خطأ إلى سمو فنه عن مستوى الناس ؛ وهذا ما لم يلتفت إليه تولستوى لأنه في رأيه تلفيق هو عمل العاجزين ، وما كان إلا الصدق مقياساً عنده للقدرة .

لم يفعل تولستوى فعل الموسيقى أو الشاعر الذي يستمد مادة فنه من اللاشيء ، وإنما فعل فعل المثال ، بين يديك وأمام ناظريك تمثاله من حجر ، لا يقع في حسك منه إلا ما أراد ؛ لذلك خلا فن تولستوى من الصور الغامضة ومن الشخصيات الخيالية التي تمثلها الأذهان كل ذهن حسبما يتصور . فمثل هاتيك الصور والشخصيات تستساغ في الشعر ولكن يمجها الذوق في القصة ، وإذك

لتقرأ له الوصف أو تنظر في الشخصية فلا تجد فيها إلا ما يجد غيرك كما تنظران إليها في الحياة ...

ولقد تقرأ لغيره فتعجبك منه حماسة الوصف وروعة التهويل ، وتروك براعة خياله وازدحام صورته ، أو تعقد جوانب شخصيته ، ولكنك حين تذكر أن مثل هذا لا يكون إلا في الخيال ، لا تلبث أن تزور عن الصورة وعن الشخصية ، وتحس أن شيئاً ينقصها فإذا هي تافهة ؛ وتقرأ لتولستوى فلا يثيرك حماس ولا يروعك تهويل ولا يتبهرك ألوان ولا يفرك تعقيد ، ولكنك على الرغم من ذلك تألف الصورة وتأنس إلى الشخصية ، فإذا بحثت عن سر ذلك لا تلبث أن تجد السرف في أنها هكذا تكون في الحياة ، وإذا هي غالية محبة إلى نفسك أو بعبارة أخرى إذا هي قطعة من الفن .

وتولستوى في فنه خاصة أخرى مردها كذلك إلى الصدق أو هي نوع آخر من الصدق وذلك ما يلتزمه من هدوء في عرضه الحوادث والأشخاص ، فهو لا يجعل الضجيج والصخب والتحمس والانفعال من وسائله في التعبير ، وإنما هو يسوق ذلك كله كما يحدث في الطبيعة ، فلا حدة ولا عنف ولا مبالغة إلا حيث تقتضى ذلك طبيعة الموقف ، وفيما عدا هذا فكل شيء يجري على سننه طبيعياً هادئاً ؛ ولذلك قلما ذكرت المؤلف ، وهنا كذلك موضع من مواضع الفن ، لأنك إذ تنسى المؤلف تنسى أنها قصة وتشعر أنها حياة ؛ وبين تولستوى وهوميروس كبير شبه في هذه الطريقة الذي يسوق بها قصصه ، ويجريها كما تجري الحياة

وبرع تولستوى في الحوار وتوجيهه براعة هي كذلك إحدى خصائص فنه ، فلن تستغرب كلاماً قط على لسان أية شخصية من شخصياته بل تجد هذا الكلام مطابقاً في معناه ومرماه لما تعرف عن هذه الشخصية ؛ وهو إنما يعتمد في رسم شخصياته إلى مدى عظيم على الحوار ولا يقتصر على الوصف

ويتفطن لا إلى معنى الكلام وحده ولكن إلى طريقة الأداء ، وإلى ما يكون لشخصياته من لازمات في النطق أو الإشارة ، أو ما يكون لبعضها من

تمتمة أو فافأة أو لثغة أو طريقة خاصة في الضحك أو الابتسام أو في تحريك الشفتين أو العينين أو في إخراج الحروف غليظة أو رقيقة ، لا يسهو عن ذلك قط ، وإن ترك الشخصية وعاد إليها بعد زمن طويل ...

وينتبه في الحوار إلى شيء قلما انتبه إليه غيره مثل انتباهه ، وذلك أنه يشعر أبدأ بالحياة وينسيك أنك في قصة ، فإذا بدأ الحوار لا يلبث حتى يوجه ذهنك في لباقة إلى ما يحيط بالمتحاورين حيث يجلسون أو حيث يمشون ، فهذا يتم كلامه ثم يقلب بصره مثلاً في الستر الحريرية أو في الآنية الخزفية المائلة أمامه ، وذلك يخرج ساعته الذهبية أو يعبث بعصاه أو يلقي نظرة على الحقول أو في السماء المشرقة أو الغائمة ، أو غير ذلك مما يجعله بطانة للحوار يخيل به إلى القارىء أنه يطلع على جانب من الحياة ...

أما في خلق الشخصيات فقد بلغ تولستوى مبلغاً لم يتح مثله إلا للقلة من الأفاضل وهو في هذا المجال إمام من أعظم الأئمة ، وقل من كانت له مثل مكانته . كان الصدق كذلك رائده وعماده في خلق شخصياته ، ولقد خلق معظم هذه الشخصيات على مثال من عرف في الحياة من الناس ؛ وإن له خبرة عميقة بالنفس البشرية وما يجيش فيها من شتى الانفعالات والأحاسيس ؛ وإنه لندو بصيرة نافذة حين يرد ما يرى من الأعمال والميول إلى ما يعرف من الأصول ، أو حين يريد أن يتبين تلك الأصول فيما تقع عليه عيناه ؛ ولقد رأى المئات من الشخصيات في حياته واختزنتها ذاكرته العجيبة ، ولقد رأينا كيف كان من تانيا بيرز موقف المثال من مثاله الذي أجلسه أمامه لينبئ على غراره تمثاله ... وإن النساء ليعجبن إذ يطالغن قصصه كيف أحاط هذه الإحاطة بنفسية المرأة ، وكيف تعمق فهمها هذا التعمق ، وبخاصة في مواقف وشؤون هي من صميم حياتها ...

وإنه ليسلك في خلق شخصياته مسلكاً يجعلك تلقاهم كما لو كنت تلقى الأحياء ، فأنت لا تعرف الشخص جملة ، وإنما تعرفه شيئاً فشيئاً ، تعرفه من صورته العامة ، ثم تنكشف لك نفسه في حديثه وفي سلوكه ، ولا تزال تزداد

معرفة به كلما طالعك في القصة حتى تألفه وتألف حديثه وتكاد تعرف بعد ذلك ما عسي أن يقول وما عسي أن يصنع قياساً علي ما بلوت من أمره ...
ولقد ذكرنا أنه لم يعتمد قط إلى الخيال الجامح في تصوير شخصياته ، وأنه التزم الصدق فجاءت شخصياته شخصيات أرضية من عالم الحقيقة ومما ألفت من الإنس لا شخصيات سماوية من عالم الغيب نصفها إنسي ونصفها لا تعرف إلى أى جنس ينتمى .

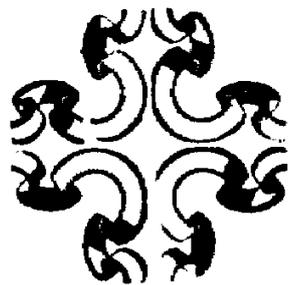
وإنه ليفطن إلى خصائص كل شخصية مما يخلق ، فلا ينساها حتى آخر عهدنا بها ؛ وإنه ليبرز الخصائص البدنية ، ثم يأتي بالخصائص الفكرية أو الروحية علي أساسها ، فتتضح الصورة كل الوضوح مهما يكن من تعدد جوانب بعض الشخصيات ، أما العواطف الثائرة والأعصاب المتوترة والنفوس المضطربة التي لا تستطيع أن ترد اضطرابها إلى سبب ، والتي تفتن إليها ولكنك لا تتمثلها أشخاصاً تدب علي الأرض ، فليست من فنه ؛ فهي نظريات في تحليل النفس وأصول علمية ولكنها ليست خلائق تحيا ؛ وهي إن دلت علي معرفة واسعة بأصول علم النفس لا تدل علي شيء من الفن ؛ وإنك لتستطيع أن تحفظ من أصول هذا العلم جميع ما كتبه الكتاتيون ولكن ذلك وحده لا يجعلك تخلق نقاشاً أو كتي أو ليقتن أو أنا أو البرنس أندرو أو قرونسكي .

ليس في شخصياته شيء من الرمزية ، وليست هي محلية بحتة ، ولذلك فليست تؤخذ علي أنها تجسيد لمعان مجردة ، ولا علي أنها نماذج لأنماط معينة ؛ وإنما تؤخذ علي أنها أفراد من أفراد الحياة مما يراهم المرء في كل وطن . ولتولستوى براعة في بث آرائه وفلسفته في قصصه هي كذلك من خصائص فنه ، فهو لا يكتبني بأن يجري آراءه علي السنة أشخاصه في حوارهم وتأملهم ، وإنما يبرز تلك الآراء فيما يأتون من أعمال وفيما يسلكون من مسلك وفيما يميلون من ميل ، فيوحي إلى القارئ ما يريد أن يقول دون أن يقول شيئاً ؛ وإنه ليخفي نفسه فلا تحس له قط تلك النغمة التعليمية التي تحسها لبعض القصصيين

حين يلتقون ويشرحون ؛ فتكون منهم حيال وعاظ ، بتدخلهم يفسد الخيال ، وتضيع القصة ... ولا يكاد يحس المرء في حوار أو جدل أن تولستوى هو الذى يقول ذلك ، ذلك لأنك عرفت شخصياته وفطنت إلى ميولهم ؛ فما يفصح عنه أحدهم من رأى إنما يخيل إليك أنه رأيه ، إذ هو فى الواقع رأى هذا الفنان المستتر ، حتى فى الأشخاص الذين يمثلونه أعنى أولئك الذين صورهم على مثاله فإنك لمعرفتك بحياته وآرائه تظن إلى أن ما يجرى على ألسنتهم هو كلامه ، ولكن محبتك لهذه الشخصيات وأفتك إياها ، وشدة وضوحها فى نفسك ، ينسبك أنها فى قصة ، وينسبك أنها تمثل تولستوى ...

ومن مميزات فن تولستوى شدة تظنه إلى نفسه ، والإلمام بما يجول فيها إلاماً لا تشوبه شائبة من ريب ، ثم مقدرته على تصوير ذلك تصويراً تطلع به على خفايا نفسه ، وإنه فى القصة الواحدة ليظهر فى أكثر من شخصية . فهو ليثن فى « أنا كارينينا » مثلاً ، ولكن كثيراً منه فى فرونسكى وبخاصة أيام عبثه وهو ضابط فى الجيش .

ونستطيع بعد هذا أن نجمل فن تولستوى فى كلمة ؛ وذلك أنه فى كل ما يكتب إنما يعرض عليك الحياة لا زيادة فيها ولا نقص ، وفى هذا الشرط سرفه .



تولستوى الحائر

أتم تولستوى « أنا كارينينا » وقد أصبح في روسيا أحد رجالها الممدودين ،
وفى أدبائها فارسهم المعلم ، وأصبح في أوربا أحد القلة الأفذاذ من أساتذة الفن
وأعلامه ؛ وإنه لذو ثراء عريض ، وذو بنين ؛ يسكن إلى زوجة اختارها لنفسه
عن بينة وحب ؛ وهو إلى ذلك يتمتع بالعافية ، وقد وهبه الله جسماً قوياً لا تسكن
حيويته ولا تفترقوته ؛ وإن موهبته الفنية لتمد اليوم أقصى مداها ؛ وإن روسيا
كلها لتنظر إليه نظرتها إلى أعظم من أنجبت من رجال القلم في تاريخها ، حتى
لقد اغتدى اسمه لها مفخرة قومية ، واغتدت به تباهى بأن صار لها في أدب الدنيا
صفحة مرموقة ومقام معلوم .

ولكنه بين عشية وضحاها ينظر فإذا بهذا كله عنده لاشيء ؛ وإذا به يشعر
أنه شقي لم يذق مثل شقائه أحد أو يعذب عذابه أحد ، على الرغم مما يحيط به مما
يراه الناس من أسباب السعادة والنعم . . .

إنه ليتقلب على فراشه إذا جنه الليل مسهد الجفنين ، ولقد يئن أنين المحموم
بل لقد يجهد في الظلام كما يجهد الصبي ؛ وإنه ليثب من فراشه فيذرع الحجر
حتى يتنفس الصباح . . . وإنه ليجلس إلى مكتبه مطرقاً أو محدقاً في الفضاء ،
لا يفتح كتاباً ولا يرفع قلماً ؛ وإنه ليعتزل زوجته ، ويتكره لأبنائه أو يشيح
بوجهه عنهم ؛ وإنه ليدفن وجهه ساعات بين كفيه ؛ وإنه ليسرع ذات مرة
إلى بندقية صيده فيبعدها ويغلق من دونها باباً مخافة أن يقتل بها نفسه ؛ وإنه
ليترك ما يأتيه من رسائل في غلّفها ، ولا يجب أن يلقي أحداً من صحابته ؛ وإن
زوجته لتمتلىء فرقا وحزناً حتى لتكاد تذهب نفسها عليه حسرات ؛ وإن أولاده
ليعجبون ولكنهم واجمون . . .

ماذا دهاه ؟ إن حاله هذه حال من تلقى ضربة في الظلام تركته يترنح من الألم ، وكما أوشك أن يفيق أخذه دوار فتركه يتمخبط ويهذى ، لا يدري متى يعود إليه صوابه ...

ولكن تولستوى لم يتلق الضربة علي حين غفلة ، فإنه منذ صدر شبابه تهجس في نفسه أسئلة عن الحياة ومعناها ، والغرض منها ؛ ولقد رأينا كيف ألت عليه هذه الأسئلة وهو في القوقاز .

وشغلته آماله وأحلامه بالصيت والأسرة السعيدة ؛ كما شغله عمله على تحقيق هذه الآمال ، وعمله في التعليم والمجلة والزراعة ؛ ولكن تلك الأسئلة كانت تعاوده بين حين وحين ، وهي في كل مرة أشد إلحاحاً عليه منها فيما سلف ...

وعظم إلحاحها عليه بعد زواجه فقد كان له قبل الزواج بعض ما كان يزيح عن نفسه هو اجسها من أمل حلو . فلما بات الأمل حقيقة ماثلة ، التفتت نفسه إلى ما كان يكرهها ...

وظهر أثر تلك المخاوف قوياً أثناء كتابته قصتيه الكبيرتين فيما أجراه على السنة بيار والبرنس أندرو وليشن ؛ ولقد خاف ليشن أن يقتل نفسه من اليأس لأنه لا يرى في الحياة إلا العذاب ثم الموت ...

وكان يصل به الحال أحياناً أثناء كتابته « أنا كارينينا » إلى ما يخيفه ويخيف زوجته كما أسلفنا ، حتى لم يعد أكثر من مرة بينه وبين الجنون إلا خطوة وما زاده التأمل إلا حيرة ولا دراسته الفلسفة إلا تشاؤماً وضيقاً ...

وواجهته تلك الأسئلة بعد « أنا كارينينا » مواجهة مخيفة وعاد في إلحاح وفي ضيق يقول لنفسه : لماذا ؟ ما وجودي وما الغرض منه ؟ ما هذا الذي يسمى حياة ؟ ولم كانت الحياة ؟ . قال في كتابه « اعتراف » يصف هذه الحال « لقد أخذتني الحيرة حتى لا أدري فيم أفكر ؛ فإذا نظرت مثلاً فيما عسى أن أعلمه أولادى قلت لنفسي . وفيم هذا ؟ أو إذا فكرت فيما عساه أن ينهض بالفلاحين سألت نفسي : وماذا يعنيني من هذا ؟ أو إذا ذكرت ما عسى أن أكسبه من

صيت بما كتبت قلت : سوف تغدو أبعد صيتاً من جوجول أو بوشكين أو شكسير أو مولير أو من كتاب الدنيا جميعاً ، فما جدوى ذلك ؟ ولم أحر جواباً قط ، وتلح الأسئلة على حتى ما تقبل ريثاً ؛ فيجب أن تلقى جواباً على الفور ؛ فإن لم أجب عليها صار مستحيلاً على أن أعيش ... ولكنني لم أجد ما أجيب به ... وأحسست أن ما كنت أضع عليه قدمي قد ذهب هباء ، فليس ثمة ما أقف عليه ؛ وما عشت زماناً عليه قد ولي ، ولم يبق لي شيء ... وبلغ بي الحال أن أصبحت أنا الرجل القوي الثرى لا أطيق أن أعيش ؛ وصارت تدفعني قوة لا تقاوم لأضع لحياتي حداً على صورة ما ؛ ولست أستطيع القول : إني رغبت أن أقتل نفسي ، فإن القوة التي كانت تنزعني من الحياة كانت أقوى وأشمل وأوسع مدي من أن تكون مجرد رغبة ؛ لقد كانت قوة شبيهة بتلك التي كانت من قبل تربطني بالحياة ولكن في اتجاه عكسي .

ويصور لنا حاله بإحدى الخرافات قال : « هناك خرافة شرقية قديمة عن سائح أقبل نحوه وحش هائج في أحد السهول ؛ فلجأ هذا السائح هرباً من الوحش إلى جب ناضب ، ولكنه وجد في قاع الجب غولا قد فغر فاه ليلتقمه ، ولما رأى السائح الشمس أنه لا يستطيع أن يصعد من الجب مخافة أن يلتهمه الوحش التائر وأنه كذلك لا يستطيع النزول إلى قاعه مخافة أن يلتهمه الغول ، فقد أمسك بفرع من النبات انبثق من صدع في الجائط ، وتعلق به ؛ وأحس بالتعب يدب في يديه شيئاً فشيئاً ، وشعر أنه سوف يسلم نفسه عما قليل لا محالة إلى الهلاك الذي يتربص به من فوقه ومن أسفل منه ، ولكنه لن يزال متعلقاً بالغصن ؛ ثم إنه ما لبث أن رأى فأرين أحدهما أبيض والآخر أسود ، وقد دارا حول ذلك الغصن ، وأخذوا يقرضانه ؛ وأيقن السائح أن الغصن لن يلبث حتى يقطع فيسقط هو في فم الغول ؛ وبينما يرى ذلك ، ويعلم أنه هالك لا محالة ، إذ يبصر بقطرات من الشهد على بعض أوراق الغصن فيصل إليها بلسانه ويلعقها ... وهكذا أتعلق أنا بغصن الحياة ، وإني لأوقن أن غول الموت يتربص بي وأنه سوف يمزقني

كل ممزق ؛ ولست أستطيع أن أدرك لماذا وقعت في مثل هذا العذاب ؛
ولقد حاولت أن ألعق الشهد الذي كانت لي فيه سلوة من قبل ، ولكنني لم أعد
أجد في الشهد ما يلذني ؛ وما برح الفاران الأسود والأبيض . وهما الليل والنهار
يقرضان العنص الذي تعلقت به ، ورأيت الغول في وضوح ، ولم يعد للشهد طعمه
الحلو ؛ وليس أمام ناظري إلا الغول الذي لا مهرب منه والفران ، ولن أستطيع
أن أدير عيني عن ذلك ؛ وليس هذا حديث خرافة وإنما هو الحق الذي لا ينكر
والذي يفطن إليه كل إنسان «

لم يجد تولستوى معنى للحياة ، فما هي إلا عبث ، بل إنها واللاشيء سواء ؛
ذلك ما رجع به من طول تأمله ومن طول قراءته شوبنهاور وكانت وغيرها ،
وذلك ما أجاب به على تلك الأسئلة التي ظلت سنين تلح عليه وتعذب نفسه
وهذا اللاشيء هو ما أفزعه ، ثم إن انتهاءه إليه بعد طول التفكير هو
الضربة التي تلقاها في الظلام والتي تركته يترنح ويصرخ من أعماق نفسه الحائرة:
ما هذا ؟ أين أنا ؟ ولم جئت هنا ؟ وإلى أين مصيرى ؟

لقد اهتدى البرنس أندرو إلى الحب كما اهتدى بيير ، واهتدى ليخن إلى
السمو بالروح الخالدة والعزوف عن مطالب الجسد الفانى ، ولكن تولستوى
خالقهم لم يهتد إلى شيء ، وظل حاله كما كان حال ليخن قبل هداه حين وصفه
بقوله « عند ذلك تبين في جلاء أن كل حي وأنه هو نفسه ليس أمامه ما يتطلع
إليه إلا الألم ثم الموت ، ثم الفناء الأبدى ؛ ولذلك استقر رأيه على أنه لن يستطيع
بعد أن يعيش على هذه الحال فإما أن يجد تفسيراً للحياة أو فليقتل نفسه «

ما الحياة إلا وهم ؛ وما سعينا فيها إلا عبث ؛ وما أنفسنا وأولادنا إلا طعام
للدود ؛ وما مسراتنا وملاهيها إلا كأصوات الخائفين من الأطفال في ظلام الغابة
اللقاء يدرأون بها عن أنفسهم الخوف ؛ وما ذلك الذي نسميه في الحياة جمالا
إلا غرور ، إن كل ذلك إلا باطل ؛ وإن هو إلا اللاشيء ؛ ذلك ما أفضي به
إليه تأمله ، وذلك ما يعذبه ويفزعه ويحيطه باليأس من جميع أقطاره ...

وليته ينسى ؛ ولكن أنى له النسيان ، وهذه الحياة نفسها تذكره أبداً بفرعه الأكبر منها ؛ وهو ما فكر فيها لمجرد الفكر في ذاته ، ولكن شيئاً مبهما خفياً ظل يوجه نفسه هذه الوجة منذ حدوثه ، لا ينقطع عنه إلا ليعود إليه أقوى مما كان ، وما زال حتى وقف به على حافة الهاوية ...

وما قصر أو تهاون في درس أو قعد عن استقصاء قال «ولكنى ربما كنت قد سهوت عن شيء أو أخطأت فهم شيء ؛ ذلك ما تحدثت به إلى نفسى مراراً فليس من الممكن أن تكون مثل هذه الحال من اليأس أمراً طبيعياً في الإنسان ؛ ثم بحثت عن تفسير لهذه المسائل في كل ناحية من نواحي المعرفة بلغها الناس ، وبحثت بحثاً مؤلماً طويلاً ، لا لمجرد الفضول والنظر ، وقضيت في بحثى الشاق زمناً بالنهار وبالليل ، أجدُّ كما يجد من أشرف على الهلاك حين يطلب النجاة ؛ فلم أعد من ذلك بطائل »

لم يدع شيئاً من العلوم النظرية ولا من العلوم التجريبية ، ولكنه لم يجد في العلم بغيته . فما بلغ العلماء من العلم إلا بعض ما يتصل بأبحاث المختصين والمحترفين ، أما ماله صلة بالمشكلة الأساسية وهي مشكلة الحياة ، فقد أهملوه أو جهلوه ؛ يقول عن العلماء « إنهم هكذا يجيبونك : أما عن سؤالك : ماذا أنت ولم تعيش ؟ فليس لدينا جواب ، وليس هذا مما تشغل أنفسنا به . أما إذا أردت أن تعلم قوانين الضوء أو قانون الاتحاد الكيميائي أو غيرها فإدنا أجوبة واضحة محددة عن ذلك ، لا تقبل الجدل » .

ولم يدع شيئاً مما له في الفلسفة صلة بمسائل الحياة ، فقرأ سقراط وبوذا وسليمان الحكيم وشوبنهاور واضرابهم ، ولكنه لم يرجع من فلسفتهم إلا « بأن كل شيء في الحياة عبث وأن السعيد هو ذلك الذي لم يولد »

ماذا يقول سقراط ؟ أليس هو القائل : « إننا نقرب من الحقيقة كلما أخذنا في الاعتماد عن الحياة وأن حياة الجسد شر وباطل وعلى ذلك فالقضاء على حياة الجسد من النعيم ، وينبغى علينا أن نطلبه ؟ » وماذا يقول بوذا ؟ أليس هو القائل :

« إن من المستحيل أن نعيش وفي نفوسنا أن الألم أمر لا بد منه وأننا سوف يلحقنا الضعف ويصيبنا الكبر ويدركنا الموت .. ألا إنه يجب علينا أن نتخلص من هذه الحياة ؟ » .

وماذا يقول سليمان ؟ أليس هو القائل « عبث في عبث وباطل في باطل ، وماذا يجنى الإنسان من عمله تحت الشمس ؟ يمضى جيل ويأتى جيل غيره والأرض هى الأرض قائمة أبداً ؛ وكل ما كان هو ما سوف يكون وما عمل هو ما سوف يعمل ولا جديد تحت الشمس ؛ ولن يُذكر ما مضى من الأشياء ، وكذلك ما هو آت فسوف لا يذكره من يأتى بعده ؟ » .

وماذا قال شوبنهاور ؟ أليس هو القائل « الحياة هى ذلك الذى كان يجب ألا يكون ... هي الشر ؛ وإن انتهانا إلى اللاشئ ، هو الخير الوحيد فيها ؟ » .
وهذه الحكمة الهندية القديمة كيف تصور الحياة ؟ « كان سكيامونى أميراً شاباً يعيش عيشة سعيدة حُجب عنه العلم بالمرض والكهولة والموت ، وخرج الأمير ذات يوم للنزهة فبصر بشيخ فقد أسنانه ، يتعثّر في مشيته ، ويبعث منظره الرعب في النفس ، فسأل ذلك الأمير الذى لم يكن له علم بالشيخوخة حتى ذلك اليوم ، سائق عربته ، وقد أخذه العجب : ماذا يكون ذلك ؟ وكيف وصل الرجل إلى هذه الحال التعمسة الكريهة ؟ ولما علم الأمير أن ذلك حظ الناس جميعاً ، وأنه سوف يصيبه لا محالة يوماً ما ؛ لم يستطع أن يستمر في نزهته ، وأمر سائقه فعاد به إلى القصر ليتفكر في هذه الحقيقة ؛ ثم أغلق من دونه الأبواب وجعل يتفكر ، ويرجح أنه وجد عزاء لنفسه . فقد خرج ثانية للنزهة مبتهجاً سعيداً ، ولكنه أبصر هذه المرة مريضاً متهدماً أعشى العينين مرتعش البدن ، ولما لم يكن للأمير علم بالمرض فقد وقف وسأل عن ذلك ، ولما علم أنه المرض ، وأن كل إنسان عرضة له ، وأنه هو نفسه ، وهو الأمير القوى السعيد ، قد يمرض في غده ، لم يطق متابعة سيره وعاد ثانية إلى قصره ليتدبر ويبحث عن عزاء ، ويرجح كذلك أنه أصاب عزاء فقد خرج يتنزه للمرة الثالثة ، ولكنه في هذه المرة وقع

على منظر جديد فقد أبصر رجالا يحملون شيئاً ما ، فسأل ماذا يكون ، ولما أخبر أنه رجل ميت قال متعجباً : ميت؟ وما الميت؟ وأخبر أن الإنسان إذا أصبح مثل ذلك الرجل صار ميتاً ، فدنا الأمير من الجنة وكشف عنها غطاءها ونظر فيها وسأل ماذا يحدث بعد ذلك فأخبر أنها سوف تدفن في الأرض ، واستفهم عن سبب ذلك فأجيب لأن الميت سوف لا يعود إلى الحياة ، وسوف يتعفن وينتج الدود ، وسأل الأمير أذلك حظ الناس جميعاً؟ وهل يحدث لى مثل هذا؟ وهل أذفن وأتعفن وأنتج الدود؟ أقول نعم؟ إذا فإلى القصر ، ولن أخرج بعد ذلك أبداً طلباً للمتعة .
ثم إن سكيامونى فقد كل عزاء ، وأيقن أن الحياة أعظم شر ، وجعل همه كله أن يتخلص منها ويخلص غيره .

هكذا تصور الحكمة الهندية الحياة ، وهكذا يراها تولستوى ، ولقد فكر كثيراً فى أن يتخلص منها ...

ولكنه يرى كثيراً غيره من الناس يعيشون لا تزعمهم الحياة ولا يكرههم التفكير فيها ، فإذا كان لم يجد فى العلم هداه ولا فى الفلسفة . أفلا ينظر فى حياة الناس ليرى كيف يرضون ولا يشقون مثل شقائه ؟

وعرف من الناس فى الحياة أربعة أنماط : ففريق هم الجهلاء الذين لا يدرون أن الحياة عبث وسخف ، وليس له فى هؤلاء فائدة لأنه لا يستطيع أن يعود جاهلاً ؛ وفريق يعلمون سخفها ، ولكنهم مع علمهم يوطنون أنفسهم على تحملها ، وهو لا يقدر أن يجاريهم فهو متبرم ساخط ؛ وفريق هم الجادون العاملون الذين يتخلصون من الحياة على أية صورة ، وهو لا يستطيع أن يفعل فعلهم لأن شيئاً خفياً يمنعه من ذلك كلما أغراه اليأس ؛ وفريق يرون الحياة زوراً وعبثاً وأن لا خير فى مستقبل ولا رجاء ومع ذلك فهم يتعلقون بها وإن تعذبوا وهو من هذا الفريق .
على أن هناك فريقاً خامساً لا يدخل فى هذه الأنماط الأربعة ، هم أولئك الذين لا يكثر لهم أحد ، وينظر إليهم السادة نظرتهم إلى الدواب ، وهؤلاء قد وجدوا لهم فى الحياة معنى يعيشون عليه ، معنى لا يتصل بالمعقول ولا بالفلسفة ، وذلك هو الإيمان .

ولكن إيمان هؤلاء يقوم على أساس من الأورثوذوكسية عقيدة الكنيسة الروسية الإغريقية ، وهي ما لا يستطيع أن يحمل عقله على قبوله ...
يا للحيرة ! إن العقل يفضي به إلى إنكار الحياة نفسها ، وإن الإيمان يقتضي أن يعطل العقل ... أى بلاء هذا ، وأى ليل معتم !

ولكنه علم فيما علم قول المؤمنين إنه لا بد من إعداد النفس للإيمان حتى تؤمن : وإذا فليدع العقل جانبا وليناقش رجال الدين ، ولينظر في كلامهم لعله يصل إلى قلبه ، وليقرأ ما كتبه آباء الكنيسة ، وليطالع سير القديسين وليتعبد فيقيم الشعائر جميعا ، وليزر الأديرة ، وليذهب إلى الأب الصالح أمبروز ، ذلك الذى كان يستعينه جوجول والذى استعانه دستوفسكي وسولوفيف ؛ وفعل ذلك جميعا ولكن الشك لا زال يأخذ بخناقته ويكاد يزهق روحه ...

ويقرأ العقيدة الأرثوذوكسية ، وكلما أمعن فيها سخر منها وبعد عن التصديق بها . فما هذا التثليث وما هذا التحول إلى دم المسيح ولحمه ، وما تلك المعجزات التى تنسب إلى القديسين ، وما تلك الأدعية والصلوات والطقوس ؟ أذلك مما يقبله العقل ؟ كلا ثم كلا ...

ثم يحاول أن يطرد الجحود من نفسه ، فربما كان الجحود هو ما يحول بينه وبين الإيمان ، ويقول لنفسه دائما إنه مستعد لأن يؤمن . قال فى كتابه « اعتراف » يصف ذلك : « لقد أتجهت صوب الإيمان لأنى لم أجد شيئا خارجه إلا الخراب ، وعلى ذلك فطلما كنت لا أستطيع أن أطرح عقيدتي جانبا فقد صدقت وخشعت ، وقد أحسست فى قلبى من القنوت والخشوع ما جعلنى أفعل ذلك ، ثم إنى عدت ففتحتم وازدردت الدم واللحم من غير سخرية فى نفسى رغبة منى فى أن أصدق ، ولكنى أذكر ما سرى من صدمة وأرى ما ينتظرنى فيما هو قادم ، فلا أملك أن أظل مصدقا » .

وإذ يرى نفسه فى بحر لجزى من الحيرة ، يسأل نفسه : ماذا يريد أن يعرف على التحديد ليلتمس السبيل إلى معرفته فيكتب على رقعة : « لماذا أنا حى ؟

ما سبب حياتي و حياة غيري من الناس ؟ وما هدف حياتي و حياة غيري ؟ ماذا تعني
ثنائية الخير والشر التي أحسها في نفسي ولماذا هي قائمة فيها ؟ وعلى أي وجه ينبغي
أن أحيأ ؟ وما الموت ؟ وأهم من ذلك كله وأكثره تعقيداً كيف أنجى نفسي ؟
ذلك أني أحس أني هالك ، فإني أعيش ثم أموت ، وإني أحب الحياة وأخاف
من الموت ، فكيف أنجى نفسي ؟ » .

وإذا لم يبق له إلا الدين والإيمان ، فأى إيمان ؟ إنه إذا قارن في نفسه بين
تلك الأوقات التي آمن فيها بالله وبين تلك التي أنكر فيها الله ، وجد الأولى
نيرة فيها شفاء للنفس ووجد الثانية مظلمة فيها العناء ، ولكن الإيمان بالله شيء ،
والإيمان بما تقول الكنيسة الأورثوذكسية شيء آخر ...

ولن يزال يطيل القراءة في العقيدة الأورثوذكسية ، ولن يزال يقرأ الأديان
جميعاً في كتبها ، ولن يزال يزور الأماكن المقدسة عليها توحى إلى نفسه الإيمان ،
ومن ذلك مدينة كييف وما تزدحم به من كنائس وأديرة قديمة ، وان يزال
يستفهم القسيسين والطيبين من الطاعنين في السن من الناس ، ولن يزال يقيم
الشعائر ويعظمها . ثم لا يعود من ذلك جميعاً بشيء إلا الجحود بما تقول الكنيسة .
ذلك حال تولستوى وما صنع في تلك السنوات التي أعقبت زواجه حتى
أتم كتابه « أنا كارينينا » ثم تلقى الضربة التي جعلته يتخبط في الظلام ، والتي
جعلته يلقي بعيداً بحبل كان في متناوله مخافة أن يشنق نفسه ، ويجعل دون
بندقية قفلا غليظاً كيلا يصوبها إلى قلبه ، وما تلك الضربة إلا أنه بعد
طول عنائه يرى الحياة لا شيء ، ولكم يزعمه هذا اللاشيء ويوبق روحه ،
ويزعزع فؤاده ...

ولكن إذا كان لا يجب أن يقتل نفسه فما معنى أن يستسلم لليأس ؟ وكيف
يحيا إذاً ويطبق حياته إذا كان لا يرضى الموت ولا يرضى الحياة ؟

إذا فليجاهد على وعورة الطريق وبعد الشقة وظلمة المفازة ، ليجد معنى
للحياة ترتاح له نفسه ، ويسعد به البشر ، وأئن وقف به ما سلف من جهاده وقفة

التائه الذى يخيفه القضاء والظلام . فلخير له أن يمضي لعله يجد بعد الضلال هدى
وبعد العذاب راحة ؛ ولأن يتحمل وعناء السفر مهما عظمت أهون عليه من هذه
الوقفة التى تكاد تلقيه فى قرار سحيق ...

لقد قضى من عمره قرابة ثلاثين عاماً يعمل للفن ، فليقض ما بقي من عمره
عاملاً على تقرير معنى الحياة ، وليس ما يمنع أن يكون الفن أدواته فيما هو قادم إذا
لزم الحال ...

وسوف يعمل تولستوى دائماً ناصباً ، حتى ليعد جهاده فى سبيل غايته من
أروع فصول الكفاح فى خطى البشرية ، فليس أبلغ فى معانى البطولة من تحمل
مثل ما سوف يلقاه من عذاب ، ولا من الصبر على مثل ما سوف يعترض له من
صعاب ؛ وسوف يغدو تولستوى فى تاريخ الفكر الحديث ، والأدب الحديث ،
والفن الحديث ، بجهاده الهائل معدوم القرين فى إخلاصه وحميته وثباته .. أجل ...
وسوف يرتفع إلى منزلة وسطاً بين الأنبياء والناس .



روسيا تترد إلى الغسق

لم يلبث عهد الإسكندر الثاني أن برز فيه من الثورة عليه ما كان مرده كما أسلفنا إلى التحمس له ؛ فمن أحرق جوفه الظماً لن تطفئ غلته رشفة ، ومن ارتشف على غلة ثم حيل بينه وبين الماء فالياس كل اليأس في هذا الذي يعلل به من رجاء ، ولا بد عندئذ من وثبة فإما حياة بعد وإما فناء ...

والفرق عظيم بين ما لاح من بشائر الفلق في أوله ، وبين ما ردت إليه روسيا من غسق يشبه ليل نيقولا في آخره ، بين ما استهل به من مظاهر الحرية وبين ما اختتم به من نكسة أفضت إلى الرجعية ...

لم يرض المثقفون أو ما يسمون المستنيرين لأنهم لم يروا إصلاحات الإسكندر إلا مواد مسطورة على ورق ؛ نصيبها من التنفيذ لا يكاد يذكر ؛ ولم يرض الفلاحون لأنهم لم يحسوا للتحرير أثراً في حياتهم المادية ، وظلت أعباء التعويض تغل نفوسهم ، وإن قيل لهم إنهم أحرار ...

وجاء ما استولى على النفوس من يأس مكافئاً لما استبشرت به من رجاء ، ورأى الناس الإسكندر يغلب عليه الحذر ؛ ويستمع إلى بطانة حوله ممن أشربت قلوبهم سياسة نيقولا ؛ ورأوا حماسه للإصلاح تفتت يوماً بعد يوم ، بسبب ثورة البولنديين من ناحية ، ولخوفه من تناقص سلطته شيئاً فشيئاً من الناحية الأخرى .

وزاد تردد الإسكندر الناس يقيناً أن أكبر العيب وضع مقاليد الأمور كلها في يد رجل واحد ، فالإمبراطورية أعظم من أن يهيمن عليها رجل ولو كان من ذوى العبقرية ، فكيف وهذا التربع على عرشها ليس له من مؤهلات الحاكم العظيم شيء ؟ والإصلاح الحق لا بد أن تنهض به حكومة مسؤولة تؤيد إن أحسنت وتحاسب إن قصرت ...

وطالب بهذا حتى النبلاء ، وإن جاء طلبهم لأنهم أرادوا لأنفسهم السلطة أو أرادوا التحرر من سلطة القيصر كما تحرر الفلاحون من سلطانهم ؛ ولقد تقدموا إلى القيصر بلمتس سنة ١٨٦٥ ليقم نظاماً تمثيلاً « حتى يصل الحق عرشك دون عائق » ؛ ولكن القيصر وضع إصبعيه في أذنيه .

وهكذا نجد طبقات المجتمع الروسي جميعاً وإن اختلفت البواعث ، تطلب تغيير الحال تغييراً يحقق ما انبثت في النفوس أول عهد الإسكندر من آمال ... ولا سبيل إلى ذلك إلا أن يأتي الإصلاح كاملاً من الأعماق ، لا منحة متكافة من أوتوقراطي يحرص على سلطانه ...

وكانت تسيطر على المستنيرين من رجال الأدب والصحافة والفلسفة ، والمثقفين بوجه عام نزعة محاكاة أوروبا في كل شيء ؛ وعندهم أن علة العلل التمسك بالتقاليد العتيقة ، ولا يرجي من خير لروسيا إلا إذا أخذت بما أخذت به أوروبا ؛ وباتت أفكار الغرب وحضارة الغرب قبلتهم وأمل نفوسهم ، وبلغت حماسهم في هذا مبلغ الحماسة الدينية ، فما يطيقون جدلاً أو يقبلون هوادة ؛ فنظرية داروين مثلاً عندهم دين جديد ، وما بلغه العلم من قوانين يقع في نفوسهم أحسن وقع ؛ وما أنتجه الغرب من مظاهر التقدم المادي موضع إعجابهم ومنتجه أمالمهم ؛ ولئن أخذت روسيا بهذا فقد أفاقت من سباتها الطويل وصارت دولة حديثة

ونجم في البلاد من صفوف هؤلاء المستنيرين المعجبين بأوروبا حزب ثائر ناظم على كل شيء ، ما لبث أن عرف باسم « النهلست » ؛ فقد أطلق ترجميف هذا الاسم على من خلقه في قصته « آباء وأبناء » ليمثل أفراد هذا الحزب ، وهو بزاروف ، ثم ذاعت الكلمة في روسيا وصارت علما على هذا الحزب .

صوّر ترجميف بزاروف شاباً « لا يحنى رأسه قط لسليطان ما ، ولا يأخذ مبدأ ما مأخذ العقيدة مهما كان ما أحيط به من احترام ... ولا يسوغ أن يلوك العبارات الجوفاء حول الفن والنظام النيابي ونظام الخلفين وما إليها ، بينما المسألة هي كيف تحصل البلاد على الحزب لتأكل كل .. وعنده أنه ما من نظام قائم في

حياة روسيا ومذاك في الأسرة أو في الحياة الاجتماعية إلا ويستدعى أن يقضى عليه قضاء تاماً في غير تحفظ ... ويلتزم زاروف موقفاً سلبياً مطلقاً وينتقد انتقاداً سطحياً ؛ وإذا قيل له إنه من الضروري أن نبني كما نهدم أجاب : إن ذلك ليس شأننا الآن ... فإنه يجب أن تمهد الأرض أولاً وتنظف »

ولقد كان زاروف يمثل في الواقع كل نهلست ؛ وكان مما يذيعه هؤلاء ويتمسكون به التحرر من الماضي ، والتخلص من كل عاطفة ومن كل عرف لأن ذلك هو ما يعوق خطى التقدم وما يستعبد العقول البشرية ويسخر النهلست ممن يقيمون في آرائهم بآراء من سلف ، ولا تقف سخريتهم عند حد ، حتى المقدس من العقائد والشعائر أو الذي قارب مرتبة التقديس من آراء السلف وتقاليدهم ، فما هذه جميعاً إلا أشياء لا يرجي من خير إلا أن يقضى عليها القضاء التام أول الأمر ...

بهذا كان الهدم قاعدة هذا الحزب الذي لا يطبق صبراً ولا يقبل هواده ، وكان العنف تبعاً لذلك وسيلته الوحيدة إلى ما يريد ... ولكن الحزب لا يزال بعد سنة ١٨٦٠ في مرحلته الأولى ، مرحلة الفلسفة

وثمة حزب آخر نجم من صفوف السلافيين أو أنصار المدرسة الشرقية ، وهؤلاء في الواقع مظهر جديد لهذه المدرسة ، فهم لا يذهبون مذهب الآخرين في مغالاتهم في النظر إلى السلاف وعدم المثل الأعلى للجنس البشري ؛ وإنما يؤمنون بالفلاح الروسي وما يرجي على يديه من خير إذا رفع مستواه وهم يتفقون مع أنصار السلاف في أن المجتمع الجديد يجب أن يقوم على أساس زراعي قوامه وحدات قروية لا على أساس صناعي قوامه العلم الحديث .. ومبادئ هذا الحزب يكتنفها الغموض ، وكان مؤسسه هو هيرزن ، وقد اتبعه عدد كبير من المتعلمين ومن الطلاب الجامعيين ، وكان يسوء هؤلاء ما يعلمون من حال الفلاحين ؛ وكانوا يرون البدء بتعليم هؤلاء ، والذهاب إليهم في القرى والعيش بينهم زمناً كلما سنحت فرصة ؛ ولم يفهم هؤلاء الفلاحون في أكثر الأحوال ماذا يريد

هؤلاء الذين جعلوا من أنفسهم مرشدين لهم ، وكثيراً ما كانوا يسلمونهم إلى المتجسسين من أعوان القيصر ؛ ولما حل بهم نكال الحكومة وجدوا أنفسهم مسوقين إلى العنف كانهلست ، ومن ثم تألفت لجنة من بينهم عرفت بلجنة « الأرض والحرية » وأخذت هذه الشعبة الثائرة تدبر وسائل الانتقام من أعوان القيصر ... وسرعان ما اندمج هؤلاء في النهلست وصاروا فريقاً منهم ، وإن احتفظوا باسم جماعتهم

ظل نشاط النهلست حتى سنة ١٨٧٠ قاصراً على نشر الدعوة يمنون أعوانهم بمهد جديد ، ويعدونهم بمستقبل عظيم لروسيا ، ويلقون في روع الشباب ألا سبيل إلى النجاح إلا حرية الفرد أو تخلصه من الأوهام ومن كل ما يفرضه المجتمع أو الأسرة أو الدين ... والانطلاق من ذلك الاستبداد الأدبي الذي يهيمن على عقل الفرد ووجدانه وشخصيته ، وبذ كل مالا فائدة منه في زعمهم من الفن والأدب وراث الماضي جميعاً ، واعتناق ما يقتنع العقل بفائدته فحسب ، فالإسكاف مثلاً خير عندهم من رفائيل لأن الإسكاف يفيد بعمله المجتمع أما عمل رفائيل فلا معنى له ...

وقد عظم نشاط النهلست منذ سنة ١٨٦٦ ، وكان ذلك نتيجة لعنف الحكومة عليهم واضطهادهم عقب محاولة لاغتيال القيصر ، وقد زادت سياسة الحكومة حيالهم شعلتهم اشتعالاً ، ووجدوا فيها مثلاً من الجور يضربونه للناس ، ويفهمونهم بذلك في يسر أن الخلاص في مقابلة العنف بالعنف والبغي بالبغي ، وبخاصة حين رأوا القيصر يقترب من الرجعيين بعد حادث الاعتداء عليه وينظر إلى الإصلاح كأنه مفض إلى الفوضى ...

وراح هؤلاء النهلست ينددون بالطاغين وينذرونهم عذاب يوم قريب ؛ ولا يفتأون يذكرون ما يحل بالفلاحين من ظلم ؛ أولئك المساكين الذين أنقضت الضرائب والتعويضات ظهورهم ، وهدم الجوع ، وكدم العمل المتصل ؛ وهم يعيشون عبيداً للمترفين من السادة والكبراء ، يعملون ولا عائدة من عملهم عليهم ولا أمل ييسم لهم في ظلمات العيش ...

وكان يطمح هؤلاء إلى نوع من الانقلاب يمكن لهم في البلاد فيؤلفون هيئة علي شاكلة كومون باريس إبان الثورة الفرنسية الكبرى ، تنتهي إلى حكم ديموقراطى اشتراكي ...

ولم تخل البلاد من دعوة اشتراكية ، غايتها بث المبادئ الاشتراكية في النفوس بالسلم والحكمة وبخاصة بين الفلاحين ، حتى يأتي اليوم الذى يتمسكون فيه بهذه المبادئ وقوامها التحرر الاقتصادى والاجتماعى ...

ونشطت الحكومة من جانبها في محاربة هؤلاء وهؤلاء وبخاصة دعاة القوضى من النهلست ، وقد بثت عيونها في كل مكان ، وكان سلاحها غير السجن والقتل في بعض الحالات ، النفي إلى سيبيريا ، وقد أرسلت إلى تلك الأصقاع في عشر سنوات حتى سنة ١٨٧٤ قرابة مائة وخمسين ألفاً ، لم يأتوا عملاً إلا نشر الدعوة سراً.

ظنت الحكومة أنها بهذا النفي وبهذا التنكيل قد قضت علي خصومها قضاء لا قيام لهم بعده ، ولم تظن الحكومة ، وقلما فطن الطغاة ، إلى أن البطش إذا نجح فإنما نجاحه إلى حين ؛ ولو فطن كل فرح بجزوته ، مطمئن إليه ، أنه بهذا الجبروت يمضى إلى الهاوية ، لخفض من غلوائه ، ولتهيات نفسه لتدرك أن إرضاء النفوس هو وحده الذى يقتلع منها السخيمة وينفي عنها الثورة ؛ وإذا احتدم صراع بين القوة المادية وقوة الروح فإنما تستند القوة المادية إلى الباطل ، وتقوم القوة الروحية على الحق ، ولن يهزم الباطل الحق أبداً ، وإن خيل له أنه الغالب ؛ وما كان قيامه على البطش إلا الدليل أوضح الدليل على ضعفه والسبيل أقصر السبيل إلى انهياره ...

غضب النهلست وغضب كل حزب ينزع منزعمهم وإن لم يكن منهم ، ورأوا أن وقت العمل قد حان ، وصارت كلمتهم التي يتهامون بها أو يجبرون « إلى العمل » بعد أن كانوا يقولون « إلى صفوف الناس » .

وأخذت الفتن والقلاقل في شوارع موسكو وبترسبرج تتكرر على نحو

ما حدث إبان الثورات في العواصم الأوروبية في هذا القرن ؛ ولكن خضوع الجيش للقيصر مكن الحكومة من القضاء على كل فتنة في غير كبير مشقة حتى تبين للثوار بعد سنوات ثلاث عبث هذه الوسيلة ...

وأمنت الحكومة في عنفها ففتحت محاكم خاصة للقضايا السياسية ، وأنزل القضاة أشد العقاب بكل من ثبت عليه أي ذنب مهما كان صغيراً ؛ وصار يبعد الطلبة عن الجامعات بغير حساب ؛ وضيق الرقابة على الصحف والمطبوعات ، حتى لقد حرمت دراسة النظريات السياسية أو قراءتها ؛ ومنعت كتب ستيوارت مل وهربرت سبنسر ولكي من دخول روسيا ؛ ونظرت قضايا الصحف والكتب من غير محلفين ، وعاد الاختلاس والفساد والرشوة ، حتى أحس الناس أنهم في عهد نيقولا ؛ وباتت ظلمات العسق بعضها فوق بعض ...

وعطف عنف الحكومة وإسرافها في البطش القلوب جميعاً على النهلست ومن أخذ إخذهم ، على الرغم من كراهة المعتدلين من الناس لأساليبهم وتطرف آرائهم ، حتى باتت الحكومة في جانب والشعب في جانب ، الثائرون منه ومن التزم الحيدة من قبل ...

وأفضى جبروت الحكومة إلى ما لم يكن منه بد . فعمد النهلست إلى قتل خصومهم غيلة ، وتآلفت لذلك جماعات سرية همها أن تقتال أعوان الحكومة ، وبرر النهلست خطتهم هذه بقولهم « إن كل وسيلة جائزة في وجه نظام حكومي يقوم على الظلم المنظم ، توطد خلف غابة من الحراب » .

وصار النهلست يقتلون كل من تصل إليه أيديهم من عيون الحكومة وأرصادها ، وباتت الحكومة تخشى جانب هذه الجماعات السرية ، وتحسب لخطرها ألف حساب ...

وحدث أن أطلقت امرأة تدعى فيرا الرصاص على ضابط لأنه أهان بالضرب سجيناً سياسياً ، وأخلى المحلفون سبيلها . فلما أراد الشرطة أن يعتقلوها ، أعانها الناس على الهرب إلى خارج البلاد ، وقد أوحى هذا الفعل إلى تلك الجماعات الثائرة تعلقهم بما يتبعون من إرهاب ...

وأخذ القيصر يخشى العاقبة ، فأراد من بعد أن يحتكم إلى الرأي العام ، ولكن الذين استبشروا به في أول عهده ورجوا علي يديه الخير لا يرون فيه اليوم إلا طاغية كأسلافه من الطغاة ؛ ويوقنون أن كل شيء يرد إلى استبداده بالأمر دون شعبه ؛ وردت أكثر مجالس المقاطعات على الحكومة تقترح العلاج الذي لا علاج غيره ، وهو أن يعطى الشعب حرية الرأي والفكر . فإن محاربة الآراء الهدامة غير مستطاع إلا بواسطة واحدة هي إزالة ما يشكو منه الناس ، ولن تعرف شكواهم إلا أن تتاح لهم حرية الكلام ... ولكن هذا آخر ما كان يسمح به الإسكندر ، وهل تنازل قبله عن سلطانه طاغية باختياره ؟

وبرزت في الميدان جماعة « الأرض والحرية » ، وبخاصة شعبة نبتت منها هي المسماة « مشيئة الشعب » ؛ واغتالت هذه الجماعة رئيس الشرطة السرية والشمس في الضحى ، وذلك في أحد شوارع بطرسبرج ...

وحاولت الجماعة اغتيال القيصر نفسه ، وكانت هذه ثانياً محاولة للتأثرين ، إذ كانت أول مرة سنة ١٨٦٦ ؛ وبعد هذه المحاولة قسمت روسيا أربعة مناطق عسكرية ، وجعل على كل منطقة حاكم عسكري له حق الحكم بالقتل ...

ولكن ذلك لم يزد الناس إلا نفوراً ، والتأثرين إلا شططاً وفجوراً ؛ فإن الإصلاح في نظر الناس يفتى عن ذلك كله ؛ وإذا كان الإصلاح هو وحده السبيل فإن رفض الأخذ به معناه التمسك بالسلطة ؛ والتمسك بالسلطة ولو هلكت البلاد أسوأ وأقبح صور الاستبداد ، وأدعاها إلى ازدياد الغضب وإيمان الناس بالحرية التي هي وحدها الخلاص من هذا البلاء ..

لهذا عاد الناس يعظفون على النهلست ، وتخلى عدد كبير من التجار والصناع من رجال الطبقة الوسطى ممن كانوا لا يزالون على شيء من الولاء للقيصر ، عن ولائهم له ، وصار يُجمع المال سراً للنهلست على اختلاف جماعاتهم ؛ الأمر الذي زادهم قوة فوق قوة ...

وأراد الإسكندر الثاني ، وقد وقعت محاولات ثلاث أخرى لاغتياله أن

يتزحزح قليلا فوافق على تأليف مجلس عام يرسل إليه مندوبون يختارهم مجالس المقاطعات والمدن الكبيرة لمشاورته في الأمور ...

ولكن الناس سخروا من تمسكه بسلطانه إلى هذا الحد ، فكل ما وقع من الأحداث لم ينتج إلا هذا المجلس الهزيل ؛ وبقيت سلطة الطاغية الفرد هي هي وأنوف الناس راغمة ، ومشيئتهم هباء ...

وفي يوم كئيب الضحى من أيام مارس سنة ١٨٨١ أقيمت في أحد شوارع بطرسبرج قنبلة على القيصر فلم يصب بسوء وإن تعطلت عربته ، واعتقل الجاني وأحاط الحرس بقيصرهم يلحون عليه في فرق وعجلة أن يركب عربة أخرى ، ولكنه أصر على أن يرى الجاني بنفسه ، ولم يكذب يخطو حتى عاجله شريك لذلك الجاني بقنبلة أخرى فجر على الأرض لا ينطق ، وحمل إلى قصره حيث قضى نحبه . وأعلن الثوار في ورقة أذاعوها أنهم يكفون عن العنف إذا أُجيبوا إلى مطلبين : دعوة مجلس أهلي يختار أعضاؤه بالاقتراع العام ، وإطلاق حرية الصحافة وحرية الخطابة ، وحرية الاجتماعات العامة « فهذه وحدها الوسيلة التي تمضي بها روسيا قدماً في سلام وسكينة صوب التقدم المنشود ... » .

* * *

وخلفه الإسكندر الثالث ، وكانت فاتحة عهده تنفيذ حكم الموت على أعين الناس في امرأة لأول مرة منذ نصف قرن وكانت بين المتآمرين على قتل أبيه ! ولم يتردد الإسكندر الثالث بين الإصلاح والمحافظة ، وإنما أعلن سياسته صريحة لاخفاء فيها ؛ فهو لن يتزحزح قيد شعرة ، ولن يتهاون طرفة عين في أخذ الثأرين بنكاله حتى يخضعوا لسيفه الذي لاحق إلا هو ولا نجاة للدولة إلا فيه .. قال الإسكندر فيما أذاعه غداة تربعه على العرش : « إن صوت الله يهيب بنا أن نقف ثابتين في قمة الحكومة مؤمنين بقوة السلطة الأوتوقراطية وعدالتها ، تلك السلطة التي انتدبنا لنزيدها قوة ونحفظها لخير الناس وصالحهم من كل عدوان » .

وشدت الحكومة الوثاق على رجال القلم والفكر قاطبة ؛ فهم في زعمها

مصدر كل داء وأصل كل بلاء ؛ واستعان القيصر برجال الكنيسة فراحوا يذيعون في الناس قواعد الولاء والطاعة ، ويرمون كل ذى رأى حر بالمروق ويحذرون الناس منه ، ويبالغون في تصوير ما سوف يلقاه من سوء المصير ... وتناولت الحكومة الجامعات بالرقابة الدقيقة ؛ فلا يقبل طالب إلا بعد الوثوق من هدوئه وبعده عن الأفكار الثائرة ، ولن يسمح للطلاب باجتماعات إلا وقت الدرس ، ولا يباح للأساتذة أن يقولوا كل شيء وبخاصة في الفلسفة والتاريخ . وامتدت الرقابة إلي المدارس الثانوية ، وإلى مناهج التعليم في المدارس الابتدائية حتى لا يستقر في نفوس الجيل الناشئ إلا معاني الطاعة والولاء للقيصر وحكومته ...

وكانت تصدر الصحف في الشوارع أو يمنع إصدارها بأمر إداري لسبب أولغير سبب حتى حار رجال الصحافة السياسية والأدبية ماذا يكتبون وماذا يدعون . ولم يكف الإسكندر الثالث هذا الذي يفعل بالبلاد ، فأراد أن يقضي على ماتم من إصلاح في أول عهد سالفه ، وكأنما استكثر على أولئك الفلاحين الذين لا يزالون رقيقاً في صلتهم الاقتصادية بسادتهم ؛ أن يكونوا من حيث القانون أحراراً ، فجعل لمالكي الأرض سلطة الحكم بين من يعملون في أملاكهم من الفلاحين ، وهذا هو الاستعباد بعينه ؛ أو هذه هي المظاهر الإقطاعية التي قضي عليها التحرير تعود ثانية للسادة ، ولكنها اليوم على حد تعبير بعض الروس « تعود إليهم سفاحا » .

وأبلغ من ذلك في معنى الرجعية والعودة إلى ليل نيقولا أن امتدت يد الحكومة إلى القضاء ، فقد حل محل القضاة الذين كانت تختارهم مجالس المقاطعات موظفون لهم سلطة القضاء والإدارة جميعاً حتى ليكونوا خصوماً للناس وقضاة في وقت واحد ؛ وكان يسمى الواحد منهم « كاتب الأرض » ، وكان يختار هؤلاء حكام المقاطعات ممن يثقون فيهم من الأعيان ؛ وكانوا في الأكثر جهلة متغطسين لا يدرون شيئاً عن إجراءات التحقيق الأولي فضلاً عن القضاء والحكم ؛

على أن أسوأ عيوب هؤلاء هو مجموعهم بين القضاء والتنفيذ وليس لأكثرهم نصفه القاضى ولا حنكة الحاكم؛ ولقد كان فصل الحكم عن القضاء مما ارتاح له الناس من إصلاحات الإسكندر الثانى كما سلف القول، ولشد ما بلغ استياء الناس من هؤلاء المتسلطين المتجبرين الذين امتد نفوذهم إلى كل جانب من حياة الفلاحين، والذين كان لهم أن يلقوا بالناس في السجن من غير محاكمة، والذين لم يدعوا صورة من صور الإهانة دون أن يلحقوها بالفلاحين؛ ولقد شقى بهم الفلاح الروسى حتى جهل الشقاء، وذل حتى نسي المذلة، ولقد طالما تألم حتى أشفق الألم، وصبر حتى جزع الصبر!.. وحسبك أن بعض هؤلاء الحكام في إحدى سنوات المجاعة في عهد نيقولا الثانى كانوا يمنعون العون ليظل الفلاحون قانعين بالقليل! وتمادت الحكومة في التمكين للأوتوقراطية فلم يسلم من تدخلها حتى مجالس المقاطعات، وكانت هذه المجالس أول تدريب للشعب على أن يقوم على تدبير شؤونه بنفسه، وإليها يرجع الفضل في إنشاء المدارس الابتدائية في القرى وفتح المكتبات العامة والمستشفيات، وإنشاء كثير من الطرق والعمل على تجنب أسباب المجاعات.

وقد عملت الحكومة على أن تحول بين المتحمسين للإصلاح وبين الدخول في تلك المجالس، كما أنها كانت تعرقل أعمالها، ثم أتقصت ما يسمح لها بجمعه من المال.

بهذا الذى ذكرنا ردت روسيا إلى الفسق، فلندعها تتلمس سبيلها إلى مطلع الفلق، لنعود إلى كاتبها الأكبر فنرى كيف كان في تلك الأثناء يتلمس هو كذلك مطلع النور فيما أحاط به من ظلمة...

عشر سنوات . . . !

فرغ تولستوي من « أنا كارينينا » وفي نفسه ما فيها مما بينا من الألم ، ثم كانت صدمة اليأس التي أذهلته والتي تركته في ظلمات بعضها فوق بعض ، ووجد الفلاة حوله موحشة ، والمفازة عن جانبيه وعرة ، والطريق أمامه لا يدرى أقاصدة هي أم غير قاصدة ؛ وقد اعتزم المسير برغم ذلك لأنه أهون من الوقوف على حافة الهاوية . . .

ولكنه يدير وجهه عن الطريق قبل أن يخطو خطوة ؛ فهل كان ذلك فعل الخائف ، أم فعل الحائر الذي لا يدرى في حيرته ما يأخذ مما يدع ؟ إنه يريد أن يكتب قصة ! فهل عاد يلوذ بالفن كما فعل إذ كتب قصتيه الكبيرتين ؟ هل آثر تلك الراحة على مخاوف المفازة ؟

وقد عاد تولستوي إلى موضوع الديسمبريين ، وظل يقرأ ويبحث ويזור الأماكن التي تعنيه كما كان يفعل قبيل « الحرب والسلام » ، وبلغ من ذلك مبلغاً كبيراً لا يشك معه المرء أنه جعل للفن كل همه ، وكان يريد أن يشرح في قصته هذه قوة امتداد روسيا أي هجرة الفلاحين باختيارهم من روسيا والقوقاز إلى جنوبي سيبيريا والتركستان ووسط آسيا ، وذلك بأن يصور أحد المتأمرين المنفيين زعيماً « لهذا الفتح القائم لا على الحرب والدماء ، ولكن على ما وهب الفلاح الروسي من مقدرة زراعية » .

وظل تولستوي حتى نوفمبر سنة ١٨٧٨ ، وهمه كله إلى هذه القصة ، وقد كتب لها افتتاحات أكثر من عشر مرات ولكن لم يعجبه شيء على أنه ما لبث أن فطن إلى أنه يخادع نفسه ، وأن ركونه إلى هذه الراحة لن ينسيه عذابه ووحشة روحه ، فإلى المفازة وإن اشتدت المخاوف واستبهم الطريق .

ونسوف يكدح كدحاً متصلًا عنيفاً حتى سنة ١٨٨٦ ، وقد جعل دبر أذنيه تلك « الأ كذوبة الجميلة » كما عاد يسمى الفن ، وكانت هذه السنوات العشر الخالية من الفن سنوات نشاطه الفكري .

أصدر تولستوى فى مدى خمس سنوات تفتى فى سنة ١٨٨١ ، أربعة كتب ، أولها « اعتراف » وقد أتمه سنة ١٨٧٩ ولكنه لم يُتداول مخطوطاً إلا سنة ١٨٨٢ ، وثانيها « نقد للدين القائم على النصوص » ، ولم ينشر هذا إلا بعد زمن ليس بالقصير ، وثالثها « دراسة وموازنة بين الأناجيل الأربعة » وقد كتبه سنة ١٨٨٠ ولم ينشر كذلك إلا فيما بعد ، ولكن مختصراً منه تحت عنوان « الإنجيل فى غير إسهاب » قد تداولته الأيدي مخطوطاً ، ورابعها « ما أعتقد » وقد كتبه سنة ١٨٨٠ وصار تداوله كذلك مخطوطاً سنة ١٨٨٤ ...

أكب تولستوى على هذا العمل الشاق فى تهمس وإخلاص كشأنه فى كل ما يتناوله من عمل ، حتى بين فى وضوح ما ذا يفهم من العقيدة المسيحية غير مقيد برأى من الآراء ، وقال عن هذا العمل الذى عده أعظم مجهود فى حياته ، وأكث ما عمل سروراً لنفسه ، إنه كان نقطة التحول فى هذه الحياة ، ثم كان فضلاً عن ذلك أساس كل شيء كتبه فيما بعد ...

أما عن أول هذه الكتب الأربعة فإن كتابه « اعتراف » يعد أجمل ما كتب فى غير الفن ، وقد بين فيه فى صورة رائعة بليغة مراحل اعتقاده وماعاناها من الشك مرات ، وما أنس إليه من اليقين مرات ، حتى تبين له ما فى العقيدة المسيحية من صدق وحق أدت إلى غموضها النصوص الجامدة والشروح الفاسدة ، وعليه استجلاؤهما لنفسه ثم بيانها للناس .

وإن المرء ليقع فى هذا الكتاب على صفحات رائعة ، يظل لها فى النفس ما تتركه كل عبقرية من أثر ، ومن أمثلة ذلك ما كتبه عن اعتناق بعض الناس الدين شكلاً فحسب ، وسلوكهم فى الحياة مسلوكاً يبعد عما يقضى به الدين كل البعد ،

وما أعلنه من شك فيما يسعى الثقافة الحديثة بكل جوانبها ؛ ثم ما انتهى إليه من أن الحياة إذا خلت من شيء تتعلق به النفس فقدت كل معنى ؛ ولا بد للمرء أن يتعلق بقوة خفية مجهولة أسمى منه كي يكون لوجوده معنى مفهوم ! وما ذكره عن العقيدة المسيحية كما تصورها الكنيسة الأورثوذكسية ، ومبلغ ما فيها من قصور عن مطالب العقل والقلب ؛ وهو كما ترى بحث ممتع جريء ، يزيد قيمة صدوره عن مثل هذا الذهن العبقرى ، وانبعائه من أعماق نفس مخلصه كل الإخلاص في كل ما تحس أو تقول . ولا بد لمن يريد أن يعرف تولستوى حق المعرفة أن يقرأ كتابه هذا قراءة تدبر وإمعان ...

وحمل تولستوى على عقيدة الكنيسة في كتابه الثانى حملة لا ينهض لها إلا من كان له مثل شجاعته وحماسته في إحقاق الحق ، وطرق في جرأة وفي غير أكثر شيء ، باباً طالما تهيبه الكثيرون ، وهو ما يريد الهدم في ذاته ، وما كان إلا الحق ما أراد ، وفي سبيل الحق يركب كل مركب صعب ويسلك كل سبيل وعمر ...

هاجم تولستوى عقيدة التثليث ؛ وأنكر ما جاء عن الجنة وإخراج آدم منها ، وما جاء عن الملائكة والشياطين ، وما ذكر عن خلق الدنيا في ستة أيام ، وعن مولد المسيح من عذراء ، وعن الصلب والبعث والتكفير عن الخطيئة الأولى ، وعن تعميد الأطفال ؛ وغير ذلك مما لا يستطيع أن يحمل على قبوله عقله ولا على الإيمان به قلبه ، وبخاصة قسمة الناس إلى أشقياء وسعداء حسبما يعتقدون ، وهو لا يعد ذلك كله باطلاً ونفاقاً فحسب ؛ بل فسوقاً وكفراً « بالروح القدس » لا يفتخر في هذه الحياة ولا في الآخرة ...

ولقد كره إليه الكنيسة فضلاً عن هذه المعتقدات ما رآه في بعض رجالها من التمسك بخرافات هي من صميم الوثنية ، وما يسيطر على القساوسة جميعاً كبارهم وصغارهم من ميل إلى الاستبداد ، ورغبة في التمكين للحكم الأوتوقراطي في أسرة رومانوف . فإما من موقف من مواقف الاضطهاد والعتى إلا كان لهم فيه نصيب ،

كي يمكننا لسלטانهم أيضاً ، وقد أخذت تهززه الروح الجديدة ...
وكان كتابه الثالث : خلاصة دراسته المريرة الشاقة للأناجيل الأربعة ،
والمقابلة بينها ؛ ولقد اتكأ تولستوى على نفسه وتعلم العبرية ، وما زال حتى تظن
إلى دقيق معانيها ، وبذلك قرأ الكتاب المقدس في لغته ؛ وحاول أن يفهم كل
عبارة كما ينطق به مدلولها غير متأثر بمعنى سالف ، وأعانه ذهنه الجبار وصبره
العجيب على الفوص إلى أعماق المعاني ؛ ثم قابل بين ما فهم هو وبين ما فهم
كاتبوا الأناجيل ، ووقف على أسباب الغموض فيما أحس فيه الغموض ؛ ووصل
من ذلك إلى ما تناقت نفسه إليه زمناً طويلاً ألا وهو استجلاء العقيدة المسيحية
في بساطتها والنفاذ إلى جوهرها غير مشوب بما ألقاه عليه الجهل والغرض وسوء
التخريج من إبهام واضطراب ...

وقد خرج من هذه الدراسة العسيرة التي حملته رهقاً شديداً برأى استيقنه
عقله وارتاحت إليه نفسه ، وذلك أن المسيحية على عكس ما جاءت به الكنيسة
من اضطراب وتناقض ، تفسير عميق بين الحياة يوافق أسمي ما تصبوا إليه النفس
البشرية من مطالب ...

رأى تولستوى أن المسيحية ليست كما صورتها الكنيسة مجرد تعاليم سماوية
كشفتها السماء للأرض ، ولكنها دين عملي يمكن تحقيقه في كل زمان وفي كل
مكان ، وأنه يحقق لمن يتبعه الخلاص والسعادة لا في حياة أخرى ولكن في
هذه الحياة فوق الأرض ...

وتقوم فكرة تولستوى على أن الإنسان إنما جاء من مصدر أزلي لانهاى
وهو ابن لهذا المصدر لا بجسده ، ولكن بتلك الاستعدادات الروحية المغروسة
فيه ؛ وأن حياته الصحيحة هي أن يخدم ذلك المصدر اللانهاى للحياة في مظهره
كما يتجلى في الإنسانية ؛ والحياة الحق هي الحياة المستقلة عن الزمن ، ذلك الذى
يصرفنا فيه تفكرنا في الماضي والمستقبل عن الحاضر الذى هو وحده الشيء
الحقيقي ، وواجب الإنسان أن يقضى في نفسه على خدعة الزمن ، وأن يتحد بحياة

منبع الحياة ، وذلك يكون بالحلب ، وهو المظهر الذى لا شك فيه لذلك المنبع ...
ويوجب تولستوى أن يرد كل شيء في فهم المسيحية إلى العقل ، ولذلك
فهو لا يفسر ما جاء في الإنجيل من أنباء تفسيراً يخرج عن نطاق العقوليات فإن
ذلك مدعاة لعدم التصديق ، وإنما يفسره كما يتمشى مع العقل فالمراد بأن يبصر
الأعمى مثلاً أن يرى الجاحد الذى عميت بصيرته الحق فيؤمن به ويهتدى وليس
المراد عمى البصر ، وقس على ذلك غيره مما تأخذ الكنيسة بحرفيته فتخرج به
عما يعقل .

وخلاصة ما يفهم تولستوى من المسيحية أن « مملكة السماء » ليست
مكاناً أعد للمؤمنين الذين نجحوا إيمانهم ؛ ولكنها حال يمكن أن يحققها على
هذه الأرض من يعيش وفق ما جاء به المسيح ؛ وإن المسيحية ترشده إلى هذا
الكال إرشاداً عملياً مردده إلى العقول لا إلى الخيال والوهم ...

وفي كتابه الرابع « ما أعتقد » لخص تولستوى غاية المسيحية تلخيصاً
مستمداً مما فهمه من تعاليم المسيح في خمسة إذا عمل بها المرء حقق بها مملكة
السماء على الأرض وهي : ألا يفضب الإنسان ؛ وأن يعاشر الناس جميعاً بالحسنى ؛
وألا يقرب الزنا ؛ وألا يقسم قط ، ومعنى ذلك ألا يؤدي ميمناً بإطاعة أية حكومة
وأن يحافظ على حرية عقله وضميره ؛ وألا يقاوم الشر بالعنف ؛ وألا يلجأ إلى
الخصومة والتقاضى ويطلب سلطة القانون ، ويجعل فرقاً بين الناس بسبب
قوميتهم لأن عليه أن يحب الأجانب كما يحب بنى قومه ...

ويرى تولستوى أن الكنيسة بعيدة كل البعد عن روح المسيحية ، وذلك
أنها تلقي في روع الناس أن خلاصهم في أن يكونوا مسيحيين وفق تعاليمها فحسب ،
وإن لم يفعلوا شيئاً يسير بهم صوب الكال الذى تنشده تعاليم المسيح والتي تؤدي
إليه ، وحتى وإن لم يحبوا الله فالكنيسة هي التي تتولى عنهم خلاصهم ، وأدهى
من ذلك أنها تنكر أن يعتمد الناس على عقولهم في تفهم دينهم ؛ مع أن الاعتماد
على العقل هو ما تدعو إليه المسيحية كما يتبين من طبيعتها ...

هذه الكتب الأربعة هي فلسفة تولستوي الدينية ، وهي فيما أنتجه العقل البشري في مجال الفكر بعض كنوزه الغالية ، ولقد استغرقت كتابتها كما ذكرنا خمس سنوات ؛ وليس بعجيب أن يرى عمله فيها أعظم مجهود بذله في حياته ، وأن يستعذب هذا المجهود علي ما كان يجد فيه من مشقة وعناء ...

وإن الإنسان ليتملكه العجب من هذا الدأب سنوات خمس على دراسة كهذه تتطلب من الجلد والقوة وعظيم الهمة ما ينوء به أولو العزم من الرجال ، ولكن ذلك بعض ما يمتاز به العباقرة عن بقية الناس .

ولقد كان تولستوي يستحب هذا الدأب المضمي لأنه كأصحاب الرسائل الكبرى يؤدي به رسالته ، وها هو ذا الآن يستروح نسيماً منعشاً ولو قليلاً بعد سيره الطويل ، ويركن إلى قبس أخرجه بعض الشيء من حيرته ؛ فللحياة معنى به تستحق أن نعيشها : هو ذلك الذي يتجلى في رسالة المسيحية كما فهمها ؛ وما عليه الآن إلا أن يبشر بهذه الرسالة التي جلاها ليكون للناس فيها الهدى ، فما تستريح نفسه الراحة كلها إلا إذا أضاء هذا القبس في ظلمات النفوس ، وإلا فما جدوى عنائه وطول بلائه ؟ والحق لقد كان تولستوي أشد حرصاً على أن يقف الناس على آرائه في الدين والحياة ، منه على أن يعنوا بآثاره الفنية . قال بعد ذلك بأربعة عشر عاماً : « إذا قدر يوماً أن يشغل الناس أنفسهم بكتاباتى ؛ فدعهم يركنون إلى تلك الفصول التي أعرف أنني كنت فيها لسان (القوة المقدسة) ، ودعهم يفيدون منها في حياتهم ؛ لقد مرت بي أوقات كنت أشعر فيها أنني أداة لتلك (القوة المقدسة) ، ولقد طالما كنت غير طاهر تملأني رغباتي الشخصية ، وعلى ذلك فإن ظلمة نفسي كانت تطفىء ذلك النور ؛ ولكنني في بعض الأوقات كنت أحس أن الحق يمر من خلالي وكانت تلك الأوقات أسعد سويعات حياتي » . ولا يسع الإنسان بعد ما عرفه من سابق عذابه وحيرته وظلمة نفسه إلا أن يرد هذه السويعات السعيدة إلى تلك السنوات الخمس التي كتب فيها كتبه الأربعة الخوالد .

ولكن هل أجب في كتبه عن كل ما كان يلح عليه من أسئلة؟ هل استراحت نفسه كل الراحة؟ كلا.. فما عرف تولستوى من أين أتى ولا إلى أين يذهب؛ ما عرف من أمر الحياة ولا من أمر الموت ما أراد أن يعرف، وهل عرف ذلك أحد قبله؟ حسبه اليوم أنه وجد للعيش معنى، وهو أنه بات يحس أنه يخدم الله بعمله على أن يكون الناس في الأرض جميعاً إخوة متحابين في حب الله، وإنه ليمتلىء نشوة وغبطة إذ يشعر اليوم أنه أخ لكل إنسان، وأنه يريد أن يبصر الهدى كل إنسان...

أما الحياة فستظل سراً، وسيظل مجاهداً طوال السنوات الثلاثين الباقية من عمره في سبيل معرفة هذا السر؛ ولكن تلك السنوات سوف تنطوى وذلك السر باق على غموضه وسيغمض تولستوى عينيه غمضتهما الأخيرة ولم يدر عن هذا السر الذى حيره وأضناه شيئاً ولو ضئيلاً.

صرفنا حديث كتبه في هذه السنوات الخمس عما كان يحيط به من شؤون الحياة في تلك الحقبة، فلنعد إلى حديث حياته فيها وفيما أعقبها من سنين حتى عودته إلى الفن...

وليس من جديد عن أسرته إلا أنه ولد له غلامان: أندرو في سنة ١٨٧٧، وميكائيل في سنة ١٨٧٩.

وكان في قصره المعلمون والمربيات، فكان يعلم أكبر أبنائه ست لغات؛ منها الإنجليزية والفرنسية والألمانية، وكان يعيش أبناؤه وبناته عيشة الترف على الرغم من عزوفه هو عن ذلك؛ فكانوا يظهرون أبدأً في مظهر فخم يحيط بهم الخدم أينما ذهبوا، ويتعهدهم المعلمون والمربيات بكل ما يرقى عقولهم ويهذب أذواقهم، وكان يحول أبوم على تواضعه وخشوعه بينهم وبين مخالطة أبناء الفلاحين إلا بقدر تحت رقابة المربيات؛ وكان ينفق تولستوى على تربيتهم عن سعة؛ فله من المال اليوم أكثر مما كان له بالأمس، وذلك لما درته عليه كتبه منه،

وما درته ضياعه الجديدة في سمارا ؛ وإن كان انصرافه عن شؤون ضياعه يخيف زوجته لأن عاقبة ذلك في نظرها تنقص ثروته .

أحسن تولستوى في ربيع سنة ١٨٧٨ رغبة في نفسه ليصلح بينه وبين ترجميف فكتب إليه يقول :

« إيقان سيرچوفتش . بعد أن نظرت ملياً فيما أشعر به نحوك أراني واثقاً من أني لست أحمل لك ضغناً ، وأرجو من الله أن يكون ذلك هو شعورك نحوي ، مد إلى يدك ودعنا ننسي الماضي ، وإني لأعلم حق العلم أنك أريتنى مودتك ذات مرة ، ثم إني أشكرك على ما كسبت من صيت في دنيا الأدب ، وأرجو أنك في أعماق قلبك لا زلت تحمل لي ولو قليلاً من الحب ؛ وإني إذ أقدم لك اليوم أخلص مودتي ليسعدني أن يزول ما دب بيننا من سوء التفاهم » .

ورد عليه ترجميف بقوله :

« شد ما سرني كتابك وشد ما أثر في نفسي ، وإن سعادتني باستثافنا مودتنا أكبر من أن توصف ؛ وإني لأهز في حرارة اليد التي تبسطها إلى ، وإنك علي حق إذ تظن أنه ليس في قلبي موجدة عليك ، وإذا كنت أحسست شيئاً من ذلك فقد ذهب من زمن بعيد ، ولست أذكر إلا الرجل الذي اشتد تعلق به ، والذي استطعت أن أصفق لخطواته الأولى قبل غيري ، والذي يبعث في نفسي كل كتاب جديد له أعظم المتعة ، وإنه ليبهجنى أن ما كان بيننا من سوء الفهم قد زال ؛ أرجو أن أذهب إلى إقليم أوريل هذا الصيف ، وهناك نستطيع أن نتزاور بلا ريب ، وإلى أن أراك أتمنى لك كل خير ، وأصافح يدك في إخلاص » .

وتجددت الصلة بينهما وتزاورا ، ولقيت الكونتس من مودة ترجميف ومن ثنائه عليها ما حبيه إلى نفسها ؛ ولكن الود بينهما لم يبلغ ما بلغه في كتابتهما ؛ وقد وجدا أن صلتهما لا تزال تقف عند حد لا يمكن أن تجوزه ؛ وتبين ذلك

فيما راح ينتقد به ترجميف في المجتمعات الأدبية نظرة تولستوى إلى الحياة ، وفيما قاله تولستوى لصديقه فت عن ترجميف من أنه لا يزال كما هو شخصاً لا يؤلف ولا يساغ ...

وأما دستويفسكى فلم تتم بينه وبين تولستوى صلة شخصية ؛ بل لم يلتقيا قط ، وكان يستطيع أن يرى كلاهما الآخر في احتفال أدبي عظيم أقيم بموسكو في مايو سنة ١٨٨٠ لإزاحة الستار عن تمثال شاعر روسيا الأكبر بوشكين ، وقد احتشد رجال الفكر والقلم في هذا الاحتفال الفذ ، وتوقعوا أن يروا تولستوى وقد أوفدوا إليه ترجميف يدعوه ، ولكنه كان في شغل عن الدنيا كلها بما كان يكتب من آرائه التي احتوتها كتبه الأربعة ، فاعتذر ولم يذهب .

وكان دستويفسكى يومئذ في ذروة مجده الأدبي ؛ ذهب له من الصيت في روسيا وفي أوروبا ما لم يفقه إلا صيت تولستوى وحده ، وظهرت مكانته في الناس ذات ليلة إذ كان يلقي محاضرة في جمعية محبي الأدب الروسي في أسبوع بوشكين ، فإنه ما كاد يتم كلمته حتى وثب الناس مصنفين له هاتفين باسمه ، واحتشدوا حوله وقد تقدم ترجميف فعاثقه والدموع في عينيه ، وبلغ من حمس الشباب له أن ارتقى أحدهم على قدميه ، بينما راح عدد منهم يتزاحمون ليصالحوه فوق المنصة ، وإن كثيرين منهم ومن الرجال لتدمع ما قيهم من فرط تأثرهم

ولم يعيش دستويفسكى طويلاً بعد ذلك فمات في نفس السنة دون أن يرى تولستوى ، وكان يرغب في زيارته قبيل أسبوع بوشكين ، ولكنه علم من أنبائه على لسان جريجوروفتش أنه فقد عقله ، وأنه يعيش في ياسنايا عيشة الخبول كما يؤكد ترجميف !

ولقد كان تولستوى يقدر فن دستويفسكى حق قدره ؛ كتب في صيف سنة ١٨٨٠ إلى صديق لها يقول : « لقد مستنى وعكة منذ قليل فقضيت هذا الفراغ الحتمي قضاء ممتعاً وذلك بقراءة « بيت الموتى » ، ومع أنى قرأتها من قبل فقد كنت نسيت كثيراً منها ، ولست أعرف في الأدب الحدث أجل منها

لا أستثنى بوشكين نفسه ، وليس أسلوبها ما راغنى ، ولكن تلك النزعة العجيبة في صدقها وفي طبيعتها ومسيحيتها . إنه كتاب يسمو بالنفس حقاً ؛ ولقد أتاحت لي قراءته من المتعة ما لم أحظ بمثله منذ وقت طويل ؛ إذا لقيت دستويفسكى فبلغه محبتي .

ولما مات دستويفسكى قال تولستوى : « مع أنى لم أر دستويفسكى قط ، ولم تكن بينى وبينه أية صلة ، فإنى أشعر وقد طواه الموت أنه كان أقرب إلى وأعز عندى وأعظم شأنًا من أى رجل سواه ؛ ولم تحدثنى نفسي قط بمنافسته ، ولقد بلغ كل ما كتبه من الجودة والإخلاص حدًا جعله مبعث سرور لي أبدًا ، ولو أنى خاليق بأن أنفس على رجل ما عقله ومقدرته ، إلا أن ما ينبعث من القلب لا يترك في نفسي إلا الغبطة ؛ ولقد كنت أذكر دستويفسكى أبدًا كما أذكر صديقًا ، وأملت أن أراه يوماً ما ، ولكن ذلك لم يكن ... »

اطمأن تولستوى إلى دينه الجديد ، وهو المسيحية كما يفهمها ، ووثق من أن « مملكة السماء » تتحقق على الأرض باتباع هذا الدين ، وإن نفسه لا تفتأ تحدثه اليوم أن غايته في هذه الحياة أن يبشر بهذا الدين ، وألا يقر له قرار حتى يضيء قلبه في ظلام النفوس . فإذا العالم غير العالم والناس غير الناس ...

إن قوام مسيحيته الجديدة ألا يدفع الشر بالشر ، فلامفو خير وأبقى ، وبه وحده تستل السخائم من الصدور ، ولو دفع كل إنسان السيئة بالتى هى أحسن لما كان للشر من قرار ...

فليجاهد تولستوى في سبيل دينه . ذلك ما جمع عليه عزمه ، واسوف يمضى في سبيله مهما صادفه من عنت حتى يظهر الله دينه فيموت وقد ترك للإنسانية الرباط الذى يؤلف بين الناس في الشرق والغرب ...

وها هو ذا القيصر الشاب الإسكندر الثالث بسبيل أن ينفذ حكم القتل في خمسة بينهم امرأة ، هم الذين تأمروا حتى قتلوا أباه ، فهل يقف تولستوى مكتوف

اليدين ، معقول اللسان ؟ وإذا فأين إخلاصه لدينه ، وإيمانه به ؟ أيتها مقام القيصر ؟ كلا ... فما هو بهيباب وهو من إذا امتلأت نفسه بشيء لن يثنيه عنه خوف ولو كان الموت ...

أنكر تولستوي الجريمة ، ولكنه يكره العقاب ، ويطلب العفو ، ويطمع أن يصدر العفو من القيصر عن جريمة مثل هذه ؛ فيكون لفعله من عظيم الأثر في روسيا كلها ما لا يكون لآلاف الأفعال غيره ؛ وتسلمت عليه هذه الفكرة ، فتناول قلمه وكتب للقيصر كتاباً طويلاً صريحاً « من رجل لرجل » على حد قوله يسأله فيه أن يعفو عن قتلة أبيه ، ويقول له إنه لاشدة الأوتوقراطية ، ولا مسaire الآراء الحرة بعض الشيء ، قد أفلحنا في وقف الحركة الثورية ، وإن مما يؤدي إلى ارتباك المهلست العفو عن هؤلاء القتلة ، وأن أباه لم يقتله أعداء لشخصه ، وإنما قتله أعداء للنظام القائم ، وما قتله إلا لأنهم ظنوا أنهم يؤدون صنيعاً للجنس البشرى . وأرسل الكتاب إلى يوييد نستسوف رئيس الجمع المقدس ليحمله إلى القيصر ؛ وكان هذا الرجل من أسناد الأوتوقراطية ومن عملوا في مهارة وكثير من المكر على مقاومة الآراء الجديدة من وراء عرش القيصر السالف ، ولكنه كان يتظاهر بالمطف على الأدباء ليأمنوا مكره ...

وكان مما قاله تولستوي في كتابه ، بعد أن نصح للقيصر ألا يصغى إلى لغو حاشيته ، وألا يجاريهم فيما تنزع إليه نفوسهم من حب الانتقام « أكتب أنا ، العاجز ، العديم القدر ، المجهول المقام لأنصح لإمبراطور روسيا ماذا يصنع .. وإلى لأشعر بما في عملي هذا من غرابة ومن بعد عن اللياقة ومن جرأة ، ولكني مع ذلك أكتب ... وأنا أكتب من منعزل في القرية ، وسوف لا تجد في كتابي تلك النعمة المعتادة في الكتب التي ترفع إلى إمبراطور ، ولا ذلك الزخرف ، ولا تلك البلاغة الباطلة التي تبهم الشعور والفكر ، ولكني أكتب إليك كما يكتب رجل لرجل فإن احترامى الصادق إياك رجلاً وقيصراً إنما يكون أكثر وضوحاً بغير هذا البهرج ...

أعفُ عنهم ، وقابل الشر بالخير تجدد قلوب الملايين وقد امتلأت فرحاً بهذا
المثل الطيب يتنزل عليهم من عرش في ساعة تحيط الرهبة فيها بابن لأب قتيل ...
أيها الملك .. إنك إن فعلت هذا ، أجل ، إنك إن جئت بأولئك وأعطيتهم
المال وأرسلتهم إلى بعض جهات أمريكا ، وأذعت بياناً تبدأ بهذه الكلمات ، وإني
أقول لكم أحبوا أعداءكم ... عندئذ لست أدري ما عسى أن يكون شعور
الآخرين ، ولكني أنا الضئيل العاجز سوف أغدو كلبك وعبدك ... كلمة عفو
واحدة مصحوبة بالحب المسيحي ينبعث من أعلى العرش ، ثم طريق الحكم على
أساس المسيحية الصحيحة وهو منبسط أمامك لتخطو فيه ... ذلك وحده ما يقضي
على ما تتعذب به روسيا اليوم من شرور ؛ وسوف تذوب الثورات كما يذوب
الشمع في النار ، أمام القيصر وأمام الرجل الذي يقضى بقانون المسيح » .
وعلق رئيس المجمع الكتاب عنده حتى نفذ القتل في الجانين ؛ ثم رده إلى
تولستوى راجياً منه ألا يعزو عمله إلى غلظة أو إلى عدم اكتراث له ، وإنما
مرده إلى ما أحاط به في تلك الظروف مما حير عقله وأذهله عن كثير من
الشؤون ، وإلى « أن عقيدة تولستوى شيء ، وعقيدته هو وعقيدة الكنيسة
شيء آخر » ...

ويقال إن الكتاب بلغ القيصر من طريق آخر ، وأنه أرسل إلى تولستوى
من يقول له : إنه كان يعفو عن الجناة لو أنهم أرادوه هو مجرمهم ، أما وقد قتلوا
أباه فهو لا يملك أن يعفو عنهم ...

* * *

لن يدع تولستوى الكفاح حتى يعلم الناس دينه ، وسبيله أن يدعو إليه
الناس بالحكمة ، وكانت كتبه وسائل دعوته هذه ، وقد فرغ من كتابتها حتى
سنة ١٨٨١ كما أسلفنا ، وأودع فيها آراءه ، وهي خلاصة دراسة مضنيه عنيفة ؛
وما خط فيها سطرأ أو عبارة لم يؤمن بها أو يفهمها حق الفهم لبيئتها للناس ؛ حتى
لقد صار لهذه الكتب في الآثار الفكرية مقام قصصه في الآثار الفنية ؛

فهي ومضات ذهن عبقرى متوقد ، ونبضات قلب مخلص ممثلىء بالإيمان ...
ولكن الرقيب يمنع كتبه من النشر ، فإذا تداولها الناس مخطوطة ، وعنوا
أنفسهم بنسخها ، صودرت أيما وجدت ، وحوصرت كما يحاصر الوباء ، وتعقب
الشرطة أصحابها بالتجسس ، وألحوا عليهم بالتخويف والإنذار ، الأمر الذى
يضيق به صدر توالستوى ضيقاً شديداً ، والذى يكره إليه روسيا والحياة فيها ؛
ولكنه يعود فيصبر ؛ بل إنه ليطيب نفساً بما يسمع من إقبال الناس على تداول
كتبه سراً ، وإمعانهم فى ذلك كلما أمعن الشرطة فى تعقبهم وإعنائهم ...
ولولا أن كانت له تلك المكانة الأدبية التى لم ينل مثلها أحد قبله فى قومه ،
ولولا شجاعته واعتزازه بهذا المقام العظيم ، واستنكافه أن يخفض جناحه أو يفض
من صوته ، لناله من أذى الحكومة ما كان ينال غيره من النفى أو السجن
أو غيرها من صور العذاب .

ولقد كانت روسيا يومئذ تعانى من تعسف الحكومة ما لم تشهد مثله إلا فى
عهد نيقولا ، فالشرطة يروعون البيوت الآمنة ، ويتعقبون كل من تحدثهم
أنفسهم بأنه من الثائرين ؛ حتى الفتيات والنساء فلم يسلمن من التجسس الشديد ؛
ومما يدعو إلى الضحك أن الشرطة قد اعتقلوا ذات مرة إحدى السيدات إذ
وجدوها تضع منظاراً على أنفها ، فهذا المنظار عندهم علامة على جمعية سرية هى
من أفرادها !

وكان يوبيد نستسوف رئيس المجمع المقدس ورجاله يعينون الحكومة
ما وسعهم العون ؛ وكان هذا الرجل على جانب كبير من الدهاء ، وكان همهم أن
يبيد الجماعات الثائرة ، وأن يقضى على كل نزعة متطرفة بكل ما يسهه من الوسائل
القهرية والسلمية ، وإنه لو اتق من بلوغ غايته وهى أن يمكن ثانية فى روسيا
للحكومة الأوتوقراطية والكنيسة الأورثوذوكسية ...

ماذا يصنع المصلح الدينى المتحمس لدينه ، فى وضع كهذا وليس يملك

إلا لسانه وقلبه ؟ لقد بث في كتبه الأربعة كل ما أراد أن يقول ، ولقد جاءت تلك الكتب وفيها من تولستوى خصائصه مؤلفاً في أكل مظاهرها وأروعها ، وفي مقدمتها عمق نظرته وشمولها ، ومقدرته الفائقة على تبين ما يريد تبينه حتى ليقوم منه في ذهن القارئ ما يقوم في ذهنه هو لا تعلق به أية شائبة من غموض ، على الرغم من دقة ما يعرض ، ومن صعوبة ما يطلب . فليدع كتبه تحدث أثرها في الناس مع الزمن وليرتقب ما يكون من أمر هذا الدين الجديد ...

ولكن ماذا يعمل وقد هجر الفن ، وكتب ما كتب في الدين ؟ أيعود إلى أعمال الزراعة فيربي الخيل والأبقار والخنازير ويبنى خلايا النحل ؟ ذلك ما لا يلتفت إليه اليوم على الرغم من ثورة زوجته لما ترى من إهمال في ضياعه ينذر بنقص كبير فيما تأتى به من مال ، ولقد أخذت تحس هذا النقص فعلا ، وهل يعنى تولستوى اليوم شيء من هذا ؟ إنه بسبيل أمر جديد بات يشغل باله وهو في طبيعته يحمل من يُعنى به على النفور من الثراء والترف بل والعمل على نفوس اليدين منه ! إنه بات يفكر في حال الفقراء ، وقد رأى من ذلك ما هاله وهز قلبه هزاً شديداً ، وكأنه لم يعلمه من قبل ...

والحق إن انصراف تولستوى إلى الفن ، وإلى الفن في ذاته في القسم الأول من حياته حتى قارب الحسين قد شغله عن التفلسف والبحث ، فما كان يعنيه إلا أن يصف ما يرى ليتخذ منه مادة لقصصه ؛ أما استقصاء العلل والنظر فيما يجب عمله فما كان من فنه في شيء ...

رحل تولستوى وأسرته جميعاً إلى موسكو في شتاء سنة ١٨٨١ ليلتحق سيرجى بالجامعة ، ولتتاح لتانيا البيثة التي تكمل فيها تربيتها ...
وفي موسكو كان يقع تولستوى من صور البؤس والشقاء على كثير من بات يزججه ويؤلمه ، وقد تغيرت نظرتة إلى الأشياء والناس ، فلم تعد كما كانت قبل أموراً طبيعية يتخذها مادة لفنه ، وإنما صارت بواعث على التفكير فيما عسي أن يصنع للقضاء على الشر ، وتمهيد السبيل لما يبشر به من خير ...

تغيرت نظرة تولستوى فكأنما يرى مظاهر البؤس الإنساني لأول مرة ،
وتغير أسلوب تعبيره ، فهو لا يصور لنا اليوم في قصة يتخيلها أشخاصاً بأسيين
كما كان عسياً أن يفعل بالأمس وإنما أتى لنا بمعنى من المعاني الفكرية ، فيتحدث
عن الحكومة والناس مثلاً بقوله : « مجرمون تحالفوا فيما بينهم ، وسرقوا الناس ،
وجمعوا الجند والقضاة ليحجموا انتهاجهم وعربدتهم ، وما يملك الناس إلا أن ينتهزوا
سُكر هؤلاء ليستعيدوا منهم ما سرقوه » .

وإنه ليعنى نفسه من أجل الناس ، ويبلغ في ذلك مبلغاً تصفه زوجته في
قولها « لم يكن ليو حزيناً فحسب ، ولكنه زلزل زلزالاتاً تاماً ؛ وإنه لا ينام
ولا يأكل ، وإنه ليزرف الدمع أحياناً » ...

ونحس كذلك عناءه في قوله : « عند ما تقع عيني على مظاهر الجوع
والبرد ، وانحطاط الآلاف من البشر في موسكو ، أحس لا بقلبي ولا بعقلي ، بل
بكياني كله ، أن وجود هؤلاء الآلاف في موسكو بينما أجدني وآلافاً غيري
نأكل مالذ وطاب ، وتتخذ ما شئنا من الأثاث والرياش ، إنما هو جريمة
لا ترتكب مرة واحدة فحسب ، ولكنها مستمرة » ...

ويمضي تولستوى سنة ١٨٨٢ في الطرقات ، إلى أطراف المدينة مع القامئين
يومئذ بالتعداد ؛ فإن له في ذلك فرصة ؛ وقد تطوع في هذا العمل ، وجاس خلال
الأزقة ، يرى بعينه ويمس بقلبه ، ليكتب كتاباً جديداً ، لا هو بقصة ولا هو
ببحث ديني ، وإنما هو كتاب في أمور اجتماعية جعل عنوانه « ماذا يجب إذا
أن نصنع ؟ » .

ويكتب تولستوى هذا الكتاب القيم المتين فإذا به ككتبه الدينية ، وضوحاً
وشمولاً وعمق فكرة ونفاذاً إلى عقل القارئ وقلبه ؛ وإذا المصلح الديني يخلع
مسوح الراهب ، ويلبس عباءة المحامي فيدافع عن الذين ظلموا من رجال المجتمع
ونسائه وأطفاله ، دفاعاً ليس مرده إلى العاطفة ، بحيث يحرك القلب ساعة ثم
يطويه النسيان ، وإنما مرده قبل ذلك إلى العقل والواقع المحسوس بحيث يدعك

تفكر طويلاً ، ثم إذا بك تعنى نفسك بما عني به نفسه الكاتب العظيم ..
ولئن كانت كتبه الدينية الأربعة مقدمة لكفاح طويل في سبيل الحقيقة
سوف يجعل تولستوى أقوى من خوف الكنيسة ، وزعزع بنيانها في روسيا حتى
ليصبح مقامه في هذا مقام لوثروكلثن في أوروبا ، فإن كتابه « ماذا يجب إذاً أن
نصنع » كان فائحة صراع عنيف في سبيل العدالة الاجتماعية سوف يندو به
تولستوى أقوى خصم للدولة ، وللوضع الاجتماعي القائم ؛ وسوف يكون للناس
عجباً أن تجيئ هذه الخصومة العنيفة ، وهذا اللدد المصم من رجل عرفوه أول
ما عرفوه فناناً ؛ والحق أنه ما من رجل في روسيا بلغت آراؤه الاجتماعية من
الهدم ما بلغت آراء ذلك الذي يعد أعظم بناء في فن قومه ؛ وإنه بهذا يشبه
قولتير وإن لم يصطنع أسلوبه الساخر ؛ وحسبه من الهدم قوته في إبراز المعايير
ومقدرته التي لا تبارى في الإقناع ؛ ثم شجاعته ودأبه وصبره وطاقته على حمل
العيب ، وعزمه المصم الذي لا يعرف التخاذل ، وما ذهب له من صيت جعل
اسمه في روسيا على كل لسان ...

لا يسأل اليوم تولستوى نفسه ما معنى حياتي وما الغرض منها ، وإنما يسأل
نفسه ما خطأي في حياتي وما خطأ الناس ؟ وإلى أي مدى تقرب حياتي وحياة
الناس أو تبعد من المسيحية في جوهرها أي في صورتها كما أتصورها ؟ وذلك أن
تولستوى يجعل اليوم كل إصلاح على أساس من مسيحيته الجديدة ؛ حتى الفن
فلسوف يصطبغ بهذه الصبغة متى عاد إليه ، وسوف يجعله وسيلة إلى السمو
بالنفس لتبلغ ذلك الكمال الذي يتصور أن المسيحية تدعو إليه ...

ويكثر تولستوى اليوم من الاتصال بالفقراء ، وقد أخفى شخصيته كيلاً يعرفه
أحد ، ويظل ينتقل من مكان إلى مكان يتحدث إلى هذا أو يستوقف ذاك ،
أو يجلس معهم على مقربة من مصانعهم حيث يأكلون طعامهم ، وفي مقاهيهم
المواضعة ، يرى ماذا يشربون ، وكيف يتحدثون ! إنه يريد أن يعرف كيف

يعيشون وما مبلغ رضائهم عن حياتهم ، وذلك ليفهم المسألة حق الفهم فما يجب أن يكتب شيئاً إلا إذا كان صورة واضحة للواقع ...

وكانت صور البؤس في موسكو مخيفة تملأ جناحه رعباً ، وكيف يطيق أن يرى الأطفال ينبشون القمامة كما تفعل الكلاب والقطط ، أو يقعون على مزجر من الموائد ليرمي إليهم الطاعمون بشيء كما ترمي العظام للكلاب ؟ وكيف يطيق أن يراهم نائمين في الطرقات أو في زوايا المباني ، وكيف يصبر إذ يرى السائلين والسائلات يمدون أيديهم الهزيلة وأيديهن اللامعة في ضراعة ومسكنة ؟ وأفزع من هذا تلك البيوت التي تعرض فيها لحوم البشر رخيصة لكل من أراد أن يقضى وطره ؟ أف لها ! إنما هنا البؤس أقبح البؤس وأعظمه ... وهو لا يرى مثل هذا جميعاً في القرية ، فلئن وجدت هناك الفاقة فمعها العمل والحياء ، حيث يعرف الناس بعضهم بعضا ... ثم إن البؤس في المدينة كما تحدثه نفسه وليد هذه المدينة الحديثة ، وليد الحضارة المادية ...

بدأ تولستوى كتابه سنة ١٨٨٢ ، ولم يتمه إلا سنة ١٨٨٦ ؛ ولكن ما ذكره فيه من آراء كان قائماً في رأسه منذ أخذ يكتبه .

تفكر تولستوى أول الأمر في الصدقة ومساعدة الفقراء كما تقضى المسيحية ولكنه ما لبث أن رأى أن الصدقة ليست في أن تعطى الفقير قروشاً ثم تدعه في فقره ، إنما الصدقة الحق أن تنشئ للقادرين عملاً ، وأن تعينهم حتى يفنئهم عن السؤال عملهم ...

وعند تولستوى أن من هم في حاجة إلى المعونة هم الذين حطهم الدهر فاستنكفوا أن يعملوا ، والنساء اللاتي أكرهن على البغاء ليعشن ، وغللمان الشارع وبناته ممن لا عائل لهم ولا هن ...

ومرد شقاء هؤلاء جميعاً إلى خطأ استولى على مشاعر الناس هو كراهة العمل الذي فيه سرورهم ورزقهم ؛ فليس في الناس إلا من يجب البطالة ، ومن يؤثرها على العمل ، وما يعمل الناس إلا مضطرين ، وما ضمن إنسان رزقه وعمل أبداً ،

لأن المستقر في وهم الناس أن العمل ضعة ومذلة ، وبخاصة الأعمال البدنية ...
وطالما تتمتع طائفة من المجتمع بالثروة وخيرات الحياة ، ثم تقضى الوقت في
نعب وهو ، وذلك بأن تشقى طائفة أخرى وتكدح ، فلا أمل في أن يحترم الناس
العمل ، أو ينظروا إليه إلا على أنه وسيلة المحتاجين . .

وما أصل الداء؟ أجل ... ما سبب هذا الشر؟ ذلك ما يسأل عنه تولستوي
نفسه ملياً ؛ أما الجواب فهو ذلك الرأي الخطير الذي تعلق به بعد طول النظر ،
فما غير امتلاك المال كان أصلاً للبلاء ومنبعاً للشر جميعاً !

« إنى أجلس على ظهر رجل فأقطع أنفاسه ، وأكرهه على أن يحملني ،
ومع ذلك فإنى أؤكد لنفسي وللناس أنى أشفق عليه وأنى آسف له جد الأسف ،
وأنى أود أن أخفف عنه وعن طائفته بكل وسيلة إلا أن أنزل عن ظهره » .

وهل تعوز تولستوي بلاغة التعبير إذا هم بإبراز معنى من المعاني ؟ إقرأ له
كذلك قوله : « ما الملكية إلا استلاب فريق من الناس جهود فريق آخر ،
وعلى ذلك فهي أصل الشر جميعاً » . ثم اقرأ له قوله : « لكيلا أخلق الآلام
لغيرى أو أسبب الرذيلة ، يجب على أن أستهلك أقل ما يمكن مما عمل الناس ،
وأن أعمل بنفسى أكثر ما فى وسعى أن أعمل » .

وهو لا يفتأ يبدى ويعيد ليزيد هذا المعنى بياناً . فهو يقول : « إن الملكية
اليوم هي أصل الشر كله ؛ فإنها هي التي تسبب الآلام لمن يمتلكون ومن
لا يمتلكون ، ولا يمكن أن يتلافى التصادم بين من يعيشون فى سعة ومن
يعيشون فى فاقة » .

ويقول فى نفس المعنى : « يقوم أبداً بيننا نحن الأغنياء وبين الفقراء جدار
من التعليم الباطل ، ولن نستطيع أن نعين الفقراء حتى نهدم هذا الجدار ؛ لقد
سافنى التفكير إلى نتيجة هي أن ثراءنا هو السبب الحقيقى لشقاء عامة الناس » .
وقال فى معرض آخر : « إن الدول والحكومات تلجأ إلى الدسائس
والحرب من أجل الامتلاك ... وإن رجال المصارف ، والتجار ، والصناع ،

وصاحبو الأرض الزراعية ، يدأبون على تعذيب أنفسهم وتعذيب غيرهم في سبيل الامتلاك فحسب ، ويتحارب أصحاب الوظائف ، ويدلسون ويتعذبون من أجل الامتلاك وحده ؛ ونحمى محامنا وشرطتنا الملكية ؛ وتقوم مستعمراتنا المخصصة للنفي ، وسجوننا ، وتلك الفظائع التي يسمونها القضاء على الجرائم ، من أجل شيء واحد ، هو حماية الملكية .

وأوقع في النفس من ذلك قوله « طالما يقوم في مجتمع ما إجبار رجل رجلا غيره على العمل له ، فإن معنى المال على أنه وسيلة للتبادل ينتهي ، ويحل محله معناه على أنه أصلح وسيلة لاستلاب جهود الغير ؛ وأى اسم غير العبودية يمكن أن نطلقه على هذا الاستلاب ؟ إن استعباد أى رجل إنما يقوم على أن غيره يستطيع أن يخضغه لمشيئته ... فإذا أعطى رجل ثمرة لغيره ، وليس يملك إلا قليلا مما يمسك به صلبه ، ودفع أولاده ليعملوا بأيديهم عملا شاقا ، وترك الأرض ليقضي حياته في عمل بغيض لا يريد أن يؤديه ، كما يحدث تحت أعيننا في عالمنا هذا الذي نسميه مثقفاً لأننا نعيش فيه فحسب ، فإننا نقول في يسر إن ذلك الرجل يفعل ذلك لا لشيء إلا لأن الموت يتهدهه إن لم يفعل » .

وإذ يقرر تولستوى هذا الرأي ويقلبه على وجوهه ، يتهبأ ليقذف به في وجه الدولة ، كما قذف بآرائه الدينية في وجه الكنيسة ...

يرى تولستوى ان للاستعباد وسائل ثلاث : أولها التخويف والإحضاع بالقوة ، وثانيها الإرغام على شكل غير مباشر ، وذلك بجرمان الجماهير من الأرض ومن الملك ؛ وثالثها أخذ المال من الناس في صورة ضرائب لا بد أن يكدهوا كدها هو الرق كي يدفعوها ويسددوا حاجات معيشتهم في وقت واحد ...

وتجعل الدولة هذا الاستعباد مشروعاً ، ولكن ما يبدو من مشروعيته ، لا يلبث أساسه أن ينهار إذا ذكرنا أنه قام على فكرة هي من الخرافة لا من المعقول ، وذلك أن واجب الفرد نحو الدولة أهم من واجبه نحو أقرانه من الناس ، وأنه لذلك يجب أن يخدم الدولة ، فإن لم يفعل حمل على ذلك بالقوة . ومعنى هذا

أن قلة تتحكم في الناس وتجبرهم علي أن يفعلوا ما يوقنون أنه شر ؛ ولا ترضى هذه القلة أن تسمى عملها هذا استعباداً لأنها زعمت له أساساً من الواجب ؛ بل تراه خدمة تؤدي المجتمع لا يمكن بدونها أن تقوم له قائمة ...

وعند تولستوي بناء على ذلك أنه ليس من « سارق » إلا الدولة ، وليس إلا هذا « المجرم » وحده يحمي كل ما في المجتمع الحديث من ظلم ؛ وفي رأيه أن الدولة ما قامت إلا لحماية هذا الظلم ؛ وما قضاؤها ، وشرطتها ، وجيشها ، وسجونها إلا وسائل لهذه الحماية ... وطلما تتمسك الدولة بالملكية مبدأً فهي في رأيه غير مسيحية وغير اجتماعية ...

وماذا يجب إذاً أن نصنع ؟ هذا ما جعله عنوان كتابه ، لأن ما يجب في رأيه أن يُصنع هو هدف الكتاب ، وهو ما جعل له مكانته وخطره . يرى تولستوي أن يقتنع المرء أولاً بأن الحالة الراهنة مضادة لما غرس في قلب الإنسان من قوانين طبيعية ؛ ثم إن عليه بعد ذلك ألا يأخذ منها إلا بأقل ما يمكنه وذلك بالألا يستلب عمل الآخرين أو يمتلك أرضاً أو يخدم الحكومة أو يستعمل المال . فإن هذه وسائل الاسترقاق ...

ويستطيع المرء أن يفعل ذلك إذا نزل بمطالبه الشخصية إلى أقل مستوى ممكن ، وإذا أدى من العمل بنفسه ما كان يعمل له غيره من قبل أو في عبارته هو « إن أمام ذلك الذي يتألم في إخلاص لمراى آلام غيره وسيلة جد واضحة وجديسيرة ، وهي وحدها الوسيلة المستطاعة لمعالجة ما يحيط بنا من مساوى واستشعار أننا نعيش علي صواب ، وذلك الأنا نملك أكثر من رداء وألا نملك المال ، أعني ألا ننتفع بعمل الآخرين ؛ وعلى ذلك فعلينا أن نعمل كل ما نستطيع عمله بأيدينا ؛ وأي وسيلة غير هذه تغير ذلك الوضع الذي نرى فيه الأغنياء في أكثر الأيام حاجة إلى العمل يذهبون إلي ضياعهم ليعيشوا عيشة الترف والسكسل ، في حين يعمل الفلاحون الذين يعيشون على خبز الشعير والبصل ثمانى عشرة ساعة في اليوم ، ولا يجدون حاجتهم من الكساء ، ولا يأخذون قسطهم الحق من النوم ؟ » .

وليس يريد تولستوى تحريم المال إذا كان وسيلة للتبادل ، ولكنه يحرم المال الذى هو فى الواقع حق الغير لأنه جمع من كدهم فهو استلاب لعملهم أو فى الحقيقة لمالهم ...

ولما كان يطالب تولستوى كل امرئ أن يودى نصيباً من العمل بيديه فيما يلزم لمدينته ، فهو لهذا ينكر على رجال العلم والفن دعواهم أنهم بعملهم وفهم يؤدون عملاً ضرورياً للمجتمع يقتضى إعفاهم من العمل اليدوى ؛ إلا إذا انتفع أولئك الذين يعملون بأيديهم انتفاعاً عملياً فى معاشهم بما يصنع هؤلاء من علم وفن ...

يوجب تولستوى على المرء أن ينظر فى نفسه ليرى أنه كآلة ، لا تعمل إلا إذا أكلت ، وأن ما تأكله إنما يوجد عملها ، وعلى هذا فإنها إذا أكلت ولم تعمل كان ذلك فيها ضرباً من المرض ...

أجل يجب على الانسان أن يقتنع بالأحقوق ولا امتيازات يجوز له أن ينظر إليها ، وإنما هو مكلف بواجب قبل كل شيء ؛ ومتى اقتنع المرء بذلك رأى لزماً عليه أن يأخذ بقطعة فى الكفاح البدنى الضرورى له ولغيره ...

ويولد تولستوى بالندم والتوبة ، ويراها لازمين لكل امرئ كي يغير ما بنفسه ، فلا بد من هذا التغيير لتحقيق ما يدعو إليه . قال : « لقد قطعنا شوطاً طويلاً فى طريق باطلة ، نحن الذين لا نعد أغنياء فحسب بل قوماً فى موضع ممتاز كذلك ، قوماً ندعى متعلمين ، ولقد مضينا فى هذه الطريق ، بحيث لا بد لنا من عزيمة قوية ، أو من ألم هائل يعتورنا فى طريقنا الباطلة كي يمكننا أن نشوب إلى أنفسنا ، وأن نسلم بكذب عيشنا .. ماذا أصنع ؟ ليس غير التوبة بكل ما تنسج له هذه الكلمة من معنى ، وذلك بأن أغير نظرتى إلى مكائتى ونشاطى ؛ فبدل أن نعد مكائتنا نافعة وذات خطر ، يجب علينا أن نسلم بضررها وتفاهتها ، وبدل أن نفخر بتعليمنا يجب علينا أن نقر بجهلنا ، وبدل أن نباهي برفق قلوبنا يجب أن نعترف بسوء خلقنا وقسوتنا ، وبدل أن نتأبه ونستعلى يجب أن نعلن ضآلتنا » .

وينذر تولستوي كما يبشر ؛ فإذا لم يغير الأغنياء ما بأنفسهم فليس إلا الدماء والثورة ، وله في ذلك نبوءة ما أعجبها إذا ذكر المرء ما حدث بعد كتابته إياها بأكثر من ثلاثين سنة . قال « إن ثورة العمال وما يصحبها من فظائع وتخريب لا تنذرنا فحسب ، ولكننا نعيش وهي تجري من تحتنا مخبوءة منذ ثلاثين سنة ، وما فعلنا أكثر من أن أخرنا انفجارها بوسيلة أو غيرها . هذه حال أوروبا ، وهذه حالنا ، وحالنا أسوأ من حال غيرنا ، لأنه ليس لدينا صمامات للأمان ؛ إن الطبقات التي ترهق الجماهير ليس لعملها من مبرر في نظر تلك الجماهير ، وهي إنما ترهقهم بالقوة والمكر السيء واغتنام الفرص ؛ ولكن شعور المقت محونا في قلوب أولئك الذين يمثلون تلك الجماهير أسوأ تمثيل ، وشعور الاحتقار في نفوس الذين يمثلونها أحسن تمثيل ، إنما يزدادان ساعة عن ساعة » .

وبعد أن حمل تولستوي حملة شديدة على المال كما حمل على الملك يختم كتابه بدعوة يوجهها إلى الأمهات كي يفرسن هذه المبادئ في نفوس أبنائهن وبناتهن ؛ فمن اللأني بذلك يخلقن الجيل الجديد ...

كتب تولستوي كتبه الدينية ، وكتب كتابه هذا وإنه ليعلم أنه لن يسمح بنشرها ، وإنه ليعلم كذلك أن كثيرين ممن يؤمنون بالمذهب المادى وبالثقافة الحديثة سوف يسخرون مما يقول ، وبخاصة أصحاب العلم الحديث والاقتصاد الحديث ..

ولكن إخلاصه لأرائه كان منبعثاً من أعماق نفسه ؛ وكان يؤمن أنه سوف يأتي اليوم الذي تشعر فيه روسيا ويشعر معها العالم أنه أدى إلى أبناء المسيحية جميعاً أكبر صنيع بأن أراهم المسيحية كما أرادها المسيح لا كما زيفتها الكنيسة ، فبين لهم طريق الكمال أو أراهم كيف يقيمون « مملكة السماء » على هذه الأرض وأدى إلى الإنسانية أجل خدمة بأن بين للناس أصل الشر ، وأظهرهم على ما في المجتمع الحديث من رذائل ومفاسد هي مبعث الفتن والثورات ، وأرشدهم إلى طريق الخلاص من هذا كله ...

ولقد حاربت الكنيسة كتبه بكل ما في وسعها ؛ فنعت نشرها بالضرورة وأخذت بالعقاب الصارم كل من يتناولها مخطوطة ، وصادرت كل مخطوط منها وتشاور رئيس المجمع المقدس والحكومة في أخذ تولستوى نفسه بعقاب شديد ، ولكنهم ترددوا ، ثم أجفوا من هذا الفعل ، وتركوا بغير عقاب ذلك الرجل الذى يرمى الكنيسة فى عصر كهذا العصر بأنها باطل ، وأنها قوة فى أيدي فئة ضئيلة من الناس لا وزن لهم ولا عمل يتصل بالمسيحية بأى سبب ، والذى يصف الدولة فى صورتها الراهنة بأنها حين تزعم أنها تقوم بخير الناس وأمنهم هى المعتدية التى تحمى آثامها بما لديها من قوة ! وأى هدم أقوى من هذا الهدم ؟

وسخر المؤمنون بأصحاب العلم وأصحاب الاقتصاد من كلام تولستوى ، وأيقنوا أن صاحب « الحرب والسلام » و « أنا كارينينا » قد ودع الى الأبد عقله ؛ وعجبوا كيف تسبغ عقولهم أن تقرأ هذيانه هذا كما يزعمون إلى جانب ما جاء به داروين ، وما كشفه العلماء ، وما أتى به أساطين الاقتصاد ؟ واستخفوا بما يعنى به نفسه من بحث فى معنى الحياة وغايتها ، وقالوا كيف يكون عاقلا من يجحد بالحضارة الحديثة ومن يقول إن العلم الصحيح هو ما يعنى بصالح الناس جميعاً وحسن نهايتهم ، وأنه وحده الجدير بأعظم قدر من الإجلال ؛ وأن مثل هذا العلم هو ما جاء به كونفوشيوس وبوذا وموسى وسقراط ومحمد ؟

ولكن تولستوى ككل صاحب رسالة يتعزى بأنه أرضى نفسه بقوله ما يمتقد ، صريحاً بينا لا التواء فيه ولا غموض ...

ولقد حيرت مسألة الحياة والموت الفلاسفة من قبله وشغلت عقولهم ، ولا تزال تحير العقول حتى يومنا هذا ، وما ندرى ماذا يكون من أمرها غداً ؛ وليس التفكير فيها مما يعاب . بل إن الغفلة عنها هى العيب . يقول برنارد شو « ليست هناك علامة أقوى دلالة على حقارة عقل من العقول وغبائه غباء أصلياً ، من احتقاره الميافيزيقا ، مهما كان من قوة هذا العقل فى ميادين النشاط العملى ؛ ولقد يكون شخص ما قادراً أعظم القدرة فى الرياضة أو فى الهندسة أو فى الأساليب البرلمانية

أوفى السبق في إخراج الكتب ، ولكن هذا الشخص إذا تفكر في هذا الكون مدى حياته دون أن يسأل نفسه : ماذا يعنى ذلك كله ، فإنه (أو إنها) أحد أولئك الذين وضعهم كلثن حين قسم الناس ، في فصيلة من كتب عليهم الشقاء الأزلى »

بين تولستوى ضلال الكنيسة ، وأظهرها غير ذات عمل إلا ما تشيع في الناس من هذا الضلال ، وبين للناس ما تقوم عليه الدولة من ظلم تسعى أن تجعله مشروعاً ، وأرشد الناس إلى سبيل الخلاص ؛ ولكنه يحس أن لا بد من كتاب يبسط فيه ماذا يجب أن تكون الحياة ، وهو إذا هم بأمر يتصل برسالته لا يقعد حتى يتمه ، ومن ثم كتب كتاباً جعل عنوانه « في الحياة » ، وقد فرغ منه سنة ١٨٨٧ .

وهذا الكتاب من أهم آثاره الفلسفية وأجملها ، وبه تختتم تلك السنوات التي قاربت العشر من حياته والتي جعلها لغير الفن من نشاطه ؛ وهو كأثاره السالفة معرض لآراء يلدها عقل موهوب ، برع أيما براعة في الجدل وإقامة الحججة ، والإحاطة بكل ما هو بسبب من موضوعه ، يواتيه بيان مشرق في سياق رائع ينفذ إلى القلوب .

بذكر تولستوى في كتابه هذا أن أمام الإنسان في حياته طريقين : أولهما طريق البدن ومطالبه ، وثانيهما طريق الروح وما تنزع إليه ... وما للإنسان في حياته إلا دافع واحد هو ما يحلم به من سعادة ؛ ولا يلبث الإنسان إذا نظر نظرة خالية من الهوى أن يرى أن من الخداع الذي يضل الناس أن يظن المرء أن سعادته تتحقق ببلوغه ما يطلب لنفسه من مطالب شخصية ؛ وذلك أنه مهما بلغ من نجاح الفرد في تحقيق رغائبه فلن يحول ذلك بينه وبين ما يفضى به إلى الغاية المحتمومة من قوانين الوجود . فلا بد أن يذبل كل شيء فيه حتى يذهب به الموت .

ومتى اقتنع الإنسان بهذا أحس إحساساً شديداً لا يدافع ، بأن عليه أن يبحث عن المادة الحقيقية في اتجاه آخر ...

وإن يلبث الآن في بحثه أن يرى مبلغ ما في العلم الحديث من إخفاق ، ذلك أنه بدل أن يشتغل بما يرى الإنسان صلاحه وسيله إلى ذلك الصلاح ، نراه يشتغل بقوانين تتصل بحياته المادية لحفظ النوع وتنازع البقاء ، وما إليها ...
وإن يوجه العلم وجهته الصحيحة إلا فهم الحياة فهماً صحيحاً ، وما العلم في حالته الراهنة إلا ذلك الذي يعلن أنه يلم بكل شيء عن البيضة في حين أنه يظل جاهلاً بسر تلك الحقيقة : ألا وهي أنه من هذه البيضة يخرج مخلوق حي ...

وإن اتجاه العلم اتجاهه الخاطيء ، يجعل ما وهب الإنسان من حكمة هي أجل مواهبه ، تبدو بادية الرأي كما لو كانت شيئاً ابتلى به ، وذلك لأنها تؤدي به إذا تفكر ، إلى إنكار الحياة ، ما دام أنه لا يستطيع أن يتبين في أى اتجاه يبحث عن الحياة الحكيمة ؛ ولكن تفكره هذا في الواقع بدء تيقظ شعوره ؛ وإذا ما تيقظ هذا الشعور فطن إلى أن ما كان يظن قبل من بواعث سعادته لا يعد شيئاً ما لم يُره كيف تكون الحياة الصحيحة وكيف يعيش وفق قوانينها ...

وإذا فالشعور الحكيم هو الذي يوجه الإنسان نحو الحياة الصحيحة ، لأن ذلك سوف ينأى به عن المستوى الحيوانى الشخصى للشعور ، ويجعله بدل أن يعمل لنفسه فحسب ، يضحى بهذه النفس إذا اقتضى الحال من أجل غرض أسمى .

وهذا الشعور الحكيم وحده هو الذى يقنع الإنسان بأن هناك حياة غير حياته المادية الحيوانية وأنها ممكنة ؛ وتلك الحياة الجديدة مستقلة عن قوانين المكان والزمان ؛ ولكي يبلغها الإنسان بعد أن لمحت له عن طريق ذلك الشعور ، ينبغي أن يرفع نفسه بجهاده هذه النفس جهاداً قويا متصلا ، وذلك لأن تلك الحياة الحكيمة التي تقوم على الخير تتعارض مع مطالب بدنه وشهوات نفسه ، فلا بد ثمة من صراع أو كما تقول الأناجيل « لا بد أن يولد الإنسان مولداً جديداً » .

والشخص الذى يسيطر عليه الشعور الحكيم يوقن أن الحياة القائمة على

مطالب البدن وشهوات النفس مفضية حتماً إلى الأفول والفناء ، ولذلك فهي غرور في أعقابه الحسرة ؛ بينما الحياة الطليقة من الزمن لا يخشي معها أفول ولا خوف ؛ وعلى هذا فتعلق الإنسان بالحياة المادية الوضيعة يتعارض مع صلاحه واطمئنانه نفسه ، فلا بد له من الانطلاق منها والاندماج في الكون كله واستشعار اللذة والسعادة الصحيحة في العمل لخير الناس .

وما العمل لخير الناس إلا مظهر الحب نحوهم ؛ وإن الذي ذاق عاطفة الحب ليدرك أنها وحدها القادرة على أن تتخطى كل عقبة ، وعلى أن تحمل ما يبدو في الحياة من متناقضات ، وعلى أن تهيبء للإنسان السعادة الصحيحة فيعمل عليها دائماً . وليس يقصد تولستوى بهذا الحب ، انجذاب فرد إلى فرد ، وإنما يريد به أن يفعل الإنسان الخير للناس جميعاً وللإنسانية في حاضرها ومستقبلها ... وما ذلك الحب الفردي في أكثر حالاته إلا مظهر من مظاهر الأنانية ، وكلما كان سبيلاً إلى الحب الشامل الذي يستغرق الكون كله ..

وإذا انطلق الإنسان من حياته الشخصية واندمج في الإنسانية ، لم يعد حبه حباً فردياً تتجلى فيه طبيعته الحيوانية ، وإنما أصبح حباً شاملاً لا يزال يتسع حتى يسع الكون كله ؛ وهذا هو الخلود ! أجل ، هذه هي الحياة التي لا تقيد بالزمن وعلى ذلك فلن يضع الموت لها حداً ؛ فهي باقية وإن فنى الجسد أو ذلك الطين الذي هو مظهر الجانب الحيواني في المرء ..

عندئذ يفطن المرء إلى أن حياته ليست موجة ، وإنما هي حركة لا تقف ؛ وما يجعلها كالموجة التي تضيع إلا تصورها في ذلك المظهر الحيواني المقيد بالزمان والمكان ...

بهذا الأمل الحلو ، أو بهذه الصوفية الحاملة يختتم تولستوى نشاطه في ميدان الفكر ، وهي خاتمة جميلة لمن يحن إلى الفن ؛ ثم إنها بدء جميل للفن في وضعه الجديد ألا وهو أن يكون وسيلة إلى غاية ...

* * *

يا لها من سنوات عشر في حياة هذا الرجل الفذ وياله من مجهود ذلك الذي

بذله فيها ، فهو في الحق مجهود فذ ؛ ثم يا لها من كتب تلك التي كتبها في تلك السنوات ، فهي في ذاتها عمل فذ . . .

ولكن هل استراح تولستوى إلى حياته واطمأنت نفسه إلى العيش ؟ كلا فما يزال بينه وبين الراحة وهدوء البال أمد بعيد !

كتبت إليه زوجته من موسكو سنة ١٨٨١ وقد فر إلى القرية تقول « لقد بدأت تتألم منذ زمن بعيد ، وقد اعتدت أن تقول : إنى أريد أن أشق نفسي لأنى لا أستطيع أن أومن ؛ واليوم ماذا يشقك وقد اهتديت إلى الإيمان ؟ ألم تكن تعرف من قبل أن في هذه الدنيا آلافا من المرضى والتعساء ؟ كان الله في عونك ؛ ولكن ماذا أستطيع أنا أن أصنع ؟ »

ورد عليها زوجها بقوله « لا تحزنى نفسك من أجلى ، وفق كل شيء لاتهمى نفسك » ...

وحق للكونتس أن تحزن وأن تظن بعقله الظنون ... وأى شيء أدعى إلى الحزن من أن ترى زوجها يهمل شؤون ضياعه إهمالا شديدا حتى كأنها ليست له فإذا ذهب إلى سمارة في صيف سنة ١٨٨١ طلبا ^{للعلاج} لا يعنيه هناك إلا النظر في حال الفقراء والاستماع إلى آرائهم وبخاصة في الدين ؟ وأى شيء أدعى إلى الألم من أن يهجر زوجته مرات فيبتعد عن موسكو هربا من حياة المدينة كما يعلن ، فإذا جاء إلى المدينة أكب على كتبه ونسى كل شيء غيرها ؟ وأى شيء أدعى إلى الشك في عقله من رؤيته وسط الفقراء من أهل المدينة أو أهل القرية يحدثهم ويستمع إليهم ، ويدعوهم إلى داره ؟ وما هذا الذى يقرأ ؟ ما جدوى هذه المبرية ؟ ولم يتكلم زوجها هكذا طويلا عن المسيحية وعن الله ولم يجادل أصدقاءه جميعا جدالا عنيفا ويضيق بهم كل مرة ويعزو إنكارهم آراءه إلى الجهل ؟ إنه مريض لا شك وإن مرضه في عقله وحواسه ؛ هذا ما أحدث به زوجته نفسها ؛ وإنه ليلس ضيقها مما يقول أو يفعل ، فيكتب إليها ذات مرة « لا تنفضى كما أراك أحيانا ، إذا ذكرت الله ، فإنه أساس أفكارى جميعا » .

ولما علمت بكتابه إلى القيصر وما دار حوله من سخرية خصومه ، ثم لما ترمى إليها ما يقول الناس في موسكو عن زوجها أخذتها غاشية من الحزن .

وليت أمره وقف عند هذا ، فقد كان يزداد غرابة يوماً عن يوم ؛ فهو في ياسنايا يعمل مع الفلاحين يداً بيد ، وانه ليتطوع بقطع الأخشاب من الغابة لمن هم في حاجة إليها ، وانه ايزرع لمن لا عائل لمن الأرامل ، وانه لينفض التراب عن حجراته بنفسه وينظف حذاءه بيديه ، وانه ليلبس ملابس الفلاحين فيبدو كأنه واحد منهم ، وهو في موسكو يحمل الماء من البئر ويخفف نعله بيده أو يصنع نعلين كاملتين ، وينظف حجراته وملابسه ! ...

وانه رغبة منه في أن يستغنى عن المال ما أمكنه ، يمشي على قدميه أحياناً إذا أراد الانتقال من موسكو إلى ياسنايا وهي مسافة تقرب من مائة وثلاثين ميلاً ؛ وليس معه إلا طعامه ودفتره وقلمه ، ولقد يمشي وحده أو يختلط ببعض الفقراء في الطريق ، وانه لينام حيثما اتفق في أى مأوى يده عليه الناس .

وذهب ذات مرة إلى دير أو بتينا بولين ماشياً ، واستصحب أحد أصدقائه وهو رئيس إحدى المدارس ، وتابعاً له ، وكان يلبس ملابس الفلاحين ، وينتعل مثل نعالهم من غير جورب ، ولكنه أحس الماء في قدمه فاشترى جورباً في الطريق كما اشترى حزاماً لوقاية جسمه ؛ وكان تابعه يحمل ملابس نظيفة في شنطة ؛ وبعد أيام بلغوا الدير ، وأزلهم رجاله مع الفقراء من السائلين ؛ وقد سر تولستوى بذلك سروراً عظيماً ؛ ونام تولستوى فكان على مقربة منه إسكاف شديد الشخير فأيقظه ؛ وأشار تولستوى إلى تابعه فنبه الرجل فصاح مغضباً :

أتمنعى من النوم من أجل صاحبك هذا ؟

وتسرب نياً وجود تولستوى بالدير إلى الرهبان فما لبثوا أن عرفوه ، واستقبله رئيس الدير الأب أمبروز ، وهو يعرفه من قبل ، وأكرم مشواه ؛ واضطر تولستوى أن يلبس ما كان معه من ملابس نظيفة ، ثم قاده الرهبان عند النوم إلى غرفة كبار الضيوف ؛ وعاد في اليوم التالي ومن معه بالقطار ...

وكان بيته في موسكو ، حيث كانت تعيش زوجته وأبناؤه عيشة أرسطوقراطية ، مقصد المئات من محبيه والمعجبين به ؛ وكان يعجب زائرؤه إذ يرونه في إحدى حجرتين صغيرتين خصصتاه في هذا البيت الكبير ، وهو في زى الفلاحين يبدو غريباً كأنه لم يكن رب هذا البيت ..

وكان يجح إليه في ياسنايا أنماط من الناس ما بين أمراء وفلاحين وأجانب من دول كثيرة ؛ وكلهم ممن أعجبوا بمبادئه ، وقد جاءوا كي يروه وكي يعانوا إليه ولأهم ؛ ومنهم من يخبره بتنازله عن ثروته وإقباله على العمل بنفسه ، ومنهم من يستوضحه بعض آرائه ؛ ومنهم من يسأله كيف يتوب وكيف يحيا الحياة التي يدعو إليها ؛ وما منهم إلا مصدق به مبهج برؤيته ...

وكثيراً ما وجده زائرؤه يعمل بمنجله في الحقل وحوله عدد من أتباعه وتلاميذه يعملون معه ، وفيهم الأهير والكونت والمعلم والفلاح ، وهو في مظهره بينهم لا يفترق عن أى فلاح ممن يرون في القرية .

ويبدو تولستوى لزائرؤه راضياً عن حياته ؛ إذ هو في الواقع يحس في أعماق نفسه عذاباً شديداً ، فماذا يعذبه اليوم وقد اهتدى إلى الحياة الصحيحة ؟

كان مرد شقائه إلى ثلاثة أسباب : أولها أنه مهما خالط الفقراء والفلاحين لا يحس إحساساً كاملاً أنه واحد منهم ؛ وثانيها أنه وهو الذي يرى الملك أصل الشر لا يزال من كبار المالكين ؛ وثالثها موقف الحكومة والكنيسة من كتبه وآرائه والحق أن تولستوى كان لا يفتأ يذكرهما اقترب من عامة الناس ومهما خالطهم أنه لا يزال فيه الكثير من تلك الحياة التي أراد أن ينطلق منها ؛ قال دستويفسكي مرة عن ليثن « إن رجالاً على شاكلة ليثن قد يعيشون مع عامة الناس أطول ما يريدون ، ولكنهم لن يستطيعوا أن يكونوا منهم ، فليست هناك قوة من التصميم أو الإرادة أو الخيال تمكن رجلاً ما أن ينفذ غرضه كما يشاء وهو أن يكون واحداً من العامة »

وكان دستويفسكي على حق فيما ذكر ، وما يقال عن ليثن يقال عن

تولستوى ، ولعله أراد تولستوى بهذه العبارة ليبين أن ما ينزع إليه في شخص
ليقن شيء لا يمكن تحقيقه .

وكيف يحل شخص جديد مكان شخص والنفس هي النفس ؟ ليلبس
تولستوى ملابس الفلاحين ما شاء وليسلك مسلكتهم ما شاء ، ولكنه لن يملك
أن تكون له عقلية الفلاح وروح الفلاح وإيمان الفلاح لأنه لا يستطيع أن
يتخلص من تجاربه وعلمه وفلسفته ...

ذلك ما كان يكرب نفسه ويعذبه ، فلقد فطن بعقله بعد طول النظر
ولكنه لم يؤمن بإيمان العامة ، ذلك الإيمان الذي يعيشون عليه من غير نظر
أو تفلسف ؛ وهو يتوق اليوم إلى هذا الإيمان ولن يهنأ له عيش إلا إذا استشعرته
نفسه واطمأن إليه قلبه ، فما هو بعابث كما كان يفعل بالأمس في صدر شبابه
حين كان يعتزم الكمال ثم لا يلبث أن يعود إلى مجونه ؛ إن له اليوم رسالة من
أجلها يعيش ، لقد صور له فكره ووجدانه اليوم كيف تكون الحياة وإنه يريد
أن يعلم الناس ويهديهم ، فكيف يفعل ذلك ونفسه غير مطمئنة ؟

إن إحاطته بآراء الفلاسفة وإن ذكائه وإن تجاربه ، كل أولئك يفسد
عليه تخشعه وقنوته ، ويحول بين روحه وبين الاطمئنان ؛ وما يملك مهما بلغ من
قوة الإرادة أن يخضع هذه الروح ؛ فالروح متصلة بالماضي كما تتصل بالحاضر
ولا يمكن أن تجبس أو تقيد ؛ « إن محاولتك احتجاز الروح هي كحاولتك
أن تمسك شعاعاً من أشعة الشمس ، فاحبسه ما شئت وأحكم حبسه ، فإنه يجد أبداً
طريقه إلى الخارج » هذا ما قاله بعد سنوات وهو يصور لنا عناه الروحي خير
تصوير ...

ولقد كان الفلاحون أنفسهم ينظرون إليه في ريبة ؛ وكان أصدقاؤه وزوجته
وأبناءؤه في حيرة من أمره لا يصدقون أو لا يتخيلون كيف يغدو كما يريد أحد العامة ،
بعقله وثقافته وفلسفته ؟ وأما أهل عصره من الكتاب والأدباء فقد تناقلوا كما
أسلفنا في أسبوع پوشكين أنباء خبله ؛ ولقد أحزن ترجيف هذا الذي يسمعه

عن تولستوى وظل يبنى نفسه بعودته إلى الفن منذ انقطع عنه في سنة ١٨٧٨ ؛ فلما أحس أنه يدنو من الموت ، وكان يعاني آلام مرضه الأخير في يوليو سنة ١٨٨٣ تحامل على نفسه وتناول رقعة وقلماً وكتب إلى تولستوى كلمة يقول إنها رجاء منبث من قلب رجل يموت وناداه « يا شاعرنا العظيم ، يا لسان هذه الأرض ، أرضنا الروسية ؛ عد إلى الأدب فهو موهبتك الحقيقية ، اسمع توسل رجل يموت » ولكنه لا يعود إلى الأدب فقلبه غير مطمئن بالإيمان ، وهو لا يزال يجاهد كي يؤمن وكي يطمئن قلبه ، ولن يقل عذابه اليوم عن عذابه حين كان يسأل نفسه : ما غاية هذه الحياة ...

وهيئات أن ينتزع المرء نفسه من ماضيه انتزاعاً تاماً ، وما يملك المرء إلا أن يغير بعض عاداته ، ويصلح بعض جوانب سلوكه . أما أن يصبح على نقیض ما خلق وما بثته الحياة في نفسه ، فذلك ضرب من المستحيل ، وفي هذه الاستحالة عذاب تولستوى ...

وكان بعض خصومه حتى آخر أيامه يرمونه بالنفاق ، ولكنه كان لا يحفل اتهامهم . رد على أحد سائليه ذات يوم بقوله « يقول لي الناس : إذا كنت ترى إن ليس ثمة من حياة حكيمة ما لم تنفذ تعاليم المسيح ، وإذا كنت تحب هذه الحياة الحكيمة ، فلماذا لا تنفذ ما تؤمّر به ؟ وإني أجيب على ذلك بأنى مخلوق وضيِّع أستحق ما يوجه إلى من لوم واحتقار لعدم تنفيذي تلك التعاليم . ولكنني ، تفسيراً لتناقضي ، لا تبريراً له ، أقول : تدبر في حياتي قبل اليوم وفي حياتي الآن : فستجد أنني أحاول الأخذ بما أمرت به . أما أنني لم أنفذ جزءاً من عشرة آلاف جزء فهذا حق ، ومن أجل ذلك أستحق اللوم ، ولكن تقصيري لا يرد إلى أنني لا أرغب في تنفيذ ما أمرت به ، ولكن إلى عدم معرفتي كيف أفعل ذلك ، علمني كيف أخلص نفسي من تلك الشباك التي أحاطت بي ، شبك الغواية ؛ أعنى على أمرى تجدني نفذت ؛ على أنني من غير عون أرغب وأمل أن أفعل ؛ ألا فإلهمني فإني ألوم نفسي ؛ ولكن وجه اللوم إلى شخصي لا إلى الطريق التي

أسلك ؛ ثم بين الطريق لمن يسألون أين الطريق المؤدية . إني أحاول بكل ما في من قوة أن أضع ذلك موضع العمل ، وكلما فشلت مرة لست أندم فحسب ، بل إني لأصلي طلباً للعون حتى أستطيع أن أفعل ما أريد ؛ وإني لألتي بكل غبطة أى شخص يبحث كما أبحث عن الطريق وأستمع إليه .

هذا ما كان من أمر تولستوى في جهاده نفسه ، وما أورثه إياه هذا الجهاد المرير من ضنى ومن عذاب سوف يصاحبه حتى يغمض الموت عينيه ...
أما ما كان من أمر ملكه وراثته ، فإن تولستوى حينما فآح زوجته برغبته في أن يتنازل عما يملك ، وأن يعيش وأسرته عيشة متواضعة تتفق وما يعتقد ، لم تأخذ كلامه أول الأمر إلا على أنه ضرب من خبله لا يلبث أن يزول ؛ ولكنها لما رآته يعود إلى ذلك أكثر من مرة ، ولما أيقنت أنه جاد ، لم تملك دمعها . ثم إنها أخذت تعنف عليه ، وقد أخذتها الحيرة من أمره ، وأحست الحزن في أعماق قلبها ؛ وصارت لا تستطيع أن تصفي إليه كلما أشار إلى ذلك الأمر ، فإذا أصر على الكلام صرخت محتاجة ، وولت عنه مدبرة .

وكان هو من جانبه يضيق بها وبمن لا يفهمه من أصدقائه وأبنائه . قال :
« إني لأعجب مراراً لم قدر على أن أرى غباءهم واضحاً هذا الوضوح كله ؛ بينما هم غير قادرين على أن يدركوا مبلغ خطأهم وغباءهم ؛ ولذلك يظل التصادم بيننا ، ونلوم بعضنا بعضاً بغير فهم ؛ وليس يغيظني إلا أنهم كثيرون وأنا واحد بينهم » .
وكانت تعلن إليه زوجته أنها لا تبخل بصدقة مهما عظمت على الفقراء والمساكين ، ولكنها لا تتصور كيف تتنازل الأسرة عن أملاكها ، وتعيش عيشة هؤلاء الفقراء بعد أن ألفت حياتها في وضعها الراهن ؛ وهو عما تقول معرض فالملك أصل الشر ، وهو بشير للناس بدين جديد فكيف يمتلك الضياع العاصرات ويدعو الناس في الوقت نفسه إلى دينه ؟

ألفت الكونتس حال زوجها ، وباتت مصدقة بإخلاصه وجده فيما يقول

أو يعمل ، بعد أن كانت ترد ذلك إلى مرض أو خبل . ولئن كان يحزنها تغيره هذا أشد الحزن فما لها حيلة فيه ؛ حتى الصبر فإنها كثيراً ما تطلبه فلا تجده ؛ وكيف تصبر مثلاً على رؤية زوجها في ملابس القروية الخشنه ، وخلفه كلبه يشخص إلى حفلات الرقص فيقف هنيهة ثم ينصرف ! وما عسى أن يقول الناس ؟ ولكن الناس قد فرغوا من عجبهم منه ، وذهبوا مذاهبهم في تأويل ما يرون من حاله ...

ويحزن نفسها منه غير هذا انصرافه عنها وعن أطفاله ؛ وتعود إليها وساوسها القديمة فتري أنه لا يحبها ؛ ويضيق ذرعاً بها فيعلن ذات مرة أن أعظم ما تتوق نفسه إليه أن يهجر بيته وأهله . ويشتد غمها وتعود إلى مثل ما سلف من حالاتها من البكاء واليأس والرتاء لنفسها والغيرة حتى لتقول : « إني أسأل الله أن يميتني فإنني لا أطيق العيش بغير حبه ؛ إني لازلت على ما منحتته من حب في هذه السنوات العشرين ، وإذا لم يعد فسوف أعلم أنه يجب امرأة أخرى » .

وتقدم ذات مرة على الانتحار فتمشي في الغابة إلى أحد أحواض الاستحمام وتنزل في ماء قرب من التجمد ، فيه قطع الثلج ، بغية أن تأخذها رعشة عنيفة تميتها ؛ ولكنها تبقى فيه زمناً طويلاً دون أن يصيبها شيء ؛ فتعود إلى بيتها مثقلة النفس ... وبعد يوم واحد تثبت في مذكراتها قولها ، وقد تم بينهما الصلح : « لقد بكينا معاً ، ورأيت في فرح أن الحب القديم ، ذلك الذي حزنت علي فقدمه في تلك الليلة الخفيفة ، لا يزال حياً فيه » .

وتحس الكونتس أنه لم بعد بينها وبين زوجها من خلاف إلا في نظرتيها إلى الحياة ، وتعب عن هذا الخلاف أحسن تعبير بقولها في مذكراتها : « لا يسع ليو إلا أن يكتب ويتكلم مندداً بحياة المدينة وبحياة الطبقة العليا بوجه عام ، فإنه رجل يسبق عصره ، وهو يشير إلى الطريق التي يجب أن يسلكها الناس ؛ ولكني واحدة ممن في زحمة الناس ؛ إني أعيش معه وأرى الضوء الذي يحمله كل رجل مثله يسبق جيله ، وإني أقر أنه الضوء ، ولكني لا أستطيع أن أمشي به

فإن لي من زحمة الناس ومن عاداتي ومن بيتي ما يعوق خطواتي ...

وظلت الكونتس تروض نفسها على الصبر تارة وتغضب تارة ، حتي كانت سنة ١٨٨٤ فوقع بينهما خلاف أفضي إلى أزمة شديدة . أما هو فكان يشكو من أن أهله لا يكثرثون له ولا يأبهون به . قال « إن حياتي مؤلمة في بيتي ؛ ولقد بلغ من تألمي أني لست أستطيع أن أعطف عليهم ؛ إن في أفراحهم ولعبهم وامتحاناتهم ونجاحهم في المجتمع وموسيقاهم وفرشهم وما يشترتون ، شر لهم ؛ ولست أستطيع أن أفهمهم ذلك ؛ وإني أدعوهم ، ولكن كلامي لا يصل إلى أحد ؛ كيف لا يرون أني لم أستشعر لنفسي حياة في هذه السنوات الثلاث إلا العذاب ؛ إنهم يجعلون لي بينهم موضع شيخ هزيل ، ويظنون أني لا أملك لذلك دفعا »
وأما زوجته فما فتئت تشكو وتبكي ، وتعلن إلى من في الدار أن الكونت قد اعتزم هجرانها ، وأنه لا يحبها ؛ وكانت يومئذ ذات حمل ، فأرادت أن تجهض جنينها ، وقد زادا ذلك هياجاً وضعفاً لأنها لم تفلح فيما صنعت لإجهاضه .

وكان الكونت يأوي إلى حجرة مكتبه فيغلق بابها دونه هرباً من شكائتها وبكائها ، وأثبت في مذكراته يومئذ قوله « إن كل ما أفعله خطأ وإني لأتعذب عذاباً مخيفاً بهذه الأخطاء ... إني لا أجد وسيلة لمعاملة زوجي معاملة لا تؤذي شعورها ، دون أن أنزل على رأيها » .

وفي السابع عشر من يونيو عنف بينهما الكلام فصاح تولستوى محققاً إنه لم يعد يطيق صبراً ، وأنه مهاجر من فوره إلى أمريكا . ثم إنه وضع بعض متاعه في شنطة صغيرة ، ومشى يقصد تولا . فلما كان في منتصف الطريق إلى هذه المدينة كبر في نفسه أن يترك زوجته في سرير الوضع ؛ فعاد إلى بيته وبلغه في الساعة الخامسة من الصباح ؛ ولما دخل الدار نزلت إليه زوجته لتوها وقالت له « ليو ... إني أشعر أن المرض يشتد علي وعمّا قليل سألد ، ماذا يفضيك ؟ أعف عني إن كنت ملومة في شيء ، واصبر فإني أعلم مما يحيط بي أني لن أعيش بقية

اليوم » ؛ ولم يرد زوجها ، ومشي حتى كان قبالتها فنظر في وجهها نظرة طويلة وهو صامت ثم انصرف ، وبعد ساعة ولدت له بنتهما ألكسندرا ...
وكتب بعد ذلك يقول « لقد كانت عودتي خطأ ؛ وأظن أن فرارى واقع لا محالة عاجلاً أو آجلاً » .

وبعد شهر أثبت قوله « لقد دخلت على حجرة مكنتي ، وبدأت منظرًا هستيريًا انتهى بأن أعلنت أنه ما من شيء في حالها يمكن أن يتغير ، وأنها شقية ، وأنها تريد أن تفر إلى أي جهة ما ؛ ولقد أسفت لها ، ولكنني لم أملك أن أصنع شيئًا ؛ ولسوف تبقى إلى آخر يوم من حياتي حجر طاحون حول عنقي وحول أعناق أطفالي ؛ ويجب أن أتعلم كيف أتجنب العرق وحول عنقي هذا الحجر » .
وحل الصفاء في أغسطس بينهما محل الجفاء ، وكأنما أرادا أن يخرجوا مما كانا فيه من غم لا يطيقانه فلاذا بالصلح ؛ ولما انتهى الصيف رحلت الكونتس وأولادها وبناتها إلى موسكو ، وبقي الكونت في ياسنايا .

وكتب إليها في الريف مغتنها هذا الصلح عسي أن تقنع برأيه ، وذكر لها أنه لا يستطيع ألبته أن يعيش عيشة هي على نقيض ما يعتنق من عقيدة ؛ واقترح أن يأتي تخلصه مما يملك شيئًا فشيئًا ، ورجا منها أن تفكر في الأمر قبل أن ترد فلا تكتب ردها ساعة فراغها من قراءة كتابه ...

وجاءه ردها فإذا هي ترفض أن تصغي إلى شيء مما يقول ، وإذا بها على الرغم من عبارات ودية في كتابها تسخر منه متمثلة بالمثل القائل : « دع الطفل يلعب بأي لعبة يشاء طالما أنه لا يصرخ » .

ويئس من إقناعها فكانت هذه آخر محاولة له ؛ ولذلك ترك لها الثراء ليحيا هو حياة الفقراء ، فجعل لها الولاية على ما يمتلك جميعاً وفي طبع ما صدر من كتبه حتى سنة ١٨٨١ .

هذا ما كان من أمر شقائه بما يمتلك وما كان من مسلك زوجته حياله ؛ ولقد قنع على رغمه بهذا الحل وإن كان لا يراه حلاً ...

أما ما كان من شقائه بسبب موقف السلطات منه ؛ فإن من أعاجيب القدر أن يقذف تولستوى بأرائه في الدين والاجتماع في وجهى الكنيسة والدولة ، في وقت كانت الدولة فيه ، وكان يوبندونستوف رئيس المجمع المقدس ومن حوله رجال الدين ، يحصون على الناس خطواتهم ، ويكادون يملكون عليهم أنفاسهم . كان هم الحكومة كما أسلفنا خنق كل فكرة قبل أن تنمو ، وكان الناس في نظرها فريقين ؛ الخاضعين للنظام القائم ، وهؤلاء لا خوف منهم . والناقمين عليه وهؤلاء هم الأشرار ؛ وكان يكفي أن يتهم المرء بأنه ناقم ، حتى ولو لم يبد منه شيء من قول أو عمل ليدوق النكال ...

لذلك كان من أعاجيب القدر كما قلنا أن تأتى آراء تولستوى في ذلك العهد ، وليس معنى ذلك أنه لم يكن وقتها ، بل معناه أنه كان أصلح وقت لها ؛ وليس في الأمر غرابة ؛ فما تفتقد الأفئدة والأبصار النور إلا إذا اشتدت الظلمة ، وما تهفو الأنفس إلى النسم إلا إذا ضاقت بما يخنقها ؛ وما يدرك الناس معنى الأمن إلا إذا أحاط بهم الخوف ؛ وما يقدر الناس الحرية حق قدرها وورداد محبتهم لها إلا إذا اشتد بهم الظلم . فكأنما جاءت آراء تولستوى يومئذ على قدر ؛ فقد جاءت وفيها يفعل خصومه البرهان على أن فيها خلاص الإنسانية كما أراد بها صاحبها ... وما كان لرسالات الرسل جلالها وروعيتها ومعنى هداها إلا لأنها تشرق في ظلمات الزمن ؛ وكذلك مع الفوارق شأن المصلحين في كل عصر ...

هذا ما كان يتعزى به تولستوى ، وإن كان أحياناً ليضيق بالعصر ومن فيه إلا من اتبعه ، وهم قليلون يومئذ ، وما كانت قلوبهم في رأيه إلا لأنه لا يستطيع أن ينشر كتبه .

ولقد بلغ من محاربة الحكومة إياه أنها منعت ظهوره في مجتمعات عام سنة ١٨٨٣ فقد دعت جمعية محبى الأدب الروسي ليقول كلمة في ترجميف عقب موته ؛ وقبل تولستوى من أجل ترجميف ؛ وإن كان لا يجب الاجتماعات ، وأقبل على إعداد

كلته في حماسة ، وتهيأ الناس في موسكو ليشهدوا الاحتفال ، وليروا كاتب روسيا الأكبر ، ولكن الحكومة لم تسمح له بالكلام أو شهود الاجتماع ؛ بل لقد منعت الاحتفال نفسه ...

ولسوف تستمر المعركة بينه وبين السلطات حتى موته ، ولولا ما توافى له من مكانة في قومه لم يبلغها أحد قبله ، حتى لقد كان يصغى إلى صوته كل رجل في روسيا ، وفي مقدمتهم القيصر نفسه ، لألقى به في السجن أكثر من مرة كما قلنا أو نفي من الأرض ؛ ولكن ذلك ما عجز عنه الظلم في عنفوانه ، وكفى بذلك شهيداً على مجده إن كان يعد في حاجة إلى شهادة أو إلى تمجيد ...

ياش تولستوى عيشة الزاهد بعد أن ترك لزوجته ثروته ؛ فحرم أكل اللحم على نفسه لما يتضمن أكله من قسوة القتل والذبح ولما ينم عنه من نهم ؛ وحرم على نفسه الصيد وشرب الخمر والطباق . فليس له اليوم من رياضة إلا المشى أو ما يعمل من عمل بيديه في الحقول والغابات أو في صنع الأحذية ، أو في خصف ما تمزق منها ...

ولم يعد له مما يدرأ به السأم عن نفسه إلا اللعب مع أطفاله ومسابقتهم في العدو وقص القصص عليهم ، أو الاستماع إلى بعض الألحان ، أو لعب بعضها على البيان ؛ ثم يعود إلى أحذيته القديم منها والجديد إن كان في موسكو أو إلى منجله أو فأسه إن كان في ياسنايا ...

وإن نفسه لتستريح إلى المسكنة ، وإلى مخالطة المساكين والحذب عليهم ، ودعوتهم إلى داره ومؤاكلتهم ، ومصاحبتهم حيث يجلسون في الطرقات وحيث يعملون إن كان لهم عمل ...

ولم يعدم تولستوى من أسرته من يعطف عليه ويؤمن بما جاء به ، إلا وهما بنتاه ماري وتانيا ، وكانت ماري سنة ١٨٨٥ في الخامسة عشرة من عمرها وكانت فتاة رقيقة الإحساس جميلة الصوت ذات حسن ورشاقة ، وقد عز عليها أن

يترك أبوها هكذا وحده ، وأحست ذلك من أعماق نفسها ؛ فأثرت جانبه ، وتركت أصدقاءها وصديقاتها ، وأدارت ظهرها للهو الحياة ومفاتيح المدينة ، وهي بعد في أول الشباب ؛ وانطلقت إلى أبيها في عزم ، صمم ، وزاحت تبكيت له ما يريد وتخف إلى ندائه ، وتسعى إليه أينما وجد . ثم أخذت تعمل بتعاليمه ؛ فكانت تخدم فقراء القرية ما وسعتها الخدمة ، وصارت تعمل في وهج الشمس مع القرويات ، وتنظف حجرتها وتهيب ، طعامها بنفسها ؛ وأحبها جميع من في القرية وبخاصة النساء ، وكن يفضين إليها برغائبهن ويظهرنها على كل ما في نفوسهن . وكانت تانيا في الحادية والعشرين ، جميلة الحيا ، نشطة ، ذات ذكاء وعقل ، وكانت شديدة المحبة لأبويها كليهما كما كانت تحظي بجهما ، وكانت تعين أمها في أمور البيت في همة ونشاط ثم تنطلق إلى أبيها تنظر ماذا يريد ، وتجيئه إلى ما يطلب ، وتبقى بين يديه تكتب ما يملى عليها أو تستقبل زائريه وتحسن ضيافتهم . وكان يغشي الجانب الذي يقيم فيه الكونت من البيت أنماط من الناس ، من فقراهم وأغنيائهم ، وكانت الكونتس لا تعبأ كثيراً بهذا الجانب ؛ أما جانب إقامتها هي وأبنائها وبناتها فكانت تحرص على مظهر أرستوقراطية وعظمتها ، تقيم فيه الحفلات والولائم ، وتستقبل العلية من الضيوف نساء ورجالا يأتون في المراكب الفخمة وفي مظاهر الأبهة والنعمة . .

وكان إذا غشى زوجها حجرة من الحجرات الأرستوقراطية عقب عمل ، وانبعثت منه رائحة السهاد والعرق أسرع فأحرقت أقراصاً ذات دخان طيب الرائحة ، فيضحك الكونت قائلاً إنها بهذا البخور تحرق الأرواح القذرة .

* * *

وغضن وجهه العمل المتصل والجهد العقلي ومتاعب زوجته حتى ليحسب أنه قارب السبعين وهو لا يزال دون الستين ؛ وأخذ الشيب يشيع في فوديه ولحيته ؛ ولكن لا يزال لبدنه حيويته وقوته ، ولعينييه بريقهما ويقظتهما ، ولن يخمد هذه الحيوية أو يطفىء ذلك البريق إلا الموت ...

ويبدو في وجه الكونوت ما يبدو في وجوه القديسين من الهدوء والسكينة ، والاحتشام ، كما يبدو ذلك في هيكله كله ، ومرده إلى ما كان يملأ رأسه أبداً من التفكير في رسالته ...

على أنه يتخفف أحياناً من همه فيضحك مع الضاحكين ويتندر ؛ وتعود إليه عدوية روحه ونشوة نفسه حتى لكأنه ألقى عن كاهله عشرين سنة ؛ ولكنه يحتفظ بوقاره وشخصيته ، وما زاره أحد في جده أو مرحة إلا وجد نفسه مأخوذاً بقوة هذه الشخصية ؛ وما استطاع أحد قط سخر منه ولم يره أن يسخر منه وهو بين يديه مهما لبس من ثياب أو عمل من عمل ...

وكانت تصدر منه أحياناً كلمات يعجب لها سامعوه ، ويحارون في تفسيرها كما نحار لأنها لا تشاكل حياته الجديدة ؛ ومن ذلك قوله لقوم يجادلونه في الذهاب إلى حيث يشهدون ساره برنار وكانت يومئذ في موسكو : « إني شديد الأسف لأنني لا أستطيع أن أذهب كذلك » ؛ ولقد كان ينكر عليهم ذهابهم ، وراح ينغم على الأغنياء ترفهم القائم على جهود الفقراء ؛ ومن ذلك أيضاً قوله وقد رأى فارسين على جواديهما « ما أجل وأبهج أن يكون المرء وجيهاً ، ما أجل ذلك ! » وكان يؤله أشد الألم ما يعلم من خطأ الناس فيما يتصل بسلوكه وآرائه ، أو تعمدهم إظهاره في صورة باطلة ، تشعر بادعائه أو نفاقه أو طلبه الشهرة ؛ ولكنه كان يتأسى بمن خلوا من قبله فما سلم مصلح قط من سخرية الناس ولا من أذامهم . رأى صورة رسمه فيها أحد المصورين عارى القدمين فقال « لقد خلع نعلى ، وإني لأشكره أن أبقى لى سروالى . إنها حقاً غير طبيعية وفيها كثير من الادعاء ، ألا يعلم أنى لست أمشى حافياً ؟ إني لم أخلع نعلى على أعين الناس إلا مرة واحدة ، ولقد كان هناك لسوء حظى ورأى ذلك منى » .

وأدى تغيره هذا التغير وشدة تمسكه بآرائه وإيمانه بصلاحيته ، وعنفه في مجادلة من ينكر ذلك أو يتشكك فيه ، إلى مجافاته كثيراً من أصدقائه ومجافاتهم إياه ، ومن هؤلاء صديقه الحميم الشاعر فت فقد راح تولستوى يقول عنه :



تولستوی قرب السنین

obeykandl.com

« إبه لا يطلب من الحياة إلا سريراً ناعماً ، ولحماً جيد الطهي ، وزجاجة من خمر طيبة ، وزوجاً من الجياد الكريمة » ...

ولكن آراءه من ناحية أخرى قد جذبت إليه من المريدين والمعجبين ممن سرهم أعظم السرور أن يكونوا له تلاميذ وأتباعاً ، أضعاف ما فقد من الأصدقاء ، ومن هؤلاء من سوف يكون لهم شأن خطير فيما بقي من حياته ...

ونذكر من أتباعه وتلاميذه فلاديمير شرتكوف وهو ضابط شاب في الثلاثين عظيم الواجهة ، من الأرسطوقراط ، كان والده قائداً في حاشية القيصر ، وكانت أمه من أعرق الأسرات ؛ وكان الناس يتنبأون له بمستقبل عظيم ؛ ولكنه آثر اعتزال الجيش ليتفرغ للخدمة الاجتماعية . فقد آمن بعد اتصاله بتولستوى سنة ١٨٨٣ أن الجندي لا تتفق وحقيقة المسيحية ، وتحمس لأستاذه وصار من أكبر العاملين على إذاعة مبادئه ، وسوف يظل من أقرب أصدقائه إليه ، ومن أكبر المخلصين له المعجبين بما جاء به ، وكثيراً ما كانت تصل مناصرته تولستوى حد التعصب له .

وقد قدم إليه شرتكوف بعد عام من معرفته صديقاً له يدعى بيروكوف ، وكان كذلك ضابطاً بحرياً ، وسرعان ما انجذب إلى تولستوى وقد أحب حديثه ثم اعتنق مبادئه ، وصار من أقوى العاملين عليها ...

وتحمس لتولستوى من رجال الثقافة الروسيين وغير الروسيين : سولوڤيوف الفيلسوف ، وكان من نابهي العصر وأعلامه في الفلسفة ، وجاي الرسام النابه ؛ وبولانجير المهندس ؛ وچارنفيلد الكاتب الفنلندي الذي ترجم كتب تولستوى وعاش وفق مبادئه ، ورسانوف الناقد الأدبي الذي أعلن قرب وفاته أنه كان جاحداً فأمن بالله على يدي « أعظم الرجال شأنًا ليوتولستوى » ، وجولد نوايزر رجل الموسيقى الموهوب . وألمود الإنجليزي ، الذي أعجب به وبمبادئه ، والذي ظل صديقاً له وكتب ترجمة حياته وترجم كتبه إلى الإنجليزية .

ومن نفذوا مبادئ تولستوى عملاً ، أمير شاب لم يره قط يدعى خلكوف وقد أعطى أكثر أرضه للفلاحين ؛ وأخذ يعمل بنفسه بغير أجر حتى مرّن على العمل ، ثم صار يقبل أن يُستأجر ؛ ولقد أعلن ججوده بالكنيسة الأورثوذكسية ولما رأت فيه الحكومة مثالا خطراً فقد نفتته إلى القوقاز . ثم نقلته إلى ولايات البلطيق فتحمل آلام النفي راضياً صابراً في سبيل عقيدته ؛ وفي سنة ١٨٩٨ سمحت له الحكومة بمفادرة روسيا فذهب إلى إنجلترا حيث عاش بين نفر من أتباع تولستوى وتلاميذه . .

ومنهم فترمان ، وهو شاب يهودى فى التاسعة عشرة ؛ جاء إلى ياسنايا يطلب العمل . ثم اعتنق الأورثوذكسية وفق تعاليم تولستوى ؛ وعمل فى إحدى المدارس زمناً حتى جُند ؛ وقد ظل معجباً بتولستوى طول حياته وكتب ترجمة له ...
ومنهم مارى ألكسندرا شممت ، وكانت رئيسة مدرسة من أحدث مدارس البنات الأرستوقراطية فى روسيا ؛ ولما قرأت كتب تولستوى اعتزمت أن تغير حياتها ؛ ولقد عظم إخلاصها له وإقبالها على مبادئه ، ولقد رفعت من بيتها صور القديسين ووضعت محلها صور تولستوى ، وتحملت شقاء العيش والفاقة فى سبيله ؛ وكانت تكتب كتبه المحظورة بيدها وتبيعها لتأكل ، ولتذيع فى نفس الوقت مبادئه ؛ ثم انضمت إلى الجماعات التى تألفت فى روسيا لنشر تعاليم تولستوى ، وظلت بقية حياتها تعيش عاملة يديها مؤمنة متحمسة لمبادئ الفيلسوف الكبير .
ومنهم ناظر مدرسة يدعى أورلوف ، عاش عيشة الزهد والتقشف الشديد ؛ ليعين تسعة من الفقراء ، وكان رضى النفس أبداً مطمئناً على ما به من خصاصة وما يعانى من مرض .

ومنهم فيدوروف ؛ وهو أمين مكتبة فى أحد المتاحف ، وكان تولستوى يسميه القديس . فقد عاش فى كوخ ليستطيع أن يمد بمعونته الفقراء ...
ومنهم سوتايف الفلاح ؛ وقد كان يعيش وأسرته وفق تعاليم المسيح كما صورها تولستوى ، لا يمتلك شيئاً ولا يمتلكون ، وإنما يتعاونون فى عملهم

ليأكلوا ، وليتصدقوا بما بقي لديهم ؛ ولقد عوقب هذا الرجل بالسجن لأنه رفض الخدمة العسكرية وأنكرها لأنها شر يجب القضاء عليه ...

* * *

كان تولستوي يشع الإيمان على من حوله . فإذا جلس الناس بين يديه وأنصتوا له أحسوا أنهم تلقاء رجل ليس له في الناس من مثبه ، فيقع كلامه في نفوسهم وكأنه يتنزل من أفق أعظم من أن يكون أفق مصلح فحسب ؛ وسرعان ما تألفت في روسيا وفي خارج روسيا جماعات لنشر مبادئه . فكان منها عدد في هولندا وفي إنجلترا وفي وسط أوروبا وفي أمريكا ...

وعمل تولستوي بمعونة شركوف وبيروكوف وغيرهما ، على إصدار قصص شعبية صغيرة ضئيلة الثمن ، عرفت باسم « الوساطة » ، والقصد منها بث آرائه الجديدة مغلفة في هذه القصص ، وقد كتب تولستوي بعضها ، وهي التي جمعت فيما بعد في كتاب عنوانه « ثلاث وعشرون قصة » ، واختار أصحابه بعضها من الآداب الأخرى وترجموها إلى الروسية .

وأُسست جماعات من أتباعه في روسيا وفي خارجها ما عرف باسم « المستعمرات التولستوية » حيث أرادت كل جماعة أن تعيش وفق ما يدعو إليه ، ولكن هذه المستعمرات لم يقدر لها البقاء طويلا ، ولقد كان تولستوي نفسه غير راض عنها لأنه كان يراها مظهراً من مظاهر الاهتمام بالشكل دون الجوهر ، مما يؤدي إلى الفشل عند أول صعوبة تعترضه ؛ والجوهر عنده أن يصلح الناس نفوسهم قبل كل شيء وذلك بفهم المسيحية على حقيقتها ، فإنهم إن فعلوا ذلك عرفوا كيف يسلكون في الحياة المسلك الذي يشاكلها وذلك أينما كانوا ، وبدون هذا الفهم لا يستطيعون شيئاً ..

وكثيراً ما نادى تولستوي بأنه ليس هناك ما يسمى بمبادئ تولستوي أو تعاليمه فليس إلا المسيحية الصحيحة ، وإذا تفتنت النفوس إليها وعاشت على مقتضاها وجدت بذلك أنها تحيا الحياة الصحيحة ...

ومما قاله تولستوى فى هذا « سوف أموت وسوف يقول القائلون إن تولستوى علم الناس أن يحرثوا وأن يمحصدوا وأن يصنعوا الأحذية ؛ بينما ينسون أهم شىء دأبت على قوله مدى حياتى ؛ ذلك الشىء الوحيد الذى به صدقت ، والذى أراه فوق ما عداه » .

وقال بعد ذلك بسنوات « ينبغى ألا يبحث الإنسان عن صور جديدة للحياة لأن الإنسان إذا فعل ذلك انصرف همه إلى ترتيب حياته فى شكلها الخارجى . . . ليعمل كل امرئ عمله على ألا يتعارض تعارضاً شديداً مع ما يعتقد ، ويعمل على أن يتحسن فى الوضع الذى هو فيه فعندئذ يقع عفواً على الطريقة التى تصلح له ؛ ويجب إهمال المظهر الخارجى للحياة ما أمكن . . . لا تعن نفسك به ؛ أد عمك فحسب » .

وفى سنة ١٨٩٩ كتب فى مذكراته عن لقائه دوشان أحد أتباعه فى المجر « تحدثت مع دوشان وحيث أنه جعل نفسه ممثلى فى المجر ، فقد سألتى نصحى فيما عسى أن يسلك ؛ ولقد اغتنمت هذه الفرصة لأوضح الأمر لى وله ؛ وقلت إن من أكبر الخطأ أن يتكلم عن مبادئ تولستوى وأن يأتى ليطلب نصيحتى . . . ليس هناك ما يسمى طوائف تولستوى ولا مبادئ تولستوى . . . ليس هناك إلا تعاليم واحدة هى الحق ؛ ذلك الحق الأبدى الشامل الذى توضحه لى ولغيرى من الناس الكتب المقدسة . . . فإذا فهم المرء هذه التعليمات فإنه يتصل اتصالاً خالصاً بالله ، ولا يشعر بعد ذلك بحاجته إلى أن يسأل أحداً ما » .

و بعد فهذا تولستوى فى تلك السنوات العشر ؛ ونعود فنقول يالها من سنوات وياله من رجل ؛ ذلك الذى حاول أن ينزل إلى مستوى العامة من الناس ؛ فارتفع درجات عن مستوي من فى عصره جميعاً من الناس !

عودته إلى الفن !

أشفق محبوبو الفن في روسيا من ذلك التغير الذي طرأ على حياة تولستوى ؛ إذ كانوا يرونه مفرخة بلادهم ؛ فيه صارت لهم في أدب الدنيا صفحة فذة ، وازداد إشفاقهم بعد موت دستويفسكى الذي ذهب له من الصيد في أوروبا أكثر مما ذهب له منه في روسيا ؛ وكان أشد الناس إشفاقاً ترجميف ذلك الذي كان يعد تولستوى الرجاء الوحيد لأدب قومه اليتيم ، والذي قال عنه : « إني أرى فيه فناً نأست أستحق أن أنحني لأحل له رباط حذائه » .

ولقد تناول ترجميف قلمه بيده المرتعشة ، والموت منه قريب ، وكتب إليه سنة ١٨٨٣ كما أسلفنا يرجو منه أن يعود إلى الأدب ، ومات ترجميف قبل أن يصله رد تولستوى ؛ وظل تولستوى يصنع النعال ويخصفها ، ويدع خيطه وإبره ليتناول منجله أو فأسه ...

على أنه كتب في سنة ١٨٨٥ تلك القصص الثلاث والعشرين ؛ فكانت مقدمة لعودته إلى الفن ؛ وهي قصص جلييلة القدر قالت عنها كارمن سلقا ملكة رومانيا حين قرأتها « أحدثت هذه القصص التي كتبها هذا الرجل العظيم وهذا الفنان العظيم من الأثر في نفسي ما يفوق ما أحدثته كتبه جميعاً ؛ وإني أراها أحسن قصص كتبت قط ... إن الفن في نسقه الأعلى شاخص فيها ؛ وفيها الحق الأبدى ولذلك فهي كدانتى وشكسبير والإنجيل سوف يكتب لها الخلود ، ولو كانت هي وحدها ما كتب تولستوى لاستحق بها أن يعد من أكبر كتاب الدنيا ، ولم تتأجله قط فكرة وضيفة أثناء كتابته إياها بل كان صديقاً للإنسانية المتألمة وكان مسيحياً صحيحاً » .

وفي سنة ١٨٨٦ عاد تولستوى إلى الفن بنشر قصته « موت إيفان إيلتش »

التي كتبها في تلك السنة ؛ واستبشر الناس في روسيا وفي أوروبا بهذه العودة التي طال بهم ترقبها ... ولم يعد يصدق أهل أوروبا أنه طلق الفن طلاقاً أبدياً ليكسب قوت يومه فلاحاً كما ذاع بينهم منذ انقطاعه عنه ...

عاد تولستوى إلى الفن ليجعله وسيلة لإذاعة آرائه بعد أن رأى من تصف الرقابة مارأى ؛ ولن يكون الفن منذ اليوم غاية في ذاته وإنما سوف يكون أداة يسخرها لخدمة الناس ...

وأعقب تولستوي قصته الجديدة بمأساة تمثيلية عن حياة الفلاحين سماها : « قوة الظلام » وقد منع تمثيلها في روسيا ومثلت في باريس لأول مرة سنة ١٨٨٨ ثم كتب « سوناتة كروتزر » و « الشيطان » سنة ١٨٨٩ ، ولم تكن هذه قصصاً طويلة ، فلم تزد الأولى عن سبعين صفحة ، وبلغت الثانية نيفاً ومائة ، وكانت الثالثة قرابة ستين . أما المسرحية فهي في حيز المؤلف من المسرحيات .

* * *

عاد تولستوى إلى الفن ، ولكن ما يحيط به في بيته اليوم غير ما كان يحيط به وهو يكتب « الحرب والسلام » و « أنا كارينينا » ؛ فليس له مثل ما سلف من معونة زوجته ولا من ابتهاج روحها بفنه ، وليس يسكن إليها اليوم لتخفف عبء الحياة عنه ؛ فهي نفسها العبء الذي ينقض ظهره .

كانت تضيق الكونتس بمن يفتش بيت زوجها من الناس ، وكانت تسميهم « المظلمين » ، وكلما أقبل منهم فريق اشتمزت نفسها وعجبت ساخرة أن يكون أمثال هؤلاء جلساء رجل من العباقرة ، وكثيراً ما قالت إنها لم تقع قط بينهم على عاقل واحد .

وكانت تعنى بكلامها هذا الفقراء والمجهولين . فقد كان يزور تولستوى كثيرون من النابهين في مختلف فروع المعرفة لا من روسيا وحدها ، ولكن من جهات الدنيا جميعاً ...

واشتدت كراهية الكونتس لصديقه شرتكوف ؛ إذ كانت ترى من

زوجها ميلا شديداً إلى الأخذ بنصحه ، وفي هذا ما يتهدد سلطانها عليه ؛ ولقد كتب شرتكوف ذات مرة إلى تولستوى ، ولم يكن يعلم أن لامرأته الحق أن تقرأ ما يرد إليه من رسائل ؛ فعبّر له عن أسفه لما ينجم بينه وبين امرأته من متاعب أحياناً ، وكان قد شهد منظرأ بينه وبينها آلمه ؛ وعظمت ثورة الكونتس إذ قرأت هذه الرسالة ، وراحت ترمى شرتكوف أنه يمشی بينها وبين زوجها بالوقية قائلة في سخرية مريرة « وأظن أن ذلك منه هو المسيحية ! » .

وكانت تغار الكونتس من بنتها إذ ترى إقبال أبيهن عليهما وازوراره عنها . فقد كانتا تكتبان لأبيهما مذكراته وتنقلان ما يكتب من فن . قالت الكونتس « لقد كان يبهجنى في الأيام الماضية أن أنقل ما يكتب ؛ وإنه اليوم يدفع ذلك دائماً إلى بنتيه ، ويحرص على إخفائه عنى . إنه يثير ثائرى بعمله هكذا في إحكام على إبعادى عن حياته الشخصية ، وهذا جد مؤلم ؛ إن هذا الجفاء يدفعنى أحياناً إلى أعماق اليأس حتى لأشعر بالرغبة فى أن أقتل نفسى أو أن أهرب أو أن أحب شخصاً آخر ؛ أو أن أفعل أى شيء أتخلص به من رجل أعتقد على الرغم من كل شيء أنى أحببته طول حياتى لسبب لا أعرفه ؛ مع أنى أرى الآن فى وضوح أنى قد جعلت منه معبودى ، دون أن أتبين أنه ليس فيه من شيء إلا عرامة شهوته » .

وكانت تعتمد الكونتس إلى ما يضايقه ، ومن ذلك أنها راحت تقول عنه إن مبعث أعماله جميعاً الغرور والأناية ، ثم أخذت تنقل مذكراته قائلة « إنه أخذ يتململ من نقل مذكراته فإنه يجب أن يمزقها كي يظهر أمام أطفاله وأمام الناس فى ثوب القديسين فحسب ... إن غروره لعظيم » ؛ ومن ذلك أيضاً أنها قدمت إلى المحكمة من غير مشاورته قوماً من الفقراء أخذوا خشباً من غابات الكونت لأنه لم يكن يمنع أحداً من ذلك ، ولشد ما تألم حين علم بذلك ، قالت زوجته « لقد أشرف على اليأس إذ علم أنهم سجنوا ؛ فلم يستطع أن ينام بالليل

وكان يقفز من سريره ، ويذرع الثوي وهو يشهق طلباً للهواء ، ولا ريب أنه
أنجي باللائمة على ...

ثم تستشعر الندم فتكتب « لماذا يعاقب الناس باسمي في حين لا أضمر الشر
لأحد؟ لقد بكيت النهار كله وعاودني مرض حلقى؛ ولقد اشتد أسفى على نفسى ...
لقد تفكرت جادة فى أن أودع كل من حولى ؛ ثم أتمدد على أحد قضبان
سكة الحديد . »

ويبلغ النزاع بينهما أشد حالاته فى سنة ١٨٩١ ؛ حين يعلن إليها الكونت
أنه لا يطيق أن يأخذ مالا ثمناً لمؤلفاته ، وأنه يريد أن يتنازل عن حق طبعها ؛
ويكون بينهما من الجدل والعناد والعنف مثل ما كان منه غداة فآحمها برغبته فى
التنازل عن ملكه أو أشد من ذلك ؛ ويضطر هنا كذلك أن يسلك سبيلا وسطا
فيكتفى بالتنازل عن حقه فيما صدر من المؤلفات منذ سنة ١٨٨١ ، ويزعم أن
يعلن ذلك فى الصحف . فيبيح لكل امرئ ترجمتها وطبعها فى روسيا أو فى
خارج روسيا .

ولا ترضى زوجته بهذا فتتجداه ذات يوم قائلة : إنها سوف تكتب على
تلك الكتب أنه وإن تنازل صاحبها عن حق طبعها إلا أنه لا يليق بأحد أن
ينتفع بما هو فى الواقع حق أولاده ؛ ويقابل ذلك منها بشيء من الفتور . ثم
يقول إنها إن كانت تحبه حقاً فمن واجبها أن تؤيده فى هذا التنازل ، وينطلق
معرضاً عنها فيبلغ فتوره من نفسها أكثر مما يبلغ قلقها بسبب ما تتعرض له
ثروتها من نقص ... « وبعد الغذاء قلت له إنى آسف لما فئت به من كلام
لم يرضه ، وسوف لا أكتب شيئاً على تلك الكتب لأنى أكره أن أسبب له
المأ ، ثم بكيت وبكى . »

ولكن الأمر لم يقف عند هذا ، فقد حدث بينهما بعد ذلك بأيام ، وقد
عاد إلى الكلام فى هذا الموضوع ، ما وصفته الكونتس فى قولها « لقد قلت له
إنه ذو طمع وذو غرور ؛ وقال لى إنى أجرى أبداً وراء المال وأنه لم ير امرأة فى

مثل جشعي وغبائي ، وقلت إنه عمل على إذلالى طول حياتى لأنه لم يعرف قبل كيف تكون معاملة المرأة المهذبة ، وقال إنما أفسد الأطفال بالمال الذي أستحوذ عليه . ثم صاح بى أخيراً : دعيني وحدى ! ففكرته وانصرفت .

وتعتزم الكونتس للمرة الثانية أن تنتحر ؛ فكتبت فى مذكراتها أن النزاع المتصل بينها وبين زوجها قد أنهك بدنهما . ثم تمضى إلى حيث تريد أن تقتل نفسها ، ولكن تصادف أن قابلت أحد ذوى قرباها فعادت معه إلى البيت . ثم جاء الكونت فترفق بها وقبلها ؛ فطلبت إليه أن يعلن ما اعتزم إعلانه من تنازل وألا يذكر هذا الأمر أمامها بعد ذلك ؛ ولكنه لن يفعل ذلك إلا إذا كانت تفهم أنه مما يجب عمله ؛ وهى لا تريد أن تكذب فما تفهم ذلك أبداً ...

وكتبت فى اليوم التالى « هذا جرح لن يلتئم أبداً ؛ لقد ذهبت مرتين لأطلب إليه أن يذيع تنازله عن حقه فى طبع كتبه الأخيرة ؛ ليطلع الناس ما شاء على ما بينه وبين أسرته من خلاف ، فليس ذلك بضائرى فإن ما أناله من مال يبيع كتبه إنما أنفقه على عياله » .

وعادت لهجتها إلى العنف فكتبت بعد ذلك « إن السبب الذى لا سبب غيره فى ذلك كله إنما هو غروره ، إنما هو ظمأه المتصل إلى الصيت ، ورغبته فى أن يتحدث كل إنسان عنه » .

ولقد ظلت كتبه بعد ذلك مصدر شقاء عظيم له ؛ فقد عادت الكونتس بعد سنوات تحاول الانتحار ذات يوم عقب خلاف شديد بينها وبينه ، فجرت إلى حيث ألفت بنفسها فى الثلج صائحة : ليأخذونى إلى مقر الشرطة أو إلى مستشفى المجانين ؛ وجرى زوجها وليس عليه إلا نصف ملابسه فأدركها وعاد بها إلى داره . وأرادت الكونتس فى سنة ١٨٩١ أن تقسم ثروة زوجها بينها وبين أولادها وكان تولستوى يدير لهم ظهره كلما فاتحوه فى ذلك لأنه كان لا يزال يأمل أن يتنازلوا عن هذه الثروة للفلاحين ، ولقد سأله أكبر أبنائه حين تخرج فى الجامعة ماذا يتخذ لنفسه من عمل ، فقال له اذهب فكن تابعاً لأحد الفلاحين ...

والحوا في التقسيم فتركهم يفعلون ما يشاءون ؛ وقسمت الكونتس الثروة بين أبنائها وبناتها بعد خلاف شديد شجر بينهم ؛ ورفضت ماري كما رفضت تانيا أن تأخذا نصيبهما ، وسر أبوها بقدر ما غضبت أمهما ، ولكن ماري حين تزوجت بعد ذلك بثمان سنوات شاباً أرستوقراطياً لا يمتلك إلا قليلاً من المال عادت فاستولت على نصيبها ، وقد كانت أمها تحتفظ لها به .

كانت قصته « موت إيثنان إليتش » من أحسن قصصه القصيرة ، وهي العرض الفني لمعاني كتابه « في الحياة » فما لم يقم في النفس ذلك الشعور الحكيم لم يكن للحياة معنى ...

كان إيثنان إليتش قاضياً من مثقفي العصر لم يفهم من الحياة إلا ما يتطلبه الشعور الحيواني ، وما زال في لهوه حتى أصابه المرض ، ثم رأى نفسه يذوي شيئاً فشيئاً حتى دنا من الموت ، وإذ ذاك أحس بفراغ حياته من المعنى ، ثم مات ، ولم يترك بعده أثراً في قلب أي إنسان .

وتبلغ هذه القصة مبلغاً عظيماً من الروعة إذ تصور تولستوى الحياة الحيوانية لإيثنان وإذ تصور ما يحيط به من حسرة عند موته ، وهو في ذلك كله يتناول مسائل طالما تفكر فيها بعقله قبل أن يعرضها هذا العرض الفني الجميل .

أما « سوناتة كروتزر » فهي وإن تكن أخف وزناً من سالفتها من حيث الفن ، إلا أنها أعظم خطراً من حيث صلتها بحياته ، ومن حيث أهمية موضوعها ، ثم لما أثارته من ضجة هائلة حين تناقلتها الألسن وقد منع نشرها ، وما صحب هذا المنع من صخب وتنديد ...

« سوناتة كروتزر » هي قصة الزوجة الخائنة ؛ أوحاها إليه باديء الرأي ، ما قام في رأسه من معنى مؤداه أن الزواج يعوق المرء عن أن يبلغ أسمی ما يستطيع من الكمال .

ثم إن رجلا صادفه في القطار ذات يوم فراح يقص عليه في حزن عميق ما عانى من خيانة زوجته ، ووعى تولستوى ما قاله الرجل وتحرك له قلبه ؛ وحدث بعد ذلك أن زاره في يasnaya أحد نابهي الممثلين وهو بلجا كوف ، وألقى أمامه بعض الفصول القوية المقتبسة من دستوفسكى ، فأحب تولستوى أن يؤلف شيئاً قوياً يُقتبس منه ، فلم يجد خيراً من الموضوع الذى فى رأسه ، والذى حركت به قلبه شكوى ذلك المسافر . ثم إن أحد أبنائه عزف مع معلمه « سوناتة كروتز » لبتهوثن فأخذ اسمها تولستوى اسماً لقصته ، وجعل العاشق فيها من أصحاب الموسيقى ...

ترينا القصة تاجراً ميسوراً يعيش فى رغد مع زوجته الجميلة ؛ وقد قدم هذا التاجر ذات يوم إلى زوجته شاباً من أحب أصدقائه إليه مولعاً بالموسيقى ؛ فصار هذا الشاب يغشى بيت صاحبه ، وكانت زوجة صاحبه مولعة كذلك بالموسيقى ، ولم يكن يشك التاجر قط فى أمانة صديقه ولا فى أمانة زوجته ...

ثم أخذت الغيرة تدب فى قلب التاجر ، وأرته الغيرة أشياء لم يكن يظن إليها من قبل ؛ وما زال حتى باغت زوجته وعشيقتها ، فقتل الزوجة الخائنة وأفلت منه الصديق الخائن ...

وقد وضع تولستوى فى رأس قصته هاتين العبارتين الإنجيليتين اللتين نعر بهما فيما يلى « ولكنى أقول لكم إن كل رجل ينظر إلى امرأة نظرة الشهوة فقد ارتكب جريمة الزنا بها فى قلبه » ... « ويقول له الحواريون إذا كان هكذا شأن الرجل مع زوجته* فليس من رأى أن يتزوج الإنسان ؛ ولكنه يجيبهم بقوله : لا يمكن أن يتلقى جميع الناس هذا القول ، ولكن من ألقى إليهم وخدمهم . » . كان فى هذه القصة جانب من تولستوى نفسه ، ولكن ليس معنى ذلك أنها تطابق ما كان بين تولستوى وبين زوجته فى حياتهما الزوجية ، فقد عاش مع

* إنجيل متى الإصحاح التاسع عشر : الآية العاشرة ؛ وكان سؤال الحواريين فى صدد

زوجته حتى كتابتها ما يزيد على ربع قرن ، عيشة مبهمة تخللها من متاعب فلا يمكن أن يتطرق إليها ريبه ...

ونقصد بأن القصة تنطوي على جانب من حياة تولستوى ، أن كثيراً مما جاء فيها كان نتيجة لتجربته في الحياة كراهيه مثلاً في عقبى الانغماس في الشهوة زمناً طويلاً ، وكراهيه في أن الحياة الزوجية يفسدها كما يفسد السم البدن ما يكون فيها من علاقات وثيقة مردها إلى الرغبة الجسمية ، وأن الخضوع إلى هذه الرغبة مفض إلى الكارثة ...

بين تولستوى في « موت إيقان إيليتش » كيف يؤدي خلو الحياة من الشعور الحكيم إلى خلوها من كل معنى وانتهائها إلى الحسرة ، وبين في هذه القصة كيف تؤدي العلاقة الجنسية إلى تسم الحياة وهلاكها ، وهو في ذلك يتخذ من الفن أدواته في إحساس فني لا يفتر شأن كل فنان عظيم ، وشأنه هو في كل ما تناول من عمل قوامه الفن ...

وصور توأستوى في القصة كيف يؤدي التبطل والنهم في الأكل والشرب ، والفراغ والشباب ، واللهو ، وغشيان المسارح وصلالات الرقص وقراءة قصص الحب الخليعة ، إلى تسمر الشهوة في البدن ، وكيف يؤدي إلى ذلك مسلك الأوانس في تبرجهن وزيتتهن حين يبرزن ليتصيدن الأزواج في الحفلات ؛ ومسلك المتزوجات حين يردن أن يظهرن في أحسن حالاتهن من الفتنة والإغراء فيعملن وإن لم يشعرن مثل عمل البغايا في إبداء سحرهن وزيتتهن ...

لذلك لم يجد پوزدنيشيف ملاذاً له من إفراطه في إطفاء شهوته إلا الزواج ؛ ولكنه لا يصيب في الزواج ما كان يتوق إليه من راحة ؛ ذلك لأنه في الزواج يقضى وطره أنى شاء فهو لا يخاف شيئاً مما كان يخاف منه وهو أعزب من وساوس المرض ، ومن مجازفات اللقاء ، وينتهى به الأمر إلى أن يباشر زوجته طلباً للمباشرة في ذاتها لا كما تقضي به قوانين الطبيعة ؛ وبذلك تصبح الزوجة أو يصبح الزوج أداة للعملية الحيوانية فحسب . ثم يفضي الأمر إلى ذلك الزهد أو ذلك

السأم الذى ينشأ عن الامتلاء والإسراف ، وتفسد الحياة الزوجية بهذا السأم ،
وتدب الشكوك والوساوس وتسود الدنيا ...

ولقد أراد تولستوى بهذه القصة أن يصل إلى بيان ما تقضى به الفضيلة في
أمر العلاقة الجنسية ؛ لأن قيام هذه العلاقة على أساس من الفضيلة من أهم
ما تكمل به النفس ...

ويعمل ما قوبلت به القصة من صخب بما حمل فيها تولستوى على الزواج ؛
إذ أن المرء يخرج منها بأن صراعه بين حيوانيته وبين طهره وسموه الروحي ظل
قائماً في نفسه بعد أن تزوج ؛ هذا إلى ما ألمح إليه من أن الزواج مما يعوق المرء
عن أن يبلغ أسمى ما يتوق إليه من كمال في كل نواحي الحياة .

قوبلت القصة بصخب من كل جانب ، فالذين يؤمنون بالحياة الحديثة
وبحرية الحب وسموه ، يكرهون من تولستوى تصويره العلاقة الجنسية صورة
حيوانية ليس الحب إلا طلاء يخفيها ... ورجال الكنيسة يسخطون عليه في
دروس وعظية أقاموها لهذا الغرض في كثير من الكنائس ، لأنه يصور الزواج
صورة غير ما يصفون من عفة وطهر وارتباط مقدس ؛ ولقد أعلن كبير منهم ذات
يوم على الملأ في كنيسته أن تولستوى خطير على المجتمع ، وأنه يجب وضع حد له .

وسعي رجال الدين سعيهم حتى منع الرقيب طبعها ، وذلك على الرغم من أن
القيصر قد أعجب بها . فإنهم ما زالوا يدسون دسائسهم حتى أغضبوا القيصر بأن
أطلعوه على يد بوبند نستسوف على أقصوصة كتبها تولستوى ، تدور حول
معايب حكم نيقولا ، وتم لهم ما أرادوا ولكن بعد أن ذاعت منها نسخ مخطوطة
في بطرسبرج وموسكو ، وكان يجتمع الناس في البيوت لقراءتها جهراً .

أما عن أثر هذه القصة في نفوس قارئها في روسيا وفي خارج روسيا فنهم
من ذهب إلى أنها تؤدي إلى عكس ما أراده تولستوى منها ، ومنهم من ذهب
إلى نقيض هذا الرأي قائلين إنها تركت أثراً طيباً جداً في نفوسهم ...

ومما لا ريب فيه أن تناول هذا الموضوع بمثل ما تناوله به تولستوى من

صراحة كفيف بأن يشير غير قليل من الإشفاق والقلق ، وبخاصة من جانب المتزمتين من الآباء والأمهات ، ولقد وافق تولستوي نفسه على إبعاد الفتیان والفتيات أثناء تلاوتها جهراً في بيته ...

وتنطوى نظرة تولستوي إلى الزواج على كثير من الغرابة ، ولقد عزاها من يجهلون حياته إلى ما عسى أن يكون قد أصابه من قصور جنسى من جراء إسرافه في الشهوة ؛ ووطنوا الظنون بعلاقته بزوجته ؛ ولكنه ظل حتى الثمانين يحس الرغبة في بدنه ، كما أنه حين كتب القصة لم يكن بينه وبين زوجته أية ريبة كما ذكرنا . هل كان مرد نظرتة هذه إلى ما عانى من متاعب على يدي زوجته ، نفس عن نفسه بما ذكر عن الزواج ، وقد غفل ضميره ؟ ذلك ما يدعوننا إلى الأخذ به قوله ولما بمض على كتابتها إلا زمن قصير « لا بد أن في قصتي شيئاً غير حميد ، إنى لأحس تلقاءها كثيراً من السأم كما أسأم مما يذكرنى بها . لقد كانت هناك أشياء كريهة فيما دفعتني من دوافع لكتابتها ... وسوف أحاول أن أتجنب ذلك في المستقبل » .

ولكنه في سنة ١٨٩١ يثبت عن الزواج قوله « إن أهم أسباب عدم السعادة في الزواج يرد إلى أن الشباب يحاطون بما يلقي في نفوسهم عن الزواج أنه شيء يجلب السعادة ... ولكن بعد ما بين الزواج والسعادة فهو شقاء أبداً ؛ هو ثمن الاستجابة للرغبة الجنسية ، وإنا لنقاسي فيه بقدر ما وعدنا به أنفسنا من وعود » . وقال في سنواته الأخيرة لمكسيم جوركي « سوف أقول الحق في النساء عند ما أضع إحدى رجلى في القبر ... عندئذ أصرح به ثم أثب فأدخل تابوتي وأجذب غطاءه فوق قائلاً : الآن فلتفعلن ما تردن » .

ولقد علق جوركي على ذلك بقوله « إنه ينظر إلى المرأة نظرة عداوة لاهوادة فيها ، ويجب أن يعاقبها إلا أن تكون كتي أو نتاشا رستوف ، مخلوقاً غير ضيق ؛ إنها عداوة الزوج الذي لم ينجح في الوصول إلى ما كان يطمح فيه من نعيم ، أو هي عداوة الروح « لدوافع اللحم التي تفضي إلى الأخطاط » .

ولقد ساء وقع القصة في نفس زوجته ، وعجبت ماذا عسى أن يقول الناس ؟ ثم أثارت القصة من حنقها عليه ومن بكائها وصخبها وشكايتها ما ترك في أذنيه وفي نفسه من الضجيج ما لا يقل عما أحدثه ما سمع من صخب خارج داره . كتبت امرأته في مذكراتها في ديسمبر سنة ١٨٩٠ « إني لأمتلىء الآن رعباً من الحمل ؛ لأن كل إنسان سوف يعلم هذه اللعنة ويردد ضاحكاً ما ذاع حديثاً في موسكو من قولهم : هذه هي المثال الحى لسوناتة كروتزر » ، وكتبت في فبراير سنة ١٨٩١ « لست أدري لماذا ربتوا بين هذه القصة وبين حياتنا الزوجية ، وكيف فعلوا ذلك ؟ ومع ذلك فمن الثابت أن الناس جميعاً ابتداء من القيصر إلى دياكوف صديق ليو وإلى أخيه ، قد أحسوا الرثاء لحالى ؛ ولماذا أخذ برأى الناس ، وقد أحسست في قلبي أن القصة موجهة إلى ؛ لقد جرحتنى وأهانتنى في نظر الدنيا كلها ، وقضت على ما كان باقياً بيننا من الحب ؛ وكان ذلك منه على الرغم من أنني طول حياتي زوجة له لم آت خطأ قط » .

وأخذت تعنف على زوجها ، وترميه بالنفاق كما رمته من قبل ؛ وتقول لو علمه الناس على حقيقته لما رأوا فيه شيئاً يستحق به ما ينسبونه إليه . ثم تدرت في الأمر ، ورأت أن خير وسيلة تخرجها من وضعها أن تسعى إلى القيصر فتتوسل إليه أن يأمر بنشر القصة ؛ فإن الناس إذا علموا ذلك لم يصدقوا أنها المقصودة بما كتبت زوجها ...

وأرسلت كتاباً إلى القصر الإمبراطوري تلتبس بمقابلة القيصر « لأشرح ما عسى أن يؤدي من الظروف إلى عودة زوجي إلى سالف عمله الأدبي ؛ ولأبين أن ما عزي إليه في نشاطه الحالى إنما بنى على الافتراء حتى لينذر بالقضاء على نشاط هذا الكاتب الروسى وعلى روحه ، ذلك الذى لا تحمد صحته اليوم ، واكتمه على الرغم من ذلك قادر على العمل لمجد بلاده » .

وأذن لها القيصر ، فلما مثلت بين يديه لقيها بكثير من العطف ، وقالت فيما ذكرت عن زوجها إنه يميل إلى العودة إلى كتاباته الأدبية ، وأن قصة طويلة

مثل قصته « الحرب والسلام » قد تبلورت في ذهنه ، وأنه لا يعوزه إلا شيء من الاعتبار الرسمي يشد أزره ويفتح للعمل نفسه .

وسر القيصر إذ سمع بميل تولستوى للعودة إلى الأدب ، وقال « أى نبأ هذا النبأ السار ! إنه كاتب عجيب ... عجيب » .

وقال القيصر عن « سوناتة كروتزر » إنها كتبت في صورة يعتقد أن الكونتس تولستوى نفسها لا تسمح معها حتى لأولادها أن يقرأوها ...

ورغب القيصر في إظهار عطفه على الكونتس ، وعلى زوجها كاتب روسيا الأكبر ، فقال إنه يوافق على أن تطبع القصة في المجلد الذى تشمل مؤلفاته كي لا يشتريها إلا القليلون ، فيضيق مجال قراءتها ...

وسألها القيصر أسئلة عن أسرتها ، ثم أبدى أسفه لاعتزال تولستوى الكنيسة ولكنه أظهر لها العطف حين اشتكت من موقف رجال الكنيسة من زوجها وما نقلوا عنه إلى السلطات من أنباء غير صحيحة ...

وبعد أن سألتها القيصر عما إذا كان يستطيع زوجها أن يدخل شيئاً من التغيير على « سوناتة كروتزر » ، وعلم أن ذلك غير ممكن ، قال إنه سوف ينظر بنفسه فيما يكتب تولستوى في المستقبل ليرى هل تنشر أو لا تنشر إذا أرسلتها الكونتس إليه ...

وطلب إليها القيصر وهو يمد يده إليها مصافحاً أن تنتظر حتى يرسل إلى القيصرة لتلقاها ...

وعدت الكونتس هذا نجاحاً شخصياً عظيماً ، وعزته إلى تأثير شخصيتها ، وصارت تنقل إلى زائريها وزائراتها ما علمته من ثناء القيصر عليها بعد خروجها من عنده ، وتعجبه من أنها لا تزال فنية وجبهة « وهذا يرضيني كأني ، وأحس أنه كما لو كان أخذاً بالتأثر لنفسي بعد ذلك الذى عاملنى به زوجى ؛ فإنه لم يقف دون أن يرفع من شأنى فى المجتمع فحسب ، بل لقد عمل جهده دائماً على الحط من قدرى » ...

أما زوجها فلم يرض عما فعلت ، وظل يقول دائماً : إنها مقابلة لم يكن لها من داع قط ...

هذا ما أحدثته القصة على صغرها من أثر ؛ قال عنها تشيكوف « لست أريد أن أقول إنها عمل عظيم من أعمال العبقريّة - كتب له الخلود ، فما كنت بالذى يقضى في مثل هذا الأمر ؛ ولكنها في رأي قل أن يوجد لها نظير في خطرها من حيث ما فيها من قوة التصوير ، وجمال التعبير ، بين ما يكتب الآن هنا أو في الخارج ؛ وأنا بصرف النظر عما فيها من قيمة فنية تحمل على الإعجاب العظيم في أكثر من موضع ، لئنني على القصة في ذاتها لأنها تثير الذهن إثارة شديدة كي يتفكر ، فلا يسع المرء أثناء قراءتها إلا أن يصيح قائلاً : هذا حق أو هذا سخيف . »

وكل ما أخذه عليها تشيكوف ما ظهر فيها من جهل تولستوى بما يتصل بالطب وبعض الأمراض ؛ فإنه على حد قوله كما يتبين من قصته ، لم يعن بقراءة كتاب أو كتابين للمختصين في هذا الموضوع « ولكن ذلك العيب لا يلبث أن يطير أمام ما في القصة من خصائص كما يتطير الريش في مهب الريح . »

أما قصته « الشيطان » فلم تنشر إلا بعد وفاته ، وذلك لأنه خشي أن يؤدي نشرها إلى شقاق جديد بينه وبين زوجته ؛ وكفاه ما يذوقه كل حين من غضبها . وهي كسابقتها تنطوي على كثير من ماضيهِ ؛ وتدور كذلك حول الشهوة البدنية العارمة ، وهي في واقع الأمر قصته مع أ كسنيا إلى مدى عظيم ... ثم ما كان يفالبه من شهوة أثارها في بدنه دومنا إحدى الخادِمات في ياسنايا سنة ١٨٨٠ أثناء أزمتها الدينية .

وموضع المأساة فيها أن بطلها أرنتيف ، لا يستطيع بعد زواجه أن يفصم ما كان بينه من صلة وبين خليّة فلاحه عرفها وهو أعزب ، ويشعر أرنتيف من أعماق قلبه أن تلك الفلاحه زوجة له في الواقع وهو زوج لها ، ولا يقوم هذا

الشعور في نفسه إلا بعد أن يتزوج زوجة شرعية ، وهنا تبدأ المأساة ...
وقد عبر تولستوى في هذه القصة ببراعته الفنية ، عما فهمه من تعاليم المسيح
الصحيحة عن الزواج والطلاق ؛ وفي رأيه أن الزواج يتم فعلاً بين رجل وامرأة
تغشاها ؛ ولا يصح أن يفرق بينهما بعد ذلك إلا الموت ؛ فإن تركها الأمر ما عليه
تبعة ما تقع فيه من مهاوى الرذيلة .

وأما مسرحيته العظيمة « قوة الظلام » فهي مأساة مريمة محزنة جداً شديدة
الوقوع في النفوس ، تدور حول البؤس والإثم في بيت فلاح روسي ، كتبها تولستوى
وقد أجبر علي ملازمة فراشه شهرين سنة ١٨٨٦ ...
وإن ما حازته هذه المسرحية من نجاح هائل أثناء تمثيلها بفرنسا سنة ١٨٨٨
وما ظفرت به من ثناء أقطاب الفن ، ليحمل المرء على العجب من مقدرة هذا
الفنان الذي لم يكن قبل من كتاب المسرحيات ؛ على أن مرد أمره إلى العبقرية
فلا عجب إذا ؛ وهل تناول تولستوى شيئاً من الفن أو غير الفن فلم يأت به
موجباً فذاً ؟ ذلك أنه يفرغ عليه عبقريته ، وينفخ فيه من روحه ...
أنيسيا امرأة قروية خائنة لزوجها لأنها لا تحبه ؛ وقد دست له السم في طعامه
وتزوجت من عشيقها نكيتا وهو فلاح كان يعمل تابعاً لزوجها ؛ ولزوجها القليل
بنت من امرأة أخرى قبلها ، وقد حملت هذه البنت سفاحاً من نكيتا وولدت
غلاماً قتلته أنيسيا وزوجها ... هذا في اختصار هو موضوع المسرحية .
وتنتهى المسرحية بخاتمة رائعة أعجب بها النقدة إعجاباً شديداً ؛ فإن نكيتا
يستيقظ ضميره ، ويعذبه الندم ، ويعلن على الملأ ما اقترف من الإثم ، ويطلب
العقاب لنفسه ، فيدنو منه أبوه ، وهو شيخ تقى يخاف الله ويرجو رحمته أبداً ،
فيقول لابنه في نشوة روحية وقد رأى ندمه « سوف يغفر لك الله يا بني ، إنك
لست تجرد رحمة من نفسك على نفسك ، ولكنك سوف تجرد رحمة الله ... !
الله ! الله ! إنه هو » !

وقد مثلت القصة في قصر الإسكندر الثالث ، وأعجب بها القيصر إعجاباً شديداً ، ولكن بوبند نستسوف كتب له يحذره مما عسي أن تثير القصة حول حياة الفلاح الروسي ، وبذلك نجح في منع نشرها في روسيا ، وقد ظلت روسيا محجوبة منها حتى سنة ١٨٩٥

ولما مثلت في باريس لقيت نجاحاً عظيماً ، وكان من أشد المتحمسين لها إميل زولا ، فأثنى عليها ما وسعه الثناء ، وذاعت المسرحية حتى كانت تمثل في ثلاثة مسارح في وقت واحد .

ولم يكن زولا وحده المتحمس لها فقد كتب برنارد شو إلى تولستوى يقول : « لست أذكر شيئاً في مجال الدراما كله أثر في نفسي أشد مما أثر فيها الجندي الشيخ في درامتك (قوة الظلام) ، وإن منظر الصعلوكين السكرانين إذ يئنان بشكواهما فوق القش وقد رفع أكبرهما الأصغر فوق جبينه وأنانيته ، ليحتوى من قوة التأثير ما لا يمكن أن يحتويه مجرد منظر رومانتيكي » .

هذا هو تولستوي بعد أن عاد إلى الفن ، وهذا هو فنه في طابعه الجديد .



روسيا تسير صوب الفلق

اشتدت حلكة الغسق في عهد الإسكندر الثالث وفي عهد ابنه نيقولا الثاني ،
ولكن لكل ليل نهاية ، وما تشتد ظلمة الليل إلا ليدير ، ولا بد للصبح
أن يتنفس ..

بقى الإسكندر الثالث في عزلة تامة عن رعيته ثلاث عشرة سنة ؛ يحيط به
حرسه وجواسيسه ، ويحيط بالناس عيونهم من مدينين ودينيين ، وفي وهمه أن
روسيا دانت له ، وما توهم طاعتها إلا لأنه لم يكن يدري من أمرها إلا ما يصف
له أعوانه ...

واختتم حكمه بسنتين قل أن شهدت البلاد مثل بأسهما . فقد وقعت مجاعة
عظيمة في مقاطعات كثيرة سنة ١٨٩٢ ، وغشى الناس عذاب شديد من الخوف
والجوع والمرض والموت !

وخلفه بعد موته ابنه نيقولا الثاني سنة ١٨٩٤ ، ولا تزال المجاعة في البلاد ،
ولا يزال الناس في غاشية من العذاب ، وأعلن القيصر الجديد كما أعلن أبوه من
قبله قوله « إني سوف أحفظ بمبادئ الحكم الأوتوقراطي في ثبات لا يتزعزع
كما فعل والدي رحمه الله جاعلا بمجهوداتي جميعاً لخير الشعب » .

وكان يسخر نيقولا الثاني من رغبة الراغبين من الأمة في اشتراك البلاد في
التشريع قائلاً إن « هذه أحلام فارغة » ، ولكن سخرية القدر كانت أروع
من سخريته ، فلسوف يرى بنفسه تحقق هذه الأحلام ، ثم ترجف في عهده
الراجفة ، ويدركه الطوفان فيفرقه وأسرته جميعاً ...

لم يجد الإرهاب في مقاومة الأوتوقراطية ، وما لبث الناس أن أدركوا أن
فئة قليلة من الثائرين مهما بلغ من تحمسهم وبطولتهم لن يفلحوا في القضاء على

الحكومة الأوتوقراطية وإن قتلوا القيصر الأوتوقراطي؛ لذلك لم ينته عهد الإسكندر الثالث، لا وقد منى النهلست بالفشل؛ وقد أدرك هؤلاء أخيراً أن مرد فشلهم إلى أنهم قادة لا أتباع لهم، فالفلاحون وهم سواد الأمة يخضعون للقيصرية خضوعاً متوارثاً مهما اشتدت وطأة الظلم عليهم؛ والمتعلمون قلة تفرقت أهواءهم ...

ولكن قوة جديدة سوف تفعل ما لم يفعله النهلست؛ تلك هي الصناعة، ولسوف يكون بدء حكم نيقولا بدء عهد الانتقال في تاريخ البلاد الاجتماعى، ومن ثم في تاريخها السياسى ...

أدى استخدام رؤوس الأموال الأجنبية فى إنشاء المصانع إلى ظهور تلك الطبقة التى منها نجمت الديمقراطية فى أوروبا قبل ذلك بما يزيد على ثلاثة أرباع القرن، والتى سوف تنجم منها الديمقراطية فى روسيا عما قريب، وتلك هى الطبقة الوسطى، وما تززع الأوتوقراطية فى ثورة أو فى غير ثورة إلا هذه الطبقة التى تتعنى وتتعلم وتطمح أو على الأقل تستنكف أن تستعبد ...

وبينما تطمح هذه الطبقة وتمد بصرها إلى أعلى معتزة بالمال والمكانة، نائمة على أولى الجاه للموروث جاههم الذى لا مبرر له، إذا بها تضطر إلى أن ترد بصرها تنتظر تحتها إلى هؤلاء الذين خرجوا من عزلة الحقل فاجتمعوا آلافا ومئين تحت سقف واحد، والذين يشكون من قلة الأجور وكثرة العمل، والذين يتساندون ويتهامسون، وقد أحسوا ما لهم فى الإنتاج من أهمية، والذين يبذون أولى مسكنة، ولكن تهامسهم يخيف وتساندهم يشيع من حولهم الرهبة ...

لن يرضى أصحاب المال عن الحكم الأوتوقراطى لأنه يستعبدهم وهم ليسوا بعد بعبيد، ولن يرضى العامل عن أوتوقراطية صاحب المال، لأنه يستعبده ويرهقه، وهو وإن لم يدر ما الحرية بعد يكره الإرهاق، وبذلك يموت الإذعان شيئاً فشيئاً وتنطوى النفوس على التمرد، ويصبح التغيير أمراً لا بد منه، لأنه مرحلة من مراحل التطور لن يجدى فى صدها طغيان .

وتظهر فى روسيا الأحزاب متأثرة بالعوامل الجديدة الاقتصادية، وهكذا

ظهرت من قبل في أوروبا ، ويكون ظهورها في روسيا أشد إنذاراً بالخطر ، لأن روسيا تختصر المراحل . فهي حين نهضت نهضتها الصناعية وظهر لها في المدن عمال ، كانت قد علمت من قبل بالماركسية ...

وها هو ذا حزب روسي ثوري ينشأ في عهد الأوتوقراطية ، ألا وهو الحزب الاشتراكي الديمقراطي ، الذي يتم مجرد ذكر اسمه عن أنه ينظر إلى الأوتوقراطية نظرتة إلى شيء متخلف من الماضي لا يصح أن يبقى ساعة واحدة . ويرى الحزب أول الأمر أن النظام البرلماني لا يكفي لإصلاح الحال على الأساس الاشتراكي المنشود فلا بد من ثورة سياسية تقب الوضع رأساً على عقب ثم تمهد الأرض للبناء الجديد .

ولكنهم لا يلبثون حتى يفطنوا أن آراءهم لا يمكن أن تجد دفاعاً حراً وهذه الأوتوقراطية قائمة ، ومهما يبلغ من عيوب الديمقراطية في وضعها السلطة والقوة في يد فئة من الطبقة الوسطى من أصحاب المال ، فإنها تعطى الفرد قسطاً من حرية التفكير وحرية القول يختلف كثرة أو قلة حسب روح الدستور نفسه أولاً ، وحسب روح الحكومة الدستورية بعد ذلك .

لهذا يجد هذا الحزب أن أنصاره في صفوف العمال ، وأن الخطوة الأولى إلى غايته أن تتسع الصناعة فتضم أكثر ما يمكن ضمنه من الأفراد ؛ فلا بد أن ينتزع هؤلاء الأفراد السلطة شيئاً فشيئاً من مسخريهم ، وكلما ساءت حالهم كان تمردهم أشد ، وكان هدفهم آخر الأمر أكثر عنفاً .

لذلك نبذ رجال هذا الحزب الإرهاب والعنف ، وأخذوا ينشرون مبادئهم بين صفوف العمال في هوادة حتى يحين الوقت الذي يثبتون فيه وثبتهم .

ولكن حدث أن جاء العنف من ناحية أخرى ؛ هي ناحية الطلاب ؛ فقد اشتدت وطأة الرقابة على الجامعات حتى ضاق الطلبة بها ، وما زادهم ذلك في الواقع إلا كراهة للاستبداد ، وحباً للحرية ، وباتت الجامعات من أهم مراكز النشاط السيامي ، وإن حرم عليهم ذلك علانية .

وفي الثامن من فبراير سنة ١٨٩٩ حدث تمرد شديد في جامعة بطرسبرج ، كان مرده إلى سبب تافه في ذاته ، وذلك أن مدير الجامعة كان قد أنذر الطلاب عقاباً شديداً إذا كدروا بصفو ذلك اليوم ، وهو يوم الاحتفال بعيد مؤسس الجامعة . فلما كان ذلك اليوم المعلوم تصايحوا بسقوط المدير ، وتركوا الجامعة ، وهم ينشدون أناشيد الحرية ؛ وتصدى لهم الجند في أحد الميادين فأطلقوا عليهم النار ، وقتل بعضهم ، وجرح عدد كبير منهم ؛ واشتدت ثورة الطلاب بعد ذلك ، وما لبثت أن صارت حركة عامة في جامعات روسيا كلها .

وفي الرابع عشر من فبراير سنة ١٩٠١ قتل أحد الطلاب وزير المعارف لأنه أمر بالقبض على نحو مائتي طالب من جامعة كييف و بطرسبرج ، وجندهم عقاباً لهم على اشتغالهم بالسياسة .

وتقرب العمال إلى الطلبة ؛ حتى لقد كانوا يدعون زعماء الحزب الاشتراكي الديمقراطي إلى معونة « رفقاءهم الطلبة المضطهدين » .

أخذ الاشتراكيون الديمقراطيون يتتبعون حركات الطلاب ويتتبعون كل شغب يقع بين العمال وأصحاب المال ليوحوا إلى العمال آراءهم ومؤداها أن لاخلاص لمن يظلمون إلا القضاء على الظالمين ؛ فالحكومة الديمقراطية هي التي تشرع للعمال ما تتحقق به سعادتهم ...

وأخذ رجال الشرطة يتعقبون هذه الحركات ؛ وعملت الحكومة في أكثر من موطن بنصحهم فأعانت على تأسيس وحدات صناعية بين العمال ، وأمدتها بالمال لتزيد الخلاف بينها وبين أصحاب الأموال ، وبذلك ينصرف العمال عن السياسة ؛ بل لقد كان يعمد الشرطة إلى إثارة الفتنة وتدمير الاعتصاب كي ينشغل العمال بأمورهم ... وكان زعيم هذه السياسة وموحي فكرتها زباتوف رئيس الشرطة السريين ...

ولكن هذه السياسة ما لبثت أن انكشفت أمرها ، وتبين للعمال أن مايقوله

الاشتراكيون الديمقراطيون حق . فلا رجاء لهم إلا في ظل الديمقراطية ...

هذه حال روسيا في عهد نيقولا الثاني ؛ عمال في المدن يربطون بين السياسة وبين متاعبهم ، وطلاب في الجامعات يمتنون الطغيان وتنطوى نفوسهم على الثورة ، وحزب يرتقب الساعة المرجوة ليطيح بالأوتوقراطية ، وليس اعتماده على الفلاحين كما كان يرجو النهلست أن يعتمدوا عليهم من قبل ، وإنما اعتماده على هذه العناصر الجديدة التي هي بحق عضد الثورة ...

على أنه حدث من جانب الفلاحين سنة ١٩٠٢ في مقاطعتي خاركوف وپولتافا حادث اهتمت له الحكومة أشد الاهتمام وذلك لجيئته من جانب هؤلاء الذين كانوا آخر من تخشى الحكومة منهم . فقد اجتمع مئات من الفلاحين في المقاطعتين ، وذهبوا إلى القائمين على مخازن السادة ومعهم عربات ، وطلبوا إليهم مفاتيح تلك المخازن ، وأخذوها منهم عنوة وملأوا عرباتهم بالحبوب والدقيق ، قائلين إن ذلك حقهم ؛ ولم يأخذوا شيئاً من الماشية إذ لا حق لهم فيها ..

وظلت عوامل السخط تتجمع في البلاد ؛ فلما كانت الحرب الروسية اليابانية سنة ١٩٠٤ ، وتبين للناس عجز الحكومة كما تبين لآبائهم بالأمس عجز نيقولا الأول في حرب القرم ، واشتد السخط من كل جانب على الأوتوقراطية ، وساد شعور القلق والخوف كما يحدث في كل حرب فاشلة ، رأى الاشتراكيون الديمقراطيون الفرصة سانحة فألبوا أنصارهم ، وبدأت في البلاد نذر ثورة عاتية ؛ فقد قتل في يوليو بليف وزير الداخلية وزعيم الرجعية ؛ ذلك الذي عاقب في السنة السابقة لقتله وحدها نحو خمسة آلاف بالسجن والنفي بغير محاكمة ... ولقد أطلق الروس على العهد الذي أعقب قتله اسم (الربيع) .

وفي نوفمبر سنة ١٩٠٤ اجتمع في بتروجراد مؤتمر قوامه مائة عضو من مجالس المقاطعات ، وأعلن المؤتمر أن البلاد تطلب الحريات العامة على القاعدة الدستورية كما تطلب الإصلاح والعمل المجدى ، ولا بد من دعوة جمعية لوضع دستور تتحقق به هذه الأغراض جميعاً ...

وما كادت تشيع في البلاد قرارات هذا المؤتمر حتى انبثت المظاهرات ،
وأقيمت الاحتفالات مؤيدة لها في كل مكان ... فقد كان يعد اجتماع مثل هذا
في روسيا بعد ما ذاقته من صنوف البلاء كأنه معجزة .

وكان قد حل في وزارة الداخلية بعد بليف الكونت ميرزكى ، وهو سياسي
ذو بصيرة وذو قلب رحيم ، وفي عهده اجتمع ذلك المؤتمر ، وأطلق الناس على
عهد (الربيع) اسماً آخر هو عهد (الثقة) ؛ فقد تركت الحكومة الناس يجتمعون
ويتشاورون فيما تطلبه البلاد ، وكأن يفنيا وبينهم مودة ؛ وأحسن الناس صفاء
الربيع وبهجته وما يعيشه في النفوس من أمل ؛ ولكن ذلك الربيع لم يدم
إلا خمسة أسابيع ثم اختتم بالدم يوم (الأحد الدامي) .

على أن هذه الأسابيع الخمسة على قصرها فترة لا تنسي في تاريخ روسيا ،
فقد كانت أهالي ربيع فيها نشيداً موحداً يهتف به شعب مستيقظ .. ألا وهو
نشيد الحرية ...

أما يوم (الأحد الدامي) ، وهو التاسع من يناير سنة ١٩٠٥ ، فهو اليوم
الذي أدى فيه الشعب مهر الحرية ، وهو الذي يفصل بين روسيا القديمة وروسيا
الحديثة ؛ فلن تخضع روسيا بعده للأوتوقراطية ، ولن تؤمن بوسيلة لخلاصها
إلا الثورة .

أضرب العمال في الثالث من فبراير في مصنع يمتلكه في بطرسبرج أحد
القيسرين هو الأب جابون ، وهذا المصنع هو واحد مما أقيم بوحي زباتوف .
أما سبب الإضراب فلأن جابون طرد بعض العمال ولم يقبل فيهم شفاعاة زملائهم .
وفي اليوم التالي انضم إلى هؤلاء زملاء لهم في مصانع أخرى ؛ وفي الخامس
من يناير شمل الإضراب عمال بطرسبرج جميعاً ، وكان عددهم مائتي ألف
أوزيريدون ، ويدلنا ذلك على مبلغ ما كان في النفوس من ثورة ... ولقد نسي
السبب الأول وراح العمال يطالبون بالعدالة بينهم وبين مستخدميهم .

ورأى جابون أن يصانع الثوار فبالأمم ، وأوحى إليهم أن يشتكوا إلى

القيصر ... وكتب لهم ملتصقاً وقع عليه الآلاف في تمسح ؛ والواقع أنهم كانوا يعانون أشد البؤس ، حتى لقد كانوا يقولون وهم ينصرفون إلى بيوتهم الحقيرة : هيا بنا إلى مدافنتنا ...

وظهر بين العمال أفراد من الاشتراكيين الديمقراطيون يعيرون عليهم ضعفهم إذ يتوسلون إلى القيصر ، وينصحون لهم بالثورة المسلحة ؛ ولكن العمال لم يستجيبوا لهم وصمموا على أن يذهبوا في مظاهرة سلمية .

ولم تتخذ الحكومة ما يدل على عدوان أو مجرد أهبة ؛ وظن العمال أن السلام مصاحب لمظاهرتهم فتوجهوا يوم الأحد التاسع من يناير إلى قصر الشتاء الإمبراطوري وهم جموع يذهب فيهم البصر إلى آخر ما يذهب ، ومعهم نساؤهم وأطفالهم ، وأمامهم جابون يحمل صليلاً كبيراً وحوله نفر يحملون رايات من رايات الكنيسة ، وكان بعض العمال ينشدون بعض الأناشيد الدينية ...

وبغت المتظاهرون وسط المدينة ، وكانوا قد تحركوا من ضواحيها ، بالرصاص ينصب عليهم من فرق من الجيش تحت إمرة القائد ترييوف ، وسقط عشرات من القتلى رجالاً ونساءً وأطفالاً ، وجرح مئات ، وتفرق الباقون ؛ وهكذا جرت الدماء فكانت مهر الحرية ؛ وكانت القطيعة بين الشعب والقيصرية وانكسرت العمال إلى الضواحي ، وقد قر في نفوسهم النار والثورة ؛ وأقاموا المتاريس أياماً ورفعوا الرايات الحمر ليدكروا بها ما جرى من دماء يوم (الأحد الدامي) كما سمو ذلك اليوم ...

أما سحق الناس على القيصر وأعدائه فلن يصفه كلام ؛ فهذا الطاغية الذي هزمت اليابان جنوده لا يفلح إلا في قتل شعبه وسفك دماء النساء والأطفال ، ولذلك قامت الثورات أياماً في أكثر الجهات وازداد عدد الضحايا ، كما كثرت الاغتيالات ، وكان من أهمها اغتيال الفرانكوف سيريوس عم القيصر ...

وأوشكت أن ترجف الراجفة في أكتوبر سنة ١٩٠٥ ، فهاهم أولاء العمال تستعر الثورة في نفوسهم ، والطلبة في جامعاتهم قد انصرفوا عن دروسهم انصرفاً

تماماً . فلا هم لهم إلا الاجتماعات السياسية والخطب والأناشيد ؛ وكانت الجامعات في ذلك (الربيع) الذي ولي قد استردت من الحكومة استقلالها فلن يقتحمها الشرطة أو الجيش ، ولن تتدخل الوزارة في شؤونها ؛ وغدت الجامعات بذلك ملتقى العمال والطلبة والناس من كل نمط حتى السيدات ؛ يجتمعون في حرم كل جامعة ويسمعون أناشيد الحرية من جنود الثورة ويتلقون النشرات والكتيبات . وشهدت روسيا في هذا الشهر ما يدل على إجماع عام بين الطبقات والأحزاب على اختلاف أعمالها وأسمائها ووسائلها ؛ وذلك هو الإضراب الذي بدأ بعمال خط حديدي واحد . ثم ما لبث أن شمل روسيا كلها ...

أضرب في اليوم العاشر من أكتوبر عمال السكك الحديدية ، وفي الحادي عشر أضربت الصحف . ثم تتابع الإضراب ، فلم يأت السابع عشر حتى أغلقت المصانع والمتاجر والمصارف ودور الحكومة والمحاكم ، وعيادات الأطباء ، ولم يبق في البلاد كلها أحد يعمل ؛ ولن يرضي الشعب إلا بالحرية العامة ، وبالحكم الدستوري ...

وارتاع القيصر و بطانته وأعوانه لهذا الاجتماع المهيب ، وزلزلت الأوتوقراطية من أساسها ، وأيقن أنصارها أن هذا الشهر هو آخر عهدا بالسلطة ... وشاور القيصر أعوانه ، فلم يجدوا أمامهم إلا أحد طريقين : إما إجابة الشعب إلى ما يطلب ، ومعنى ذلك تنازل القيصر عن أوتوقراطيته ، وإما إقامة ديكتاتور من رجال الحرب على رأس الحكومة ليقضى على الثورة . .

وما يتنازل قط طاغية عن سلطانه إلا مكرهاً ؛ لذلك مال القيصر إلى الرأي الثاني ، واستدعى إليه عمه الفرندوق نيقولا وكان القائد الحقيقي للجيش إلى جانب القيصر الذي هو بحكم منصبه القائد الأعلى ؛ وصارح الفرندوق ابن أخيه بأن معظم الجيش لا يزال في الشرق ، وأن ما هو موجود منه في روسيا لا يقوى على صد الثورة عن وجهها ... وقد نقل أحد رجال الدولة عن الفرندوق أنه أخرج مسدسه وقال لأحد رجال البلاط : « أتري هذا المسدس ؟ إني ذاهب الآن إلى

القيصر فمتوسل إليه أن يعلن قبول الدستور ، وإلا فسأقتل نفسي بين يديه «
وأذعن الطاغية على رغمه ، وأعلن في ذلك اليوم المشهود السابع عشر من
أكتوبر سنة ١٩٠٥ قبول الدستور ، والحكم النيابي ؛ وتلفتت روسيا ، وهي
لا تكاد تصدق عينيها ، إلى نور الفلق ينهل على الأفق ...

* * *

أهو فجر كاذب ؛ ذلك ما بات به الروس يتساءلون ! فما لبثت البلاد أن
سمعت ، وهي في فرحها الشامل بأنباء عجيبة جاءت من الأقاليم عن عصابات
إرهابية مسلحة تقتل اليهود طمعاً من القيصرية والعناصر الرجعية في صرف
الثورة عن وجهها الحقيقي ، وذلك بإغراء الناس بالقضاء على اليهود الذين هم في
زعمها أصل الشر كله . ثم أخذت تغتال في هذه العاصفة الهوجاء الطلبة والعمال
من العناصر الحرة ، وكانت هذه الفرق الإرهابية تنتمي إلى « جمعية الشعب
الروسي » وتسمى « المئات السود » ، وقد كانت هذه الفرق السوداء تعمل بوحى
الشرطة وأعينهم ، ومن ورائهم القيصر وحكومته ؛ ولقد قتل هؤلاء « المئات
السود » أكثر من أربعة آلاف ، وآذوا أكثر من ستة آلاف في كثير من
المدن ، وذلك في مدى أسبوعين ...

ومن جهة أخرى ، أدى شعور الناشرين من العمال بخطورهم ، ومكائهم ،
واعتزازهم بما ظهر من قوتهم في ثورة أكتوبر إلى طموحهم صوب السلطة
دون غيرهم من الأحزاب ، وبخاصة دون الاشتراكيين الديمقراطيين الذين كانوا
من جانبهم يزعمون أنهم أجدر وأحق بالسلطة ...

وتألف « سوفيت » أو مجلس برياسة تروتسكي قوامه مندوبون عن العمال
في مصانع بطرسبرج ، وغايته توجيه الثورة بحيث تقتصر ثمارها عليهم وحدهم ،
وأدى ذلك إلى نفور رجال الطبقة الوسطى عامة والاشتراكيين الديمقراطيين
خاصة ؛ وهكذا بات أنصار الثورة بعضهم لبعض عدواً ، ولم يدر ذلك « السوفيت »
ولا رئيسه تروتسكي أنهم بما فعلوا إنما سعوا إلى هلاكهم . فإن الأوتوقراطية هي
وحدها الراجحة من هذا الخلاف ...

ولم يكدر يمضى شهران حتى ظهرت بوادر الرجعية من جديد ، وتراءت على الأفق كدرة الغسق ...

ففي نوفمبر دبر « السوفيت » إضراباً عاماً سببه الظاهري مطالب خاصة بالعمال ، ومع أنهم أفلحوا في إضرابهم في أوساط العمال ، وأخافوا الحكومة ، ومع أن العناصر الحرة بوجه عام لم يجاهروهم بالعدوان رضاء عنهم لإرهابهم الحكومة ، إلا أن العناصر الرجعية قد تبينت أنها اليوم ليست تلقاء حركة شعبية عامة وإنما تلقاء طبقة واحدة ...

وبدأت حرب الطبقات شيئاً فشيئاً ؛ وكانت كلما ازدادت قوى جانب الرجعية أو قوى أملها في القضاء على الثورة ... فلما دعا «السوفيت» إلى إضراب عام ثالث في ديسمبر يكون مقدمة لثورة مسلحة للقضاء على العهد القديم كله ، ورددوا دعوتهم إلى الجمهورية والاشتراكية ، لم تجبهم الطبقة الوسطى . فإنها وإن كانت تكره الأوتوقراطية ، إلا أنها كانت لا تذهب مذهب هؤلاء ؛ وتخلي عنهم عدد ليس بالقليل من العمال أنفسهم .

وأدى نشاط العمال وشطط « السوفيت » على هذه الصورة إلى فقدان الجيش عطفه على الثورة الشعبية شيئاً فشيئاً ؛ ولذلك لي حين دعى للقضاء على هذا الإضراب الذي لم ينجح في أن يكون عاماً ؛ فقد اقتصر على موسكو حيث سيطر « السوفيت » أياماً ؛ ولما سقطت المدينة بعد حوادث دامية عنيفة في يد الحكومة بمعونة الجيش والفرق الإرهابية السوداء في اليوم العشرين من ديسمبر ، تلقى القيصر رؤساء « المئات السود » في قصره رسمياً ..

وأرسل الجند إلى كل جهة ثار فيها العمال أو الفلاحون فبطشوا بهم وقتلوا عدداً كبيراً . ولما اجتمع « الدوما » وهو البرلمان الجديد في مايو سنة ١٩٠٦ ، دهشت الحكومة أن رأت الاشتراكيين الديمقراطيين ينالون عدداً كبيراً من المقاعد لم يظفر بمثله أى حزب بينما حصل مالكو الأرض على عدد قليل جداً ، وراح الاشتراكيون يطلبون توزيع الثروة توزيعاً عادلاً ، وذلك بانتزاعها من

كبار المالكين وكانت الحكومة أثناء الانتخابات مطمئنة إلى محافظة الفلاحين وإلى ولائهم الموروث للقيصريه . فلما رأَت من الاشتراكيين ما رأَت ، أرادت أن تحل الدوما من أول اجتماع ، ولكنها آثرت أن تترث حتى لا يكون عملها باعثاً على ثورة عامة من جديد ؛ وبعد اثنين وسبعين يوماً ، حلت الحكومة الدوما على يد ستوليبين رئيس الحكومة الجديد ، فلم يتحرك أحد ...

وبدأ علي يد ستوليبين عهد أسود فظيع من الإرهاب لم تشهد البلاد قط مثل حلكته بل لم تشهد الدنيا نظيراً له ، قتل فيه الآلاف بلا حساب ، وامتلات السجون بالآلاف ، وأرسل إلى المنفى مئات الآلاف ، وظل هذا الليل القاتم قائماً حتى مصرع ستوليبين إذ رمي برصاصة سنة ١٩١١ في أحد المسارح بكيف فبدأ يتنفس الصبح من جديد ...



جهاد جديد !

اشتدت بالناس المجاعة ، وقد فرغ تولستوى مما أثاره تقسيم ثروته من نزاع بينه وبين زوجته فشمّر للعث ؛ وانطلق إلى موطن من مواطني الخنة ، ومعه ابنته ماري ...

ورأى تولستوى الفلاحين لا يجدون قوتاً إلا قليلاً من الخبز الأسود ، ولاوقوداً إلاسقف عشبهم وبيوتهم ؛ والموت يتخطفهم إذيسقطون من الجوع . ولحقت بهما تانيا ؛ ثم شمّرت الأسرة كلها ؛ فأنشأ سيرجى ومعه أخوه إليها مطاعم في مقاطعة تولا ؛ وترك ليو دروسه في جامعة موسكو ، وذهب يعمل في سمارة ...

وأقام تولستوى وابنته ماري في مقاطعة دانكوفسكى عند صديقه رايشسكى الذى أعانه بكل ما في وسعه . أما الكونتس فقد شق عليها فراقهم جميعاً ، وما لبثت أن أخذت بقسط من العمل ؛ فأذاعت في الصحف نداء تطلب فيه إغاثة الناس وسرعان ما لبى المحسنون فاجتمع لديها مبلغ كبير أنفق في مواطن الجوع . وكان تولستوى يقضي نهاره بين الناس ، ومن حوله الكوليرا والجدرى والتيفوس والإنفلونزا والمزال ، لا يخاف ولا يكل ، وكان في الليل يكتب المقالات للصحف يستحث القادرين على الجود والعمل ، ويندد بالأغنياء الذين يعلمون ما حل بالناس ثم لا يتقدمون للنجدة ؛ ولقد كان أثر مقالاته في روسيا عظيماً ، يتناقلها الناس فيقرأونها في رهبة واحترام أو شك أن يكون خشوعاً ، واشتدت حملة تولستوى على الأغنياء الذين لا يقبضون أيديهم لحسب ، بل يبيعون حبوبهم ودقيقهم بثمان غال منتهزين هذه المجاعة .

وكتب تشيكوف ، وكان يومئذ يسهف المرضي في ناحية نوجورود

« تولستوى ! آه ، تولستوى ! إنه فى هذه الأيام ليس رجلاً فحسب ؛ بل هو فوق أن يكون رجلاً ، إنه چوپتر » .

وكان ينام تولستوى فى حجرة صغيرة ليس بها إلا سرير من حديد ، فلا بسط ولا ستائر ولا مقاعد ، وإنه ليثب من سريره كل يوم إلى العمل ينشئ المطاعم ، ويسعف المرضى ...

ومات صديقه رايكسكى بالحلمى ؛ ورقدت ابنته ماري ؛ ولكنه دائب لا يتركس ، وإن بلغ به الجهد مبلغاً عظيماً ، وقد أنشأ ستة وأربعين ومائتى مطعم للكبار ، وأربعة وعشرين ومائة للأطفال ، كان ينفق عليها مما يصله من التبرعين من روسيا ومن إنجلترا ومن الولايات المتحدة ، وقد كان لصوته دوى كبير فى هاتين الدولتين ...

وكان يقالم تولستوى كلما رأى أن ما يبذله من جهد على كثرته لا يخفف إلا قليلاً من هول المجاعة . فلا يزال الآلاف فى عششهم لا يستطيعون الخروج لحاجتهم إلى الملابس ، ولا يزال التيفوس والكوليرا والجوع تفتك بالناس ؛ والدواب ، وبخاصة الخيل فكانت تموت فى مراتبها جوعاً ...

وأشد ما كان يؤلمه ويملاه حنقاً وحرزناً ما يرى من إهال الحكومة ؛ تلك التي أنكرت أول الأمر أن فى البلاد مجاعة ؛ حتى كتب تولستوى ما كتب ؛ وما يرى من نفاق الأغنياء ، وموت ضمايرهم وقلوبهم ...

وفوق ذلك لقد كان يكره هذا العمل الذى يعمل وإن شمر له سنتين كاملتين تعرض فيهما للهلاك ولكيد أعدائه ؛ ذلك أنه كان لا يراه العلاج الصحيح . فإمداد الفلاحين بالطعام اليوم لا يدفع عنهم الجوع فيما هو قادم من أيامهم ، وفى هذا ما يؤيد سابق رأيه فى الصدقة وثابت مبدأه فى الملك ، وهو أنه أصل الشر جميعاً ، ومنه هذا الجوع الذى يرى . كتب ذات مرة فيما كتب : « ليس مما يشا كل رأى أن أطعم هؤلاء الذين يطعموننى ، ولكنى استدرجت إلى هذا العمل وأجد نفسى أوزع ما يقبىء الأغنياء ! وإنى لأحس ما فى ذلك من مهانة ،

ولكني لا أستطيع أن أنأى عنه بجانبى .

ولعله سمع ما كان يتهمة به الأغنياء فقد كتب إلى زوجته ذات مرة يقول :
« لا تظني أنى أفعل ذلك كى يتحدث الناس عنه ؛ إنى ما فعلته إلا لأنى لم أستطع
أن أذوق السلام » .

وكان أعداؤه يكيدون له ؛ فقد كتب مقالة لإحدى المجلات ، ولكن
الريب لم يأذن بنشرها ، وكان مع تولستوى صديقه مستر دالن مراسل صحيفة
« ديلي تلجراف » ؛ فاستأذنه فى ترجمة المقالة ، ثم أرسلها إلى صحيفته فذاعت فى
إنجلترا وفى الولايات المتحدة ؛ وترجمتها مشوهة عن عمد صحيفة روسية هى صحيفة
« الجازيت » فى موسكو ، وكانت لساناً من السنة بوييدونستسوف ،
وأضافت عليها ما يشعر أن تولستوى يريد أن يوقد نار الثورة بين الفلاحين .

وثارت ثائرة الحكومة ، وراح خصومه يتهمون به بأنه داعية خطير من دعاة
الثورة ، وأنه لا وطنية له بل إنه لعدو وطنه ، وأنه غير مسيحي ... وكتبت إليه
زوجته ما علمت من أختها تانيا عن أثر مقالته ، وكيف أخذ مجلس الدولة
يفكر فى حبسه ، وكيف كان وقهما فى نفس القيصر فقد قال : « إن تولستوى
أسلمنى إلى أعدائى ، ولقد تلقيت زوجته ، الأمر الذى لم أعمله لغيره » ، وعبرت له
زوجته عن مخاوفها ثم قالت « أين ماتدعو إليه من حب ومن عدم مقاومة الشر؟
وليس لك من حق أن تسب دمارى ودمار أولادى » .

وزعمت زوجته للسلطات أن المقالة مزورة ، ولكنهم لن يصدقوا ذلك إلا
إذا كتبه تولستوى نفسه ؛ وقال تولستوى إنه لا يكتب إلا ما يعتقد وما لا يسر
الأغنياء ، وأنه فعل ذلك اثنتى عشرة سنة سجالات . على أن زوجته حصلت منه
على شهادة بأن ما نشرته « الجازيت » لا يطابق أصل المقالة ؛ وأضافت من
عندها أن زوجها لم يرسل شيئاً إلى صحيفة إنجليزية ، وغضب مستر دالن من
ذلك ، وأشفق على سمعته ، فطلب إلى تولستوى أن يعلن أنه أذن له بالمقالة ؛
فأعلن تولستوى ذلك فى غير تردد .

وانضم دلائل إلى خصومه ، برغم ذلك ، وراح يتهمه بالجن قائلًا إنه يستتر خلف ثياب زوجته !

وليس هذا كل ما لقي تولستوى من عنت خصومه وسوء مكرهم ؛ فقد راح بويدونستوف يرفع التفارير إلى القيصر طالباً اعتقاله ، وكان لهذا تأثير قوى على الإسكندر لأنه فضلا عن تحمسه للأوتوقراطية كان مربيه ؛ وطلب مثل هذا الطلب وزير الداخلية ؛ وراح القسيسون في الكنائس يتهمونه في دينه ويحذرون الناس من هذا الجاحد الذي يخدع الفلاحين بما يقدم لهم من خبز ودقيق وقماش ! وأعلن كبير القسيسين في خاركوف لعنة الله والكنيسة عليه ، ودعا الله أن يقضى القيصر علي شره قبل أن يستشرى ...

واستأذنت ابنة عمه ألكسندرا على القيصر ودافعت عنه ، ولم تذكر اسمه مجرداً بين يديه بل وصفته بقولها عبقرى روسيا الأكبر ؛ وأصغى إليها القيصر ثم قال إنه « لا يميل إلى أن يجعل منه شهيدا فيكسب بذلك استنكار العالم المتمدن كله » ؛ وكان حقاً على القيصر أن يحجم هكذا عن أن يؤذى رجلاً تتجه إليه الأفئدة في العالم جميعاً وقد باتت لروسيا به مكانة عالية في أدب الدنيا ...

وخرج تولستوى من جهاده في المجاعة بما زاده يقينا من مبادئه واستمساكها بها إن كان في حاجة إلى زيادة ؛ وبما زاده كرها لما في أسرته من مظاهر الأرسوقراطية ، فقد كتب إلى ابنته تانيا سنة ١٨٩٤ يصف متأماً تأهب زوجته وبعض أبنائه للذهاب إلى إحدى الحفلات

لم تشغل ذلك الرجل العجيب أعماله المضنية في المجاعة ، ولا مقالاته في الصحف ، عن أن يكتب كتاباً في آرائه السياسية ، كان يعده متمماً لما كتب في الدين وفي الاجتماع ، وقد فرغ من هذا الكتاب في صيف سنة ١٨٩٣ ؛ وجعل عنوانه « مملكة السماء تقوم في أنفسكم » ، ولقد فاقت شهرة هذا الكتاب في الشرق والغرب جميع ما كتب في غير الفن .

شرح تولستوى فى كتابه هذا ما ينبغى أن تكون عليه السياسة مستمدة من المسيحية كما فهمها ؛ فقال إن مملكة السماء يمكن أن تتحقق على الأرض ، إذا كان سلوك الناس فى الحياة أو أكثرتهم مطابقاً لما يعد مظهراً من مظاهر الشعور الحكيم أو الشعور المسيحى من قوانين خلقية ، مسطورة فى الإنجيل ومنقوشة على كل قلب سليم .

وجامع آرائه ذلك المبدأ الذى سماه « عدم مقاومة الشر بالعرف » ؛ وهو من مبادئ تولستوى التى ذهب لها صيت عظيم فى المشرق والمغرب ؛ ولعله كان أعظمها ذيوفاً ، ولعله أعظم ما اشتبه به الكاتب العظيم وأقوى ما أثر به فى أذهان المفكرين والقادة وفى مقدمتهم رجل الهند الفذ ، وشهيد الإنسانية العظيم المهاتما غاندى ، حوارى تولستوى وإن لم يره ، وتلميذه الروحى ، وخليفته فى أكثر مبادئه يرى تولستوى أن آلام البشرية جميعاً ، سردها إلى العرف والقوة والشر ، وهى كلها مترادفات ؛ ويرى أن تاريخ الإنسانية كله هو تاريخ العرف على هذه الأرض ؛ والخطأ كل الخطأ فى مقابلة العرف بالعرف ، وسرد هذا الخطأ إلى أن الناس يتوهمون أن ما كان نتيجة محتومة لجملة حوادث معينة يمكن علاجه بتلك الحوادث نفسها التى أفضت إلى تلك النتيجة السيئة ... والصواب الذى لا صواب غيره ، هو أن ننظر من فورنا فى الأسباب التى أدت إلى ما حدث ، وتقضى على هذه الأسباب ، فننتزع من الشر دوافعه ؛ أما إذا قاومناه بمثله فإننا نضع شراً تلقاء شر وقد نزيده عنفاً وتجديداً ... فضلاً عن أننا نقبل الشر ونأتى ما نكره وما نريد أن نتخلص منه .

وينبغى ذلك ما أذيع خطأ عن تولستوى من أنه لا يحارب الشر ؛ كلا فهو يحاربه كما نرى وهو يرى ذلك فى مقدمه مبادئ الإنسان ، ولكنه يحاربه على صورة تتلخص فى انتزاع ما يقوم عليه الشر من غل فينطقى ...

لا تلق الشر بالعرف فيستفحل ؛ بل أفض على أسبابه تنتزع منه غله فيفرغ فيموت ؛ كالكرة من المطاط الممتلئة بالهواء فإنك إن ضربتها توثبت ، ولكنك

إن أفرغتها مما بها لصقت بالأرض ... هذا مجمل رأى تولستوى ..
وعدم مقابلة الشر بالعنف ، فضلاً عما فيه من « امتصاص » قوة ذلك
الشر كما عبر تولستوى ، أو انتزاع ما به من غل ، يقرب بنا كذلك من الحب
المسيحي المنشود الذى هو قوام « مملكة السماء »

ويريد تولستوى أن يطبق رأيه هذا فيرينا كيف نحارب الشر فى الدول
الحديثة ويأتى بأراء تجعله أجراً من كتب فى روسيا ، بل فى أوروبا ، عن الدولة
ولقد كانت آراؤه هذه كالديناميت تحت قاعدة البناء العتيد إذا انطلق خر
البناء من أساسه .

كان لا يعترف تولستوى بالدولة فى وضعها القائم يومذاك ، ويراها شراً
فى شر ؛ ولذلك كان من أكبر الهادمين أو كان إمامهم الأكبر ؛ ويرى أنه
يجب على كل ذى شعور مسيحي ألا يطيع الدولة إلى أى عمل غير مسيحي ،
وفى مقدمة ذلك الجنديّة ؛ على ألا تكون القوة وسيلته ، بل عدم المقاومة...

ويجب عليه بعد ذلك أن يرفض كل عمل قائم على استلاب جهود الناس
أو مؤد إلى ذلك أو حام له ؛ فلا يقبل أن يكون قاضياً أو موظفاً أو شرطياً ؛
ويجب أن يكون سلوكه إنسانياً لا وطنياً وأن يكون أساس هذا السلوك ما يؤمن
أنه الحق ، وفق ما يستشعر من المسيحية الحق ...

وما دامت الدولة أساس الشر جميعاً ، وما دام أنها أبعد ما تكون عن
المسيحية ، وإن تنكرت فظهرت فى غير حقيقتها ، فيجب على المسيحي الحر
ألا يعترف بها ؛ وأن تكون هذه نظرتة إلى الدول جميعاً كفرنسا أو إنجلترا
مثلاً ، لا إلى روسيا وحدها .

والمسيحي الحر لا يرضى أن ينتفع بشيء من نظم الدولة ؛ فلا يجب أن يثرى
فى حمايتها ؛ ولا يجب أن يستعين محاكمها ولا شرطتها ؛ ولا يجب أن يستخدم
شيئاً قام على مجهودات الغير ...

ويجب ألا يمتلك شيئاً ، وألا يتداول المال ؛ وعليه أن يعمل لئلا كل فهو إن ترك العمل واستخدم غيره استعبدهم بماله وامتلك أضعاف ما يحتاج إليه ، أما إذا عمل بنفسه هو وأمرته فإنه يمتلك بقدر عمله ويدع لغيره كذلك أن يمتلك فلا يستعبد ...

ويرى تولستوى أن عدوان الأفراد ، وما قد يأتونه من إثم أو باطل ، إنما تتخذة مثالا لما يجب ألا يكون ؛ وبذلك نستطيع أن نندد به ، وندعو الناس إلى اجتنابه ؛ أما الدولة فضررها أعظم فهي كما بين في أكثر من موضع عدوان في ذاتها ، لأن وجودها في ذاته سبب ما يعاني الناس من عذاب ما دامت تقوم لتحمي استعباد فريق من الناس فريقاً غيرهم ؛ ولذلك فهي إثم وباطل دائماً ، ولكنهما يتخذان مظهر الفضيلة بادعائهما النظام والأمن والمدالة والإصلاح ؛ وعلى ذلك فلا يجد فيها المرء ما لم ير الحقيقة ما يجده في عدوان الأفراد من أمثلة يجب اجتنابها ، وإنما يجد فيها أمثلة لما يجب أن يكون وهنا الضرر الخفي ، ضرر اللص أو الفاسق الذي يلبس مسوح الرهبان .

ويعود تولستوى في هذا الكتاب فيحمل على العلم الحديث وعلى الكنيسة ؛ أما العلم فلأنه يحدد بتعاليم المسيح ، وأما الكنيسة فلأنها تسيء تصويرها ... ولكن تولستوى على شدة ما في آرائه من هدم هو أقوى مظاهر الثورة ، يحرم الثورة وسيلة للقضاء على الدولة لأن الثورة عنف وشر ؛ وإنما وسيلته المقاومة السلبية أي « امتصاص » ذلك الشر وتفريغه فتصبح الدولة وليس لها وجود بصورتها الحالية ، إذ لم تعد تقوم على شيء ؛ وهذه المقاومة السلبية هي عدم الاعتراف بالدولة واجتنابها اجتناباً تاماً .

والمسيحي الحر في رأى تولستوى لا يطيع أحداً إلا الله فلا يقسم بيمين الولاء للقيصر ولا للدولة لأنه لا يحق له أن يعيش إلا في منأى عن ذلك النظام الآثم ... وينبغي ألا يضع نفسه في موضع من يعمل بقوة خارجية كالتدمير والضرب والقتل مثلاً ؛ فإن وضعه الصحيح أن تنطوى نفسه على إنكار الدولة وإن

ضرب هو أو قتل : فإذا فعل الأفراد ذلك أو كثرتهم ، أصبحت الدولة وليس لها وجود ...

وبين تولستوي الفرق بينه وبين الثوار في قوله « إننا نخطيء إذا جعلنا بيننا وبين الأحزاب الثورية مواضع نلتقي فيها ؛ إنهم يصيحون بقولهم لا دولة ، لا ملكية ، لا ظلم ، إلى غير ذلك ، ونصيح مثل صياحهم ؛ ومع هذا فالفرق عظيم بيننا وبينهم ؛ فعند المسيحي لا وجود للدولة ، وهؤلاء يريدون أن يهدموها ؛ وعند المسيحي لا وجود للملكية وهؤلاء يريدون أن يقضوا عليها ؛ والناس جميعاً عند المسيحي سواء ، وهؤلاء يريدون أن يقضوا على عدم المساواة : ذلك أن الثوار يجاهدون الحكومة من خارج أنفسهم ؛ والمسيحية لا تجاهد أبداً ؛ إنها تحطم قواعد الدولة من داخل النفس » .

وعند تولستوي أنه لو رضيت الآلاف المترابدة التي تأتي الخضوع ، أن ترسل إلى سيريا أو إلى السجن أو أن تجلد ، لكان عملها السلبي على هذه الصورة من البطولة ، أجدى مما يفعل الثائرون ؛ فإن الثورة المنبعثة من داخل النفس والتي تجعل سلاحها عدم المقاومة أهدأ من الوثبات العنيفة ومن الجمعيات السرية ؛ ولكي يغير نظام الدنيا ينبغي أن يغير الناس ما بأنفسهم ؛ فلا بد من ضمير هادئ لا يتزعزع وإن حمل البدن ألوان العذاب ؛ لا بد من ثورة النفوس لا ثورة الأيدي ...

وحيث يصف تولستوي ما يحل محل « ذلك الجرم » ، كما يسمى الدولة ، يبدو مغرقاً في الخيال وتبدو آراؤه سديمية إلى حد بعيد ؛ فهو يدعو إلى أن يقوم الإخاء والحب والإيمان بين الناس مقام الأنظمة والقوانين والسلطة ؛ ولا بد أن يتنازل أصحاب الثراء عن ثرائهم ، فلا يأخذون من الدنيا إلا ما يحتاجون إليه على أن يكون ذلك ثمرة عملهم بأيديهم ؛ ولا بد أن يتنازل من أفسدتهم الثقافة الحديثة عن آرائهم كي يصلحوا للوضع الجديد ؛ ولا بد أن يجعل أصحاب الفن فنونهم يسيرة حتى تصبح في متناول العامة ... فإذا قلت الفوارق بين الطبقات أمكن

أن تصل إلى الوضع الذى يسوى بينها فيه بساطة المطالب أو تساويها وعلى ذلك فلا محل للحقد والبغض ، ولا داعي لسلطة أو قوة ترغم أحداً ، لأنه سوف لا يوجد من يُرغم ...

ولقد كان تولستوى عظيم الإيمان بمبادئه هذه ، فهي أعظم من أن تكون فكراً يملأ رأسه ؛ لأنها ضياء يشيع فى نفسه وينير له الدنيا ؛ هي إيمان مثل إيمان الأنبياء يملك قياده فلا يخطر قط على باله إلا أنه الحق ؛ ولذلك كم كان ألمه عظيماً أن لم يستطع أن يجعل أسرته تعيش وفق هذه المبادئ ؛ هذه هي المأساة الحق فى حياته وإليها ترد كل أسباب شقائه ...

ومهما يكن من غموض آرائه فيما يقترح لتنفيذ مبادئه ، ومهما يكن من رأى بعض الناس فى استحالة هذا التنفيذ ، فما لا ريب فيه أنها أحدثت من الأثر فى الفكر الحديث ، فى الشرق والغرب ، ما يجعلها من تلك الآراء التى يسميها المؤرخون صناعة جيل أو باعثة عصر ...

وليس من الإسراف القول إن آراءه قد أحدثت من الأثر فى نفوس أهل عصره ، ما لم تحدث أعظم منه آراء ماركس أو نيتشه أو داروين أو فرويد كل فى محيطه ؛ أما فى روسيا ، فليس من كتابها ولا من مفكرها جميعاً من مهد السبيل للينين وتروتسكى كما مهدها تولستوى ، عدو الثورات ، ومبدع مبدأ عدم المقاومة ، وإن بدا فى قولنا هذا ما قد يعد تناقضاً ...

وليس فى الأمر تناقض ما ، فهذا الرجل أول من تحدى القيصرية فى عفوان قوتها ؛ وهذا الرجل أول من تحدى الكنيسة فى أوج سلطتها ؛ وهذا الرجل أول من زعزع الملكية فى وقت كان لا يطمع فيه غيره إلا فى شيء من الإصلاح ؛ وهذا الرجل أول من بث الشجاعة فى قلوب الناس ، فى وقت كان الهمس فيه مما تخشى عواقبه ؛ ولئن كان جان چاك روسو أباً للثورة الفرنسية فإن ليو تولستوى أب للثورة الروسية العالمية ...

ولم تنطفيء شعلته بعد موته ، فهذا غاندى الشهيد كما أسلفنا ، وإن لم يكن مسيحياً ، قد أخذ سياسته في كفاحه عن تولستوى ؛ وما كان أسلوبه في عدم المقاومة ، وما بثه في نفوس أتباعه من موقف سلبي في وجه السلطة ، وما كان عزوفه عن الترف ، وما كان اعتزاله الصناعة الحديثة ، وأخذَه بمبدأ العمل في البيت ، وما كان استغناؤه أو استقلاله السياسي ، بإقلاله من مطالب الحياة ... ما كان ذلك جميعاً إلا مستمداً من أستاذه المسيحي ...

« لا تقاوم الشر بالعنف » ؛ في هذه العبارة فلسفة تولستوى الأخلاقية ، وبها قذف على المدنية الحديثة ، والدولة الحديثة ، فزرع أساسهما .

وما يستنكر العنف مستنكر من كتاب اليوم ، وما يندد مندد بالحرب وسفك الدماء ، وما يسخط ساخط على العدوان والاعتصاب ، وما يغضب ذو ضمير حي من عنق المتسلطين من الحكام ومن طغيان الطاغين ، وما يتألم متألم من ظلم اجتماعي إلا وفي نفوس هؤلاء جميعاً صدى ما صاح به تولستوى فلا تسمع العصر ... ولكن الإنسان على الرغم من ذلك كله هو الإنسان ، ولو أخذ الناس بتعاليم المصلحين ، فضلا عن رسالات المرسلين ، لما انبعثت في الأرض تلك الشرور ، وآخرها تلك الحرب الماثلة ، التي قوبل فيها العنف بالعنف ، في صورة يفرغ منها ، وكان لروسيا موطن تولستوى فيها دور خطير .. ولكن خطأ الإنسانية على كل حال لا يقدر في مبادئ رسالتها وهداياتها .



غاندى خليفه بولستوى و مبادته

obeykandl.com

آلام جديدة وكتب جديدة !

في الثالث والعشرين من فبراير سنة ١٨٩٥ ، رزىء تولستوى وزوجته بموت ابنتهما إيثان ، وكان في السابعة من عمره ؛ وقد عظم حزن الأبوين على هذا الغلام : كتبت الكونتس صباح اليوم التالي « مات ابني العزيز في الساعة الحادية عشرة ليلة أمس ؛ رباه ! إبي أعوذ بك إذ أفكر أنى لا زلت حية حتى الآن » ؛ ولقد ذرف أبوه الدمع ، وصار يقلب كفيه جزعا ، فلم كان ينظر نظرة انرجاء إلى هذا الغلام ، قائلا إنه هو الذى سوف يحمل رسالته من بعده إذا عاش ... كتبت بعد موته بثلاثة أيام « لقد دفنا فانشكا ... يا للرزء ... لا ، إنه امتحان روحي » .

وصار تولستوى يتفكر في الموت أياما بعد فقد ابنه ، حتى لقد كتب وصية وأثبتها في مذكراته كما لو كان موقنا من دنو أجله ...
وقد كان يؤمله ما يرى من جزع زوجته وألمها ، ولولا أنه كان يخشى إذ هو غادر روسيا ألا يسمح له بالعودة إليها لا ستصحبها إلى رحلة في أوروبا لعلها تنسى ...

وأثبت في مذكراته قوله « لقد قابلت أحد التمسيسين الأذكياء فأخبرها بحق مبين : ذلك أن الأمهات اللائى يشكان أطفالا يتجهن إلى الله أول الأمر ، ولكنهن بعد ذلك تشغلن شواغل الدنيا ، وعندئذ يتعدن عنه ؛ وإنه ليحذرهما من ذلك ؛ ولكن يخيل إلى أن ذلك لن يحدث لها »

ولقد صدق كلام القسيس ؛ فمالبثت الكونتس أن التمت العزاء لقلبها في مصاحبة موسيقى شاب يدعى تانيف ؛ ومالبث مؤلف « سوناتة كروتزر » أن رأى قصته تكاد تمثل في داره !

أحست الكونتس ميلاً نحو هذا الشاب ، وكانت تصغى إليه ، وتقبل عليه ثم سألته ذات ليلة عقب إحدى الحفلات في موسكو أن يصحبها ماشياً حتى منزلها وكان على سافة ساعة أودون ذلك قليلاً ؛ ثم زارته بعد ذلك في حجراته حيث كان يقيم ؛ وصار بعد ذلك يختلف كثيراً إلى دارها ؛ وكانت تخرج الكونتس صحبتته للرياضة وقد أزينت وانتقت ملابسها ...

وتهامس الناس ؛ وتهامست ماري وتانيا ، حتى الصغار فأنهم لم يحبوا أن يروا تانيف هذا في مكان أبيهم فهو لا يكاد يفارق أمهم ...
وظل تولستوي ساكناً زمناً طويلاً وإن كان ليعلم هذه الصلة علماً وثيقاً ؛ وإن كان لشديد الغيرة عظيم الحنق على زوجته ...

أما هي فلم تعد تحفل بغضبه وإن تظاهرت بالثناء له ؛ كتبت إلى إحدى صديقاتها سنة ١٨٩٦ تقول « كلما فكرت في حنق زوجي وغيرته العمياء ، أحسست بشيء كثير من الغضاضة والحجل ، ورجبت في وضع حد لهذا كله فلموت أهون من اتهاماته المسيئة إلى ، أنا التي حرصت طول حياتي أشد الحرص على ما توجبه اللياقة حتى لا يجد زوجي ولا أطفالي في سلوكي ما أخجل منه »

وظل تانيف يزور الأسرة وهو لا يدري شيئاً عما يحدثه مجيئه بين الكونت وزوجته ؛ والكونت لا يفعل شيئاً وإن غضب ، حتى كان ذات يوم سنة ١٨٩٧ يتحدث إلى زوجته فأخبرته أن تانيف قادم ليقم عندهما أياماً ؛ فصاح بها قائلاً إنه سوف يغادر الدار إن وطئها قدما تانيف ؛ ثم إنه يارح الدار إلى أخيه سيرجي ليقم عنده وهو يقسم أنه لن يعود ...

وكانت زوجته تؤكد أن صلتها بتانيف صلة أفلاطونية ؛ ولا تعبا بما يقول الناس ولا بغضب زوجها .

وعاد تولستوي إلى بيته بعد بضعة أيام ، وكأنما كانت الكونتس تثار لنفسها من زوجها لما كان من إعراضه عنها ؛ كتبت تقول بعد أن ذكرت ما تحس من إشفاق على زوجها لاعتلال صحته وتزايد نحافته ، وغيرته « ولست

أدرى ما إذا كان ذلك خطأى ؛ حينما اتصلت أسباب المودة بينى وبين تانييف شعرت أن من الخير أن يكون لى صديق كهذا فى كبرى ، فهو رجل مهذب رحيم موهوب .

وكتبت تصف حال زوجها عقب محبىء تانييف « كان مما يخيف رؤية ما فى وجه ليو نيقولا قتش من غيرة مريرة حين علم بوصول تانييف » .

ولما رحل تانييف كتبت تقول « إن ليو نيقولا قتش سعيد اليوم هادىء البال ... إن السبب الذى يدعونى من أجله ليو نيقولا قتش إلى قطع صلتى بتانييف هو تألمه ؛ ولكن مما يؤلمنى كذلك أن أفقد صداقته ؛ وليس فى هذه الصداقة إثم قط ؛ وإنى لأشعر بكثير من الفرح كلما ذكرت شعورى البرىء نحو ذلك الرجل ؛ حتى إننى لا أستطيع أن أقطع ما بينى وبينه فأبعده عن حياتى » .

وتمادت الكونتس فى غيرها ، فكتبت بعد شهر تدعو تانييف لزيارتها ، وكأنها لا تطيق بعده عنها ، أو كأنها تشعر اللذة فى إيلاام زوجها وانتصارها عليه ، وما كانت فى الواقع لتفعل ذلك ، لو كان زوجها سيد بيته ، ولو لم يكن يقيم فى هذا البيت كما لو كان ضيفاً على الأسرة .

ولم تخبر زوجها بفعلها مخافة أن تؤلمه وتسيء إلى صحته كما زعمت « ألا يعجب تانييف إذا علم ؟ ولكنى لا أملك ألا أستشعر عظيم السرور كلما ذكرت تلك الموسيقى الحلوة ، ثم ذلك الحديث البهيج مع شخص مثله مرح ذى وجهة »
ولما سمع زوجها نبأ هذه الزيارة الثانية ، صاح متعجباً ، « إنى لم أعلم بشيء من هذا » ؛ وأخذ أطفالها ينقلون إليها مايقول الناس عن صلتها بتانييف ؛ وأعلن الكبار منهم سخطهم واستنكارهم ، ولكنها لم تحفل شيئاً من ذلك ، وكتبت تقول « إنى لأفتخر أن يقرن الناس بينى وبين ذلك الرجل المعجب الموهوب المهذب ذى القلب الرحيم ؛ إن لى ضميراً صافياً ؛ وإنى لبريئة براءة الطفل الوليد فى بدنى وفى روحى ، حتى فى عقلى ، أمام الله وأمام زوجى وأمام أطفالى »

ثم قالت بعد ذلك وقد ازداد سخط أبنائها واحتجاجهم « إنهم جميعاً
يعتقدون أنى أسيرة حب ! ألا ما أقبحهم وما يظنون . إنى اليوم أكبر سنّاً من
أن أفعل ذلك ، وليس مما يشاكل سنى تلك الكلمات ولا هذه الأفكار » .
واعترزم تولستوى أن يهجر البيت ثانية ، وترك كتابين لزوجته ؛ ذكر فى
أحدهما السبب الحقيقى ، وكتب الآخر لتطلع عليه الناس إذا شاءت حتى
لا تلوك سيرتها الألسن ... على أن الكتابين لم يقعا فى يدها إلا بعد موته ...
وذلك أنه على الرغم من تصميمه لم يستطع أن يقدم على هذا العمل ، وقد
تفكر طويلاً فى عواقبه ، وما عسى أن يتحدث عنه الناس فى روسيا وفى غير
روسيا ، وأذعن آخر الأمر للبقاء مكرهاً ، وإن كان ليعتزل أسرته ، ويكتب
على كتبه وأوراقه ، وكان يؤمئذ يكتب فى الفن ماهو ؟ ولعله كان يلوذ بالكتابة
لينسى متاعبه وآلامه ...

وظلت زوجته تشكو وتسخط ؛ فتارة منه ومن إعراضه عنها ، وتارة من
بنيتها ومن أبنائها الصغار منهم والكبار ، وتارة من نفسها ، لا تهدأ ولا تستقر
على حال .

أما تولستوى فكان يكرهه فوق متاعب امرأته ، تفكره فى شيخوخته ،
لا خوفاً من الموت وإن كان شديد التعلق بالحياة ، ولكن خشية ألا يتسع
ما بقى من عمره لما يريد أن يكتب مما يجول فى خاطره من معان فى الفن وفى
غير الفن ، وكان كذلك يؤله ما يحس من وحشة وقد مات بعض أصدقائه ونفى
البعض ، وتزوجت ابنته ماري ، وخطبت تانيا ، وعما قريب تذهب إلى زوجها .

كان هذا حال تولستوى والقرن التاسع عشر يقرب من نهايته ، وهو يطل
على السبعين من عمره ؛ ولكن آلامه هذه لم تلوه عما هو من رسالته بسبيل ؛
أو تصرفه عن الكتابة ؛ فكل شيء يهون عند ذوى الرسالات وأصحاب الفن
إلا رسالاتهم وفنونهم بالضرورة لأنها وحياتهم شيء واحد ...



تولستوی قرب السبعین

obeykandl.com

كتب تولستوى ما بين سنة ١٧٩٥ ، وسنة ١٨٩٩ كتابا طويلا في الفن ما هو وما غايته ، وقصة هي ثلاثة قصص الطويلة ، وإن كانت لا تزيد حجماً عن نصف « أنا كارينينا » وتلك هي قصته « البعث » . ثم كتب قصتين أخريين هما « السيد والتابع » و « الأب سرجيوس » ولم تنشر الثانية إلا بعد موته ؛ يضاف إلى هذه مقالات كثيرة في أمور شتى ؛ كقصة لقصص موباسان ، وبعض آرائه في الدين ، والوطنية والسلام ، وكيف يقرأ الإنجيل ، وغيرها من الدراسات القصيرة ...

ونحب قبل أن نتكلم عن الكتابين أن نعرض ما كان منه حيال السلطات بسبب عدوانها علي بعض أصحابه وتلاميذه وفي مقدمتهم شيرتكوف ، واضطهادها بعض الفرق الدينية لمخالفتها الكنيسة الأورثوذكسية ...

نشطت الحكومة في تعقب كل حركة ترى فيها خروجاً على الأوتوقراطية . لأن ما كان يزعم القيصر وأعوانه يومئذ هو ما وصفه بالأحلام من نزوع نحو الحكم الدستوري ، وقد كان في القوقاز قوم جعلوا المحبة أساس علاقة أفرادهم بعضهم ببعض وعلاقتهم بغيرهم من الناس جميعاً ؛ بل بغير الناس من مخلوقات ؛ وكانت ترى هذه الطائفة واسمها : « الدوخوبر » أن الناس جميعاً سواء ، وأن الطاعة للحكومة لا تكون فيما يتعارض ومبادئهم وضمائرهم وإرادة الله ...

وكان مما يتعارض وإرادة الله في رأيهم الخدمة العسكرية . لذلك تداعوا سراً إلى اجتماع اعترموا فيه حرق أسلحتهم ، ولكن الحكومة علمت بما يتتوا فأرسلت إليهم خيلها ورجلها ، وأذاقتهم بأسها ، وقبضت على كثير منهم فألقت بهم في السجون . ثم أعقب ذلك اضطهادهم اضطهاداً قاسياً ؛ فكتب شيرتكوف احتكاماً إلى الرأي العام في كتيب وضع تولستوى مقدمة له بعنوان « الفوث » ، وقد اهتم تولستوى بهذه الطائفة لأنه كان يرى في مبادئهم ما يشبه كثيراً من مبادئه ؛ وكانوا قد علموا فعلاً بتعاليمه على لسان زعيم لهم قرأ كتب تولستوى فحرم أكل اللحم بينهم ، وجعل الملك شامعاً ؛ كما حرم مقاومة الشر بالعنف .

وما زال تولستوى يدافع عنهم حتى كفت الحكومة عن اضطهادهم ، وسمحت لمن يريد السفر بمغادرة روسيا ؛ فسافر عدد منهم إلى كندا ، وقد سمحت لهم حكومتها بالهجرة إليها .

وراح بعض أصحاب تولستوى ، ومنهم بيركوف وتريجوبوف وشيرتكوف ، يحصون ما ارتكبت الحكومة من صور العدوان ؛ ولكن الحكومة باغتت بيت شيرتكوف بالتفتيش ، واستولت على كل ما جمعوا ؛ ثم نفت بيروكوف وتريجوف إلى بلاد البلطيق ، وخيرت شيرتكوف بين أن يصحبها أو يغادر روسيا فأثر أن يغادر روسيا ليقم بإنجلترا ؛ وقد ودعه عند سفره عدد عظيم من الناس كان في مقدمتهم تولستوى .

وراح يوبندونستوف ، ومن ورائه الكنيسة والحكومة ؛ ينفون الأسر المسيحية المخالفة للأرثوذكسية إلى سيريا ويأخذون أولادهم عنوة لتعليمهم في مدارس أورثوذكسية ؛ ولجأ كثير من الفلاحين ممن أخذ أولادهم إلى تولستوى ، فكتب يلعن هذا العمل إلى صحيفة « أبناء روسيا » فخافت من نشر ما كتب وعلمت به الحكومة ، واشتد حنقها على تولستوى ؛ وعادت إلى زوجته مخاوفها من بطش يحق به ، ولكنه لم يعبأ بذلك ، ولم تجرؤ الحكومة على أن تناله بشيء .

* * *

« ما الفن ؟ » ذلك هو عنوان ذلك الكتاب الذى يضاف إلى دراساته الدينية والاجتماعية والسياسية ...

ولا بد لمن يقرأ هذا الكتاب أن يكون ملاماً بفلسفته جميعاً حتى يستطيع أن يدرك ما يذهب إليه ؛ وفي هذا الكتاب كما فى غيره خصائص عبقريته وأستاذيته . قال عنه برناردشو « ما من رجل يعرف الفن معرفة وثوق إلا تبين فيه صوت أستاذ » .

ولقد أحدث الكتاب صخباً عظيماً فى أوساط الأدباء ؛ فإن تولستوى يقول لأكثرهم بهذا الكتاب إنهم يعملون عبثاً ؛ فما كان ما يزعمون من أعمال فنية متصلاً بالفن كما عرفه من قريب ولا من بعيد ...

يجعل تولستوى الفن ثلاثة ضروب : الفن الطيب والفن الخبيث ، والفن الباطل أو الزائف ؛ ولا تقاس قيمة الفن بمقياس مجرد كـنظريات علم الجمال مثلاً ، وإنما تقاس بصلته بالناس وباللبادى السامية التى لا بد منها لحياتهم ؛ وعلى ذلك فلا يمكن تجريد الفن من الفضيلة ...

وزى فى هذا الذى يقول كيف غير تولستوى رأيه فى الفن ، وكيف بعد كما أسلفنا بعد اشتغاله بالدين وتفلسفه فى الاجتماع والسياسة عن سابق نظرته ، وجعل الفن وسيلة لا غاية ...

والفن الحق هو أن تنقل إلى غيرك ما تحس فى نفسك مما تأثرت به تأثراً عميقاً ، والفرق بينه وبين الزائف من الفن ، أن يحس الفنان حقاً فى أطواء نفسه ما يريد أن ينقله إلى غيره ، وأن يبلغ من قوة الأداء أن يؤثر فى غيره بحيث يجعله شريكاً له فى إحساسه ، ولا عبرة بالإحساس الذى ينقله من حيث ضآلته أو عظمتها ومن حيث مرجه أو حزنه ، ومن حيث عنفه أو هدوئه ؛ ولا عبرة كذلك بوسيلته فى الأداء ؛ فقد تكون كلاماً أو صوراً أو لحناً ؛ ولا بطريقة الأداء مادام أنه ينقل ما فى نفسه إلى نفس غيره ، وإنما تتجلى قوة الفنان حقاً فى كمال هذا النقل ، وكلما أكثر عدد من يشاركونه نفس إحساسه كان إلى ذلك الكمال أقرب . هذه قيمة الفن من حيث هو . أما قيمته من حيث غايته ، ففردها إلى نوع الإحساس الذى ينبعث عنه ؛ فإن كان منبعثاً عن إحساس فى المستوى الحيوانى فهو إن كان فى أحسن حالاته لا يضر ، وإن كان فى أسوأ حالاته فضرره كبير بما يفضي إليه من إلهاب العواطف وبلبلة العقل ، وإن كان منبعثاً من الشعور المسيحى الصحيح ، أعنى ذلك الشعور الحكيم العاقل ، فهو يجمع الناس على أسمى درجات الفهم والحب .

ولقد بعد الفن فى المدنية الحديثة والثقافة الحديثة ، عن ذلك الشعور الحكيم الذى أخذت به جميع الأديان من بوذية وإسرائيلية ونصرانية وإسلامية ، والذي اعتنقه أساطين الفكر فى العالم من أمثال سقراط وأفلاطون وأرسطو ،

وقد الفن بذلك وظيفته في السمو بالنفوس والعقول وأصبح ملهاة أشبه بلعبة لآعب ؛ ولئن قال قائل إن إن الفن في الأمم البدائية ضرب من اللعب فيرد على ذلك بأنه إن وصل إلى ذلك الوضع في الأمم المتعدنه ، كان دليلا على انحطاطها إلى مستوى البدائيين . . .

ولقد أصبح في أوروبا منذ النهضة فنان : فن العامة وفن الخاصة ، وبات فن الخاصة قاصراً على فئة معينة ، وقد حيل بالضرورة بينه وبين العامة لما يتطلبه من نفقات لا يطيقها العامة ، وما زال يضيق ويبعد عن الروح العالمية حتى ليحسن تسميته الفن الإقليمي ؛ ثم ازداد ضيقاً فسماه أصحابه بالرمزية وأحري به أن يسمي البيغوية ؟

وكما قل من يستجيب لفن من الفنون دل ذلك على انحطاطه ، لأن الناس ما لم تُفسد عواطفهم المدنية إنما يسيطر عليهم شعور متحد وتحركهم مؤثرات واحدة ، وعلى ذلك فالفن السامى تستجيب له تلك الروح العالمية التي لا تتأثر بزمان ولا بمكان ولا بظروف مصطنعة .

كتب تولستوى ذات مرة في مذكراته إثر قراءته صفحة لبسكال « لم أستطع أن أملك دمعى ، وتبنييت أتحادى بذلك الرجل الذى مات منذ مائة سنة . وماذا عسى أن يكون ثمت من معجزات ، إذا كان المرء حيال مثل هذه المعجزة ؟ » .

والفن الزائف هو ذلك الذى لا ينبعث عن شعور حقيقى فى النفس ، وإنما هو وليد التقليد والرغبة فى كسب المال والشهرة أو تملق عواطف الجمهور ؛ وهو يبدأ من حيث ينتهى الوحى ، وقوامه الكذب والبهرج الزائف والطلاء الخادع ؛ وحسبك أن صاحبه يحاول أن يؤثر فى النفوس ونفسه فارغة ، ويزعم أنه ينقل إليهم إحساسه وما يحس شيئاً ؛ ولقد يكون له المقدرة على التعبير فى ذاته ويبلغ فى ذلك حد البراعة ، ولكنك لا تحس فيه شيئاً من الروعة ولا من الجلال كالحلية الزائفة يعجبك بريقها وزخرفها ، ولكنك لا تلبث حتى تتبين أنها ليست جوهرة وإنما هى أكذوبة أو خدعة ...

والفن الزائف ضرر بالغ لأنه يفسد الذوق ، ويلبس الحق بالباطل
أو الصحيح بالزائف ، وبذلك يضل الشعور فيتبدل ويميت القلب فلا ينبض

* * *

في سنة ١٨٩٩ نشر تولستوى قصته « البعث » وقد بدأها كما أسلفنا سنة
١٨٩٥ ؛ ولقد ترجمت إلى اللغات الأوروبية ، وذهب لها صيت عظيم وقال عنها
أكثر النقدة إنها وحدها تكفي لأن تسلك تولستوى في أعظم الفنانين من كتاب
القصة ؛ وقد بيعت منها آلاف النسخ ؛ ولكن تولستوى لم يأخذ منها قرشاً
واحداً ، وإنما جعل ما جاءت به من المال جميعاً لإعانة أولئك الذين رحلوا إلى
كندا من « الدوخوبر » ؛ وقد جاءت من إنجلترا وحدها بثلاثة آلاف من
الجنبيات ثمناً للطبعة الأولى .

وتدور القصة حول تلك الفكرة التي عبر عنها من قبل وهي أن الرجل
إذا ترك امرأة تغشاها فعليه إثم ما ننحدر إليه من الرذيلة . .
أما فكرة القصة ، فقد بعثها في نفسه تذكره ما كان منه في صدر شبابه
من إغوائه إحدى الخاديات ؛ ثم إن أحد أصحابه قص عليه نبأ امرأة بريئة
اتهمت بالقتل في إحدى المحاكم ، فضم هذا إلى ذلك وبنى منها القصة ...
عرف نخليو دوف أثناء جلوسه ذات مرة عضواً في هيئة المحلفين في إحدى
القضايا ، في بغي متهمة بجرمة قتل نكراء ، تلك الفتاة الجميلة البريئة كاترينا
ما سلوفا التي أغواها منذ عشر سنوات فاستلبها أعز ما كانت تحرص عليه ؛
واستيقظ ضميره فإذا به يشعر شعوراً روحياً عجيباً يملك زمام حياته وكأنه ولد
من جديد ...

وزارها نخليو دوف في السجن بعد الجلسة ، وهاله إعراضها عنه وعنفها
عليه ؛ ثم أتى لها بأحد المحامين وحاول أن يتزوجها فرفضت ، وآثرت أن
تذهب إلى المنفى مع سيمنسن التائر الذي عرفها في السجن وأحبها والتي أحست
نحوه بالاحترام ؛ ولما حانت ساعة الرحيل وودعته ما سلوفا أحس أنها تحبه وأنها

تضحى بنفسها للمرة الثانية حتى تدعه حراً يتزوج من يشاء فإن زواجه منها يلحق به العار؛ ومع أنها كانت تحس الفرح في نفسها بهذه التضحية، فقد تألمت ألماً شديداً عند فراقه دون أن تطلعه على شيء .

هذه هي الحكاية؛ أما القصة فلن تعرف إلا أن تقرأ؛ فهي بحق إحدى روائع هذا الفن، واثن كانت دون « الحرب والسلام » و« أنا كارينينا » إلا أن فيها مواقف لا تقل روعة إن لم تزد أحياناً عما في أختها؛ ثم إنها في جملتها تفوق في جملها وقوتها مئات مما كتب في عصرها من القصص ولو عدت أحاسنها لكانت من بينها بلا ريب .

أما نخيلودوف فهو تولستوى؛ وهو آخر ما صور به الكاتب نفسه في قصة كبيرة؛ ونرى هنا تولستوى في العقد الثالث كيف يحاول مرات أن يغير ما بنفسه ويتخلص من آثامه، ثم لا يلبث أن يدعن كل مرة لمغريات الحياة وفي القصة وصف رائع لصراعه النفسي بين مطالب الجسم ونوازع الروح؛ وفيها كذلك صور بهيجة لأيامه الأولى، أيام الهوى والشباب؛ وفيها عدد عظيم من أروع شخصياته وفي مقدمتها ماسلوقا؛ وإن المرء ليعود إلى قراءة القصة المرة بعد المرة مشوقاً إلى ماسلوقا مصاحباً لها بخياله وقلبه في السجن حتى ايتصورها كأنها امرأة عرفها في الحياة ويتصور السجن كما يتصور مكاناً زاره بنفسه؛ وفيها كثير من آرائه الجديدة أجراها على لسان نخيلودوف فإن نخيلودوف يرغب في إصلاح المعايير الاجتماعية القائمة، ويرغب في توزيع أرضه على الفلاحين؛ وهو يقول لأحد أصهاره « ما القانون إلا أداة للاحتفاظ بالوضع الراهن لمصلحة طبقتنا »؛ وهو يشير إلى أن الحب ينبغي أن يكون أساس العلاقة بين الناس، وما لم يفطن الناس إلى ذلك فلاسلام بينهم، إلى غير ذلك من فلسفة تولستوى وآرائه ثم إنه حمل فيها على الكنيسة وسخر من بعض الطقوس والشعائر، وصور يوبندونستوف صورة كريمة في شخص قسيس كبير اشمأز نخيلودوف من السلام عليه، الأمر الذي سوف يشتدله حنق هذا المتسلط والذي لن يفره لتولستوى

أما قصته « السيد والتابع » فهي تقع في قرابة سبعين صفحة ، وتدور حول التضحية ونبذ الأنانية ، وموضوعها مثل موضوع قصته « موت إيفان إليتش » وفيها كثير من تجاربه الماضية في أول شبابه وما خبر من الحياة . بيد أن أهميتها تقوم على ما جاء فيها من آرائه عن الموت والحياة ؛ فنحن نلقاه رجل يقرب من الموت ولكنه لا يخاف ، ويجد الحياة الحق في أن يعيش عيشة الإخاء والمحبة مع من يتصل بهم من الناس . فإن السيد وهو تاجر قروي قد دهمته وتابعه عاصفة ثلجية وضلا عن طريقهما ، ولما كان السيد متذثراً بالملابس ، ولما كان جسمه من الشبع ممتلئاً بالحرارة ، فقد ألقى بنفسه فوق تابعه ليدفنه ، وتعرض هو للثلج ؛ ولما أصبح الصبح وكشف الفلاحون عنهم الثلج وجدوا التاجر قد أشرف على الموت ؛ ولكنه كان مرحباً بحس القبطة في أعماق نفسه ؛ فقد نجا تابعه من الموت المحقق ... أربى على

وتقع قصته « الأب سرجيوس » في نحو ستين صفحة ، وتعد من أعظم القصص الصغيرة في أدب العالم ؛ وهي من حيث الفن قصاري ما بلغه فنه في سنواته الأخيرة ؛ ويمثل الأب سرجيوس إلى حد ما القس أمبروز كما يمثل قسا آخر يدعى أنطوان وقد كان من قبل فارساً في الحرس القيصري ؛ كما أن فيه جانباً من تولستوى نفسه أثناء كفاحه النفسى ضد الغرور والشهوة ...

كان سرجيوس ضابطاً وجيهاً في الحرس ؛ ثم أصبح قسا وأعرض عن الدنيا ، وأخذ يسمو على الغواية ، وبلغ من عزيمته أن قطع أحد أصابعه حتى لا يذعن لغواية فتاة لعوب تحذته أن تغويه وراهنته ؛ وأصبح قديساً يصنع العجائب في معالجة الأمراض ؛ وتبدأ مأساته حين يقع في شرك بنت غير جذابة أحضرها إليه أبوها ليعالجها ؛ ثم يخرج إلى الدنيا فيضرب في الأرض متسولاً ليتعلم الخشوع الصحيح ، وينتهى به الأمر إلى أن يعمل خادماً في سيبيريا لأحد الفلاحين ابتغاء التوبة .

وقد كتب تولستوى هذه القصة فى إيجاز وعمق فهم ، وبلغ فيها ذروة الفن حتى ليعدها النقدة كما ذكرنا إحدى روائع القصة القصيرة ؛ وكان يفتن صاحبها إلى ما فيها من جمال وروعة حتى لقد فاه ذات مرة على شدة كرهه للتحدث عن آثاره ، وقد كان يقرأ جوركي فصلا منها على بعض جلسائه « حقاً لقد أحسن الرجل الهرم كتابتها » .

* * *

كان تولستوى يلتقى الناس فى بيته فيتحدث إليهم فى كل موضوع ؛ وكان يلاطف محدثه ليزيل من نفسه كل تهيب كى يقول ما يريد ؛ وكان يزوره كثير من الطلاب ومن رجال الثقافة فيستمعون إليه ، وينظرون إليه فى ملابس الفقراء ، وقد ابيضت لحيته وتغضن وجهه وكأنهم بين يدي قديس ، وكان يجعل كلامه أبداً فى مستوي أفهام الحاضرين من زائريه . يجب أن يكون واضحاً يسيراً كى ينقل إليهم آراءه كما يفهمها وشعوره كما يشعره فى غير نقص أو زيادة . وكان حريصاً على تواضعه وخشوعه خارج داره حرصه عليهما فى داخلها . وقف ذات مرة بإحدى المحطات فنادته سيدة تحسب أنه فلاح ، وطلبت إليه أن يحمل رسالة إلى زوجها فى حجرة الاستراحة ؛ ولما فعل ذلك أعطته بعض دريهمات ؛ ثم سمعت أحد الناس يخاطبه بلقب الكونت ، وما لبثت أن علمت أنه تولستوى ؛ فاشتدت ربكتها ، ثم سألته أن يرد النقود فضحك وقال كلا : هذا مال كسبته ...

وذهب ذات مرة لزيارة نائب حاكم تولا ، فلم يجده ولكن رئيس الشرطة هناك بالغ فى تميته والإجلال له وسعى بين يديه ، وكان لا يفتأ يخاطبه بصاحب السعادة ؛ وأراد تولستوى أن يشتري تذكرة السفر بنفسه ، ولكن الضابط ألح عليه أن يشتريها له فرضى مكرهاً ، وسأله الضابط أى درجة يريد؟ ثم قال فى لهجة الواثق : « عربة خاصة على الأقل يا صاحب السعادة » ، وكان تولستوى يريد الدرجة الثالثة ولكنه أراد أن يخفف دهشة الضابط فقال : أريد الدرجة الثانية .

وذهب لزيارة عظيم ، وكان في ثوبه المتخذ من جلد الماعز ينتعل مثل نعال الفلاحين ؛ فاشمأزت الخادم منه ولم يكن سيدها بالبيت ، واقتحمته نظرتها فقال لها في تواضع : أرجو أن تخبري سيدك أن تولستوى جاء لزيارته ؛ وأخذت الفتاة تعتذر إليه فسرى عنها وانصرف .

وكانت رياضته المشي ، وركوب الدراجة ، وكانت شيئاً حديثاً في روسيا يومئذ ؛ ولعب التنس ، وكان يلعب في خفة ومهارة وقد قرب من السبعين ؛ أما في البيت فكان يستمع إلى الموسيقى أو يلعب الشطرنج ... وعظم صيته في روسيا ؛ وسمت منزلته حتى ما يعالوه في أذهان الناس إلا القيصر ، أما الذين لا يؤمنون بالقيصرية فكانوا يرونه أعظم رجل في روسيا كلها .

دعاه أحد العلماء سنة ١٨٩٤ إلى محاضرة علمية في موسكو ، فتردد لأنه لا يحب الظهور في المجتمعات وما زال صاحبه به حتى قبل ؛ ولما ذهب إلى هناك لم يكن في المكان مقعد فأجلسوه على المنصة ، وما أن علم الناس ، وما أن رأوه حتى أخذوا يصفقون في حمس شديد ، ونهض تولستوى في ملابسه القروية ، وأخنى لهم رأسه ، فعادوا يصفقون طويلاً ، وازدادت حماسهم له ، وأقبل عليه العلماء يحيونه ويعبرون له عن احترامهم له وتبجلتهم لشخصه ، وذلك على الرغم مما هاجم به العلم الحديث والعلماء من قبل ، والناس يزدادون تمسكاً بهم كأنهم حيال زعيم عظيم ؛ مع أنه قلما حضر اجتماعاً من قبل ؛ ودهش تولستوى من الملابس الرسمية ، وقال لصاحبه بعد الاجتماع إنها لم تكن محاضرة علمية وإنما كانت كرنفالاً علمياً .

ولما مثلت في موسكو مسرحيته « قوة الظلام » هرع إلى داره مئات من المثقفين ومن الطلبة يظهرون له شديد إعجابهم بها ، وكان يتلقاهم مسروراً ؛ وكانوا يعجبون بما يرون من حياته وتواضعه .

أما صيته في أوروبا وأمريكا ، فتدل عليه آلاف الرسائل التي كانت تنثال

عليه من الكتاب والشعراء ورجال الفكر من كل سن ؛ وكان يرحب تولستوى بالرد على كل شخص يحس أنه تأثر بتعاليمه فيجيبه عن كل ما يسأل ويتخذ منه على البعد صديقا وتلميذاً .

وكان زائرو روسيا من الأجانب ينهبون لرؤيته في موسكو أو في ياسنايا ؛ ومن سافر منهم دون أن يراه كان يعد ذلك من سوء حظه ، وكان ينجح من ذكره لبني قومه ...

كان كثيرون من الأوروبيين والأمريكيين يسافرون إلى روسيا لرؤيته ، وما زاره قط إنسان إلا تعلق به وظل محباً له طول حياته .

ولقد قرأت الكاتبة الأمريكية النابذة « جان آدمز » كتابه « ماذا يجب إذا أن نصنع » ، وكانت تعني بالفقراء ، وأقامت عدة مرات لخدمتهم ومعونتهم فحملها إعجابها به على السفر إليه من شيكاغو ، وقد تأثرت برؤيته تأثراً عظيماً كأنها منه حيال أحد القديسين ، وعادت إلى وطنها تذيع مبادئه وآراءه .

على أنه لم يسلم من خصوم له راحوا يسخرون منه في وطنه ، وقلماسم مصلح من أمثال هؤلاء ؛ وكان خصومه في الجمع المقدس خاصة ، وكان كبيرهم بوبندونستوف ؛ وقد نشروا كتباً يتهمونه فيها بالجنون والمروق من الدين ؛ فأعرض عن أذامه ، وهو الذي يدفع السيئة بالحسنة ويدعو إلى عدم المقاومة ... وتلقي سنة ١٨٩٧ كتباً يتهدده فيها مرسلوها بقتله لكفره وفسوقه ، وانزعجت زوجته ، ولكنه لم يعبأ بشيء ولم يتخذ أية حيلة لنفسه .

عقاب وثواب !

أهل على الدنيا قرن جديد هو عصر العلم المدمر والعنف الباغى ، والشرف المتخلف ، وتولستوى فى الثانية والسبعين ، نبى تخلف فى الدنيا من عهد كونفوشيوس يدعو إلى الحبة والسلام ، وينذر الناس أن يقابلوا عنفاً بعنف ...

ولكم ندد بالحرب حتى لم يدع بعده قولاً لقائل ، ولكم صرخ فى وجه الحكومة بأن لا حكومة حتى يعيش الناس عيشة الإخاء ؛ ولكم دعا الناس أن ينبذوا ما يدعونهم من وطنية هى من بواعث الشر وأن يتجأوا جميعاً فى مشرق الدنيا ومغربها ؛ ولكم أنذر أصحاب المال أن ما يملكون من مال أكبر أسباب البغى والاسترقاق والحرب ؛ والنجاة فى أن ينفضوا أيديهم من هذا الشر ويعملوا ليعيشوا ... ولكن هذا النبى المتخلف من الماضى البعيد أو هذا الحوارى الثالث عشر للمسيح كما سماه بعض الناس ، لا يستطيع أن يهدى العالم المتوثب الضال ...

على أنه يتفكر فى عشيرته الأقربين فيؤلمه أشد الألم أنهم لم يستجيبوا له ، وهذه امرأته كم خوفته بأن تقتل نفسها إذا هو وزع على الناس ما يملك أو إذا تنازل عن حقه فى طبع كتبه ! وأى ألم أبلغ من هذا فى نفس هذا الذى أراد أن يغير الدنيا ؟

وإنه لينظر فى نفسه فهل هو راض عن نفسه ؟ لقد لبس ملابس الفقراء ليشعر الناس بالمساواة ، وعمل بيديه كيلا يحتقر الناس العمل ؛ ولكن هل هو فلاح مؤمن حقا ؟ هل هو إسكاف حقا ؟ كلا إنه لا يزال الكونت تولستوى على الرغم من هذا كله ، وإلا فما هذا القصر الذى يعيش فيه وما هذه النعمة التى يتقلب فيها أهله ؟

« قد يبدو ما أنا فيه من وضع زائفاً في نظر الناس » هذا ما قاله سنة ١٨٩٨ ،
ولقد أثبت بعد ذلك بعشر سنوات قوله « لو أنني علمت عن رجل أجنبي أنه يعيش
مترفاً ، ويأخذ كل ما يستطيع أخذه من الفلاحين ، ولا يبالي إذا قبض عليهم ،
في حين أنه يزعم أنه مسيحي وأنه يعلم مبادئ المسيحية ، ولا يعطى الصدقة
إلا دريهمات ، ويستتر خلف امرأته من عواقب أعماله الخميرة ، فإني لا أتردد
أن أسميه صعلوكاً » ... وقال في موضع آخر يسأل نفسه « أتعيش حقاً وفق ما تعلم
من مبادئه ؟ .. كلا ! .. إنني لشديد الخجل وإني لآثم وإني لجدير بالاحتقار »
ولكن ما الحيلة ؟ لقد حاول الفرار مرتين ليعيش مع الناس واحداً من
الناس ، ولكن ضعفه أمام ما تنذر به امرأته يعود به إلى بيته ... ما حيلته
في هذا الضعف ؟

ومن أراد أن يقف على ما كان يصطرع في نفسه ، فليقرأ قصته « الأب
سرجيوس » ، ولينظر كيف كان هذا القس ، وقد أحاط به مريدوه يسأل نفسه أهو
يعيش عيشة القديسين عن باعث مقدس حقاً مرده إلى الله أم أنه يفعل ذلك بدافع
ما ألقاه الشيطان في نفسه من غرور مرده إلى الرغبة في تحدث الناس عنه وعن
مقدرته وصلاحه ؟ وما كان عذاب سرجيوس بنفسه إلا عذاب تولستوى ...

ولكن الناس يحيثونه ليرشدهم ويهديهم ؛ وإن عامة الناس ليرون فيه قديساً ؛
وإن خاصتهم لينقسمون في أمره قسمين ، ففريق يؤمن به ويراه أعجوبة العصر ،
وروح الخير متجسدة وسط مظاهر الشر لتكون في هذه الدنيا عزاء للموقنين
وبرهاناً على أن الخير في الدنيا مستطاع لولا ما يصنع الإنسان بالإنسان ؛ وفريق
يراه أسطورة لا أكثر من ذلك ...

وهو بين هؤلاء وهؤلاء رجل فذ على أية حال ؛ وقد اتضحت في وجهه
وقد علت به السن سمات الأبرار ، فحول شفثيه ابتساماً رقيقة ، وفي عينيه وداعة
وهدوء ، وفي محياه ضراعة تشبه أن تكون مسكنة ، وفي وجهه المتفضن المصفار

ولحيته العريضة البيضاء ما يبعث الهيبة والحبة في النفوس ...
وإن هدوءه لهدوء اللاغب الذي أجهده طول التأمل وطول العمل ، وطول
صراعه الداخلي بينه وبين نفسه ...

وهو اليوم يعاني المرض والأوجاع ؛ ولقد اشتدت عليه وطأة العلل في آخر
سنوات القرن المنصرم حتى لقد أوشك أن يودع الدنيا مع ذلك القرن ؛ وإنه
ليتفكر في الموت ويوطن نفسه كما يقول على ملاقاته في أى وقت ...
ولم يكن أحسن حالاً أول القرن الجديد إن لم يكن أسوأ ، فما زالت الأسقام
تلح على بدنه حتى ليحس ضعفاً شديداً يكاد يقعه ؛ ولقد عاوده مرض كبده الذي
كان ينتابه قديماً ؛ وإن صديقه تشيكوف ليحار في أمر مرضه ولا يستطيع
أن يقول ما هو ...

فإذا زالت عنه أوجاعه خيل إلى أصحابه أنه عاد إلى سالف حيويته ونشاطه ،
ولكنه في الواقع كان يشعر أن فيه ضعفاً وإن كان لا يزال يجرى ويسبح في الماء
ويركب الدراجة ويلعب التنس ، ويؤدي كل صباح قسطاً من الحركات الرياضية ،
ويعشى مسافات طويلة ...

وما أبل تولستوى من مرضه إلا عاد إلى الكتابة ، فإن الحنين إلى الفن
موهبته الحقيقية كما قال ترجنيف ، كان لا يفتأ يعاوده طالما كان يستطيع أن يشرع
القلم ؛ ولذلك كان لا يفرغ من مقال أو بحث إلا أقبل على عمله الأصلي
وهو الأدب ...

وهكذا يعود أعظم كتاب القصة في القرن التاسع عشر إلى كتابة القصص
والمسرحيات في القرن العشرين ، ولا تزال للأسد الهرم قوة مخالبه ...
وما ذا يتخذ اليوم موضوعاً لفنه ؟ إنه يتم قصة عن حياة بعض أهل القوقاز
هي قصة « الحاج مراد » التي كتب قدراً منها سنة ١٨٩٦ والتي أراد أن يتمها
سنة ١٩٠١ ولكنه لم يكتب نهايتها إلا سنة ١٩٠٤ ؛ وإنه يكتب في نفس

الوقت مسرحية سماها « الجثة الحية » ؛ ومايتها حتى يكتب أخرى تحت عنوان « النور يضيء في الظلام » هذا إلى بعض الأفاضل الصغرة يشرح بها فكرة أو يعلق على حادث . . .

وكانت قصة « الحاج مراد » تصف جهاد المسلمين في القوقاز للتخلص من الروس ، ولذلك جاء فيها أسماء عربية أبقاها المؤلف كما هي وكتبها بالروسية حسب نطقها ، كالمرشد والمريدين والإمام والغزوات ، والشريعة ، والطريقة ، وغيرها ؛ وأعلام عربية كالحاج مراد وجميل بك ، ومحمد وحمة ؛ وفي القصة كثير من صور البطولة القائمة على النجدة وإنكار الذات في سبيل العقيدة .

ولقد شهد تولستوى الحاج مراد سنة ١٨٥٦ ؛ في تفليس أيام كان يمتحن لالتحاقه بالجيش ، وكتب إلى أخيه سيرجى يصف له إذعانه للحكومة الروسية .

في أبريل سنة ١٩٠٠ حين اشتدت وطأة المرض على تولستوى وظن أنه لن ينهض منه ، أرسل المجمع المقدس بوحى من بوبيد ونستسوف إلى الكنائس سراً بالأقيام شيء من صلاة أودعاء أو غيرها من الطقوس على تولستوى إذا مات ولم يتب ويستغفر عن ذنبه ويعترف بالكنيسة الأورثوذكسية ، حتى يكون في ذلك عبرة لغيره وموعظة للناس . ولكن تولستوى لم يتب ولم يمت ، وباء بوبيد ونستسوف بالخيبة .

لم ينس بوبيدونستسوف ماجاء في قصة « البعث » من حملة علي الكنيسة ، ولم ينس سخرية تولستوى من صلواتها ولم ينس « توبوروف » تلك الشخصية التي تمثل الغباء والادعاء ، والتي قصد بها تولستوى بوبيدونستسوف نفسه ...

لهذا ما زال بوبيدونستسوف يسعى سعيه لدى السلطات حتى ظفر بموافقتها على معاقبة تولستوى ؛ وكان هذا العقاب حرمانه من رحمة الكنيسة في فبراير سنة ١٩٠١ ، وذلك على الرغم من أن تولستوى كان يحمل علي الكنيسة منذ عشرين عاماً . . .

وفي صباح اليوم الذي صدر فيه ذلك العقاب ، كان تولستوى صحبة صديق له يزور أحد الأطباء في موسكو ؛ وعرفه الناس في أحد الميادين فسرعان ما اجتمعوا حوله متزاحمين يحيونه ، ثم تعالت أصواتهم بالهتاف له وهم يلوحون بقبعاتهم ؛ وعظم الزحام وامتد حتى تعذر السير ؛ وأخذت تولستوى حيرة ودهشة ، وحاول أن يصل إلى عربة تقفه فما استطاع ذلك زمناً طويلاً ؛ ولما جاء له صديقه بعربة حال بينه الناس وبين ركوبها ، وظلوا يهتفون باسمه ويعظمون حرية الفكر والشجاعة في الحق ، والمروءة والإنسانية والمحبة ، وغيرها من مبادئ تولستوى ، حتى جاء عدد من فرسان الشرطة فأفسحوا له الطريق في عسر شديد . وكانت هذه المظاهرة الرائعة أبلغ رد على يويدونستسوف ، وأقوى برهان على قصر نظره فقد جعل منه شهيداً ، وقد أجفل من ذلك الاسكندر الثالث من قبل

وقد كان يويدونستسوف يغري به بعض السفهاء قبل الحرمان ، فكانوا يؤذونه بسفههم وكان يقابل ذلك منهم بالحلم ؛ واقدم كان يلقاه أحدهم فيقول : هذا هو الشيطان في صورة بشر ، فينتسم له تولستوى ويعرض عنه .

وكان تولستوى يرحب بالأذى ، ويتحدى السلطات ، لأنه كان يوقن أن ما يلحقه من أذى إنما يعطف عليه القلوب ، ويزيد الناس تعلقاً به ، فلما صدر هذا الحرمان ، ودوي في روسيا كلها وفي العالم كله ، اتجهت أذهان الملايين إلى تولستوى ورسائله ؛ ولعل تولستوى بينه وبين نفسه قد شكر يويدونستسوف سوء ما صنع !

وأقبلت الألف على بيت تولستوى من كل نبط ومن كل طبقة ، واثالت عليه البرقيات والكتب من كل جهات العالم^(١) ، حتى الهدايا فقد كان بعض الناس يرسلون إليه منها ما يعرفون به عما في قلوبهم .

(١) أرسل إليه الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده كتاباً هنا نصه .

« أيها الحكيم الجليل السيو تولستوى .

لم نخط بعرفة شخصك ولكننا لم نخرم التعارف مع روحك ، إذ سطع علينا نور من =

وكان يزدحم بيته بالآلاف من الطلبة المتحمسين الذين كانوا يرون في كتاباته دعوة عامة للانطلاق من القيود؛ وكانت صورته الشهيرة التي رسمها الفنان رابين معروضة في بطرسبرج، فكان المئات من المعجبين يمرون بها، وقد زينها الشعب بالزهور من كل جانب؛ وتداولت الأيدي سراً قصتين سخر بهما واضعهما من الحكومة عامة ومن يوبندونستسوف خاصة، وأقبل الناس عليهما إقبالا عظيما؛ وكان عنوان الأولى « الأسد والحُر » وعنوان الثانية « الحمامات المنتصرة ». وتدخلت الحكومة لتمنع مظاهر الخفاوة به فأزيلت الصورة المزينة بالزهر، واستبعدت كتبه من المكتبات العامة، ومنعت الصحف أن تنشر أى نبأ عنه، حتى البريد والبرق، فقد أمر عمالها أن يرفضوا برقيات التهنية!

ولقد اشتد حنق الكونتس على الحكومة، وكتبت رسالة احتجاج شديدة أذاعتها في روسيا وفي خارج روسيا؛ ولكن تولستوى لم يأبه لما فعلت الحكومة وكأنه لم يعلم من ذلك شيئا ...

وعلى الرغم من شدة إنكاره الثورات لأنها من أعمال العنف، كان الأحرار ينظرون إليه نظرتهم إلى أحد قادة الحرية، وذلك لأنه خاصم الدولة والكنيسة، وأراد أن يقوض بنيانها ...

ولقد أذاع تولستوى بعد شهر من حرمانه رداً على الجمع المقدس خلاصته أنه لن يدين إلا بما يعتقد أنه الحق، وما يملك أن يدعن لغير ما اطمان إليه قلبه

= أفكارك وأشرقت في آفاقنا شمس من آرائك ألفت بين نفوس العقلاء ونفسك؛ هداك الله إلى معرفة سر الفطرة التي فطر الناس عليها، ووقفك إلى الغاية التي هدى البشر إليها، فأدركت أن الإنسان جاء إلى هذا الوجود لينبت بالعلم ويشر بالعمل، ولأن تكون ثمرته نعباً تراتح به نفسه، وسعياً يبقى به ويرق جنسه، وشمرت بالشقاء الذي نزل بالناس لما انحرفوا عن سنة الفطرة، وبما استعملوا قواهم التي لم ينجحوا إلا ليسعدوا بها، فيما كدر راحتهم وزعزع طمأنينتهم .

ونظرت إلى الدين فخرقت حجب التقاليد ووصلت به إلى حقيقة التوحيد، ورفعت صوتك تدعو الناس إلى ما هداك الله إليه، وتقدمت أمامهم بالعمل لتحمل نفوسهم عليه، فكما كنت بفولك هادياً للمقول، كنت بعملك حائناً للعزائم والهلم وكما كانت آراؤك ضياء يهتدى به الضالون، كان مثالك في العمل إماماً يقتدى به المسترشدون .

وعقله ومما جاء فيه قوله « إني أحب الحق أكثر مما أحب أي شيء في هذه الدنيا ؛ والحق عندي حتى الآن هو ما يطابق المسيحية كما أفهمها ؛ وإني لأتعلق بهذه المسيحية ، وبقدر تعلقي بها يكون هدوء نفسي وسعادة روحي ؛ وبهذا الهدوء وهذه السعادة أقرب من الموت » .

ولم يكتف تولستوى بالرد على الجمع المقدس ، فأذاع نداء للقيصر وحكومته يدعو فيه إلى المساواة بين شعبه وإلى احترام حرية العقيدة وحرية التعليم ، فإن في ذلك السلامة والأمن ؛ واختتم نداءه الجريء بقوله « إنك إذا فعلت هذا ، فبه وحده يصبح مقامك آمناً وتصبح قوياً حقاً » .

* * *

وفي يوليو سنة ١٩٠١ رحلت العلة بتولستوى ولزم فراشه ؛ ولم تدعه الكونتس فيما هو فيه من أوصابه ، وذلك أنها كانت قد علمت بتلك الوصية التي كتبها من قبل ، وعلمت أن ابنته ماري حملت إليه نسخة منها وهو في سريره ليضع عليها إمضاه ، فأسرعت إلى حجرتها فقابلت ماري خارجة منها ، فطلبت منها الوصية ، وراحت تعنفها وتتهمها بالنفاق وتصرخ في وجهها مهتاجة ، ثم دخلت على زوجها صارخة شاكية في حال من أعنف حالات هياجها ، وطلبت إليه الوصية باكية صاخبة ، فلم يجبها إلى طلبها فازداد بكأؤها وهياجها ؛ ورأت ماري ما أحدثه ذلك من سوء الأثر في أبيها ، فقد ازداد وجهه اصفراراً وكادت تنقطع أنفاسه ، وازدادت نبضات قلبه سرعة ، ودنا منه الموت .

ولما رأت أنها لا تكترث لذلك ولا تفتأ تكرر عزمها على الانتحار ، ناولتها الوصية فزقتها ؛ ولقد أثر ذلك أسوأ الأثر في نفس تولستوى وبدنه ، حتى لقد عد نجاته من الموت أعجوبة ؛ أما الكونتس فقد حسبت أنها بلغت ما أرادت ، ولكنها لم تكن تعلم أن نسخة من الوصية كانت مع ابنها سيرجي وأخرى كانت مع شيرتكوف .

ولما تحسنت حال تولستوى بعض الشيء أشار عليه الأطباء أن يسافر إلى

القرم ليقضى الشتاء هناك ؛ وصحبه زوجته وابنته الكسندرا في نهاية أغسطس إلى يالتا ؛ وقد وضع وزير السكة الحديد عمربة سفر خاصة تحت تصرفه حرصاً عليه من التعب ؛ ونزل تولستوى في دارة إحدى صديقات زوجته وظل هناك حتى شهر يونيو سنة ١٩٠٢

وفي يالتا استأنف تولستوى الكتابة في قصة « الحاج مراد » ؛ وكان يقيم على مقربة منه مكسيم جوركى وكذلك كان يقيم تشيكوف في يالتا منذ بضع سنين ؛ وكثرت زيارتهما للكاتب العظيم ؛ ولقد كان تولستوى يحب تشيكوف ويعطف عليه ويؤمن بموهبته ويثني على مقدرته وذوقه ؛ ولم يكن يظفر جوركى منه بمثل هذا الرضاء ؛ وقد قال عنه « إنك تستطيع أن تخترع أى شيء إلا السيكولوجى ؛ وكثيراً ما يقع الإنسان على هذا الاختراع السيكولوجى فيما يكتب جوركى ، وذلك لأنه يصف ما لم يحس قط » .

وفي يناير سنة ١٩٠٢ أرسل تولستوى من يالتا كتاباً إلى القيصر نيقولا الثانى خاطبه فيه بقوله « أخى العزيز » وراح تولستوى في جراءة لا يستطيعها غيره يذكر القيصر بمساوى الأوتوقراطية ، كما راح يحمل على الكنيسة الأورثوذكسية ؛ ولم يدع تولستوى نقيصة من نقائص حكمه إلا أحصاها « ابتداءً من إجابتك التى أثارت استنكار الشعب الروسى كله وهى التى وصفت بها أعظم رغباته الشرعية بأنها حلم من الأحلام إلى عنادك وتمسكك بالعقوبة البدنية على ما بسط لديك من أسباب للقضاء على هذا العمل السخيف ، الذى لا معنى له ، والذى هو تجمد لشعور الشعب الروسى » .

وقد حمل تولستوى هذه الرسالة الغرندوق نيقولا ، ليعطيها للقيصر ، وكان قد زاره هذا الغرندوق في يالتا وأظهره الود والاحترام قائلاً إن ضيعته هناك رهن مشيئة الكاتب العظيم إذا أحب الرياضة أو الإقامة فيها .

وما من دليل على مكانة تولستوى يومئذ في وطنه أبلغ من أن يحمل هذا الغرندوق كتابه إلى القيصر فيقرأه القيصر على ما فيه من جراءة ولا يفعل بكتابه شيئاً ! ...



تولستوى فى الخامسة والسبعين

obeykandl.com

وحدث أن ساءت صحة تولستوي ذات مرة في يالتا وظن أهله أن الموت مدرکه
لا محالة . فكانوا يقومون إلى جانب سريرہ ، كل منهم مدة معينة ؛ وبلغ ذلك
المجمع المقدس فأخذ يذيع أن الكاتب العظيم قد عاد إليه صوابه عند احتضاره ، وأنه
عاد إلى الكنيسة الأورثوذكسية ، وأرسل المجمع قسيساً إلى يالتا ، فطلب الدخول
على الشيخ المحتضر ؛ ولكن تولستوي أبل من مرضه ، ولما علم هذه الأنباء
على لسان ابنه سيرجي تبسم ضاحكا وقال « أيستطيع هؤلاء السادة أن يفهموا
أنه حتى في وجه الموت إذا أضيف اثنان إلى اثنين فلا يزال مجموعها أربعاً ؟ »
ولقد كان يمزع تشيكوف جزعاً شديداً كلما اشتد المرض على تولستوي ؛
كتب ذات مرة إلى أصدقائه فقال « إني أخاف موت تولستوي ، ذلك أنه إذا
مات أحدث موته فراغاً عظيماً في حياتي ؛ فإني لم أحب إنساناً قط كما أحبته ؛
ولست مؤمناً ولكني أرى عقيدته أقرب العقائد إلى قلبي ؛ وفضلاً عن ذلك
فإن وجود تولستوي في دنيا الأدب يجعل من السير ومن الممتع أن يكون
الإنسان كاتباً ؛ حتى ولو تفتن المرء إلى أنه لم يفعل شيئاً وأنه ليس بفاعل ،
فليس ذلك بالخطب الجلل طالما أن تولستوي يصنع ما يفنى عن الجميع ؛ وتحقق
مؤلفاته الآمال التي ترجى من الأدب ؛ ولتولستوي ثبات عظيم وسلطان كبير ،
وما دام حياً انتفى من الأدب كل غث من الكلام وكل فاسد من الذوق ،
وبعد عنه كل ادعاء كاذب ؛ وسوف يحفظ سلطانه للأدب مستواه العالي ؛
وبغيره ترى الأدباء قطعاً بغير راع ، والأدب خليطاً لا تقم فيه على شيء »
وكان يرى أهل يالتا الكاتب العظيم في عربة يدفعها ابنه سيرجي ، وهو يقرأ له
رسائله أو بعض فصول قصته « الحاج مراد » ؛ فإذا أوى إلى منزله أمل عليه
أو على ألكسندرا صفحات جديدة فإنه يجب أن يفرغ من هذه القصة .
وكان إذا عادت إليه عافيته يمشي على قدميه خفيفاً نشطاً ، فيبدو وهو في
الرابعة والسبعين وكأنه في أول كهولته .
ومرضت ألكسندرا في صيف سنة ١٩٠٢ ، فكره تولستوي المقام في
القرم ولذلك عاد إلى ياسنایا .

نذير !

« لست أدري كيف يستطيع البشر أن يعيشوا ، وهذه الأهوال تحيط بهم من كل جانب ! » ذلك ما صاح به تولستوى ذات يوم وهو يحاور صديقاً له في أوائل القرن العشرين .

ولقد ظل تولستوى نذيراً لقومه ولبنى الدنيا في السنوات العشر التي شهدها من حياة هذا القرن الجديد ؛ وكان كل ما يعلم نبأه من شر في روسيا أو خارج روسيا يؤلمه ويكرب روحه حتى ليشرف به على اليأس ؛ ومن ذلك طغيان الأوتوقراطية في روسيا ، والمحالفات العسكرية والاستعداد العلمى للحرب في أوروبا ولم يقعه المرض ولا الشيخوخة عن أن يجهر برأيه منذراً قومه كلما أحس أن عليه أن يفعل ذلك ؛ ولقد رأينا كيف أندر القيصر نفسه وهو في يالنا وحذره عاقبة حكمه في جرأة لم يكن يستطيعها غيره في بلد مثل روسيا أو في غير روسيا من بلاد الله ...

ولما عاد من يالنا لم يكف عن الجهر برأيه في كل أمر يخشى عواقبه ، وظل نذيراً للطاغين وإن تماروا بتلك النذر ...

ففي نوفمبر سنة ١٩٠٢ أذاع « نداء لرجال الدين » يقول لهم فيه إن ما يزعجونهم من الدين ليس من المسيحية في شيء ، وأنهم أفسدوا الناس « وإن الناس منذ أجيال طويلة وقد أقاموا حياتهم على مبادئ لا يمكن مصالحتها على المسيحية الصحيحة ، يشعرون شعوراً تاماً أنهم يعيشون عيشة مسيحية ، وعلى ذلك ، فلا يمكن أن يردوا إلى المسيحية الحقيقية »

وفي أبريل سنة ١٩٠٣ ، حمل حملة شديدة على تلك المذامح التي ارتكبتها الجماعات الإرهابية اضطهاداً لليهود وكانت تعمل هذه الجماعات بتدبير من الحكومة

كما بينا من قبل ، وعرفت مذابحها باسم « البوجروم » ولقد ندد تولستوى بهذه « البوجروم » التي « هي النتيجة المباشرة لتلك الدعاوى القائمة على الكذب والعنف ، تلك الدعاوى التي أسرفت فيها الحكومة الروسية »

وفي مايو سنة ١٩٠٤ ، أعلن تولستوى سخطه على الحرب الروسية اليابانية في مقالة عنوانها « عودوا إلى أنفسكم » ونشر في هذه السنة مقتطفات مما وقع عليه في مطالعته ، وعده منبعثاً من ذلك الشعور الحكيم أو الشعور المسيحي الذي يدعو الناس إليه وسمى هذه المقتطفات « أقوال الحكماء » .

وأعقب ذلك في سنة ١٩٠٥ بنشر مقالة عنيفة عنوانها « الحل الوحيد » ، ولكن الحكومة وضعت يدها عليها وحالت دون نشرها . . .

ولم يقر تولستوى ثوارت ١٩٠٥ لأنها كانت قائمة على العنف ، كما أنكر على الحكومة ما تأتيه من ضروب العنف والبطش بالناس ؛ ولو كان غيره مكانه للحقه أذى كثير من هؤلاء الثائرين المتعصبين المتحمسين ؛ والحق أن كثيرين من الأحرار ودعاة الديمقراطية قد تقموا منه ما يقول ، ولولا عظيم مقامه في قومه لانصرف كثير من الناس عنه . . .

وكان ألم المصلح الشيخ عظيماً لما يرى حوله من مظاهر العنف من كل جانب ؛ ولكنه لم يسكت ، وكان الثائرون في صخبهم وضجيجهم يصغون إلى صوته وكأنهم ينصتون منه إلى نبي ، كما كانت تصنع الحكومة إلى هذا الشيخ الذي تزعمها كل كلمة منه ، وإن لم يستجب هؤلاء ولا هؤلاء إلى ما يدعوهم إليه . . .

وقست الحياة على الرجل الذي كان يدعى يومئذ « رجل العالم » وفدحته أعباؤها ، فقد ماتت ابنته الحبيبة ماري سنة ١٩٠٦ ، وهي التي أخلصت الحب لأبيها وللبادئة ، ولم تأت هذه السنة حتى كان أكثر أصدقائه قد غادروا الحياة ؛ فقد مات دياكوف واستراخوف وجي وتشيكوف وابنة عمه الكونتس ألكسندرا ، ثم أخوه سبرجي .

وقبل موت ابنته مرضت زوجته مرضاً شديداً وعملت لها جراحة ؛ وقد كان عطف زوجها عظيماً وألمه لمرضها أعظم ؛ ولعلهما ما شعرا بالحب بينهما فيما سلف من حياتهما أكثر مما شعرا به في تلك الأيام ؛ ولقد قال لها زوجها إنه يحس الوحشة في البيت لخلوه من وقع أقدامها ومن صوتها وإنه لذلك لا يستطيع أن يقرأ أو يكتب ..

وكدر روحه غير ذلك ما كان من مسلك بعض بنيه حتى ليجب أن يرحمه الموت ، فقد كان أحدهم عضواً في « المئات السود » وإن أباه ليدعو الدنيا كلها إلى السلام والمحبة ! وكان ابنه ليومعارضه بكتاباتهِ وينكر آراءه جميعاً ، ولقد كتب يجذب الحرب الروسية اليابانية بينما يقرأ الناس لأبيه ليو الكبير سخطه على هذه الحرب !

وأزجه شيء آخر ، وذلك أن زوجته استدعت الشرطة لحراسة الغابات في ياسنايا لأن الفلاحين يسرقون شجرها ويعتدون على حراستها ، ولقد أطلق بعضهم الرصاص ذات مرة على كبير الحراس ، وكان تولستوى كلما مر بهم على ظهر جواده ورآهم يقطعون الشجر بمنشيرهم وفؤوسهم أدار وجهه عنهم وتظاهر بأنه لا يرى شيئاً . .

وكان يؤلم تولستوى ما يفالط به المبتلون أنفسهم والناس ، وما يسخرون به من كتاباته لوجود هؤلاء الشرطة يحرسون أملاكه ؛ ولما يش من إقناع زوجته بضرورة صرفهم صاح بها ذات مرة « كفى كفى يا سونيا .. إذا كنت لا تقطين إلى أن الحياة في حراسة الشرطة الذين يقبضون على الفلاحين ويلقون بهم في السجن تضيق بها نفسى فلا فائدة من الكلام »

وظن الفلاحون أنفسهم به الظنون فعند بعضهم أنه هو الذي فعل بهم ذلك ولقد كانت الكنيسة توحى إليهم أنه الشيطان في ثوب إنسان ؛ تحدث عن ذلك أحد أصدقائه مرة فقال « رأيتُه وقد دفن وجهه في يديه المرتعشتين والدموع تتساقط من عينيه ، وهو يئن في صوت مسموع قائلاً : آه لذلك المنظر الذي رأيتُه

الآن وتلك الكلمات التي سمعتها ... فبينما كنت على ظهر جوادى رأيت بعض الفلاحين في عربة وتحدثت إليهم ؛ لقد صوبوا في نظراتهم وصعدوها ثم تكروهوا لي ؛ ثم نهض أحدهم وصاح بي : ألا زلت حيا أيها البجعة العجوز ؟ ألم يأخذك الشيطان بعد ؟ كان ينبغي أن تموت من زمن بعيد ، لقد عشت إلى أربل العمر . أنظر إلى جواده المزييل العجوز ! فسألته : ماذا دهاك وماذا تعنى ؟ أنا تولستوى من ياسنايا بوليانا ؛ فأجاب : إنا نعرفك حق المعرفة أيها الهرم الذي يمتص دماءنا ، كان ينبغي أن نكون فرغنا منك منذ بعيد .

وأصرت الكونتس على بقاء الشرطة ، ولا يملك زوجها أن يصرفهم ، وما يستطيع فراراً اليوم لو أراد ...

حسبه هذه الآلام ، وحسبه أسقامه فوق آلامه ؛ ولكن صوته لن يفتأ يدوى في أنحاء روسيا ، وتتجاوب به الدنيا كلما دعا إلى ذلك داع ؛ لقد هاله ما يفعل ستوليين بالأحرار من شق ونفى وأسر ، فكتب مقالة عنوانها « لا أطيق أن أظل صامتا » ؛ وراح يلعن الطغيان والطاغين ويعدد مساوى الحكومة ويصور مظلما ، ويصرخ في وجه الظلم غير هيباب ! وقد جاء في هذه المقالة التي أعادت له سابق منزلته في نفوس الأحرار قوله « لا أستطيع أن أعيش وأنا على علم أن ذلك يقع حولى .. يجب أن نصيح وأن نصرخ ! وإذا كان لا بد للحكومة من سفك الدماء وإزهاق الأرواح ، واقتراف أعظم الآثام ، فما هو ذا رأسى أقدمه فدية لبنى وطنى » واختتمها بقوله « لقد كتبت ذلك وسأعمل علي نشره بكافة الوسائل في روسيا وخارج روسيا ليحدث أحد أمرين . فإما أن يوضع حد لتلك الأعمال الوحشية ، وإما أن أوضع أنا في السجن بعيداً عنها ، حيث أشعر شعوراً واضحاً أن تلك الأهوال لا ترتكب بسبب ما أذيع من آراء ... وخير من ذلك أن يضعونى على المشنقة لأهبط بثقلى معلقاً في ملحفتي التي تدور حولى حنجرتى العجوز فألقى مصرع أولئك الذين يقتلون بغير حساب » .

ولقد عظم وقع هذه الصيحة في نفوس الناس جميعاً ، وطرب لها الأحرار

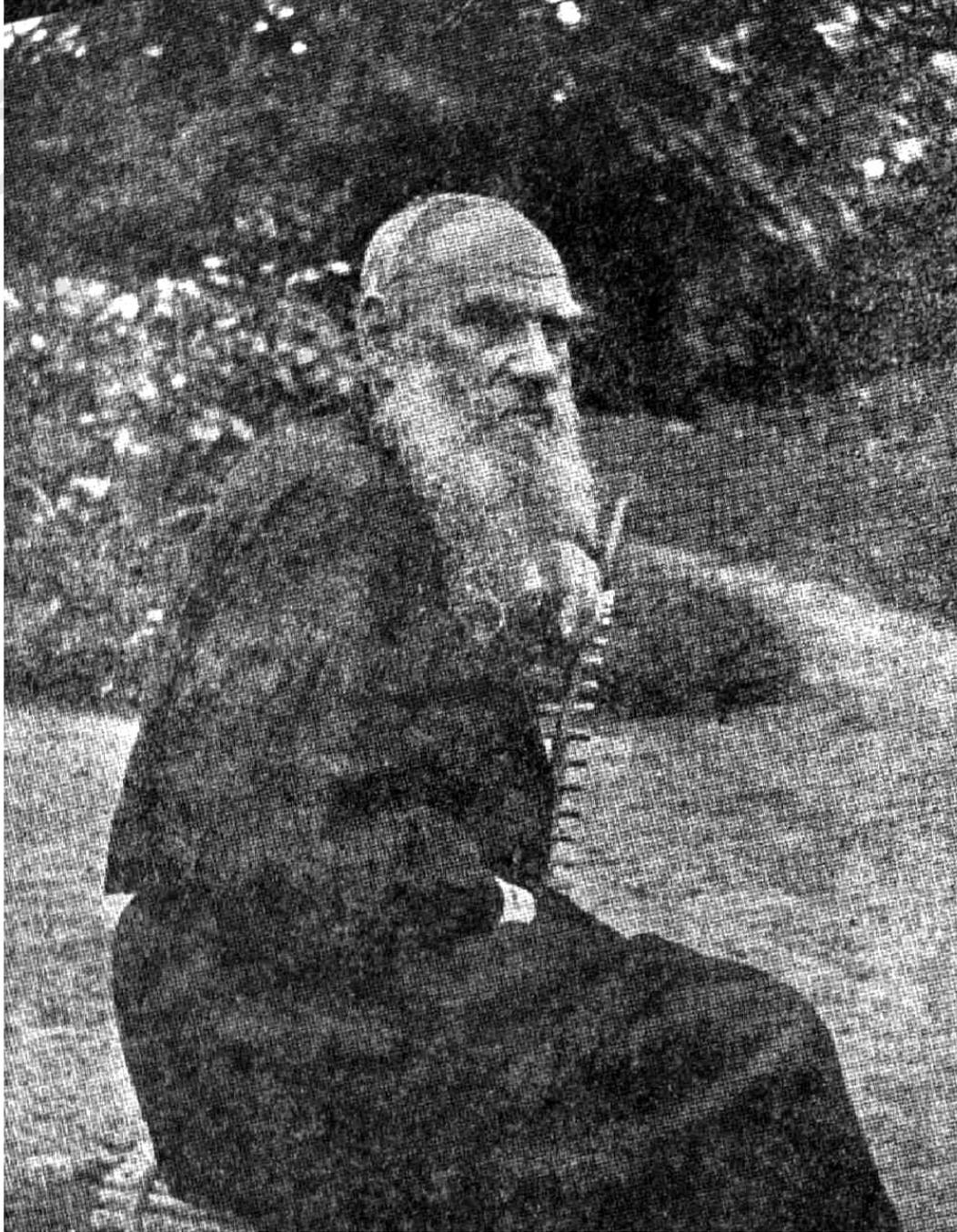
وأشفق منها ستوليين في طفيانه وإرهابه ، وأخذته منها الرهبة فبادرت الحكومة بمصادرتها ، وأنزلت أشد العقاب بناشرها من رجال الصحافة وأخذت تكيد لتولستوى فاستولت علي كتبه وعاقبت من يبيعها ، واضطهدت سكرتيره جوزيف ثم نفتته من روسيا متهمة إياه أنه يذيع آراء ثورية .

ولما اعتقل جوزيف كتب تولستوى إلى ستوليين يطلب إياه أن يعتقله هو بدل جوزيف لأنه المسؤول وحده ؛ ثم أذاع نداء آخر نداء فيه بطغيان الحكومة لما لم يرد عليه ستوليين ، واختتمه بقوله « إن الذين يضيقون بما أذيع من آراء ويضيقون بنشاطي ، إذا لم يكن لهم طاقة على الصبر ويريدون أن ينكلوا بأى امرئ ، خليك بهم أن يوجهوا عنفهم إلى ، لا إلى أصدقائي ومريدي لأن تبعه آرائى تقع على وحدى » .

ولكن ستوليين على تجبره لم يستطع أن يمس بالأذى هذا الأعزل الشيخ الذى يستجيب لصوته الملايين ، والذى يزلزل بقلمه الطغيان من أساسه ، ويفعل وحده بهذا القلم ما لا يفعله ألف الثائرين مجتمعين !..

ذهب لتولستوى من الصيت ما لم يذهب مثله لرجل غيره فى عصره حتى لقد كان يسمى كما ذكرنا « رجل العالم » وسماه آخرون « نبى هذا العصر » ؛ وكانت ترد إليه فى شيخوخته مئات الرسائل من أنحاء العالم ؛ كما كان يزوره الأعلام من إنجلترا وفرنسا وألمانيا وإيطاليا ، بل ومن أمريكا والهند واليابان ؛ وكثيراً ما كتب إليه زعماء القلم من أمثال شو ورومان روللان وولز ، وغيرهم ، يهنتونه أو يسألونه النصيح . وكثيراً ما هبط يا سنايا أنماط من الناس مصورين وصحفيين ومثالين ، وصناع وتجار يطلبون لبضائعهم الرواج بتقديم بعضها إلى تولستوى وكتابة اسمه عليها !

ومن زائريه فتاة خيرها أبوها إن هى نجحت فى الامتحان بين ساعة ذهبية



تولستوی عند الثمانین

obeykandl.com

أو دراجة أو زيارة تولستوي فأثرت زيارة تولستوي ، وجست أمامه معجبة
بالتحدث إليه ...

ولما قرب يوم ميلاده الثمانون ، وهو الثامن عشر من أغسطس سنة ١٩٠٨ ،
أخذ أنصاره يتأهبون لاحتفالات عظيمة يقيمونها في طول روسيا وعرضها .

وكتب تولستوي إلى بعض أصحابه يرجو منهم ألا يفعلوا ذلك فهذا وحده
يدخلون السرور على نفسه ولئن كفوا فإن شكره إياهم لعظيم .

وأخذت الحكومة من جانبها تتأهب لمنع المظاهرات في هذا اليوم ، كما أخذ
رجال الدين يتواصلون ألا يشارك أحد في حفاوة به ؛ وأنذر ستولييين الصحف
بطشه إن نشرت ما يثير ...

وفي صباح عيده الثمانين ، تقاطرت الوفود إلى داره على صورة لم يعرف لها
مثيل من قبل ؛ وظل الناس أفواجا من كل طبقة يحجون إلى ياسنايا ، وكان بينهم
وفود من الدول الأوروبية الكبرى ومن أمريكا ومن الهند ومن اليابان .

وتلقى في هذا الصباح وحده ألفي برقية من روسيا ومن أنحاء الدنيا بينها
برقيات من أكبر الكتاب ، وأكاداساً لا تحصى من الرسائل ، ولقد ظل عمال
البريد غادين رآحين طول يوم ميلاده هذا بين مكاتبتهم وداره ...

وصدرت الصحف في ذلك اليوم وإذا بها جميعاً على اختلاف نزعاتها مزينة
بصوره وكأنها لكثرة ما جاء فيها عن تولستوي أعداد خاصة به ؛ وكلها تفيض
بالحديث عن مؤلفاته وجهاده ومكانته وموضع أدبه بين أدب الدنيا .

ووجل ستولييين وأعوانه ، فلم يقبضوا على أحد من الخطباء الذين تعاقبوا
على المنصات في أما كن كثيرة يتحدثون إلى ألاف المستمعين عن تولستوي وجهاد
تولستوي ... ومن أبلغ ما قيل فيه قول أحدهم «لقد تبين اليوم للناس أن أعداءه
هم أعداء الحرية والفضيلة ، وأن نصراءه هم نصراؤها» .

والرجل وادع في داره ، ينظر الألف إلى محياه المفضل ولحيته البيضاء ويديه
المعروقتين وثيابه الريفية ، وينصتون إلى ما يقوله خاشعين كأن عليهم الطير ؛
ثم ينصرفون وفي نفوسهم أعظم السرور لأنهم رأوا « نبي العصر » واستمعوا إليه .

جحيم لا تطاق !

ألم يأن لهذا الشيخ بعد طول عنائه وقد بلغ الثمانين أن يستريح ؟ كلا ! . . .
فما يريجه إلا الموت وإنه منه لقريب ؛ ولقد قدر على هذا الرجل الذي تنصت
الدنيا إليه ، والذي نعت فوق ما ذكرنا من نعوته بأنه « ضمير الدنيا » ، أن يكون
شقاؤه بيته وخاصة بامرأته أكثر من شقوته بتكاليف رسالته !

لا يزال ينهض من فراشه المتواضع ، والصبح يتنفس ، فيلعب محركا اعضاءه
بعض الوقت على قدر ما تطيق شيخوخته ، ثم يكنس حجرتة بيسده ويصلح
ما تشمت من فرشته ، فإنه خادم نفسه ، ثم يغتسل ويرتدى ملابسه ، ويذهب إلى
حجرة الطعام فيصيب منه قليلا ويشرب الشاي ، ويتحدث بعض الوقت مع
زوجته وبناته ومن يتفق وجوده من الصحاب ...

ويأتي إليه سكرتيه برسائل ومجلات وكتب تحمل الطوابع من أنحاء الدنيا ،
فيتأفف « إني أريد أن أظل في وحدتي لا أتصل بغير الله ... وخير ما أصنع أن
ألقى بهذا كله في النار فأخلص من ضياع الوقت ، وأتجنب ما عسى أن أنتفخ به
من غرور » .

ويفض الرسائل فيقرأ ، ويضيق أحيانا بما يطلب الناس من نصح وقد نشر
آراءه في كتبه ؛ ولكنه لا يجب أن يخيب رجاء الطالبين فيرد على رسائلهم ،
وكانت بين تلك الرسائل التي عظم اهتمامه بها رسالة من إنجلترا سنة ١٩٠٩ من
شخص قال إنه تلميذه وذلك الشخص يدعى غاندى .

ويتجه إلى حجرة مكتبه فيذكره سكرتيه بأن فلانا وفلانا ومراسل كيت
وكيت من الصحف قادمون لزيارته ، فيعبس ويحدد الساعة والمدة ، فإذا يرد
هؤلاء وهو يجب أن يخلو إلى نفسه ؟

ويقرأ ويتأمل ساعات في هذه الحجرة التي لا يغطي أرضها شيء ، والتي يعلق
القأس والمنجل على أحد جدرانها ، وتوجد أدوات الإسكاف على منضدة في
أحد جوانبها ! .

ويركب عند الظهيرة فرساً هادئة حلت محل جياده السابقة ، إن أحس في
نفسه المقدرة ، أو يمشى على قدميه ، ويستغرق في مشاهد الطبيعة ومجالى القرية
ساعة أو بعض ساعة لا يفوت عينيه شيء جل أوهان ، فهو منذ حدثته محب
للكون كله ، ولا يزال لعينيه نفاذها إلى أعماق الأشياء ...

ويصيب من الطعام في صحاف متواضعة على المائدة الكبرى ما كان نباتاً
فحسب ؛ ويدع لأسرته ولضيوفه ما طاب لهم مما يشتهون ؛ وإنه ليضيق أبداً بهذا
الترف ويتهد تهداً عميقاً ، فما طمعه في أن يصلح الدنيا وهو النبي الذي لم يؤمن به
عشيرته الأثريون ؟ ولكن ماذا عسى أن يصنع ؟ لقد طالما سأل نفسه ما حيلتي ،
وإنه ليحس مرارة الخيبة وبخاصة إذا سخر خصومه منه ورموه بالادعاء !

ولقد كانت الكتب لا تزال تأتيه حتى سن الثمانين من قوم يرمونه بالنفاق
ويقولون إنه يقول مالا يفعل فهو يعيش عيشة مترفة ، ولقد كان ذلك أكبر
ما يؤلمه ويكدر خاطره ، حتى ليعود باللوم على نفسه مراراً أن لم يفر من بيته فيعيش
بقية عمره بين الفقراء وينفي عن نفسه هذه التهمة ..

ويلقى زائريه في المساء ، ويحاور من يحاورونه ؛ وقد يمشى معهم بعض الوقت
في حديقة الدار ؛ ولقد يدعهم إلى حيث يجلس في جانب منها وسط بعض الفقراء
ممن جاءوا يطلبون معونته أو نصحه ..

ويستمع أول الليل إلى الموسيقى ، أو يتحدث مع صحابته الأذنين وأفراد
أسرته ؛ ثم يدخل حجرة مكتبه قبل أن يأوى إلى حجرة سريره فيكتب في
مذكراته ما يعن له كتابته ...

ولو ترك الرجل علي هذه الحال لقضى بقية عمره كما يشاكل شيخوخته ،

وما ينتابه أحياناً من المرض فإن الضعف الشديد ليصيبه بين حين وحين حتى
ليفقد ذاكرته ويكاد أحياناً يفقد وعيه كما ذكرت ابنته ألكسندرا
ولكن أنى له الراحة وزوجته لا تزال تلاحقه حتى في هذه السن بيكاتها
وشكياتها ، ولا تفتأ تهده بالانتحار؟ وما كان يطيق ذلك منها بالأمس وبدنه
قوى فكيف به اليوم وهو يدنو من الموت؟

وإن الناس ليتهمونها أنها تتصنع ذلك لتخيف به زوجها ؛ ولتحمله على
الإذعان لما تريد ؛ وقد علموا أنها تفعل ذلك لأسباب تافهة ، ومن ذلك أنها
أرادت أن تقدم للمحاكمة ذات يوم في صيف سنة ١٩٠٩ شخصاً طبع بعض
قصص زوجها القصيرة ؛ وطلبت إلى زوجها أن يمضي الشكوى ولما رفض ذلك
جن جنونها وأعلنت إليه أنها سوف تشرب السم ؛ وما زال بها حتى عدلت عن
ذلك ، وقد قبل أن يبقى فلا يذهب إلى مؤتمر السلام في ستوكهولم كما اعتزم من
قبل ثمناً لرضائها ...

ولكنها دائماً الشكوى ؛ وماذا تشكي منه اليوم ولم يعد للغيرة محل ، وقد
قسم زوجها ثروته كما أرادت ؟ وهل تكف هذه المرأة عن الشكوى والصخب
يوماً ؟ وهل كفت عن ذلك منذ تزوجها ؟ ولكن لشكواها اليوم قصة ...

وهذه القصة هي قصة صراع عنيف بين شيرتكوف وفريقه ، وقد عاد من
منفاه منذ بضع سنوات ، وبين الكونتس وفريقها . وكان من فريق شيرتكوف
ما كوقنسكي طبيب تولستوى الخاص وابنته ألكسندرا ؛ أما فريق الكونتس
فكان أكثر أبناء تولستوى ... لكنه وكلفاه بهيداً إلى الموت عن الأ
أما موضوع الصراع فهو مذكرات تولستوى وأوراقه إلى من تؤول بعد موته ،
ثم كتبه وحقق نشرها وما مال ذلك ؟ وكانت الكونتس تري بالضرورة
الأوجه للخلاف ، فالذكريات لها دون غيرها ، ونشر الكتب من حقها وحق
أولادها ؛ وإنها لتعجب كل العجب من أى رأى خلاف ذلك ؛ ولكن
شيرتكوف يرى للمسألة وجهاً آخر على أعظم جانب من الخطورة ؛ وكان يؤيده

فما يذهب إليه أصحاب تولستوى المقربون ومؤدى ما يذهب إليه شيرتكوف أن تولستوى إن لم يتنازل عن كل حق له في مذكراته وأوراقه ومؤلفاته فيجعلها للشعب بغير مقابل ، لم يصدق الناس دعوته ، وبذلك تذهب جهوده وجهود أصحابه أدراج الرياح

وعلى ذلك كان يرى شيرتكوف أن إخلاصه الشديد لمبادئ تولستوى ، وهو أقرب حواريه إليه ، يقتضيه أن يبذل كل ما في وسعه كيلا تنجح الكونتس في هذا الصراع ، فما أعظم خيبتها وخيبة تلاميذ تولستوى جميعاً إن هي نجحت ؛ وإنه ليرى أن نجاحه هو أهم من حياته ذاتها ، فما قيمة الحياة إذا انهارت الدعوة التي أخلص لها وتحمل في سبيلها ما تحمل من نفي وعذاب ؟

وكان تولستوى وزوجته وطيبه وابنته الكسندرا في زيارة شيرتكوف بضيفة له قرب موسكو ؛ إذ كانت الحكومة تحول بينه وبين الإقامة في ضيفته قرب ياسنايا ، وهناك أمضى تولستوى بإشارة شيرتكوف وعلى غير علم من زوجته بالضرورة وصية فخاها أن تكون مذكراته وأوراقه ومؤلفاته جميعاً منذ يناير سنة ١٨٨١ حقاً لكل من يريد الانتفاع بها بعد موته ؛ واختار شيرتكوف منفذاً لهذه الوصية المؤرخة في سبتمبر سنة ١٩٠٩ .

ولعلها أحست ما أثار شكوكها ، فأنها ما كادت تصل إلى ياسنايا حتى دخلت على زوجها في سريرته ، وكان قد حمله الطبيب إليه حملاً لما أصابه من جراء تراحم الناس عليه في محطة موسكو حتى لقد فقد وعيه أكثر الطريق ، وراحت تطلب إليه مفاتيح مكتبه في عنف وهو لا يعي ما تريد ، وما زالت تصيح به وهو صامت حتى استطاع الطبيب بمعونة الكسندرا أن يحملها على العدول عن ذلك الطلب حتى يفيق .

وسألت الكسندرا أحد المحامين ، وكانت على علم بالوصية فأفتى بعدم قانونيتها لأنه لا يوصى بملك « لكل إنسان » ؛ وتشاور أصحابه في الأمر مع شيرتكوف فأوفدوا ف . م . ستراخوف إلى تولستوى بصيغة أخرى جعلت فيها

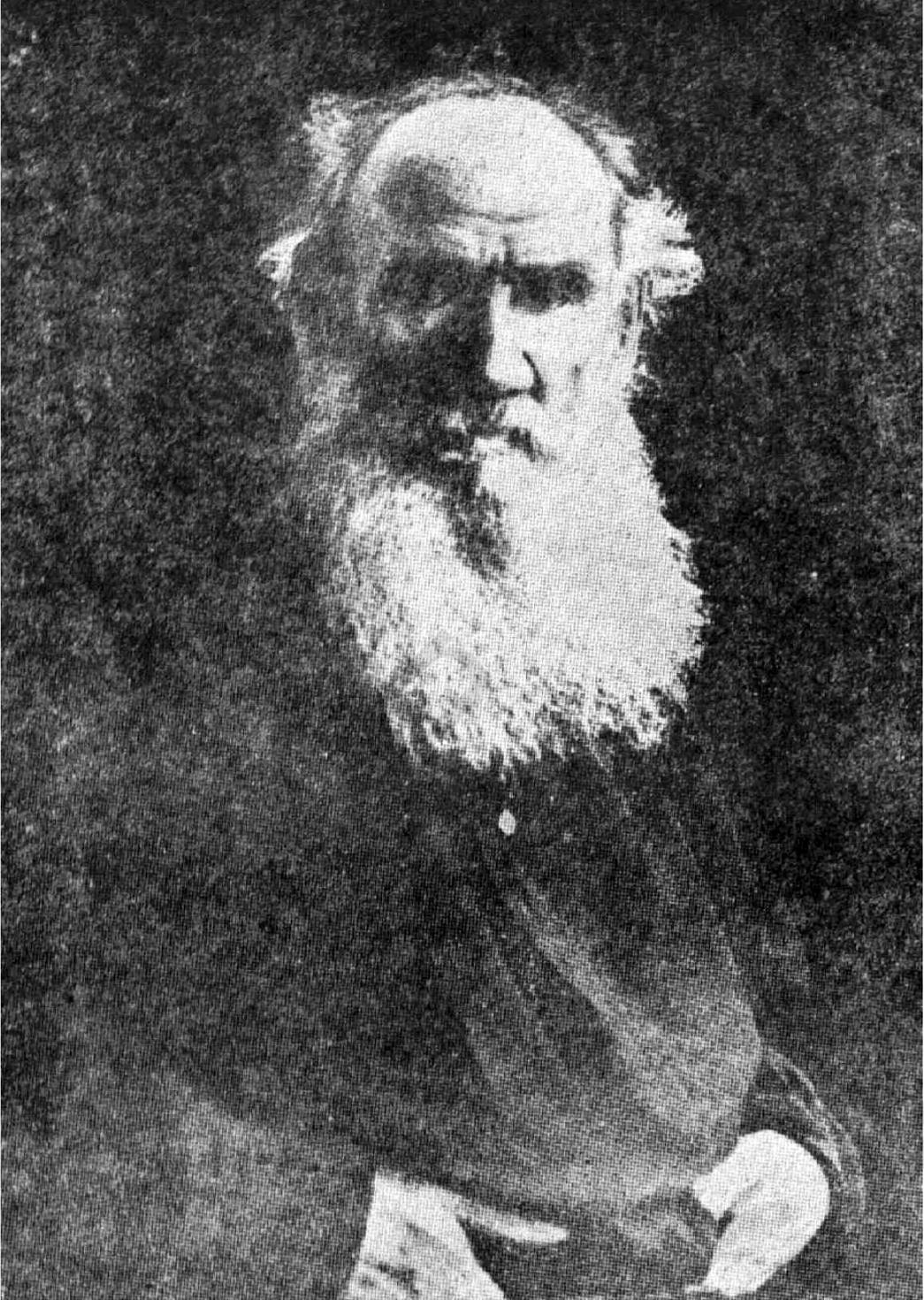
الكسندرا الوارثة الوحيدة له ؛ ولما عرضت على تولستوى نفر منها لأنها ضد مبادئه ، ولكن ستراخوف خونه مما عسى أن يقول الناس إذا هو أورث أسرته مؤلفاته ، وما كان قد جعل ألكسندرا وارثته إلا لكي تستطيع أن تنفذ رغبته في إياحة النشر لكل طالب ..

وعجب ستراخوف أن يذهب تولستوى إلى أبعد ما يطلبون ، فقد أمر إليه وإلى الكسندرا أنه سوف يجعل لابنته الحق في مؤلفاته جميعاً لا في تلك التي صدرت في السنوات الثمانية والعشرين الأخيرة .

وسوف يوصى بأن تشتري ألكسندرا من أمها ضيعة يا سنايا بما تريح من تلك المؤلفات لتوزع الضيعة على الفلاحين بعد وفاة الكونتس ...
وذهب ستراخوف إلى موسكو حيث أفضى بذلك إلى شيرتكوف وعاد بصيغة حسب الوضع الجديد صعبة جولدنوزر الموسيقى ليكون شهيداً معه على هذه الصيغة .

وفي أول نوفمبر سنة ١٩٠٩ دخل الشاهدان البيت سراً ، ولم تعلم الكونتس بمجيئهما ، وكتب تولستوى بخطه الوصية الجديدة ووقع عليها كما وقع الشاهدان ؛ ثم خرج الرجلان من البيت فلبثا ساعة وعادا ضيفين عاديين ، ولقيتهما الكونتس مرحة ؛ ولقد عبر ستراخوف عن خجله من خداعه إياها حين وصف هذه الحادثة بعد ذلك بستين في إحدى الصحف ...

كانت سنة ١٩١٠ آخر سني تولستوى في هذه الحياة ؛ وفي هذه السنة لقي تولستوى من العذاب على يد زوجته ما جعل بيته جحيماً لا تطاق ...
وحسب هذا الشيخ الذي لم تخل حياته العجيبة يوماً من شقاء بعقله منذ صدر شبابه ما كان يلاقه في أيامه الأخيرة من عذاب الضمير ... وأشد ما كان يعذبه يومئذ تفكره في مقامه بين أسرته ، وكيف تبعد مظاهر الأستوقراطية من حوله عن مبادئه ؛ وإنه لينشئ بذلك حتى لتلح عليه الرغبة في الفرار ...



تولستوى سنه ۱۹۱۰

obeykandl.com

ولم تدعه زوجته فيما هو فيه ، فأخذت تعذبه بغيرتها من ابتها ألكسندرا وإظهار حقدھا علیھا بین یدی أبیھا ، وقد عادت من القرم حیث قضت بضعة أشهر طلبا للعلاج من ذات الصدر ...

ثم إن زوجته لا تزال تصر على معاقبة الفلاحين ، فقد لقي تولستوى ذات يوم وهو على ظهر فرسه ومعه طبيبه أحدهم يساق إلى السجن متهما بسرقة بعض الأخشاب ، وقد كان أحد تلاميذ مدرسته وهو صغير ؛ فعاد إلى البيت فوجد من زوجته إصراراً على موقفها منه ، وقد بلغ من تأثره أن حمله طبيبه إلى فراشه وقد فقد ذاكرته ...

وذهب تولستوى فى يونيو لزيارة شيرتكوف وقد سُمح له بالمقام فى إحدى ضياعه القريه ، ولما قضى هناك بضعة أيام وكتب إلى زوجته أنه عائد فى الخامس والعشرين ، أبرقت إليه فى الثانى والعشرين تطلب عودته من فورہ وتزعم أن مرضاً شديداً أصابها ؛ وانفق أن كان ذلك اليوم على موعد مع أحد كبار الموسيقيين جاء له خاصة لیسمعه ألحانه ، فأبرق تولستوى إلى زوجته أنه عائد فى اليوم التالى ، فظنت أن ذلك عمل شيرتكوف وأبرقت إليه تلح فى وجوب عودته فى الثالث والعشرين ؛ ولم يجد بداً فعاد ، ووجدها فى فراشها ، فما كادت تراه حتى أخذت تصرخ وتئن وتوجه إليه أعنف الكلام ؛ وقد أثبت فى مذكراته بالليل قوله « وجدت الأمور أسوأ مما توقعت ... هستيريا وهياج فوق الوصف ... لقد استطعت أن أضبط نفسى ولكنى لم أكن لطيفاً كما ينبغى » ، وأعقب ذلك أيام من العنف والبكاء والشكوى والتهديد بالانتحار .

وشخص شيرتكوف إلى ياسنايا ليصلح ذات بينهما ، فما زاد حضوره الأمر إلا عنفاً ، فلقد اندفعت خارجه من البيت والمطر ينهمر عقب حوار بينهما وبينه اختتمه وقد يئس من إصلاحها وإنه لندو غضب بقوله « إنه لو كان له زوجة مثلها لتقتل نفسه أولها جر إلى أمريكا ، وإذا كانت ترغب أن تميل بالحوار إلى ما فى قتلها زوجها من مزايا أو مضار فإنه لا يسمح لنفسه بمحاورتها ...

وكان أعظم ما يغيظها من شيرتكوف فضلا عن سالف كرها إياه أنه يحتفظ عنده بمذكرات منذ سنة ١٩٠٠ ؛ وكانت تسعى جهدها لتسترد هذه المذكرات ، مخافة أن ينشر منها بعد موت تولستوى ما يعلم من نشره الناس أنها أساءت إلى زوجها وأشقته ، بينما كانت تحرص أشد الحرص أن يعلم الناس أنها وهى زوجة كاتب عظيم قد أعانته وهيات له من أسباب الراحة والسعادة ما سهل عليه عمله ...

ولما عادت إلى البيت مبتلة مرتعدة ، لم يستطع زوجها تهدئتها ؛ وسألته صارخة لماذا يجعل شيرتكوف أهم منها فيوكل إليه الاحتفاظ بالمذكرات ؟ فلما أجابها بقوله لأنه أقرب أصدقائه إلى قلبه وأكثرهم فهما لمبادئه إزداد هياجها وقالت لزوجها : « إذا فاقتلنى ... أعطنى أفيونا » .. وظلت تبكى حتى الخامسة في الصباح ؛ ولم يجد معها قول زوجها المكدود « إني لأرضي أن أتوسل إليك جاثياً على ركبتي والدموع في عيني أن تهدينى » ؛ فقد أجابته أنها تفعل كل شيء يطلبه منها حتى لو طلب أن تعيش في كوخ فلاح إذا هو أبعد شيرتكوف وعاد شيرتكوف في اليوم التالى فألقى إليها كتاباً يثنى عليها فيه ويعلن لها مودته ويستأذنها فى لقاء أمه لتصلح بينها وبينه ، ويشكرها على ما أرسلت من خيل لأمه أثناء قدومها ، ولكنها لم تقبل فيه شفاعته ...

وبعد أيام أرسلت إليه تطلب المذكرات ؛ ولما لم يرسلها إليها عادت تهديد زوجها بالانتحار وخرجت ثانية من البيت فألقت بنفسها ليلا على الحشائش المبللة وراحت تلتحب ...

وفى الحادى عشر من يوليو أيقظه ابنه ليو عند منتصف الليل ، وأفضى إليه أن أمه فى الحديقة تهيم على وجهها ، ولن تدخل البيت إلا أن يذهب إليها بنفسه ؛ ثم قال الغلام وقد تباطأ أبوه من إعياء « هذا شيء مثير ، فإنه يجلس هادئاً فى كرسيه وهو الداعى إلى التسامح وعدم المقاومة ، بينما ترقد أُمى على الأرض ، وتعتزم أن تقتل نفسها » وكتب الشيخ المنكوب فى مذكراته « ليلة مريعة حتى الساعة

الرابعة ، وأسوأ من كل شيء ما قال ليون ؛ لقد أنبني كما لو كنت طفلاً ، حين طلب إلى أن أذهب إلى الحديقة لأعود بصوفيا أندرييتشنا .

وكتب الشيخ المذب كتاباً إلى زوجته وقد علم أنها تعد السم لنفسها ، وعدها فيه أنه لن يعطى مذكراته الحالية لأحد ، وأنه سوف يسترد ما لدى شيرتكوف من مذكراته ويضعها جميعاً في مصرف تولا ؛ وأثنى عليها في كتابه قائلاً إنه يحبها منذ عرفها وأنه لن ينسى معوتها ، وما كان من جهودها في تربية أطفالها ؛ وأنه ليس بينه وبينها من خلاف إلا في نظرتيهما إلى الحياة ؛ ولقد تركها حرة تحيا كما شاءت ، ورضي لنفسه بالتعب والمشقة وحده ؛ وإذا كانت تخشى شيئاً مما كتب في مذكراته فإنه مستعد لأن يكتب أن ماجاء عنها لا يعبر عن الحقيقة لأنه نتيجة غضب وقتي ؛ حتى شيرتكوف فإذا كانت تريد ألا يراه فإنه يفعل ذلك مع ما فيه من عظيم الألم لصاحبه ؛ واختتم كتابه بقوله إنها إن لم تهدأ بعد ذلك فسوف يغادر البيت إلى غير عودة وإلى حيث لا تعلم مكانه ، وإن يذهب إلي شيرتكوف ، بل إنه سوف لا يسمح له حتى بالإقامة على مقربة منه ؛ ولن يثنى عن عزمه فإن الحياة على هذه الصورة مستحيلة ...

وأرسل ابنته ألكسندرا إلى شيرتكوف ، فعادت بالمذكرات ؛ وحاولت ألكسندرا أن تخفيها عن أمها ولكنها أخذتها عنوة منها وقرأتها ، وفي اليوم التالي وضعت في غلاف وختمت بخاتم تولستوى وأوردت مصرف تولا ؛ وقد أشيع أن شيرتكوف وأصحابه قد شمروا عن سواعدهم فنسخوا كل ما جاء فيها عن الكونتس قبل أن يعطوها ألكسندرا ، مخافة أن تشوه الكونتس تاريخ زوجها بعد موته ...

ولم تكف الكونتس بما فعل زوجها فألقت على مكتبه كتاباً منها ، تعبر فيه عن مبلغ ما ساورها من خوف مما تهددها به ، ولذلك فهي تنصت إلى رقع أقدامه ، وترتاع إذا غاب عن البيت ، وطلبت إليه أن يعطيها مفتاح خزانة المصرف ووثيقة استلام المذكرات ؛ ولما لم يجبها زوجها فادت تهدده بأكل الأفيون !

وإزاداد مقته لشيرتكوف ولم تعد تطبيق مجيئه إلى بيتها ، فخرمت متاعاً لها ،
وخرجت من البيت تبغى الفرار ، ولكنها لقيت ابنها أندرو قادمًا فعادت معه ؛
وألقت بنفسها بين يدي زوجها باكية ، وخفف عنها ما لقيت من عطفه
فهدأت قليلاً ...

ولو أنها علمت ما فعل شيرتكوف لما وقف جنونها عند حد ؛ وذلك أن
قصة الوصية قد أضيف عليها فصل جديد ؛ فإن تولستوي خاف أن تموت
ألكسندرا قبله ، فأراد أن يضيف إلى الوصية أن ابنته تانيا تخلفها وارثة له في
هذه الحال ؛ وذهب تولستوي خفية إلى حيث يقيم شيرتكوف وكتب هذه
الوصية وشهد عليها بعض الأصدقاء في الثامن عشر من يوليو سنة ١٩١٠ ولكنه
نسى أن يذكر أنه سليم الحواس ؛ ولذلك كتب وصية أخيرة بعد ذلك بخمسة أيام
في غابة زازكا حيث جلس على جذع شجرة وقد ركب إلى هناك ومعه جولدنويوز
وسكرتير شيرتكوف فشهدا على ما كتب .

وأذعن تولستوي ، ابتغاء ما هو في أشد الحاجة إليه من هدوء ، فكتب
إلى شيرتكوف يطلب إليه ألا يحضر إلى بيته ، ويرجو منه المذرة ويفهمه أن
ذلك إلى أجل برجو أن يكون قريباً ...

ورد عايه شيرتكوف أنه يقبل ذلك عن طيب خاطر إذا كان فيه هدوء ،
بيد أنه يخشى أن يذهب صاحبه في تهديته زوجته إلى حد أن يصبح بمنأى عن
« تلك الحرية التي يجب أن يتمسك بها أبداً ذلك الذي يريد أن ينفذ مشيئة الله
الذي أرسله لا مشيئته هو فحسب » ...

وراحت الكونتس تشمت بشيرتكوف وتعلن أنها سوف تقطع كل صلة
بينه وبين زوجها ؛ ثم إنها تلقت من أمه رسالة تحتج فيها على ما تطلق به الكونتس
لسانها فيه من طعن ، فلم تحفل ذلك ولم ترد عليها ...

ومن عجيب أمرها أنها أثبتت في مذكراتها في أغسطس أنها تحب أن
تصفح عنه وتساله ، ولكنها تردف ذلك بقولها « بيد أني كلما ذكرت صورته

وما يبدو على وجه ليو نيقولا قتش من سرور ببقائه لا يلبث أن يعاودنى الألم «
وأخذ شعور الندم يساور تولستوى على ما كتب إلى صاحبه ؛ فقد أثبت في
مذكراته في السادس من أغسطس قوله « إن رضائى بأن أحول يبنى وبين
شيرتكوف عمل مضحك ، وفيه إذلال لى ، وهو مخجل ومحزن » .

وليت زوجته قنعت بذلك ، فلقد كانت تلحق به أحياناً وتراقبه من بعد
إذا خرج للرياضة مخافة أن يتصل بشيرتكوف ؛ ولما علم ذلك غضب أشد الغضب
وكتب في مذكراته يقول « إنى أفكر فى أن أفر وأترك لها كتابا ولكنى أخاف
أن أفعل ذلك ولو أنه خير لها » .

وعذب تولستوى شعور آخر ، وذلك ما يحس فيما فعل فى قصة الوصية من
خداع لأسرته ، وكاد يطيع صديقه بيروكوف وكان يعلم نبأها ، فيفضى إلى الأسرة
بكل شيء ، لولا أن أرسل إليه شيرتكوف كتابا طويلا حذره فيه عاقبة ذلك
واختمه بقوله « إنك إن فعلت ذلك فليس يالم أصحابك فحسب بل إن فضيحة
لم يسبق لها مثيل فى تاريخ الأدب تلحق بكتابانك التى بشرت فيها بالحب
والتوافق » ...

وزار تولستوى وزوجته ابنتهما تانيا فى بيت زوجها بدعوة منها ، وهناك
حسنت حاله فاستطاع أن يقرأ وأن يلعب الورق وأن يلاعب حفدته ويقص عليهم
القصص ... ونسيت زوجته هواجسها وهموما .

ولكنها قرأت فى إحدى الصحف أن الحكومة سمحت لشيرتكوف بالمقام
فى ضيعته القريبة من ياسنايا فثارت ثائرتها ، وراحت تطلب إلى زوجها أن يؤكد
قطعه كل صلة له بشيرتكوف ، وإلا فهى سوف تقتل شيرتكوف بأن تدس له
السم ؛ وبلغ من ثورتها أن صاح بها زوج ابنتها قائلا إن لم تهدأ فسوف يقنع
الأسرة كلها بأن يعيش زوجها بعيداً عنها ؛ وردت على ذلك بقولها إنها تنشر كتابا
فى الصحف تفضحه فيه ثم تشرب السم فتموت ...

وعادت وحدها إلى ياسنايا فرفعت صورة شيرتكوف من حجرة زوجها

وأستدعت قسيساً ليطرده روحه الخبيثة من البيت .

وكان هذا عقب كتاب طويل جاءها من شيرتكوف عملاً بإشارة تانيا ، يطلب فيه مغفرتها ويعتذر عما كان من عبارات شديدة فاه بها مغضباً بين يديها ؛ ولقد ردت عليه تعلن له سخطها وتشتت به قائلة إن زوجها وعدّها أن لن يراه أبداً . وأخذت الكونتس تطلق لسانها بالطعن في زوجها ، وتطلع الناس على ما جاء في مذكراته الأولى ، حتى لقد خرج أحد البولنديين من البيت باكياً ، لما يرى من سوء حظ تولستوى في أيامه الأخيرة ، وقد سافر هذا السفر الطويل لرؤيته ولكنه لم يره ...

وكدرته حتى ابنته ألكسندرا ، وإن كان ذلك عن غير قصد منها ، فقد رفعت أمها من مكتب أبيها صورته مع ابنته كما فعات بصورة شيرتكوف ، واشتد غضب ألكسندرا ؛ ثم إنها رأت أباه يقف إلى جانب أمها أمام مصورة شمسية في يوم ذكرى قرانها فلم تتمالك نفسها ودخلت عليه وحده بعد ذلك تعلن إليه أنه لا يليق أن يضحى بابنته وصديقه بسبب أوهام امرأة ؛ وتألّم أبوها وقال « لقد بدأت تيسلكن سلوكها » ...

وانصرفت مغضبة ، ولما أرسل إليها أبوها بدعوها إليه رفضت أول الأمر ، ثم كظمت غيظها ودخلت عليه ؛ وجلست ليملى عليها رسالة ، ولكنها ما كادت تمسك القلم حتى أسند رأسه إلى ذراع كرسيه وأجهش ، وكان بكائه يقطع كلامه ، فنهضت إليه ابنته واعتذرت بين يديه باكية ...

ولم تطلق ألكسندرا المقام بالبيت فاستصحت إحدى صديقاتها إلى بيت صغير لها ، ولما استأذنت أباهاً قال لها « إن الأمور كلها تفضي إلى نهاية واحدة » . وأحس الرجل وحشة عظيمة بعد ذهاب ابنته ؛ وبخاصة لأنه فقد كذلك عطف الصديق فقد جاءه قبل ذهابها كتاب عنيف من شيرتكوف مليء بالعتب الذي يقرب من التأنيب ... واشتد ألم تولستوى من هذا الكتاب ، وكتب في مذكراته في الخامس والعشرين من سبتمبر يقول « إنهم يمزقونني إرباً ...

إن الرغبة في الفرار منهم جميعاً تساورتني بين الحين والحين .
وفي الثالث من أكتوبر أخذ تولستوى إغناء وهو في فراشه ، وخاف طبيبه على حياته ؛ وظل على هذه الحال زمناً ، وكان يحرك يده على ملاءته كما لو كان عنسك بها قلماً ويكتب ؛ ولما عاد إليه وعيه قال « أريد أن أكتب » فأسرع إليه طبيبه بورقة وقلم فكان ما خطه عليها « المعقولة ... المعقولة ... المعقولة » وعاد ثانية إلى غيبوبته وكان يرتعد في شدة ويحرك ساقيه في عنف ؛ وحضرت ابنته ألكسندرا فواجهتها أمها بقولها « إني أقاسي أكثر مما تقاسين فإنك تفقدين أباً وأنا أفقد زوجاً أعدتُ مسؤولة عن موته » ... ثم ذهبت إلى أحد قناطر زوجها وأخذت إضبارة من الورق ؛ ورأى ذلك ابنها سيرجى وأخته تانيا ، فأخفيا المفاتيح كما أخفيا مذكرات أبيهما ، وما زالا بأبهما حتى أعادت الإضبارة إلى مكانها !

وعاد إلى تولستوى وعيه بالليل ونام نوما عميقاً ؛ وفي صباح اليوم التالي أحست الكونتس شيئاً من الندم فطلبت إلى ابنتها أن تبقى بالبيت ، ووعدت ألا تغضب زوجها ثانية ؛ وعند ذلك صاح بها ابنها سيرجى أنها إن لم تكف عن سلوكها ، فسوف يدعو مجلساً من أفراد الأسرة ليقوم على مراقبتها ...

وخفت الكونتس من غلوائها قليلاً حتى لقد سمحت لشيرتكوف بالحضور إلى المنزل ؛ ولقد ارتاح تولستوى إلى ذلك كثيراً ، وإن كانت زوجته لتظن أنها يتآمران ، ونصح له أن يحذر من « باطل صديقه وخذاعه » .

ولكن ارتياحه لم يطل ، فما لبثت أن هبت العاصفة من جديد عانية لا تبقى على شيء ؛ وذلك أنها علمت بالوصية في الثاني عشر من أكتوبر ، وللهمز أن يتصور مبلغ ما ركبها من جنون ... لقد ذهبت إليه صارخة ترغي وتزبد ، وتجهش ، وراحت تهدده تارة وتقبل يديه تسأله أن يلغيا تارة ، والرجل في ركبته ودهشته لا يعلم كيف جاءها هذا النبا ؛ ولقد زعمت أنها وقعت على مذكراته في ضيوان ما قفرت نبا الوصية .

ولم يجيبها زوجها إلى ما طلبت على الرغم من ثورتها ومن توسلها ، فقالت إنها سوف تعلن بعد موته أنه كتبها وهو مجنون !

وزاره بعد أيام أحد أتباعه الطيبين ، وهو فلاح يعيش في كوخ في قرية قريبة فأمر إليه تولستوى قوله «سوف لا أموت في هذا البيت ، لقد اعتزمت أن أفر إلى مكان منعزل لا يعرفني فيه أحد ، وربما جئت لأموت في كوخك » .

وكتب إلى هذا الفلاح بعد قليل يتفق وإياه على اسم يبرق إليه به متى لزم الأمر ، ويسأله إن كان يقبل أن يضايقه زمنا لن يطول بالمقام في كوخه .. ولكن هذه الرسالة لم تصل صاحبها في ميعادها ولذلك لم يتلق تولستوى رداً عليها ..

وظل الرجل يلقي من عنت امرأته وثورتها ما جعله يتمنى الموت أكثر من مرة ، ولا يملك إلا أن يتمم قائلاً « رب خذ بيدي .. رب خذ بيدي » .

وفي الثامن والعشرين من أكتوبر ، صحا من نومه في الثالثة صباحا على صوت يد تعبت بأوراقه فأشعل شمعة وذهب إلى حجرة مكتبه فإذا به يلقي زوجته وإذا بها تظهر له في رفق عجيب ومودة قلقها لعدم نومه وعطفها وإشفاقها عليه ، وهي نعمة يسمعها منها منذ بضع ليال ، ففطن إلى ما في كلامها من خديعة وسوء مكر ؛ وذهب من قلبه كل عطف عليها وكل مبرر للصفح عنها ، فلئن كانت مريضة فما يبلغ بها المرض أن تحاول هذه المحاولات المتصلة لتنال بغيثها ، ولئن فرض أنها مجنونة ففي عنادها وإصرارها وسوء مكرها ما يجعل جنونها موضع شك ...

كلا ! إنها تخدعه ، وإنها لا تكترث له ، ولا تهتم إلا بفايتها ..

إنه لن يطيق بعد ذلك صبراً ... إنه يحاول أن يتنفس فلا يكاد يجد نفسه ؛ ولكنه يتصنع الهدوء ثم يتظاهر بأنه يقرأ قصة دستوفسكى « آل كارامازوف الإخوة » ؛ وقد كانت مفتوحة على مكتبه حيث تركها قبل أن ينام ؛ ولبث ينظر فيها حتى انصرفت زوجته .

فرار إلى الله !

لم يعد من الفرار بد ! وهكذا قدر علي هذا الفنان العظيم أن تنتهي حياته بمأساة أشبه بمآسى قصصه ؛ والحق إن حياته كلها كما ذكرنا لا تقل روعة وغرابة عما اخترع خياله من قصص ! ...

وإلى أين يفر؟ إلى حيث لا يدري ... إلى الله ... إنه يريد أن ينجو فحسب من المرأة « التي اعتزلته روحياً » كما قال ذات مرة ، ليتصل بالله فيما بقي من عمره ، وما يهمه ليونيقولا فثش كما قال ، بل « ذلك الشيء الذي أحس أحيانا ومضة منه في نفسي » ...

نزل كالطيف إلى حجرة ألكسندرا في فجر الثامن والعشرين من أكتوبر سنة ١٩١٠ فطرق باب ابنته في رفق فأيقظها وأفضى إليها بعزمه ، وطلب معوتها في حزم متاعه ؛ ولقد وصفت ابنته ذلك فيما بعد في قولها « لن أنسي قط ظهوره لدى الباب في ملابسه القروية وفي يده شمعة أضاءت وجهه الهاديء الجميل الذي يملأه العزم والثبات » ...

وتسلل بنفسه إلى حظيرة الخيل فأيقظ أحد السائسين وسائق العربة ؛ وتعثر في الظلام فوق وقع وققد قبخته ولم يجدها وعاد إلى البيت يطلب غيرها ، ثم ارتد معجلاً إلى الحظيرة يستحث السائق ويرجو منه ألا يحدث صوتاً .

وفرغت ابنته وإحدى صديقاتها في الخامسة من إعداد متاعه ؛ ومشى إلى العربة « يضغط علي زر مصباحه الكهربي تارة ويدعه فينطفئ ، تارة » ، كما قالت ألكسندرا ، ويتحدث في همس ، حتى ركب العربة ومعه طبيبه ، وارتدت الفتاتان إلى البيت ..

ترك كتاباً لامرأته كان مما قال فيه « أعلم أن فرارى سيحزنك وإني للأسف

ولكنى أرجو منك أن تصدق وأن تفهمى أنى لم أكن أملك غير ذلك . وفضلا عن كل شيء آخر لم أكن لأستطيع أن أحيأ فى ذلك الترف الذى كان يحيط بى حتى اليوم ... إنى أهرب من الدنيا لأقضى أيامى الأخيرة فى هدوء وعزلة ... إنى أشكرك على تلك الأعوام الثمانية والأربعين التى عشتها فى شرف معى ، وأرجو منك أن تغفرى لى ما عسى أن ألام عليه نحوك ، كما أغفر لك من أعماق نفسى كل ما عسى أن تلامى عليه ... إذا أردت أن تكتبى إلى ، فإن ذلك يكون عن طريق ألكسندرا ، لأنها وحدها سوف تعلم مكانى ولن تدلك عليه لأنها وعدتني ألا تدل أحداً » ...

ووقف وطببته بالمحطة ساعة ينتظران القطار ، وكان قلقاً مخافة أن تدركه امرأته ؛ ولكنها لم تعلم فراره إلا فى الساعة الحادية عشرة ؛ ومضى بهما القطار ، وكانت عربته مزدحمة فاسدة الهواء من الطباق ومن زفير الراكبين ، فكان يخرج تولستوى إلى حيث يقف لحظات فى الهواء الطلق ، فأحس رعدة فى بدنه بسبب ذلك .

إلى أين ؟ ليس يدرى ... ولكنه أراد أن يزور أخته مارى وكانت تقيم مع ابنا فى دير شاموردين ؛ فنزل وصاحبه فى أقرب محطة إلى ذلك المكان ، وكان ذلك فى الساعة الخامسة مساءً ؛ وأقلتها عربة استأجراها إلى مكان الضيافة للملحق بالدير ، وكان المطر ينهمر فلقى من ذلك نصباً شديداً ...

وأرسل تولستوى إلى ابنته لتوافيه بالأنباء ، كما أرسل إلى شيرتكوف ليذيع فى الصحف أنه لم يبيع قط حق نشر كتبه ، وأنه لم يحمل لأحد ما الحق فى هذا البيع ...

وفى اليوم التالى جاءه كتاب من شيرتكوف يعبرله فيه عن عظيم سروره بفعلته ، فلا بدله من الهدوء الروحى واختتمه بقوله «إنى على يقين أن عمك هذا سوف يجعل كل شيء خيراً مما كان وبخاصة للمسكينة صوفياً أندرييفنا مهما بلغ عندها من رد خارجى لهذا الفعل »

وفي الثلاثين من أكتوبر بينما كان تولستوى يزور أخته في الدير ، إذ جاءته ألكسندرا ، تحمل إليه كتابين أحدهما من ابنه سيرجى والثاني من ابنته تانيا يتوسلان إليه فيهما أن يعود ، كما تحمل إليه أبناء أمها ...

ثارَت المسكينة ثورة عنيفة حين علمت بفرار زوجها وألقت بنفسها في البركة ، فأسَّرت ألكسندرا وأخرجتها منها بمعونة أحد الضيوف من أتباع أبيها ؛ ولكنها عادت مرة ثانية في غفلة من ابنتها وألقت بنفسها في الماء ، فأخرجها هذا الضيف وبعض الخدم وعادوا بها على رغبتها إلى البيت وهي تبكي وتهذى وتهتدد وتتوعد ؛ ولما أحاطها أفراد الأسرة بالرقابة ، قالت إنها سوف تثب من النافذة وسوف تبحث عن زوجها ، وسوف تجده وتعود به إلى بيته ؛ ثم أخذت تضرب صدرها بكل ما تقع عليه يدها وكلما انتزعوا منها شيئاً أخذت غيره وهي تصرخ مجنونة لا تهدأ ؛ ثم أبرقت إلى زوجها باسم ابنته ألكسندرا ليعود ؛ وأرسلت في اليوم التالي تستدعى شيرتكوف ولما لم يحضر ، أبرقت ثانية إلى زوجها تقول إنها أزلت ما بينها وبين شيرتكوف وأنها تموت وترجو منه أن يعود ليرأها . وفي نفس الوقت أفضت إلى رجال الصحافة بقولها إن زوجها ما فر إلا ابتغاء الإعلان عن نفسه !

ورد تولستوى رداً جميلاً على ابنته تانيا وعلى ابنه سيرجى وشكر لها عطفهما وصدائعهما ؛ ولكنه أصر على فراره ؛ وتلقى كتاباً من زوجته تتوسل إليه فيه أن يعود وتدعوه عزيزها وحبيبها ، وتعدده أن تدع الترف وتعيش كما يحب وتتخذ أصدقاءه أصدقاء لها واختتمته بقولها « عد إلى إذا لم يكن ذلك إلا لتسمعني كلمة وداع قبل افتراقنا الذي لا محيص عنه » .

ورد عليها بكتاب طويل كان مما جاء فيه قوله « إنك وحدك التي تستطيعين أن تنقذيني وتنقذى كل من حولك وبخاصة نفسك ، مما تقاسين ... لا تظني أنى فررت لأنى لا أحبك ... إنى أحبك وأرثى لك من أعماق قلبي ، ولكنى لم أملك غير ما فعلت ، ولقد كتبت كتابك مخلصاً كما أحس ولكنك غير خليقة بأن

تفعلي ما تقولين ... وداعا يا سونيا ، يا عزيزتي ، كان الله لك ... ليست الحياة مزحة ، وليس لنا من حق أن نلقي بها حسب أهوائنا ... ومن الخطأ أن نقيسها بعدد الأيام ، وربما كان ما بقي لنا من أشهر أعظم أهمية من جميع ما عشنا من سنين ، ويجب أن نحيا كما ينبغي » ...

في الساعة الرابعة من صباح الحادى والثلاثين من أكتوبر ، أيقظ تولستوى ابنته ، وطيبه ليرحلوا من فورهم مخافة أن تدركه زوجته ، واتجهوا صوب المحطة ؛ وكان قد وعد أخته بزيارة ثانية فترك لها كتاب اعتذار رقيق ...

إلى أين ؟ لا يزال في حيرة من أمره ... إلى القوقاز أو إلى بلغاريا أو إلى أى جهة لا يعرفه فيها أحد فحسبه أن يفرغ من الدنيا بقية أيامه ليتصل بالله ... ومضي بهم القطار وهم يقصدون رستوف ، وهو يظن أن لم يعلم بفراره أحد ، ولكن صحف روسيا جميعاً قد أذاعت نبأ هجرته ...

وعرفه في القطار أحد الناس على الرغم من حيطته ، واجتمع حوله عدد كبير من المسافرين يريدون رؤيته ، وكان أحد رجال الشرطة السرية يتعقبه منذ سافر من شاموردين ، ولكن دخل عليه عربة القطار وسر به ومن معه متنكرا كل مرة في زى مختلف .

وفي اليوم الأول من نوفمبر لاحظ طيبه أنه يرتعد ، وقاس حرارته فإذا هي مرتفعة ، وإذا بنبضات قلبه تتزايد ، ولذلك صم الطيب على أن يغادروا القطار فنزلوا في محطة أستابوفو وهي قرية على خمسين ميلا من ياستايا .

وأين يتخذ مأواه ؟ حار الطيب فذهب إلى ناظر المحطة فعرض عليه أن يأوى الكاتب العظيم في إحدى حجرات بيته الصغير ، وكان يتكون من حجرة عمله الرسمى وحجرتين لسكناه ؛ وحل تولستوى بإحداها وهي حجرة صغيرة يضيئها مصباح من مصابيح النفط ؛ ووضع على سرير صغير من الحديد ، ولا ريب أنه ارتاح إلى هذا المأوى الذى يشاكل ما يريد من بعد عن الترف ؛ وكان آخر من رأى من أهل روسيا أولئك الذين تجمعوا على طوار المحطة لرؤيته والذين حياهم

مبتسماً وهو يكاد يسقط فاقد الوعي .

وأعان ما كوفتسكى طبيب القرية وتبين لها أنه مصاب بالتهاب الرئتين ،
ورأيا في بصاقه بعض الدم وقد اشتد به السعال ... ثم غاب عنه وعيه ...
ولما عاد يعى سأل « أنتطيع أن نستأنف السفر؟ » ثم أخذته في المساء غيبوبة
خفيفة ، ولما أفاق منها عاد يقول « يجب أن نرحل ... يجب أن نرحل ... إنهم
سوف يدركوننا » ...

ودعا ابنته ألكسندرا وطلب إليها أن تبرق لشيرتكوف كي يحضر ؛ ثم أملى
عليها كلمة لابنته تانيا وابنه سيرجي تعطى لها بعد موته وفيها اعتذر إليهما لأنه
لم يدعها في دعوته إياهما وحدها إساءة إلى أمهما وإلى بقية الأسرة . ثم اختتمها
بنصيحة لابنه فقال « ينبغي أن تنظر في حياتك ، من أنت ، وما أنت ، وما معنى
الحياة الإنسانية وكيف يجب أن يقضيها الرجل العاقل » ...

وسرعان ما حضرت الكونتس حين علمت مكانه كما حضر أفراد الأسرة ؛
وحضر شيرتكوف وأدخل على تولستوى هو وتانيا وسيرجي فحسب ...
وغدت أستابوفو متجهه قلوب الملايين في روسيا وفي أوروبا وأمريكا ؛ وقد
أسرع إليها عدد كبير من رجال الصحافة والمصورين ورجال السينما ؛ وصارت
ترسل منها البرقيات تباعا عن حال المريض إلى صحف العالم كلها . وقد بلغ
ما أرسل من هذه المحطة الصغيرة في سبعة أيام اثنين وثمانين وألف برقية ...

وحل بها كذلك عدد كبير من أتباعه وجمهور من الكتاب ؛ وشخص
إليها بنفسه حاكم المقاطعة ، ورسول من قبل وزير الداخلية وعدد من كبار رجال
السكة الحديد كما أرسل القيصر عدداً من الجند مسلحين بينادقهم ... ؛ وكان
ينام القادمون في عربات القطر التي أفلتهم ...

وهكذا لم يقض تولستوى أواخر أيامه كما شاء في عزلة وإنما قضاها والدنيا
كلها تتجه إليه وإن لم يدر ما كان يحيط بحجرته المتواضعة في هذه القرية
الصغيرة التي ذاع اسمها في العالم ...

وأحاط بالكاتب العظيم ستة من الأطباء ، وكان يتناوب شيرتكوف
والكسندرا وتانيا وسيرجي السهر إلى جانب سريره ؛ أما الكونتس فظلت
في عربة القطار تبكي وتحاول أن تقرب من نافذة الحجرة تارة وتدعو المصورين
ليصوروها كما لو كانت خارجة من الحجرة تارة أخرى كي لا يعلم الناس أنها لم
تدخل على زوجها ؛ ولم يكن يعلم زوجها بمجيئها فقد حرصت الكسندرا ألا تخبره
ولقد قال لها ذات مرة « إنك تفتنين إلى أنى لا أستطيع رفض دخولها علي
إذا حضرت ، ولكن رؤيتي إياها شديدة الخطر علي » ...

وأرسل كبير القساوسة إليه برقية يدعوها فيها أن يعود إلى الكنيسة الأرثوذكسية
كما أوفد الجمع المقدس قسيس أحد الأديرة ليكون على مقربة منه ، ولكن
الكسندرا رفضت أن تطلع عليه شيء من هذا ...

وكانت السلطات الدينية والمدنية تحار في أمر دفنه إذا مات ولم يتب ، ويتقل
عليها دفنه بغير صلوات ، وإن كانت لا تستطيع غير ذلك ...

وفي الرابع من نوفمبر اشتد عليه المرض ، وصاح في غيبوبته قائلاً « ولكن
الفلاحون ... كيف يموت الفلاحون ؟ » ، ولم يجد الكافور ولا الكافيين
ولا الكودين ولا المرفيا ، مما كان يعطيه إياه الأطباء ومن بينهم إخصائيان
حضرا من موسكو ...

وفي الخامس أظهر رثاءه لامراته وقال لمن حوله إنهم لم يسلكوا بحوها
المسلك الصحيح ...

وجلس بعد الظهر في سريره وصاح قائلاً « هذه هي النهاية ... إني أنصح
لكم نصيحة ... إن في هذه الدنيا كثيرين غير ليو تولستوى ولكنكم تهتمون
بليو هذا وحده » وفي منتصف الليل ، صاح : « الهرب ... الهرب ... »

وفي السابع من نوفمبر ضعف نبضه ضعفاً شديداً ؛ وأدخلت عليه زوجته في
في الرابعة صباحاً فجثت إلى جانب سريره وأخذت يده قبيلتها ثم همست قائلة
« أعف عني » ولكنه لم يشعر بوجودها إذ كان في غيبوبة تامة ولو أنه تهد
تهدة عميقة ...



تولستوی علی سریر الموت

obeykandl.com

وفي الساعة السادسة من ذلك الصباح أبرق المراسلون إلى صحف العالم أن ليو تولستوى قد مات ! ودخل المصورون خاشعين فصوروا آخر صورة له ، ولكنهم صوروا بدنًا من غير روح ...

وحمل جثمانه إلى ياسنايا ، بعد يومين ومنع الجمع المقدس الصلوات ؛ ولكن روسيا كلها كانت ماتماً يوم دفنه فالمسارح مغلقة وطلاب الجامعات خارج جامعاتهم والصحف كلها مجللة بالسواد ؛ وقد أرسل القيصر والدوما ومجلس الدولة إلى أسرته يعزون في فقده ؛ وتلقت روسيا عن فقده العزاء من دول العالم شرقه وغربه .

وسافر إلى ياسنايا ألوف عديدة من الطلبة والأحرار ورجال القلم وذلك على الرغم من أن وزير الداخلية منع القطر الخاصة ، وكان موكب الجنازة خلف نعشه وقد حمله أبناؤه الأربعة يمتد إلى أكثر من ميل ... وهناك حيث دفن ذلك الفصن الأخضر الذي نقش عليه أخوه نيقولا ذلك السر الذي حدثه عنه وهو في السادسة من عمره أنه يجلب السعادة والأخوة للناس جميعاً .. هناك في تلك البقعة التي غدت حبيبة إلى نفسه منذ حديث أخيه قبل ستة وسبعين عاماً ، أهيل التراب على أعظم كاتب أنجبته روسيا وأحد العباقرة الأفاضل في هذه الدنيا ...

رقد تولستوى في هذه البقعة الصغيرة ، وقد شرق اسمه في الدنيا وغرب ، فهل عرف من لغز الحياة أكثر مما عرف غداة حدثه أخوه عن غصنه الأخضر؟!

[تم طبع كتاب « تولستوى » في مطبعة الرسالة بالقاهرة في يوم الإثنين ١٥ رجب سنة ١٣٦٧ (٢٤ مايو سنة ١٩٤٨) . والحمد لله أولاً وآخراً] .

مركز محفوظ كامل

المدير الفني للمطبعة

الفهرس

٢	مقدمة
٢	طفولة ونسب
٢٠	سبي نابه
٣٠	فتى حائر
٣٧	طالب فاشل
٤٤	بين الجد واللهم
٥٠	بين العيب والندم
٥٨	روسيا لا تزال في الفسق
٦٤	خيوط من النور
٧٧	هجرته إلى القوقاز
٨٣	في القوقاز
٩٥	في حرب القرم
١٠٧	في بطرسبرج
١١٨	روسيا بين الفسق والقلق!
١٢٤	شواغل ونوازع
١٤٤	رحلته إلى أوروبا
١٥٠	بين ياستايا ولدينتين
١٥٦	رحلة ثانية
١٦٣	تعلم وحكم
١٧٤	زواج
١٩٣	تولستوى الزوج
٢٠٧	الحرب والسلام
٢٢٧	بعد الحرب والسلام
٢٤٦	أنا كارينينا
٢٦١	تولستوى الفنان
٢٧٠	تولستوى الحائر
٢٨٠	روسيا ترد إلى الفسق
٢٩٠	عشر سنوات
٣٣٥	عودته إلى الفن
٣٥٠	روسيا آسير صوب القلق
٣٦١	جهاد جديد
٣٧٣	آلام جديدة وكتب جديدة
٣٨٩	عقاب وثواب
٤٠٠	تذير
٤٠٨	جحيم لا تطاق
٤٢٣	فرار إلى الله